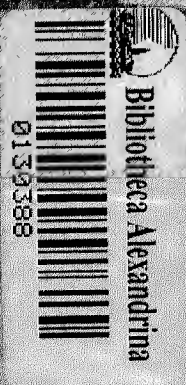


مذكرات نصر الدين



دار المعرفة للطباعة والنشر



تشرشل

ونستون تشرشل

مذكرات تشرشل

الجزء الأول

منشورات مكتبة المنار بغداد

الفصل الاول

جهل المنتصرين

١٩١٩ - ١٩٢٩

بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى ، كان هناك اعتقاد شامل ، في العالم كله ، بان السلام سيسود العالم . وكان ممكنا تحقيق هذه الامنية القلبية لدى الشعوب ، وذلك بواسطة التزام الثبات على المعتقدات العقائدية الصحيحة ، والمنطق السليم ، وبعد النظر . وكان شعار « حرب من اجل انهاء الحرب » يتردد على كل لسان وقد اتخذت الاجراءات اللازمة لتحويل هذا الشعار الى حقيقة واقعة . وقد تمكن الرئيس ولسن ، عن طريق نفوذ الولايات المتحدة من جعل مفهوم عصبة الامم ، يطغى ويدخل جميع العقول . وشكلت الوكالة البريطانية في فرساي هذه الفكرة وكونتها وحولتها الى آلة ستبقى دائما مقاسا لطريق تقدم الانسان . وكانت جيوش الحلفاء ، المنتصرة ، بالنسبة لهزيمة الاعداء مضطرة الى مجابهة مصاعب داخلية ، لا تعرف كيف تقضي عليها ، لكن القوة التوتونية المتكتلة في اوروبا الوسطى قد اضحت مطروحة امامهم الآن ، كما ان روسيا التي هشتمتها المطارق الالمانية كانت هي الاخرى مضطربة نتيجة للحرب الاهلية التي اوقعتها في قبضة الاحزاب البلشفية او الشيوعية .

* * *

في صيف عام ١٩١٩ وقفت الجيوش الحليفة على ضفاف الراين ورؤوس جسورهم امتدت داخل المانية المهزومة ، المنزوعة السلاح ، والجائعة .

والامن . وكنت تسمع الشعب الفرنسي يردد عبارة واحده لا غير هي « ابدًا ،
مره اخرى »

لكن الخوف من المستقبل لا يزال قائما . فالشعب الفرنسي لا يبلغ بعده
ثلثي الشعب الالماني ، الذي يزداد نموه سريعا . ولن يمض وقت طويل
حتى يتضاعف عدد القادرين على حمل السلاح في المانيا . وقد جابهت المانيا
العالم كله وحاربته منفردة تقريبا ، وكادت ان تبلى النصر . وكان المراقبون
يعلمون ان نتيجة الحرب كانت ، اكثر من مرة ، تميل بفضل بعض الحوادث
العرضية وحسن الحظ ، نحو الحلفاء .

وعندما عادت الجيوش الالمانية ، يوم الهدنة ، الى وطنها قال الجنرال
فوش ، القائد الاعلى للقوات الحليفة : « لقد حاربوا بشجاعة ، لذلك يجب
ان تتركهم يحتفظوا بسلاحهم » . وفي نفس الوقت طلب ان تصبح حدود
فرنسا على نهر الراين ، منذ الان . وربما ستجرد المانيا من السلاح ، وقد
يتلاشى جهازها العسكري وتجرد قلاعها من سبل الدفاع ، وربما سيفرض
الفقر على المانيا بعد ان تفرض عليها اعباء ضخمة من التعويضات . لكن
هذه باكملها ستبقى ظروفًا طارئة وستزول بعد عشر سنوات او بعد عشرين
سنة . وستتطلب من جديد صيحة القبائل الالمانية بمجموعها وترتفع نيران
بروسيا المصاربة من اخرى . لكن الراين ذلك النهر الكبير الشديد العمق ،
سيكون بمثابة الدرع الواقعي الذي تركز وراءه فرنسا وتشعر بالاطمئنان
لاجيال قادمة طويلة . لكن اراء العالم الاخر الناطق باللغة الانكليزية ،
ومشاعره كانت تختلف عن ذلك . وهذا العالم له قيمته واهميته الكبرى .
فلولا معاونته لها لما استطاعت النجاة . وهكذا جاءت الاتفاقات في معاهدة
فرساي منسجمة مع وضع المانيا ، اذ تركتها بلدا سليما غير مجزأ ، فبقيت
المانيا اكبر مجموعة عنصرية في قارة اوروبا . وعندما استمع المارشال
فوش الى نص اتفاقية الصلح في فرساي ، علق عليها بقوله : « انها ليست
سلاما ، بل هدنة لمدة عشرين سنة »

وكانت البنود الاقتصادية في تلك المعاهدة سخيفة الى حد جعلت منها
بنودا غير صالحة . فقد وجب على المانيا ان تدفع مبالغ هائلة كتعويضات .
وكان هذا المطلب ليس الا تعبيراً عما يشعر به المنتصرون من غضب ومن فشل
لدى الشعوب في تفهم الحقيقة الواقعة وهي ان ليس في وسع اي شعب ان

يقوم بدفع هذه الجزية التي تتفق مع متطلبات الحرب العصرية .
 وكانت الشعوب غارقة في الجهل لابسث القواعد الاقتصادية ، وكان
 قادة الشعوب ، بدافع من حرصهم على الاصوات الانتخابية ، لا يتجراؤن على
 توضيح هذه الحقيقة . ولكن بعض الاصوات الضعيفة ارتفعت لتوضح ان
 دفع تلك التعويضات لن يتم الا عن طريق الخدمات او عن طريق شحن
 البضائع بواسطة القطارات او البواخر . وعند وصول تلك البضائع الى
 البلاد التي فرضتها فستطغى على الصناعة المحلية . وكانت الطريقة الوحيدة
 لسلب شعب مهزوم ، هي في نقل كل ما هو قابل للحركة ، ثم في سوق قسم
 كبير من رجاله الى العبودية الدائمة او المؤقتة . لكن الارباح الناجمة عن
 عمليات كهذه لا تتناسب مع نفقات الحرب . ولم يكن في وسع اي زعيم ان
 يجروء على الجهر بهذه الحقيقة المؤلمة للجماهير الناجية . لذلك استمر الحلفاء
 بتبجحهم بانهم سيستمرون في عصر المانيا حتى « يسمع صرير انايبها »
 وبالتالي تختنق . وكان لهذا اثر كبير في ازدهار العالم ، وفي اوضاع
 العنصر الالماني .

لكن هذه البنود من المعاهدة لم تنفذ ، فقد حصل العكس تماما . فبعد
 ان صادر الحلفاء موجودات المانيا بمبلغ الف مليون جنيه ، قاموا هم انفسهم
 فيما بعد وعلى رأسهم بريطانيا واميركا باعطاء المانيا قرضا بمبلغ الف
 وخمسمائة مليون جنيه ، وذلك لترميم ما دمرته الحرب في بلادها وبأسرع
 وقت ممكن . كل هذا ولم يزل سياسة الشعوب المنتصرة يذكرون ان المانيا
 ستدفع لآخر بنس كل التعويضات رغما عنها .

ان التاريخ سيصف هذه العمليات بالجنون . لقد ساعدوا على تنمية
 الملعة العسكرية و « الزوبعة الاقتصادية » . وبدأت المانيا بالاستدانة من
 جميع الجهات وتبلىع بسهولة جميع المساعدات الممنوحة اليها بسخاء . ان
 هذه هي قصة محزنة من الغباء المعقد الذي استنزف فيها الكثير من الجهد
 والفضائل .



لقد استنزفت الحرب دماء فرنسا ، وانتصر الشعب الفرنسي بعد ان
 ظل منذ عام ١٨٧٠ يحلم بالثأر ، لكن هذا الانتصار كلفه غاليا . ولكن الخوف
 من المانيا ظل يعكر صفو احتفالات الشعب الفرنسي بالنصر . ولا شك كان
 هذا الخوف المتأصل هو الذي دفع المارشال قوش الى المطالبة بجعل نهر

الرايين حدا فاصلا لفرنسا ، وذلك كي يضمن سلامة فرنسا من جارتها القوية . لكن السياسة البريطانيين والاميركيون اصرروا على تمسكهم بالنقاط الاربعة عشرة ، التي تتعارض مع مطالبة فرنسا بضم جزء من الاراضي الالمانية الى ممتلكاتها ، بالاضافة الى ان هذه المطالبة تتعارض مع مبادئ القومية وحق تقرير المصير التي قامت معاهدة الصلح هذه على اساسها . وقد تمكن هؤلاء من كسب كليمنصو الى صفوفهم حين تمكنوا من اقناعه بانهم سيفقدون ضمان حدود فرنسا ، واقامة منطقة غير «سارية» تم تجريد المانيا من السلاح بصورة كلية ودائمة . وسرعان ما وافق كليمنصو على هذه الضمانات بالرغم من معارضة المارشال فوش لها ، ولم يلبث ان وقع ريلسون ولويد جورج وكليمنصو على معاهدة الضمان تلك ، الا ان مجلس الشيوخ الاميركي رفض ان يصدق على توقيع الرئيس ويلسون . وقد قبل لنا نحن بأنه يترقب علينا ان نكون على علم ومعرفة بنصوص الدستور الاميركي ، نحن الذين كنا نرضخ لاراء الرئيس ويلسون ورغباته بما يتعلق بقضايا السلام .

لكن الشعب الفرنسي اسقط الرجل السلب كليمنصو ، في احدي نزواته الخائفة الغضبية . وكما قال بلوتارك « ان الجيود نحو الرجال العظيم ، هو من ميزات الشعوب القوية » . وكانت ضربا عن الحماقة ان تلجأ فرنسا الى هذا الاسلوب ، سيما في الوقت الذي اصبت فيه شديدة الضعف . وجاء بوانكاريه الى سدة الحكم ، الرجل ذو الشخصية القوية ، خليفا لكليمنصو ، فحاول ان يجعل من المنطقة المحيطة بالرايين ، ارضا مستقلة تحت حماية فرنسا واشراقها . الا ان هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح . وكانت محاولته في غزو منطقة الروهر كمحاولة لفرض التعويضات على المانيا . لكن هذا الغزو اثار النقمة لدى الرأي العام البريطاني والاميركي ، بالرغم من اتفاقه مع نصوص معاهدة فرساي . وكانت النتيجة ان تدهورت اوضاع المانيا الاقتصادية والمالية ، وادى ذلك الى تدهور المارك الالمانى بسبب التعويضات الباهظة التي دفعتها خلال عامي ١٩١٩ و ١٩٢٣ . كما ان موجة الغضب والكراهية التي اجتاحت المانيا ، نتيجة اغزو منطقة الروهر ، دفعت بالمسؤولين الى طبع كميات هائلة من الاوراق النقدية ، بتعدد القضاء على النظام الاقتصادي برمته . واصبح الجنيه الاسترليني يعادل ثلاثة واربعين مليون مليون مارك الماني . وقد ادى هذا التضخم الفظيع الى تلاشي المبالغ التي وفرتها الطبقات الوسطى ومالت بطبيعتها نحو الحركة الاشتراكية الوطنية . وتشوه النظام الصناعي الالمانى باكملة نتيجة لنمو الاحتكارات . واختفى الرأسمال العامل من البلاد ، وبالتالي الغيت القروض الداخلية والديون

الصناعية القائمة على الرهونات والفوائد . لكن هذه لم تعوض عن خسارة الرأس المال العامل . واسفرت النتيجة عن قروض خارجية تعطي لامة مفلسة ، وهي الصورة التي تبلور عنها الموقف في السنوات التالية .

اما بالنسبة لبريطانيا فقد تحول موقفها تجاه المانيا ، تحول من العنف الى العطف . ونشبت الخلافات بين لويد جورج وبوانكاريه واتسعت حدة المشاق بين الشعبين قلبا وقالبا . ووجد العطف الانكليزي على المانيا ، او الاعجاب بها ، صدى حسنا قويا .

وما ان ظهرت عصابة الامم الى الوجود حتى تلقت ضربة قوية، اذ تخلت عنها الولايات المتحدة . واصيب الرئيس ويلسون بالشلل، بعد ان كان مستعدا للكفاح من اجل مثله العليا وعقائده . واصبح بعد ذلك كتلة من الحطام واصيبت سياسته وسياسة حزبه بهزيمة ساحقة في معركة الرئاسة ، وفاز الديمقراطيون في عام ١٩٢٠ . وفي عشيء فوز الديمقراطيين، سيطرت المفاهيم الانعزالية على الناحية الاخرى من المحيط الاطلسي ، وكان على اوروبا ان تجني ما زرعه وتدفن ثمن ديونها، وفي نفس الوقت ازدادت التعرفة الجمركية وذلك للحؤول دون دخول البضائع التي يمكن لوارداتها ان تسدد بعض الديون . وراحت بعد ذلك الحكومتان البريطانية والامريكية تحطم وتغرق بواخرها ومنشآتها العسكرية ، وذلك لانه من غير اللائق ان ينزع السلاح من يد المغلوب ويبقى في يد الغالب . . . كما اعترضت اميركا لدى بريطانيا عن ان الاستمرار في علاقاتها الودية مع اليابان سيشكل بعض الخطر على مجرى العلاقات البريطانية ، الامريكية ، مع ان اليابان كانت تحترم هذه العلاقات وتحافظ عليها بكل صدق . وبناء لهذا التحذير ، اضطرت بريطانيا الى قطع تلك العلاقات مع اليابان مما ادى الى استياء الحكومة اليابانية ، واعتبرت ان هذا التصرف يعتبر امتهانا من بلد اوروبي نحو شعب اسيوي صديق .

لقد كان باستطاعة اليابان ان تعتبر نفسها ثالث دولة بحرية بعد هزيمة المانيا وروسيا فتتبع بمركز مرموق . ورغما عن ان الاتفاق البحري يقضي بان يخصص لليابان نسبة خمسة الى ثلاثة من السفن المخصصة الى الدولتين الكبيرتين ، الا ان هذه النسبة كانت مناسبة لامكانيات اليابان المالية للسنوات التالية ، وبالتالي راحت تراقب الانخفاض الكبير في الانتاج الاميركي والبريطاني بالنسبة لامكانياتهما المالية ومسؤولياتهما الجسيمة . وبذلك يكون الحلفاء قد مهدوا لتجدد الحرب في اوروبا واسيا ، وباعتقادهم ان هذا قد يؤدي الى السلام الدائم .

وفي أوروبا أخذ الخلاف الجديد الأكثر فظاعة يبرز الى حيز الوجود ، هذا الخلاف الرهيب الذي خلفته الحرب الاهلية الروسية وانتصار الثورة البلشفية الساحق . فبالرغم من ان الجيوش السوفياتية المتقدمة نحو بولنده ، قد صدت في معركة وارسو ، الا ان المانيا وايطاليا قد بدأتا تدعنان للدعابة الشيوعية ومشاريعها . كذلك هنغاريا التي سقطت في قبضة الدكتاتور الشيوعي بيلاكون . وبالرغم من ان المارشال فوش لاحظ بحكمة بان « البلشفية لم تتخطى حدود النصر » ، الا ان اساس الحضارة الاوروبية اهتزت في السنوات الاولى بعد الحرب . فالفاشية كانت ظل الشيوعية او وليدها البشع . وبينما كان العريف هتلر يحاول تقديم خدماته على الضباط الالمان في ميونيخ ، ويحرض الجنود والعمال ويغذي في صدورهم الحقد على الشيوعية واليهود الذين القى بمسؤولية الهزيمة عليهم ، كان هناك مغامر آخر ، بينيتو موسوليني الذي قدم لايطاليا نموذجا جديدا من الحكومة التي صرحت بانها ستنقذ الشعب الايطالي من الشيوعية ، ورفع نفسه الى قمة الدكتاتورية . وكما انبثقت الفاشية عن الشيوعية ، كذلك النازية تطورت من الفاشية . وهكذا تمكنت هذه الحركات من الوقوف على قدميها وتمكنت بعد ذلك من جر العالم الى صراع عنيف لا يمكن للمرء ان يقول انه انتهى بانتهائها



في هذه الصفحات ، ساحاول ان اقص قصة اسوأ مأساة تعرض لها الجنس البشري في تاريخه المضطرب . ان المأساة الخيفة لم تقتصر على الضحايا رعلى الدمار الذي لا بد منه في الحروب ، ففي الحرب العالمية الاولى وقعت مجازر رهيبية ، كما فقدت كنوز كثيرة من الثروات التي جمعتها الشعوب واذا ما استثنينا الاعمال العنيفة التي حصلت اثناء الثورة الروسية ، فان الحضارة الاوروبية ، بقيت ولم تزل حال انتهاء الحرب العالمية . كما ان الشعوب المتحاربة عادت لتعترف ببعضها البعض ، وبقي الجميع يحترمون القوانين والاعراف الحربية . كما ان معاهدة الصلح كانت منسجمة مع المبادئ المتبعة في القرن التاسع عشر بين الشعوب المتحضرة . كذلك يمكن القول ان الجهاز الدولي الذي انشئ لحماية كلنا ، وخاصة حماية أوروبا نفسها ضد اخطار جديدة .

الا ان الحرب العالمية الثانية ، لم تكن كذلك . لقد زالت الروابط التي كانت تربط بين الانسان واخيه الانسان . لقد قام الالمان ، تحت الحكم الهتلري باقتراف جرائم منكرة وحشية لا مثيل لها . ولا شك ان المجازر التي اودت

بحياة ستة او سبعة ملايين رجل وامرأة وطفل في معسكرات الاعتقال الالمانية قد تطغى على جرائم جنكيز خان الهائلة ، وتفوقها وحشية . وقد رسمت المخططات اثناء الحرب في الجبهة الشرقية لافناء شعوب باسرها على ايدي الجنود الالمان والروس . أما من ناحية الحلفاء أنفسهم فقد قاموا بغارات وحشية تفوق الغارات الالمانية عشرين مرة ، بل كانت تزداد حدة يوما بعد يوم ، الى ان بلغت ذروتها في اللقاء القنبلة الذرية على هيروشيما وناكازاكي وازالتهما من الوجود .

والان بعد ان خرجنا من جو الخراب المادي والمعنوي ، نجد اننا لا نزال نواجه نفس المشاكل والايثار التي تخلصنا منها باعجوبة ، هذا اذا لم نقل انها اشد وادهى .

ساحاول ان اكشف للقارئ كيف كان بإمكاننا تجنب وقوع حرب عالمية ثانية ، نظرا لكوني عشت هذه الايام وعملت فيها . ساحاول ان ابين كيف ان ضعف الفضلاء قد ادى بالنتيجة الى تقوية الاشرار ، كما سابين ان أجهزة الدول الديمقراطية تفتقر الى مقومات الايمان ما لم تندمج مع أجهزة اقوى واكبر منها . ان مقومات الايمان والثبات هي التي تتمكن من احلال الامن والسلام والطمأنينة في نفوس الجماهير . كما اني سابين كيف ان لا يمكن لاي سياسة ان تستمر لعشرة او خمسة عشرة سنة في آن واحد ، وذلك في قضية الدفاع عن النفس والمحافظة عليها . وسنرى كيف ان اتباع سياسة التردد قد تصبح عاملا اساسيا للخطر ، وكيف ان الحل المعقول الذي ينبع من الرغبة في السلامة والحياة الهادئة قد يؤدي بنتيجته الى مواجهة الكارثة . كما اننا سنرى انه من الضرورة القيام بعمل دولي مشترك بين دول يرجع تألفها الى سنين سابقة ، دون الالتفات الى التيارات المتماوجة في السياسة القومية .

لقد كانت سياسة ابقاء المانيا مجردة من السلاح ، سهلة الحفاظ عليها ، وابقاء المنتصرين بسلاحهم الكامل لمدة ثلاثين سنة على الاقل ، وبنفس الوقت بذل المحاولات لجعل مسألة التفاهم مع المانيا حقيقة واقعة ، وانشاء عصبية للامم قوية قادرة على الحفاظ على المعاهدات وتطبيقها ، ولا تغير او تبديل دون اللجوء الى المفاوضات والاتفاقات . وعندما تتعاون ثلاث او اربع دول قوية ، وتطلب من شعوبها تقديم اقصى ما يمكنها من تضحيات ، وتقوم هذه الشعوب بتضحياتها في سبيل الهدف المشترك ، عند ذلك تصبح النتائج المطلوبة معقولة جدا ، الا ان قوة المنتصرين وعلمهم وثقافتهم كانت عاجزة عن الوصول الى هذه النتيجة المتواضعة . فقد ظلوا يعيشون ليومهم دون التفكير بالغد ،

وعندما دقت طبول الحرب العالمية الثانية ، كان من الواجب ان نكتب عن ابناء
الذين حاربوا وقتلوا بكل اخلاص :
كتف الى كتف ، وجنبا الى جنب
اجتازوا نور الحياة المشرقة .



الفصل الثاني

ظهور هتلر

في شهر تشرين الاول عام ١٩١٨ كان العريف الالماني ادولف هتلر طريح الفراش في احدى المستشفيات بعد ان اصيب بالعمى المؤقت من قنبلة الغاز ، في احدى المعارك التي شنتها القوات البريطانية بالقرب من كوفنتر . وبينما كان طريح الفراش في المستشفى حلت المهزيمة بالمانيا وعمت الثورة البلاد .

كان هذا العريف ابنا لموظف من موظفي الجمر ك نمساوي الاصل . وكانت الاحلام تراوده بان يصبح فنانا عظيما ، لكنه بعد ان فشل في الالتحاق باكاديمية الفنون في فينا ، اضطر الى البقاء في العاصمة فقيرا سيء الحال . وما لبث ان غادرها الى ميونيخ وعمل هناك كدهان ، وكعامل مؤقت ، وعاش حياة شقية يغذيها الحقد على العالم كله ، والنقمة عليه لانه حرمه من نعمة النجاح . الا ان الشقاء والفقر لم يدفعاه به الى احضان الشيوعية ، بل ظل يقدس الولاء العنصري الذي كان يملكه بالاضافة الى اعجابه الشديد بالمانيا وبالشعب الالماني . وقد التحق بالجيش الالماني عند نشوب الحرب العالمية الاولى ، وبقي لمدة اربع سنوات في الجبهة الغربية ملتحقا مع احد الافواج البافارية .

وعندما كان في مستشفى في شتاء عام ١٩١٨ ، بدى له فشل السابغ وكانه اختلط مع الكارثة التي حلت بالشعب الالماني كله ، فسادته نزعة عارمة من الحزن على نفسه وعلى شعبه ، خاصة بعد ان حلت الثورة وعمت الفوضى جميع البلاد .

لم يتمكن ادولف هتلر من فهم او من تفسير الاسباب التي ادت الى

هزيمة المانيا ، الا انه كان متيقنا من ضروب الخيانة الشديدة التي طعنت الجيش الالمانى من الخلف . وراح يفكر في تلك الاسباب العديدة التي ادت الى الهزيمة من خلال تجاربه الشخصية . فهو قد اختلط بفئات عديدة متطرفة في فينا واستمع الى قصص الغدر والخيانة الذي قام به عرق غريب اخر هو عدو لدود للشعب الجرمانى العريق ، الا وهم اليهود . وهكذا تطورت نغمته الاولى المنصبة على الاغنياء والناجحين وتحولت الى كراهية عارمة .

وعندما خرج من المستشفى ، رأى بعينه التي ابصرت النور من جديد نتائج ما خلفته الهزيمة وما يدور في المدينة من ملامح ثورة حمراء مرعبة . وشاهد السيارات تطوف بالمدينة ، تلقي بالمنشورات وتطلق العيارات النارية على المتشردين من ابناء الشعب . ورأى زملاءه في الجيش يضعون الاشرطة الحمراء على اذرعهم ، فوق بزاتهم العسكرية ، ويهتفون بغضب شعارات غريبة تتنافى مع كل ما يعتقدوه ويؤمن به . وهكذا صدمته الحقيقة المرة ، ورأى ان المانيا قد اصيبت بطعنة غادرة من الخلف ، كان ابطالها من اليهود الذين امنعوا تقطيعا بها ليرغموها على الاستسلام بدسائسهم ومؤامراتهم ويؤيدهم في ذلك حلفاء لهم من البلاشفة ليتمموا تنفيذ مخططات ومؤامرات دولية يقوم بها المثقفون اليهود . وشعر بالواجب يحتم عليه بان يخلص المانيا من هذا المرض الخبيث ، والاخذ بالثار من الذين الحقوا بها الاساءات العديدة ، ثم النهوض بالشعب المتفوق الى مستقبل افضل .

وانطلق ادولف هتلر يصعد بخطى سريعة نحو القيادة والزعامة ، يناصره في ذلك ضباط فوجه . وفي مساء احد الايام من شهر ايلول عام ١٩١٩ ، ذهب لحضور احدى اجتماعات حزب العمال الالمان في احد المصانع . وسمع لأول مرة في حياته اناسا يتحدثون بما كان هو يؤمن به من خيانات اليهود ومجرمو شهر تشرين الثاني . الذين دفعوا بالمانيا الى الهزيمة . فانضم الى هذا الحزب وخلال فترة بسيطة أصبح ادولف هتلر زعيم الحزب الاول . وغدا يحمل لقب الزعيم او « الفوهرر » وأصدر جريدة تنطق باسم حزبه هي جريدة « الفولكشاير بيوخر » .

الا ان الشيوعيين لم يقفوا مكتوفي الايدي ، فحاولوا تحطيم حزبه وتفريق اجتماعاته الناجحة . واضطر هتلر الى انشاء حرس خاص لصد الهجمات الشيوعية ، ونشأت بذلك الوحدات الاولى لقوات العاصفة . وكان نشاطه محصورا في تلك اللحظة على بافاريا فقط ، وكان الجميع في كافة أنحاء الرايخ

الالمانى كانوا يستمعون بشغف لمتعاليم هذا الانجيل الجديد . فقد كانت النعمة على الاوضاع الحالية تمنى المانيا كلها . وأدت موجة الغضب التي عصفت بالشعب كله من احتلال فرنسا للروهر عام ١٩٢٣ الى انضمام الالف من أبناء الشعب الى الحزب الجديد الذي أصبح الآن « الحزب الاشتراكي الوطني » .

ومنذ البداية وضع هتلر ، ان السبيل الوحيد للوصول الى الحكم هو في الثورة والعنف ضد حكم ويمار وجمهورية التي خلقت في عار الهزيمة . وانضم الى دعوة الفوهرر فئة شملت بين صفوفها ، غورنغ وهيس وروزنبرغ وروهم ، الذين من ثم اتفقوا على وجوب استلام السلطة في بافاريا ، وانضم اليهم الجنرال فون لودندورف الذي كان رئيس أركان الجيش الالمانى اثناء الحرب الاولى وسار على رأس قوة مجهزة لاحتلال بافاريا . الا ان رجال الامن من شدة احقرامهم للجنرال لم يطلقوا عليه النار بل اكتفوا بالتصويب على المتظاهرين ، وتمكنوا من اعتقال فئة كبيرة منهم ومن بينهم هتلر نفسه الذي حوكم وحكم عليه بالسجن لمدة اربعة سنوات ، خففت الى ثلاثة عشر شهرا . وفي سجنه هذا تمكن من تأليف القسم الاكبر من كتابه « كفاحي » الذي أصبح فيما بعد من أهم الكتب التي اقبل على قراءتها قادة الدول الحليفة وزعمائها العسكريين .

وفي عام ١٩٢٤ خرج هتلر من السجن وصرح انه لن يتمكن من اعادة تنظيم حزبه قبل خمس سنوات . وفي عام ١٩٢٨ لم يكن لحزبه في البرلمان الالمانى « الرايشستاغ » سوى اثني عشر مقعدا . ومن ثم ابتداء الرقم بالارتفاع الى ان أصبح البرلمان في عام ١٩٣٢ يضم ٢٣٠ عضوا من الحزب ، كما أصبحت الدولة الالمانية كلها خاضعة لنفوذ الحزب الاشتراكي الالمانى ، وبدأت حركة الاضطهاد بمختلف أنواعها وانحسبت النعمة كلها على رؤوس اليهود انتقاما لما اقترفوه في السابق من جرائم وخيانات ودسائس .

وما ان اطل عام ١٩٣٢ حتى وصل هتلر الى سدة الحكم . أولا كمستشار لالمانيا . وكانت أولى أعماله ان أصدر أمرا يمنع فيه الحزب الشيوعي من العمل في البلاد . وبدأت حملة قوية عمت البلاد كلها لمصادرة الاسلحة من أيدي الشيوعيين . ونشبت الاضطرابات وبلغت ذروتها حين هد حريق في دار الرايشستاغ ، قامته تدعى فرق رجال القمصان السوداء للعمل والمحافظة على الامن . وفي نفس الليلة تم اعتقال اربعة الاف زعيم شيوعي ومن بينهم أعضاء اللجنة المركزية التابعة للحزب الشيوعي . وكان غورنغ الامر لهذه

الاجراءات كلها بعد ان أصبح وزيرا للداخلية ، وبذلك يكون قد أمن هزيمة الشيوعيين خصوم الحزب الاشتراكي الاشداء لكي تكون مقدمة للفوز بالانتخابات الجديدة المقبلة .

وفي الانتخابات فاز النازيون بـ ٢٨٨ مقعدا في البرلمان واقتنع السي جانبهم ١٧٣٠٠٠٠٠ ناخب . وبذلك تمكن هتلر من السيطرة نهائيا . وفي الحادي والعشرين من شهر اذار عام ١٩٣٣ افتتح هتلر اول مجلس للرايشستاغ في الرايخ الثالث . وجلس حوله كبار القادة ، وضباط جيش العاصفة والحرس النازي الخاص الذين يمثلون المانيا الجديدة . وفي الرابع والعشرين من الشهر ذاته وافق الرايشستاغ على منح هتلر سلطات استثنائية لمدة أربع سنوات .

بينما كان هذا التغيير المخيف يجري في المانيا ، كانت حكومتنا مضطرة الى التخفيض والتقنين انسجاما مع الاوضاع والازمات المالية الراهنة التي حدثت من تسليحنا . وبقيت حكومة مكدونالد بالدوين مصمة اذانها عن سماع أو رؤية الاخطار المحدقة بنا نتيجة التغييرات في اوروبا . ثم حاولت الحكومة ان تطبق قوانين معاهدة فرساي القاضية بنزع السلاح من المنتصرين ، فقدمت عدة مشاريع ومقترحات الى عصبة الامم لتضمن تطبيق هذه القوانين . كما أصرت فرنسا على وجوب بقاء جيشها الذي تعتبره محور حياتها ووجودها . وقد شجعت هذه المحاولات ، الحكومة الالمانية ، وادعت ان هذا السلوك انما هو نابع من صميم المجتمع البرلماني الديمقراطي الضعيف والمنحط بطبيعته . وراح الالمان بدافع من هتلر الذي أوحى اليهم بهذه الافكار ، يبدون أكثر عجرفة وكبرا . وما كان من أعضاء الوفد الالمانى الذين حضروا مؤتمر نزع السلاح ، الا ان انسحبوا من الاجتماع في تموز عام ١٩٣٣ . وحاول الحلفاء مراضاة الالمان بشتى الوسائل الى ان توصلوا الى اقرار مشروع اقتراح دعى مشروع هريو ، وهو يقضى باعادة تنظيم جميع القوات العسكرية الدفاعية في اوروبا ، وجعلها جيوشا محدودة العدد ، وفرض المشروع على وجوب تخفيض عدد الجيش الفرنسي من خمسمائة الف الى مائتي الف جندي ، بينما يرتفع عدد الجيش الالمانى الى هذا الرقم . الا ان الجيش الالمانى قد أصبح عدده يجاوز المليون متطوع مجهز بأحدث الاسلحة التي تنتجها المصانع الالمانية التي تم تحويلها الى مصانع للسلاح . وكانت النتيجة الغير منتظرة هي في الاوامر الصادرة عن هتلر والقاضية بالانسحاب من كل مؤتمر ومن عصبة الامم .

لقد كان في وسع عصبة الأمم ان ترد على تحديات هتلر وتهديداته العسكرية ، وذلك بفرض العقوبات عن طريق القانون الدولي . كما ان الحكومة الاميركية لم تكن تكثر لهذه التهديدات الى ان حان الوقت بعد عدة سنوات ، فوجدوا انفسهم عند ذلك مضطرين للتضحية بأرواحهم لينقذوا انفسهم من الخطر المميت

* * *

وفي مطلع عام ١٩٣١ سافرت برحلة الى الولايات المتحدة الاميركية لالقاء سلسلة محاضرات هناك . وفي نيويورك تعرضت لحادث سيارة كاد ان يودي بحياتي . فقد نزلت من سيارتي من الجانب المعاكس وعبرت الشارع الخامس ، وكانت انظمة السير المطبقة في اميركا وخاصة فيما يتعلق بالسير المعاكس والاضواء الحمراء التي لم يكن معمولاً بها في بريطانيا في ذلك الحين . وفجأة وقع اصطدام عنيف كانت نتيجته ان لازمت الفراش في المستشفى لمدة شهرين وانا محطم شر تحطيم . ومر هذا العام وانا بصحة سيئة للغاية ، الى ان بدأت استعيد صحتي تدريجيا بعد ذلك .

لقد كانت السنوات ما بين عام ١٩٣١ و ١٩٣٥ من أمتع سنوات عمري ، فقد انصرفت الى التأليف والى اللقاء المحاضرات ، وقد كسبت الكثير من عائدات مقالاتي وكتبي التي لاقت رواجاً كبيراً في بريطانيا العظمى وفي الولايات المتحدة الاميركية ، كذلك في القارة الاوروبية كلها .

وفي عام ١٩٣٢ اضطررت للسفر الى ميونيخ وذلك لمتابعة تأليف أحد كتبي عن تاريخ حياة مارلبورو . وقد امضيت في ميونيخ حوالي الاسبوع ، ونزلت في فندق ريجينا . وهناك تعرفت الى شخص يدعى المهر هانغستانغل الذي كان من المتحمسين لهتلر والذي كان على علاقات طيبة معه . وقد دعوته في أحد الايام لتناول العشاء معنا بعد ان اعجبته لباقته . واثناء العشاء حدثنا كثيراً عن هتلر وعن نشاطاته واراته ، وكنت أشعر وانا أصغي اليه ، ان الرجل كان واقعا تحت سحر هتلر دون ريب . وقد علمت ان الاوامر قد صدرت اليه بالاعتناء بي . وبدأ انه يرغب في ادخال السرور والبهجة الى نفسي . لقد كان الرجل لطيفاً الى أبعد الحدود ، ومن المقربين الى الفوهرر ، وقد دعاني الى الاجتماع به وتطوع الى اعداد الموعد معه ، ان ان الفوهرر يتردد كل يوم الى الفندق في الساعة الخامسة مساء ، وسيسره الاجتماع بي شخصياً .

في ذلك الحين لم اكن ابي عدا ليهتلر بالذات ، ولم اكن اعلم الكثير عن عقيدته وفلسفته وشخصيته . بل كنت معجبا به ، لانه تمكن من النهوض ببلاده بعد الهزيمة المذكورة التي لحقت بها . وفي اثناء حديثي مع الهر هانغستانغل تطرقت الى الحديث عن اليهود بشكل لاحظت انه لم يكن راضيا عنه . وفي اليوم التالي عندما اجتمعت به للمرة الثانية قال لي ان الفوهرر لن يتمكن من الاجتماع بي ، فهو لن يأتي الى الفندق في هذا اليوم . وكانت هذه اخر مرة رأيت فيها « بوتزي » وهو اسمه الصغير ، بالرغم من انني امضيت عدة ايام اخرى في الفندق . وهكذا اضاع هتلر فرصته الوحيدة في مقابلتي . وفيما بعد تلقيت عدة دعوات من الفوهرر ، بعد ان اصبح في نزوة القمة ، لكنني كنت اعتذر عن قبولها ، لان اشياء عديدة حدثت اثناء ذلك .

أما في الشرق الاقصى ، فكان الاستعداد للحرب ينبع من اليابان بصورة خاصة . فقد أثرت الازمة الاقتصادية عليها بين عامي ١٩٢٩ و ١٩٣١ بشكل كبير . فقد ارتفع عدد سكانها من خمسين مليونا الى سبعين مليونا وازدادت اعداد مصانعها من خمسين الى مئة وثمانية وأربعين مصنعا ، كما ارتفعت نسبة المعيشة . وبقي انتاج الارز على ما هو فيما كان استيراده من الخارج باهظ التكاليف . واشتدت الحاجة الى المواد الاولية والى الاسواق الخارجية فاضطرت بريطانيا واربعون دولة اخرى الى زيادة التعرفة الجمركية العالمية على البضائع المستوردة من اليابان ، لمواجهة الكارثة الاقتصادية ، وخوفا من طغيان تلك البضائع على البضاعة الوطنية . فتحولت انظار اليابان الى الصين السوق الرئيسي لتصريف منتجاتها من القطن ، بالاضافة الى كونها المورد الوحيد لاحتياجاتها الهائلة الى الفحم والحديد . لذلك أصبحت السياسة اليابانية تقضي بفرض السيطرة على الصين ووضعها تحت اشرافها وسيطرتها واختلقت اليابان عدرا تافها وانقضت على منشوريا واحتلت منطقة سكة الحديد ، ثم طالبت بحل المنظمات الصينية المعادية لليابان . الا ان الحكومة الصينية رفضت هذا الطلب ، فانزلت اليابان قواتها عند ذلك الى المنطقة الشمالية من شنههاي . وقد قاوم الصينيون ببسالة لمدة شهر واحد ، الا انهم اضطروا بعد ذلك الى الانسحاب ، وتقدمت القوات اليابانية متوغلة في داخل الصين الى ان بلغت سورها العظيم . ومن ذلك الوقت بدأت الاستعدادات اليابانية تزداد وتقوى ، خاصة قواتها البحرية .

الفصل الثالث

المنظر القاتم

لقد كانت فكرة احتلال النمسا تراود مخيلة هتلر منذ البداية ، فقد كتب في كتابه كفاحي العبارة التالية وفي الصفحة الاولى منه « يجب على النمسا الالمانية ان تعود الى الوطن الام الكبير » . لذلك فقد كانت النظرات الاولى تتجه نحو فيينا منذ تسلم الحكومة النازية السلطة في عام ١٩٣٣ ٠٠٠ الا ان هتلر كان يخشى الاصطدام مع موسوليني الذي كان يطمح ويطالب بمصالحة في النمسا ، خاصة وان الدوتشي لم يكن متحمسا لوصول هتلر الى سدة الحكم . لذلك فقد تحتم على المانيا ان تكون على حذر شديد في اعمالها ونشاطاتها السرية . وبالرغم من ذلك فقد بدأ الضغط على النمسا يظهر منذ المشهور الاول . وراح الحزب النازي يطالب الحكومة النمساوية بشده بوجوب ادخال أعضاء من الحزب النمساوي النازي في الوزارة وفي المراكز الحساسة في الدولة . وبدأ النمساويون النازيون يتلقون التدريبات العسكرية في معسكرات اعدت خصيصا لهم في بافاريا . وراحت الطائرات الالمانية تلقي المنشورات على سالزبورج واينزبروك ، والتي كانت تنص على عيش الجمهورية الوداعة .

وفي عام ١٩٣٤ وصل كبير مستشاري موسوليني في الشؤون الخارجية الى فيينا ، وكانت زيارته بمثابة تحذير للحكومة الالمانية ، وما لبث ان صرح ان ايطاليا تؤيد استقلال النمسا وتحافظ عليه . ولم تمض اسابيع ثلاثة على هذه الزيارة، حتى قامت الحكومة النمساوية بسلسلة من الاجراءات ضد الاحزاب الاشتراكية في فيينا ، وقامت بعد ذلك بحملة عنيفة لنزع السلاح من ايدي المنظمات الشبه عسكرية التابعة للاشتراكيين النمساويين . واسفرت

هذه الحملة عن اصطدامات عنيفة بين الاحزاب والقوات الحكومية ، وادت الى انهزام الاشتراكيين ، كما ادت الى تقوية مركز ايطاليا مستقبلا في صد تسلل النازيين وتآمرهم . الا ان عددا كبيرا من الاشتراكيين والشيوعيين انضموا الى المعسكر النازي ، كتعبير عن سخطهم الشديد . وادى ذلك بمجموعة الى تقوية النازيين والفاشية .

وفي شهر حزيران من العام نفسه ، طار موسوليني الى البندقية لمقابلة الفوهرر لأول مرة في حياته ، وعندما نزل هتلر من طائرته فوجيء بمظاهرة عسكرية يرأسها الدوتشي بنفسه وهو يتألق ببزة عسكرية أنيقة . وكانت اول كلمة قالها موسوليني لمرافقه حين رأى هتلر « لم احب شكل هذا الرجل » . وقد جرى الاتفاق في هذه المقابلة على تخفيف حدة الضغط على حكومة النمسا ، وقد اكد له هتلر ذلك بوعود قاطعة .

ولم تكن هذه التأكيدات او هذا التوقف ، بسبب من مداخلات موسوليني ، بل بسبب انشغال هتلر بمشاغل داخلية محضة . . .



نشبت الخلافات بين هتلر وبين الذين حملوه الى سدة الحكم . وكان جيش الصاعقة يمثل الفئة الثورية في الحزب ، تحت قيادة روم . وفي ربيع عام ١٩٣٤ بلغ عدد افراد هذا الجيش ثلاثة ملايين مجند من ذوي القمصان البنية . وشعر هتلر بالقلق نتيجة لهذا النمو الهائل ، بالرغم من يقينه بولاء جميع افراد هذا الجيش ، وتعلقهم بشخصه . وكان يردد أمام قادة جيشه هذا ، بأنه سوف يقاوم ويقمع اية محاولة لتغيير نظام الحكم القائم بمنتهى الشدة والبطش ، وان كل من يجرؤ على رفع رأسه ضد الدولة فسيحطمه بكل شدة وقسوة . وكانت هواجس هتلر ومخاوفه صحيحة ، اذ ان روم قائد جيش الصاعقة ، بدأ محاولة للاطاحة بحكم هتلر . وفي كانون الاول من العام نفسه ، عندما اعلنت الوحدة بين الحزب والدولة ، غدا روم عضوا في مجلس الوزراء وبحث في أمر دمج ذوي القمصان البنية مع بقية افراد الجيش النظامي . الا ان روم خاف من هذه التضحية بجيشه الذي مضى السنين الطويلة في انشائه ، ومن ذلك الوقت بدأ الخلاف يذر قرنية بين روم ورئيس الاركان الجنرال فون بلمبرغ ، الذي كان يبدي تدمره الشديد أمام الفوهرر من تصرفات ذوي القمصان البنية الحمقاء . وكان على هتلر ان يختار بين امرين اثنين اما التضحية بقيادة جيشه المنظم او بقيادة جيش الصاعقة الذي

رفعه الى قمة المجد . واخيرا قرر التضحية بقيادة جيش الصاعقة واستدعى روهم واجتمع به لمدة خمس ساعات حاول خلالها التفاهم مع روهم المتعصب الشاذ دون جدوى

وكانت قد تألفت من جيش الصاعقة فرقا جديدة من ذوي القمصان السود ، ليكونوا بمثابة الحرس الخاص للفوهرر ، وللقيام بالمهام السرية الخطرة . وقد تولى قيادة هذه الفرق الجديدة هنريك هملر !

وهنا تختلف الاقاويل عن الاسباب التي جعلت هتلر يقوم بضربته القوية ضد روهم ورفاقه . فمنهم من كان يقول انه بسبب وجود مؤامرة تحاك ضده ، ومنهم من كان يقول ان الفوهرر اراد القيام بحركة تطهير شاملة وهو لا يزال في اوج عظمته وجبروته . وعلى كل حال ، فقد تطورت الاحداث في يوم الخامس والعشرين من شهر حزيران ، اذ طلب هتلر من رجال الجيش البقاء في ثكناتهم ثم قام بتوزيع السلاح والعتاد على افراد الحرس الخاص من ذوي القمصان السود ، وبنفس الوقت اصدر امرا لذوي القمصان البنية ليكونوا على اهبة الاستعداد ، وطلب من جميع قادة جيش الصاعقة الحضور الى اجتماع يعقد في الثلاثين من شهر حزيران . وترددت شائعات ، وصلت الى هتلر ، ان مساعد روهم يحاول القيام بثورة . عندئذ قرر هتلر القيام بعمل سريع يقضي به على خصومه دفعة واحدة . فأمر غورنغ بالدخول الى برلين والسيطرة عليها ، وطار هو الى ميونيخ ليقوم بمفاجئة خصومه شخصيا ويعتقلهم بنفسه يساعد في ذلك اثنا عشر رجلا من ذوي القمصان السود . وما ان وصل الى مقر قيادة جيش الصاعقة ، حتى فاجأ كبار القادة بنبا اعتقالهم ، ثم استقل سيارة يرافقه هذا العدد القليل من الحرس واتجه الى ويبسي حيث كان روهم . فوصل الى هناك في تمام الساعة صباحا .

ترجل هتلر من سيارته واتجه الى المنزل وحيدا دون سلاح واقتحم غرفة نوم روهم الذي اذهلته المفاجأة الشديدة ، وتم اعتقاله مع عدد من اركان حربه . وعاد الجميع مع الاسرى الى ميونيخ ، حيث وضعوا جميعهم في نفس السجن الذي اعتقل فيه هتلر قبل عشر سنين . وفي نفس اليوم بدأ تنفيذ حكم الاعدام بجميع المعتقلين دون استثناء واستمرت عملية الاعدام طيلة بعد الظهر ، وقد امر هتلر بتغيير الفرق التي كانت تقوم بمهمة الاعدام ، بسبب الاجهاد العقلي الذي اصابهم نتيجة للوحشية التي تم فيها تنفيذ حكم الاعدام .

وفي برلين تمت نفس العملية التي جرت في ميونيخ ، فقد قام غورنغ بتنفيذ حكم

الاعدام بجميع الذين اعتقلهم ، وبلغ عدد الذين اعدموا في ذلك اليوم سبعة الاف شخص !!

ورجع هتلر الى برلين حيث اطل من شرفة دار المستشارية ليتلقى هتافات الجماهير ، التي كانت تعتقد ان الفوهرر كان ضحية مؤامرة رهيبة خرج منها سالما بفضل قوته وسرعة بديهته . وهكذا تمكن هتلر بفضل هذه المجزرة الرهيبة من تثبيت اسس حكمه وترسيخ عقيدته ، كما حافظ على وحدة المانيا الاشتراكية الوطنية ، لتحمل لعنتها تلك الى العالم بأسره

وأظهرت هذه المذبحة ان الفوهرر لن يردعه اي شيء عن تنفيذ كل ما يريده ، وبدأت الاوضاع القائمة ، بالنسبة للعالم الخارجي ، اوضاعا لا يمكن وصفها بالاوضاع المتعدنة . وأصبح على هذا العالم ان يواجه حكما دكتاتوريا يقوم على الارهاب وسفك الدماء .

نشطت الحركة بين بافاريا والحدود النمساوية في شهر تموز من عام ١٩٣٤ ، وبدأ الاعداد للثورة وقلب نظام الحكم فيها . وفي صباح الخامس والعشرين من الشهر نفسه غدت الثورة واضحة اذ دخلت جماعة من المسلحين دار المستشارية ، وقتلوا الرئيس دلفوس ، كما استولت فصيلة اخرى من الثوار النازيين على دار الاذاعة واعلنت حل حكومة الرئيس دلفوس ، وتعيين رينتلين رئيسا جديدا .

الا ان هذا الانقلاب المفاجيء لم يعمر طويلا ، اذ قام رئيس الجمهورية بالرد على الحركة الانقلابية ، ايده في ذلك موسوليني من ايطاليا وارسل ثلاث فرق عسكرية الى ممر برينر ، مما اضطر هتلر الى التراجع ، وطلب من وزير المانيا المفوض وبعض الذين اشتركوا في المؤامرة الرجوع الى بلادهم فوراً حيث فصلهم من الخدمة ، وبذلك انتهى المحاولة الاولى للاطاحة باستقلال دولة النمسا .

وقد قربت هذه الاحداث بين ايطاليا وفرنسا ، فقد أدى هذا التهديد لاستقلال النمسا الى اعادة النظر في العلاقات بين فرنسا وايطاليا . كما شملت الابحاث موضوع توازن القوى واوضاع فرنسا وايطاليا بالنسبة الى جنوب ايطاليا الشرقي . وكان هدف موسوليني الحفاظ على مصالح ايطاليا الاستعمارية في افريقيا ، بالاضافة الى تقوية مركزه في اوروبا ضد التهديدات الالمانية .

أما فرنسا التي كانت ترغب منذ وقت طويل في الوصول إلى اتفاق رسمي حول إجراءات الأمن والسلامة في الشرق • إلا أن تردد بريطانيا في التورط بأية تعهدات وراء نهر الراين ، ورفضها عقد محادثات مع بولندا وتشيكوسلوفاكيا ، كما أن مخاوف دول التحالف الصغيرة من نوايا الروس ومطامحها ، بالإضافة إلى شكوك روسيا في الغرب • كل هذا أدى إلى فشل برنامج فرنسا ، إلا أن السيد بارتو وزير خارجيتها عزم على المضي في برنامجه واتباع برنامجا يقضي بعقد اتفاق يضم ألمانيا وروسيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا ودول البلطيق ، تقوم فيه فرنسا بضمان حدود روسيا في أوروبا ، وتضمن روسيا حدود ألمانيا الشرقية • إلا أن ألمانيا وبولندا عارضتا الفكرة ، لكن بارتو نجح في إقناع روسيا بوجوب الدخول إلى عصبة الأمم •

وكان هدف فرنسا الأول هو البحث عن حلفاء جدد ضد ألمانيا ، فاتجهت نحو روسيا محاولة أن تبعث فكرة توازن القوى التي كانت قائمة قبيل الحرب العالمية الأولى ، إلا أن مأساة وقعت في شهر تشرين الأول حين دعي الملك الكسندر اليوغوسلافي لزيارة رسمية إلى باريس • وعندما نزل في مرسيليا ، كان في استقباله السيو بارتو والجنرال جورج ، بينما كانت الجماهير محتشدة في الشوارع تهتف معرية عن قرعها الكبير • وفجأة ظهر شخص من بين الحشود وتسلسق سيارة الملك وأطلق عليه الرصاص من مسدس كان يحمله ، وهجمت الحرس عليه وأمعنت فيه ضربا بالسيف وقطعته أربا • وقد قتل الملك على الفور ، وأصيب السيو بارتو والجنرال جورج بأصابات بالغة ، ولم يتمكن الوزير بارتو من المقاومة فتوفي بعد بضع ساعات • وبوفاته أصيبت السياسة الخارجية الفرنسية بضربة قاصمة ، وخلفه في الوزارة بيير لافال •

إن تاريخ لافال المشين اللاحق ، ومصيره لن يحولا بيننا وبين الاعراب عن حقيقة قوته الشخصية ومقدرته • فقد كانت وجهة نظره صافية وصلبة ، فهو قد آمن بضرورة تجنب الحرب ، خاصة بالنسبة لفرنسا ، وهدف إلى إجراء ترتيبات مع حكام ألمانيا وإيطاليا ، اللذين لا يحمل ضدهما أي ضغينة • وكان لا يثق بروسيا ونواياها ، كما أنه كان لا يحب بريطانيا ، بالرغم من مظاهر الصداقة التي كان يظهرها تجاهها ، وكان يعتقد بأنها حليف لا نفع منه • لذلك قرر الابتداء بالتفاهم مع إيطاليا ، سيما وأن الخوف من ألمانيا أصبح كبيرا جدا ، إلا أنها كانت مستعدة للتساهل طمعا في كسب صداقة إيطاليا • وسافر في كانون الثاني عام ١٩٢٥ إلى روما حيث عقد عدة اتفاقات بين

الدولتين لازالة العقوبات التي تعترض طريق التفاهم بينهما ، وخاصة الاتفاق حول معارضة اعادة تسليح المانيا • وتعهدت فرنسا بالتساهل مع الايطاليين في تونس ، كما سلمت لايطاليا مساحات شاسعة من الاراضي الواقعة على حدود ليبيا والصومال ، واعطاء ايطاليا نسبة ٢٠٪ من عائدات سكة حديد جيبوتي - اديس ابابا • وكان من المقرر ان تكون هذه الاتفاقات بداية محادثات رسمية تشمل فرنسا وايطاليا وبريطانيا العظمى ، لاقامة جبهة تقف في وجهه الخطر الالمانى المتزايد • الا ان الصدام بين الجنود الايطاليين والحبشيين على حدود الحبشة والصومال الايطالي ، كان الحجة التي استخدمتها ايطاليا في المطالب التي وجهتها الى الحبشة • وهكذا ادى مصير الحبشة الى اضطراب فكرة التضييق على المانيا وحصرها في القارة الاوروبية •



الفصل الرابع

فقدان التوازن الجوي والعقوبات ضد ايطاليا

لم تكن المانيا تعتقد ان في امكانها اعادة تسليح جيشها تسليحا كاملا متفوقا قبل عام ١٩٤٣ ، الا ان الاكتشافات العلمية الحديثة، وخاصة اختراع الالة ذات الاندفاع الداخلي ، وتقدم فن الطيران ، جعلنا من مسألة التفوق العسكري والقوة العسكرية امرا يتوقف على جهود الدولة في ميدان العلم والمعرفة . وكانت المانيا تتمتع بامكانات ضخمة في هذه الميادين ، فتمكنت المانيا من خلق هيكل سلاح جوي في الجيش ، بعد ان كان محروما من هذه القوة الجوية الهامة . ولم يمض وقت طويل حتى ظهرت امام اعيننا الحقيقة المرعبة فقد توصل هتلر الى الرقم المعادل في عدد الطائرات ، الذي وصلت اليه بريطانيا . ولم يتبق عليه الا ان يصدر اوامره بزيادة الانتاج والاسراع به كي يرفع من مستوى الطائرات الموجودة ويحسنها . واصبحت لندن مهددة من الجو ، ووجب علينا ان نأخذ بعين الاعتبار هذه الحقيقة الثابتة في جميع القرارات التي نتخذها ، ان لم يعد في امكاننا اللحاق بالمانيا ، الا اننا بذلنا مجهودات ضخمة جبارة ، وحلقت في سماء العاصمة طائرات « الهاريكين » و « السبيتفاير » في عام ١٩٣٥ ، الا ان العدد لا يزال ضئيلا ، وعندما نشبت الحرب شعرنا بتفوق السلاح الجوي الالماني الذي بلغ بمجموعة ضعف سلاحنا الجوي الملكي .

وفي اليوم التاسع من شهر اذار عام ١٩٣٥ اعلن هتلر بصورة رسمية انشاء السلاح الجوي الالماني، كما اعلن عن التجنيد الاجباري في جميع البلاد . وفي نفس الوقت اعلنت فرنسا تمديد مدة الخدمة العسكرية الى

سنتين ٠ وشرعت المانيا في تنظيم جيشها على اسس حديثة ٠ كما اصبح الجيش تابعا للفوهرر مباشرة ، وغدا القائد الاعلى له ، واصبح على كل جندي ان يحلف يمين الولاء لهتلر لا للدستور ، كما اصبحت وزارة الحربية تابعة لاوامره مباشرة ٠ واتخذت الاجراءات اللازمة لتدريب الشباب الالمان ، فما ان ينشأ الولد حتى ينضم الى شبيبة هتلر التي تضم جميع اولاد المانيا ، ثم ينتقلون بعد ذلك الى الحرس النازي بعد ان يبلغوا سن الثامنة عشرة ويعملوا فيه لمدة سنتين ٠ وعندما يصبح الشاب في سن العشرين يفرض عليه تأدية الخدمة العسكرية لمدة ستة اشهر يقضيها في شق الطرق وبناء المعسكرات وتجفيف المستنقعات ، وبعد ذلك ينتقل للعمل مع القوات المسلحة ٠

وفي الخامس عشر من تشرين الاول عام ١٩٣٥ افتتح هتلر كلية اركان الحرب الالمانية، وبدأ بذلك الاعداد الكبير لتدريب الجيش وتوسيع صفوفه ٠٠ كما استدعيت الفئة الاولى من مواليد عام ١٩١٤ للخدمة العسكرية حيث تقرر اعداد وتدريب ٥٩٦ الف رجل على فنون القتال ٠ وهكذا قفز رقم الجيش الالمانى الى ٧٠٠ الف رجل ٠ الا ان هذه الارقام المخيفة لم تبلغ بعد عدد وقوة الجيش الفرنسى و احتياطيه الكبير ٠ وكان بالامكان حتى هذا التاريخ اتخاذ اي قرار من جانب عصبة الامم لوقف هذه العمليات الرهيبة المخالفة لمعاهدات الصلح واتفاقاته ٠ كما كان بالامكان تقديم المانيا الى المحاكمة امام هيئة دولية ، تقدم فيه بياننا عن تسليحها وتسمح للجانب الحلفاء بالتحقيق في هذه الاوضاع ٠ اما في حالة رفضها الادعاء لهذه الاجراءات ، تقوم الجيوش الحليفة باحتلال جميع المنافذ والمعابر على نهر الراين حتى يضمن الحلفاء تنفيذ المانيا لتعهداتها ٠ وبذلك يصبح بالامكان تأجيل وقوع الحرب العالمية الثانية الى اجل غير مسمى ٠٠٠

كانت الضربة الثانية للسلام العالمى ، بعد خسارة بريطانيا للتعداد الجوي ، حين انتقلت ايطاليا الى جانب المانيا ٠ وبذلك تمكن هتلر من التقدم في طريقه نحو القتال ٠ فبعد ان ساعد موسوليني النمسا على الحفاظ على استقلالها ، قرر ان ينتقل الى الجانب الاخر ٠ ولم تعد المانيا وحيدة في الميدان العسكري بفضل اطماع ديكتاتور ايطاليا لتوسيع رقعة امبراطوريته التي شرع في انشائها ٠

وقد ظهرت جلية استعدادات موسوليني لاحتلال الحبشه ، بعد مؤتمر

ستريزا • وكان من الواضح ان الراي العام البريطاني سيعارض مثل هذا الاعتداء الصارخ • كما ان البعض كان يجد في هذه المعارضة تشجيعا لاطاليا في المضي نحو المانيا ، خاصة وهي الدولة المعتبرة من الدول الكبرى ، فبانضمامها الى المانيا ستخسر بريطانيا حليفا مهما •

ولا ازال اذكر الحديث الذي جرى بيني وبين المستر ديف كوبر حول هذا التبدل في الميزان الاوروبي الذي جاء معاكسا لمصالحنا ، وقد اقترح البعض ان نؤلف وقدما لمقابلة موسوليني يشرح له التنازح التي ستؤدي اليها حركته في بريطانيا • وبالطبع لم يؤلف هذا الوفد ، فلم يكن هذا سيؤدي الى اي نتيجة ، فقد كان موسوليني يعتقد ان بريطانيا اصبحت عجوزا ضعيفة لا تستطيع القيام بأي عمل حربي عدا الصراخ والضجيج •

وكانت وجهة نظري في هذه المسألة هي في حمل القضية الى عصبة الامم ضد ايطاليا ، ومطالبة فرنسا بتأييدنا ، الا انني حذرت من الضغط عليها ، وذلك بسبب ارتباطاتها مع ايطاليا ، وانشغالها في المشكلة الالمانية • كما انني نصحت بعدم ترزيم هذه القضية والتحمس لها ، وذلك بسبب خوفي من المانيا ومن الاوضاع التي وصلت اليها اجهزتنا الدفاعية • الا ان الحكومة وقفت موقفا مكشوقا وصرحت بأن بريطانيا ستقف الى جانب التزاماتها والى جانب ميثاق عصبة الامم • وسافر بعد ذلك وزير الخارجية الى جنيف ليجتمع تأييد الدول الاعضاء في عصبة الامم لفرض عقوبات على ايطاليا ، اذا هي قامت بضرب الحبشة • وكانت هذه العقوبات تعني قطع المساعدات المالية ، والمواد الاقتصادية عن ايطاليا ، وتزويد الحبشة بها • وكانت هذه العقوبة شديدة الخطورة على ايطاليا التي تعتمد على استيراد البضائع التي تحتاج اليها في الحرب ، من الخارج •

وفي الثاني عشر من شهر ايلول وصلت البارجتان البريطانيتان « هود » و « ريناون » الى جبل طارق بالاضافة الى سرب من الطرادات والمدمرات • كما اتخذت عصبة الامم قرارا باغلبية خمسين صوتا يقضي باتخاذ اجراءات جماعية ضد ايطاليا ، وعينت لجنة قوامها ثمانية عشر عضوا لتقوم بمحاولة اخيرة للوصول الى حل سلمي • وعندما اصدر موسوليني بيانه التاريخي بقوله : « ان ايطاليا ستواجه العقوبات بالنظام والاقتصاد والتضحية » الا انه اضاف ان ايطاليا اذا وجدت ان هذه العقوبات ستعرقل برنامجه لغزو الحبشة فسيشن الحرب على كل دولة تقف في طريقه ، وقد اضاف معلقا على

قرار عصبة الامم بقوله « خمسون دولة ، نعم هذه الدول كلها تقودها دولة واحدة !

اثار سفك الدماء في ايسينيا ، والكراهية للفاشية وتطبيق العقوبات من قبل عصبة الامم ، هياج الطبقات العاملة في بريطانيا ، وحزب العمال البريطاني . ولم يكن النقيبون وعلى رأسهم المستر ارنست بيغن ميالين الى المهادنة والسلام . واجتاحت الرغبة العازمة في محاربة الدكتاتور الايطالي ، وتطبيق اقصى العقوبات عليه ، وتدخل الاسطول البريطاني اذا لزم الامر . وكان عدد كبير من أعضاء مجلس العموم يشاطر النقابات رأيا في هذا الصدد . واستقال مستر لا نسبوري من رئاسة الكتلة البريطانية لحزب العمال ، وتولى الميجور اتلي الرئاسة خلفا له .

وفي هذا الوقت حل البرلمان واجريت انتخابات جديدة ، واعلن رئيس الوزراء ان العقوبات تعني اولا الحرب لكنه كان مصمما على ان لا تكون هناك حرب ، الا انه مصمم في نفس الوقت على العقوبات . وتجنب عصبة الامم ، بطلب من بريطانيا ، فرض العقوبات خوفا من استفزاز ايطاليا واکراهها على الحرب . فاكثفت بمنع بعض السلع من الوصول الى ايطاليا وبعض المواد الحربية ، ولم تقطع الزيت عنها واستمر في الوصول اليها بكل حرية . اذ ان قطعه يعني الحرب بصورة قاطعة . وكان من جملة السلع الممنوعة ، تصدير الالومنيوم . الا ان هذا المعدن كانت ايطاليا تنتجه بشكل ضخم يفوق حاجاتها . وبالإجمال كانت العقوبات المفروضة لا تعتبر عقوبات بالمعنى الصحيح ، يقصد منها شل حركة المعتدين ومنعهم من العدوان .

اما بالنسبة لبريطانيا فقد كان بإمكانها منع ايطاليا من المرور في قناة السويس ، وان تخوض معركة بحرية مع الاسطول الايطالي ، بالرغم من ان بوارجنا كانت قديمة ، وان الاسطول يفتقر الى المدافع المضادة للطائرات كما يفتقر الى الغطاء الجوي الضروري . الا انه باستطاعتنا قطع الامدادات والمواصلات الايطالية مع الحبشة . وكنت واثقا من ان موسوليني لم يكن ليجرؤ على الاشتباك مع قواتنا ، فقد كان العالم كله ضده في ذلك الوقت ، وكان من المنتظر ان يتعرض حكمه للخطر ، في حاله خوضه غمار الحرب مع بريطانيا . ومع انني كنت اعارض فكرة القيام بأي عمل فردي تقوم به بريطانيا ، الا اننا قد اقطعنا شوطا بعيدا في هذه المرحلة ، ومن العار ان

نتراجع الان • لكن الحقيقة كانت ظاهرة في حب الحكومة الحاضرة للسلام والحفاظ عليه ، هذا الحب الذي جر العالم الى حرب اكثر فظاعة •

✱ ✱ ✱

أدى سقوط البلاد الحبشية وضمها الى الممتلكات الايطالية ، الى نتائج ايجابية في المانيا ، فقد بدا الاعجاب بموسوليني وطريقته الفذة السريعة التي انتهت فيها ايطاليا الحملة على الحبشة • وكان الرأي العام السائد ان بريطانيا خرجت من هذه الازمة مقهورة ضعيفة • وقال احد ممثليها في بلغاريا: « ان اشارات الاحتقار لبريطانيا اصبحت ظاهرة سافرة في جميع الاوساط • وهذا مما جعل المانيا تتصلب في مواقفها للتفاوض لايجاد تسوية في اوربا الغربية وتسوية اكبر لجميع الشؤون الاوروبية والعالمية » • وكانت هذه الاقوال صحيحة تماما • فقد تولت حكومة جلالته ، دون تفكير بالامر ، زعامة خمسين دولة للتعبير عن الشجاعة لوقف ايطاليا عند حدها • وما ان واجهت الحقائق القاسية حتى تراجعحت الحكومة عن موقفها الشجاع وتخاذلت • وبذلك اصابت عصبه الامم بخيبة امل كبيرة والحقت بها اشد الاضرار •



الفصل الخامس

هتلر يضرب

لقد كان الاحتلال الوحشي للحبشة ، الصدمة القوية التي أحسن بها الشعب البريطاني من اتفاق هور - لافال وفشل عصبة الأمم من العوامل التي غيرت أوضاع حزب العمال وحزب الأحرار بالإضافة إلى الرأي العام الحسن النية . وبدت فكرة قبول نشوب الحرب ضد الطغيان الفاشي والنازي، تلاقي صدى حسنا في النفوس ، حتى اللذين يحبون السلام ويعتزون بالمهادنة . وبالرغم من معارضة حزبي المعارضة لجميع الإجراءات المؤدية إلى إعادة التسليح ، إلا أن مجال الاتفاق كان واسعا ، ولو حاولت حكومة جلالته أن ترتفع إلى مستوى الأحداث ، لتمكنت من تزعم جبهة شعبية متحدة ، تقودها في طريق حملة قوية للتأهب والاستعداد .

إلا أن الحكومة بقيت متمسكة بسياسة الاعتدال وانصاف الحلول . وقد أذهلني عدم اهتمامها بالبحث عن توحيد الانسجام الذي أخذ يسود صفوف الشعب . ولو أنها حاولت البحث عن هذا التوحيد ، لقوت بذلك مركزها وكسبت قوة كانت ضرورية للبلاد .

أما بالنسبة لألمانيا ، فقد أدى تسليحها من جديد إلى اقتراب موعد الحرب العالمية ، وأصبح نشوبها أمرا مؤكدا . فبعد أن تأخرنا عن توقيف هتلر عند حدوده ، وبعد أن فرض هتلر الخدمة الإجبارية في الجيش ، متحديا بذلك جميع المعاهدات . وبعد أن غفرت بريطانيا له هذا التحدي العجيب ، وعقدت معه اتفاقا وسمح له بإعادة بناء أسطولها البحري الذي يضم عددا من الغواصات يوازي عدد الغواصات البريطانية . وبعد أن صرحت ألمانيا بنفسها

انها اصبحت تملك سلاحا جويا يضاهي السلاح الجوي الملكي البريطاني بدأت الان تدخل عامها الثاني في الاستعداد والعمل النشط لانتاج العتاد الحربي الرهيب . واصبحت بريطانيا واوروبا كلها ، واميركا التي كانت تعتقد انها بعيدة عن الخطر ، تواجه الان قوة ضخمة منظمة ، بالاضافة الى التصميم على خوض حرب ضروس ضد سبعين مليونا من البشر .

وكانت من جملة بنود معاهدة فرساي ، البنود القائلة بعدم السماح لالمانيا باقامة تحصينات دفاعية على الجهة اليسرى من نهر الراين ، والى خمسين كيلو مترا من الجهة اليمنى من النهر ، كما انها منعت اي وجود لقوات عسكرية المانية في هذه المنطقة . كما ان معاهدة لوكارنو التي نصت على حفظ الحدود القائمة بين المانيا وبلجيكا ، وبين المانيا وفرنسا . وتعهد المفرقاء بعدم القيام باي هجوم عبر هذه الحدود ، واذا ما خرقت احدى الدول هذه الاتفاقات ، فان عملها هذا يعتبر عملا عدوانيا لم يسبقه استفزاز ، ويتوجب على الدول المعتدى عليها ان تقوم بأعمال افرادية ، وتنقل المشكلة الى عصبة الامم ، وان تطلب معاونة الدول الاخرى الموقعة على هذه الاتفاقية .

وفي نفس اليوم الذي عهد فيه تسليم هذا الاقتراح لعقدة كميثاق يعمل به لمدة خمسة وعشرين عاما اعلن هتلر انه قرر احتلال منطقة الراين ، وزحفت القوات الالمانية فورا لتأخذ مواقعها على طول المنطقة وعرضها .

وهبت فرنسا تطلب العون من حلفائها ، وتشكو امرها الى عصبة الامم . وكان من حق فرنسا ان تطالب بريطانيا بتنفيذ اتفاقها القاضي بحماية حدودها ضد اي اعتداء من المانيا ، نتيجة للضغط الذي قمنا به في السابق لاجلائها عن منطقة الراين . وكان الميسيو سارو ، رئيس الوزراء ، يرتأي اعلان التعبئة العامة فورا ، الا انه لم ينفذ هذا الرأي قبل الحصول على موافقة بريطانيا عليه اولا . الا ان حكومة جلالته اقنعت فرنسا بوجوب الانتظار ، حتى تقوم الدولتان بعمل مشترك ، بعد ان يتمكننا من درس الوضع دراسة شاملة واقية . اما الرد الغير رسمي ، الذي اجابت به لندن ، فقد بحث في نفسي القشعريرة ، اذ سارع المستر لويدجورج الى القول ، ان جريمة هتلر الكبرى كانت في الاستفزاز لا في خرقه الفاضح للمعاهدة ، وانه كان يأمل باننا سنبقى رؤوسنا منخفضة . كان الاستفزاز في الظاهر ، هو فشل الحلفاء في نزع السلاح ، اكثر مما فعلوا حتى اليوم .

لقد اخطأت الحكومة الفرنسية في انصياعها لمشئمة بريطانيا وعرضها للمشكلة على عصبة الامم ، وهي التي اصبحت ضعيفة لا قيمة لها بعد فشلها

الذريع في مهزلة العقوبات • فلو نفذت الحكومة الفرنسية تعبئتها العامة ،
 وجهزت مئة فرقة لكانت تمكنت من حمل هتلر على التراجع والانسحاب ، فقد
 كانت فرنسا في ذلك الوقت من القوة بحيث تتمكن وحدها من ارغام الالمان
 على الانسحاب •

وعندما اجتمع هتلر بقادته العسكريين بعد نجاح حملته في احتلال
 منطقة الراين ، كان في وده ان يصارحهم بان مخاوفهم السابقة كانت كاذبة ،
 لكنه برهن لهم بعمله هذا ان احكامه واراؤه الخاصة اهم واقوى من احكام
 القادة العسكريين ، ولهذا احنى القادة رؤوسهم باحترام • وكانت الفرقة
 تغمرهم ، كالمان مخلصين ، حين رأوا ان بلادهم قد بدأت تستعيد مكانتها
 السابقة في القارة الاوروبية في هذه السرعة الهائلة • بالاضافة الى ان اعداءهم
 السابقين قد اصبحوا ممزقين مشتتين • واعلن الفوهرر للعالم : لقد حققت
 المانيا جميع مطامحها الاقليمية ٠٠٠٠

واصبحت فرنسا بالتفكك وسيطر على البلاد الخوف من الحرب ، والرغبة
 في اجتنابها • اما الانكليز السذج فقد ابلغتهم صحافتهم : « ان الالمان ، على
 كل حال ، لم يفعلوا شيئاً سوى انهم عادوا الى بلادهم ، اذ كيف يمكن ان
 نشعر نحن الانكليز ، لو تحتم علينا ان نبقي بعيدين عن يوركشاير مثلاً لمدة
 عشر سنوات او خمس عشرة سنة ؟ » ٠٠٠٠ الا انهم لم يفكروا ان الحدود
 الامامية قد تقدمت الى الامام مئة ميل ، واصبح غزو فرنسا اقرب واسهل ٠٠٠



مرت سنتان على الاستيلاء على منطقة الراين ، لم تضع المانيا
 خلالها اية دقيقة من وقتها • اذ بدأت التحصينات تظهر على طول الخط في تلك
 المنطقة • واخذت المصانع الالمانية تعمل ليلاً ونهاراً لتجعل من صناعة المانيا
 كلها جبهة مسلحة ، وتحول الشعب بأسره الى آلة للحرب •

وافتح هتلر عام ١٩٣٦ ، مشروع السنوات الخمس لاعادة تنظيم
 الاقتصاد الالمانى واعداده لمرحلة الاكتفاء الذاتى اثناء الحرب • كما حقق
 في الخارج « التحالف القوي » الذي كتب عنه في كتابه « كفاحي » وبين اهميته
 لسياسة المانيا الخارجية ، فتفاهم مع موسوليني وتم تشكيل محور برلين
 — روما •

كانت سياسة هتلر العدوانية لا تعتمد على القوة العسكرية ، بل تعتمد
 على الخلافات الناشئة بين فرنسا وبريطانيا ، وعلى شدة خوفهما بالاضافة

الى عدم اكتراث الولايات المتحدة الاميركية . وكانت اعماله وتحدياته الاولى عبارة عن مغامرة يعرف انه لن يتمكن من الصمود لتتائجها ، اذا ما شعر بان لدى الحلفاء قليلا من الجدية الصادقة . وكان احتلاله لمنطقة الراين واقامته للتحصينات فيها اولى هذه المغامرات التي نجح فيها نجاحا كبيرا . اما خصومه فقد كانوا على اشد ما يكونوا من الضعف والتردد ، الى درجة انهم لم يشعروا بهذه « البلفة » التي قام بها . اما حين تحركت جحافلهم في عام ١٩٢٨ لم تكن هذه التحركات عبارة عن « بلفة » اخرى ، فقد اصبح العدوان الجديد مدعوما بالقوة المتفوقة ، وما ان بدأت الدولتان البريطانيّة والفرنسية تشعران بهذا التحول المفاجيء ، كان الوقت قد فات .



اما في اسبانيا فقد تدهور النظام البرلماني فيها عام ١٩٣٦ الى حد ادى لنمو حركة جديدة تتجه الى اقامة نظام شيوعي او حتى فوضوي في البلاد ، ومن ثم الى قيام ثورة عسكرية مبيتة . وكانت التعاليم الشيوعية وكتبها المدرسية التي ألفها لينين نفسه ، تقول بان الواجب يقضي بضرورة التعاون مع جميع الاحزاب والحركات اليسارية في البلاد ، ودعمها للوصول الى الحكم . عندئذ يصبح من السهل الانقلاب عليها ونسفها من الداخل ، واقامة الدولة الماركسية . وكانت هذه التجربة التي نجحت في روسيا ، تحدث الان في اسبانيا . الا ان الجيش الاسباني كان محتفظا بقوته ، لذلك فقد سار مع الحركات الشيوعية ، بينما كان يبني ضدها مؤامرة عكسية . وكانت اعمال العنف والقتل بين الفرقاء المتخاصمين تنتشر انتشار الوباء في البلاد ، وازداد الوباء الشيوعي حدة جعل من مسألة حمل الخصوم السياسيين من بيوتهم وقتلهم دون محاكمة امرا طبيعيا . وقد حدثت حوادث كثيرة من هذا النوع في العاصمة مدريد بالذات . وبلغت هذه الحوادث حدتها حين قتل الزعيم الاسباني المحافظ السنيور سوتيلو ، وكانت هذه الحادثة اشارة الانطلاق للقادة العسكريين لابتداء العمل . وكان الجنرال فرانكو قبل شهر من هذا الحادث قد ارسل الى وزير الحربية الاسبانية رسالة قال فيها انه اذا لم تتمكن الحكومة من المحافظة على الضمانات العادية للحياة ، فان الجيش سيضطر للتدخل فورا . وعندما تمرد الجنرال فرانكو وحمل راية الثورة ، انضمت اليه فرق الجيش كلها ، واصبح السيد المطلق على الكثير من الولايات . اما البحارة الاسبان فقد هبوا لفورهم وقتلوا ضباطهم وانضموا الى ما سمي بعد ذلك بالجانب الشيوعي . وقد استطاع الشيوعيون

ان يسيطروا بعد ان انهارت الحكومة وراحوا يطبقون نظرياتهم وتعاليمهم .
وبدأت الحرب الاهلية المخيفة ، وقام الشيوعيون بجرائم عديدة وقتلوا
خصومهم السياسيين ، والاغنياء . اما قوات فرانكو فقد قامت بدورها بقتل
العديد من الشيوعيين وانتقمت للضحايا . وسارت هذه القوات تحتل القرى
الشيوعية وتنتقم من كل شيوعي تجده .

ووقفت الحكومة البريطانية موقف عدم التدخل ، واقتربت كذلك فرنسا
مشروعاً بعدم التدخل ، وترك الفريقين يحلان مشاكلهما دون مساعدات
خارجية . وايدت الحكومة الايطالية والالمانية والروسية هذا المشروع . وقد
حافظت بريطانيا العظمى على هذا الاتفاق ، الا ان المانيا وايطاليا من جهة ،
وروسيا من جهة اخرى ، سارعت الى خرق هذا الاتفاق ، وراحت ترسل
بالامدادات العسكرية لفريق من الفرقاء المتخاصمين . وراحت الطائرات
الالمانية تغير على المدن الصغيرة بشكل وحشي . ولم تلبث فرنسا هي الاخرى
ان راحت تبعث بطريقة سرية باسراب الطائرات للدفاع عن الجمهورية

في الثامن والعشرين من ايار عام ١٩٣٧ ، اعتزل المستر بلدوين منصب
الحكم ، بعد تتويج الملك جورج السادس . وقد نال لقب اللوردية تقديراً
لخدماته الطويلة ، بالاضافة الى وسام رتبة الساق . وقد خلفه في الحكم
المستر نافيل تشمبرلين وزير المالية السابق ، والذي كان يقوم فعليا باعباء
الحكم طيلة السنوات الخمس الماضية . وكان من اقدر الوزراء ، يتمتع
بمزايا ومواهب جمة . وقد رحبت بتسليمه مقاليد السلطة ، لانه كان من
الشخصيات المرموقة النابضة بالحياة ، بالاضافة الى كفاءته .

ان باستطاعتي اجراء مقارنة بين الشخصيتين المستر تشمبرلين والمستر
بلدوين ، اللذين عرفتهما مدة طويلة وكان مقدرا لي ان اعمل معهما . فقد كان
ستاتلي بلدوين يتمتع بشخصية حكيمة بعيدة النظر ، الا انه كان يفتقر
الى المقدرة على التنفيذ واتخاذ القرارات . وكان بعيداً عن شؤون الحرب
والجيش والشؤون الخارجية ، فقد كان لا يعرف شيئاً عن أوروبا ، واذا عرف
شيئاً فكان يكره ما يعرفه عنها ، الا انه كان يعرف بدقة مجرى السياسات
الحزبية البريطانية . وكان قد ترشح خمس مرات عن حزب المحافظين باعتباره
زعيماً للحزب ، ففاز في ثلاث مرات . اما رباطة جأشه فكانت صامدة قوية ،
فقد كان يتمتع بموهبة فذة في الصمود تجاه الاحداث والانتقادات المعادية .

وكان ماهرا في تحويل الاحداث الى خدمته ، وانتهاز اللحظة المناسبة عندما
تحين .

اما المستر نافيل تشمبرلين فقد كان يقظا ، متشبثا برأيه ، وشديد الثقة
بنفسه الى حد المبالغة . وكان على عكس زميله يعتقد في نفسه القدرة على
تفهم جميع المسائل المتعلقة باوروبا ، بل وفي العالم . وقد حافظ على سياسة
تضييق الخناق على الانفاق الحربي طيلة عهده في الوزارة سواء حين كان
وزيرا للمالية ام حين اصبح رئيسا للوزارة . وكان العدو اللدود لجميع
اجراءات الطوارئ . وقد سن قوانين واحكام على الشخصيات السياسية
المعاصرة لعهد ، سواء في داخل بريطانيا ام في العالم الخارجي ، وكان يشعر
بانه قادر على التعامل مع جميع تلك الشخصيات . وكانت اماله وامانيه
في ان يحصل على لقب بطل السلام ، لذلك عمل مخلصا لتحقيق هذه الغاية ،
وقد عرض نفسه بذلك لاشد الاخطار كما عرض البلاد ايضا . لكنه وقع
في تيارات لم يتمكن من تقدير قوتها ، فواجه ازمات لم يتمكن من حلها او من
الابتعاد عنها ولا الصمود في وجهها .

لقد كنت اؤثر العمل مع المستر بلدوين في تلك السنين التي سبقت الحرب
العالمية الثانية ، على العمل مع تشمبرلين . الا انني كنت اشعر ان ايا من
الاثنين لم يكن راغبا في التعاون معي الا عند الضرورة القصوى .



في ذات يوم من عام ١٩٣٧ قابلت سفير المانيا في بريطانيا الهر فون
ريبنتروب . وكنت قد كتبت مقالا شرحت فيه ان الهر ريبنتروب قد اسس
فهمة نتيجة لخطابه الذي القاه مؤخرا . وقد التقيته في احدى الحفلات ، وطلب
مني ان اقوم بزيارته في السفارة ، لنتحدث سوية . وقد استقبلني في دار
السفارة ، حيث قضينا ساعتين في الحديث . وكان ريبنتروب طيبا دمث
الاخلاق ، دبلوماسيا الى ابعد الحدود . وقد قال لي ان المانيا لا تريد الا كسب
صداقة انكلترا ، وقال انه كان في استطاعته ان يصبح وزيرا لخارجية
المانيا ، الا انه طلب من هتلر ارساله سفير الى انكلترا ، كي يتمكن من
العمل لتحقيق فكرة عقد اتفاق او محالفة بين انكلترا والمانيا . وقد كان في
وسع المانيا ان تصبح حارسا للامبراطورية البريطانية ، وبالمطبع ستطلب
استعادة مستعمراتها السابقة ، الا ان ذلك لا يعتبر امرا اساسيا . لكن
ما تطلبه المانيا هو ان يسمح لها باطلاق يدها في اوروبا الشرقية . اذ ان من

حق المانيا ان تحصل على مداها الحيوي ، لتضمن العيش لشعبها الذي يتكاثر عدده . لذلك فمن الواجب على المانيا ان تهاجم بولندا وممر دانزيغ . ولا يمكن للرايخ الكبير ان يحيا ، وهو يضم سبعين مليوناً من البشر ، بدون روسيا البيضاء واورانيا . ولا يمكن للرايخ الالمانى ان يكتفي باقل من هذا . لذلك فمطلبه الوحيد هو ان لا تتدخل بريطانيا في شؤونه تلك . وكانت في الغرفة، حيث جلسنا ، خارطة ضخمة معلقة على الجدار ، وكان يشير اليها السفير ريبنترروب ليبين لي ما يقوله .

وبعد أن انهى حديثه ، اجبته برأيي الصريح رداً على كل اقواله . ومما قلته : « ان الحكومة البريطانية لن توافق على اطلاق يد المانيا في أوروبا الشرقية . فبالرغم من علاقاتنا السيئة مع روسيا السوفياتية ، وبالرغم من عدائنا الشديد للشيوعية الذي لا يقل عن عداء هتلر لها ، فانه لو ضمننا سلامة فرنسا فاننا لن نتخلى عن اوضاع القارة الاوروبية ونترك المجال امام المانيا لتسيطر على شرقي أوروبا ووسطها » .

والتفتت فون ريبنترروب الي فجأة وهو يقول : « اذن ، فلا بد من الحرب ، ولن يكون هناك اي سبيل لتجنبها ، فالقوهر مصمم ، ولن يقف شيء في طريقه »

وأجبت السفير بقولي : « عندما نتحدث عن الحرب ، فستكون حرباً عامة شاملة ، وهنا يجب علي ان انبهك بأن لا تستهين بقوة انكلترا ، فهي بلاد عجيبة ، يصعب على الاجانب فهمها . ولا يمكنك ان تحكم عليها من موقف حكومتها الحاضر . فعندما تعرض للشعب قضية عادلة ، فستتحقق عندئذ بنفسك ان هذه الحكومة بالذات بالاشتراك مع الشعب سيقومان بأعمال عظيمة غير متوقعة . لذلك لا تستهين بقوة انكلترا ابداً ، فهي حادة الذكاء ، وإذا ما اردتموها حرباً عالمية ، فستعرض انكلترا العالم كله ضدكم ، تماماً كما حدث في الحرب الاولى » .

وهنا ظهر الغضب على وجهه ، فهب من مقعده واقفاً وهو يقول : « ربما تكون انكلترا ذكية كما تقول ، لكنها هذه المرة لن تتمكن من تحريض العالم ضد المانيا » .

وانتقلنا بالحديث الى مواضيع اخرى اكثر سهولة . وعندما جرت محاكمة فون ريبنترروب بعد انتهاء الحرب ، ذكر حديثنا هذا ، لكن بصورة مغلوطة ، وأصر على استدعائي للشهادة . ولو طلب اليّ ذلك لما زدت أو أنقصت حرفاً واحداً عما كتبت هنا

الفصل السادس

المستر ايدن في وزارة الخارجية – واستقالته

ان وزير الخارجية في انكلترا يتمتع بمكانة خاصة . ومع انه يعامل بمنتهى الاحترام واللباقة ، الا ان اعماله ومهامه المتعلقة بالشؤون الخارجية تبقى دائما تحت المراقبة ، ان لم يكن من جميع اعضاء وزارته ، فمن المتنفذين منهم على الاقل . كما أنه يتوجب عليه تقديم تقارير كاملة لزملائه . كما انه يتحتم على وزير الخارجية اطلاع رئيس الوزراء على جميع الاسرار مهما كانت .

وفي هذه الحقبة من الزمن كان المستر ايدن وزيرا للخارجية في حكومة المستر بلدوين الذي كان معروفا بميله الشديد الى السلام والحياة الهادئة، كما انه لم يكن يسهم اسهاما فعالا في السياسة الخارجية . اما بالنسبة للمستر تشمبرلين فكان الوضع مختلفا ، فهو يريد الاشراف الفعلي على وزارة الخارجية وكانت له اراء ووجهات نظر قوية في الشؤون الخارجية . لذلك فقد اكد رغبته منذ البداية في بحث هذه الشؤون والنظريات مع جميع السفراء الاجانب . ولهذا السبب ادى توليه منصب رئيس الوزراء الى تغير ملحوظ في وضع وزير الخارجية المستر ايدن . بالاضافة الى بعض الامور الاخرى التي كانت تباعد بين رئيس الوزراء ووزير الخارجية . لقد كان رئيس الوزراء راغبا في اجراء شبه تفاهم مع الديكتاتورين الالويبيين ، وكان اعتقاده ان هذا يقوم في تجنب كل ما يسيء اليهما بالاضافة الى روح التفاهم الخالصة . . . اما ايدن فقد نال شهرته من جراء تحريضه لجميع دول اوروبا ضد موسوليني

لدرجة انه كان يريد المضي في فرض العقوبات ولو ادى ذلك الى نشوب الحرب وكان ايدن يؤمن اشد الايمان بفرنسا ، كما انه كان يرغب في اقامة علاقات متينة مع روسيا السوفياتيه ، لانه كان يشعر بخطر هتلر ، وكان يخاف ضعف تسلحنا وانعكاسه على سياستنا الخارجية . لذلك كنت واثقا ان الخلاف سيدب بين هذين الرجلين ، خاصة بعد تأزم الاوضاع العالمية واشتدادها .

وكان رئيس الوزراء يجد في اللورد هاليفاكس ، زميلا ينسجم مع سياسته الخارجية كل الانسجام . وكنت افضل ، والحاله هذه ، لو اعتمدته وزيرا للخارجية منذ تكليفه بتأليف الوزارة ، وان يعهد بوزارة الحربية الى المستر انتوني ايدن . وهكذا بدأت الخلافات تذر قرنيتها الى ان توسعت شقة الخلافات في الفترة الواقعة ما بين صيف عام ١٩٣٧ ونهاية العام ، الى ان اضطر بعد ذلك المستر ايدن الى تقديم استقالته في شهر شباط من عام ١٩٣٨ .

لقد كانت سياستنا الخارجية تجاه المانيا ، من اهم اسباب الخلاف بين رئيس الوزراء ووزير خارجيته المستر ايدن . فقد قرر المستر تشمبرلين ان يتابع سياسة التقرب من الديكتاتورين ، واستدعى في شهر تموز من عام ١٩٣٧ سفير ايطاليا الكونت غراندي للاجتماع به في دوانغ ستريت . وكان المستر ايدن يعلم مسبقا موضوع الحديث ، لذلك لم يحضر الاجتماع هذا . وقد أفصح المستر تشمبرلين عن رغبته في تحسين العلاقات مع ايطاليا ، واقترح عليه السفير ان يبعث برسالة الى موسولينى يطلب اليه ذلك ، ويناشده العمل في هذا الاتجاه . وسارع المستر تشمبرلين الى كتابه هذه الرسالة ، اثناء المقابلة، وبعث بها دون مراجعة وزير الخارجية الذي كان في مكتبه على بعد بضعة خطوات من مكان الاجتماع . ولم تسفر هذه الرسالة عن اي نتيجة ايجابية بالطبع ، بل ظلت علاقاتنا مع ايطاليا تدهور بسبب تدخل هذه في شؤون اسبانيا الداخلية .

وكان المستر تشمبرلين ، يشعر بأن رسالته تتلخص في خلق جو من العلاقات الودية بين الديكتاتورين ، وخيل اليه انه قادر على ذلك . وكان راغبا في ان يعترف بحق ايطاليا في احتلال الحبشه كخطوة أولى نحو التقارب وكمقدمة لايجاد حل شامل لجميع الخلافات . كما انه كان يرغب في التنازل لهتلر عن بعض المستعمرات البريطانية . وفي نفس الوقت لم يكن يرغب في العمل على تحسين اوضاع التسليح في بريطانيا . او في ايجاد تعاون وثيق مع فرنسا سواء في الشؤون العسكرية ام في الشؤون السياسية . اما المستر ايدن فكانت نظريته تقضي بأن أي تعاون مع ايطاليا ، يجب ان يشمل جميع الشؤون

المتعلقة بالبحر الابيض المتوسط ، بما في ذلك مشكلة اسبانيا . وكان يريد ان يجعل من مسألة الاعتراف بحق ايطاليا في الحبشة وسيلة للمساومة معها اثناء المفاوضات . لذلك وجد ان الاعتراف بهذا الحق اولا ثم الرغبة في اجراء التفاوض لا يدل على الحكمة وبعد النظر .

وفي الخريف اشتدت هذه الخلافات ، واعتبر المستر تشمبرلين ان وزير الخارجية يقف عقبة في طريق التفاهم مع الدكتاتورين وفي الشروع في اجراء المحادثات مع المانيا وايطاليا ، كما شعر المستر ايدن ان رئيسه متسرع جدا في محاولته التقرب من الدولتين المذكورتين لا سيما في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا على اشد ما تكون من الضعف من الناحية العسكرية .

✱ ✱ ✱

على الرغم من خلافاتي مع الحكومة ، فقد كنت أشعر بالعطف نحو وزير الخارجية المستر ايدن . فقد ظهر لي انه أكثر الوزراء شجاعة وتصميما ، على الرغم من انه اثناء عمله كسكرتير خاص وكوكيل لوزارة الخارجية ، من قبل ، كان مجبرا على ان يكيف نفسه مع امور عديدة كنت اهاجمها شخصيا ، الا انني كنت أشعر انه في قرارة نفسه يعارضها ويستنكرها ، كما انه بدا لسي عنصرا طيبا وممتازا . وكان يدعوني مرارا الى وزارة الخارجية ، وكثيرا ما كنا نتبادل الرسائل بانطلاق وحرية . ولم يكن هذا الامر مستغربا ، فقد كان المستر ايدن شأنه شأن بقية الوزراء ، يرغب دائما في الاتصال بالشخصيات البارزة في البلاد ليستمزج رأيها في شؤون الساعة وفي القضايا الدولية وكنت قد انتهيت الى وجه نظر مشابهة مع وجهة نظر ايدن فيما يتعلق بنشاط دول المحور حول تدخلهم في الحرب الاهلية الاسبانية . وكنت دائما أؤيده عندما يقف موقفا صامدا في مجلس العموم ، مهما كانت أهمية المواضيع المطروحة ، فقد كنت عارفا بالصعوبات التي يواجهها من بعض أعضاء الوزارة وخاصة رئيس الوزارة بالذات ، وكنت على يقين من ان تشجيعي له سيبعث في نفسه روح الامل والقوة . وما ان نشبت أزمة جديدة في البحر المتوسط ، حتى عالجها بعزم ومهارة ، واستطاع الوصول الى حل اتبعته الوزارة على الفور . فقد حدث ان أغرقت غواصات ايطالية عدة سفن تجارية ، بينما ادعت ايطاليا ان الغواصات ليست ايطالية بل اسبانية . ودعي مؤتمر الدول البحرية الى الانعقاد في (نيون) في العاشر من شهر أيلول . وذهب وزير الخارجية يرافقه فانسيقارت واللورد شاتفيلد ، لورد الاميرالية

الاول . وقرر المؤتمر ايفاد غواصات بريطانية فرنسية تقوم بعمل دوريات في البحر المتوسط ، وتحمل أوامر مشددة باغراق كل غواصة تقابلها . وفي الحال رضخت ايطاليا الى هذا القرار واختفت أعمال القرصنة .

ويعتبر هذا الحادث دليلا ظاهرا على أهمية العمل المشترك بين بريطانيا وفرنسا ، اذا نفذ بصدق وقوة تجاه الديكتاتورين الاوروبيين . ان مثل هذه السياسة كان في مقدورها لا ان تمنع نشوب الحرب بل ان تؤجل وقوعها على الاقل . فالحقيقة الماثلة أمامنا هي ان سياسة التهدة كانت تزيد من حدة عدوان الديكتاتورين ، وتزيد من شعبيتهما ، وان أي هجوم ايجابي معاكس من قبل الديمقراطيات الغربية سيؤدي قورا الى التخفيف من حدة هذا العدوان . وقد بقيت هذه النظرية سائدة طيلة عام ١٩٣٧ ، اما بعد ذلك فقد تغيرت الاوضاع وتبدلت كل التبديل .

وشعر ايدن بقلق يتزايد يوما بعد يوم من بطء تسليحنا ، وما كان منه الا ان قابل رئيس الوزراء وشرح له مخاوفه وشكوكه ، وكان رد رئيس الوزراء عليه بان نصحه ان يعود الى منزله ويتناول قرصين من الاسبيرين .

اما الخلاف الحقيقي فنتج عن مسألة مختلفة تمام الاختلاف عن المسائل السابقة . ففي مساء الحادي عشر من شهر كانون الثاني عام ١٩٣٨ ، قام وكيل وزارة الخارجية الاميركية ، المستر سمفر ويلس بزيارة السفير البريطاني في واشنطن . وكان يحمل معه رسالة سرية من الرئيس روزفلت الى المستر تشمبرلين . فقد شعر الرئيس الاميركي بخطورة الوضع الدولي المتدهور ، وأحس بالقلق المتزايد فاقترح دعوة بعض ممثلي دول معينة الى اجتماع لبحث المشاكل الحالية ، لكنه أراد قبل تنفيذ هذا الاقتراح ، ان يستشير الحكومة البريطانية في وجهة نظرها حول هذا الاقتراح . وطلب ان يكون الرد جاهزا قبل السابع عشر من كانون الثاني ، وأشار في رسالته الى انه اذا وجد اقتراحه هذا قد حظي بموافقة حكومة جلالته القلبية وتأييدها المطلق ، فعندئذ ، وفي هذه الحالة فقط ، سيباشر اتصالاته مع حكومات فرنسا والمانيا وايطاليا وللحقيقة كانت خطوة هائلة وفوق ما يتصوره الانسان .

وعندما قام السفير البريطاني بنقل هذه الرسالة الى لندن ، أوصى حكومته بضرورة الموافقة عليها بأسرع وقت ممكن . وتلقت وزارة الخارجية برقية واشنطن ووزعت نسخا عنها في الثاني عشر من كانون الثاني الى منزل رئيس الوزراء في الريف . وفي صباح اليوم الثاني حضر رئيس الوزراء الى مكتبه ، وارسلت الوزارة بردها على رسالة الرئيس روزفلت ، حسب تعليمات

رئيس الوزراء . أما المستر ايدن فكان في اجازة قصيرة يمضيها في جنوب فرنسا . وكان رد المستر تشمبرلين ، انه يقدر هذه الثقة التي وضعها الرئيس روزفلت حين استشاره في موضوع اقتراحه المتعلق بازالة حدة التوتر في اوروبا ، الا انه يريد أولا ان يشرح له الموقف بالنسبة الى الجهود التي يقوم بها للوصول الى اتفاق مع المانيا وايطاليا ، لا سيما ايطاليا بصورة خاصة . ومضى يقول في رده : « ان حكومة جلالته مستعدة ، بتفويض من عصبة الامم ان امكن ، للاعتراف باحتلال ايطاليا للحبشة ، اذا ما وجدت ان الحكومة الايطالية ، على استعداد هي الاخرى لتبرهن عن رغبتها في الاسهام في إعادة الثقة والعلاقات الودية . » وأنهى المستر تشمبرلين رسالته بقوله انه يعرض هذه الحقائق ليرى الرئيس روزفلت ما اذا كانت اقتراحاته تتعارض والمجهود الذي تبذله بريطانيا ، وما اذا كان الرئيس يرى أنه من الافضل تأجيل اقتراح مشروعه الاميركي هذا

وكانت خيبة الامل كبيرة لدى الرئيس روزفلت لهذا الرد . وقد قال للسفير البريطاني بانه سيجيب على رسالة تشمبرلين برسالة يبعثها له في السابيع عشر من الشهر الحالي ، اما ايدن ، وزير الخارجية ، فقد قطع اجازته وعاد الى لندن على وجه السرعة ، بعد ان علم من موظفيه المخلصين في الوزارة ، ما جرى أثناء غيابه . وقد انزعج ايدن من هذا الحادث كثيرا ، فقد عمل طويلا لتحسين العلاقات بين بريطانيا وأميركا . وحاول ان يخفف من تأثير الرد فأبرق الى المستر رونالد ليندسي ، حول الموضوع .

ووصلت رسالة الرئيس روزفلت الى لندن في الثامن عشر من الشهر الحالي ، وفيها قال الرئيس انه يوافق على تأجيل اقتراحاته لان الحكومة البريطانية تفكر في اجراء مفاوضات مباشرة ، وأضاف معربا عن قلقه الشديد من اقتراح تشمبرلين حول اعتراف بريطانيا باحتلال ايطاليا للحبشة . وقال ان مثل هذا الاعتراف سيتترك أثرا سيئا على سياسة اليابان في الشرق الاقصى ، وعلى الرأي العام الاميركي أيضا . وقد اضاف المستر كوردل هل ، الذي قام بتسليم الرسالة الى السفير البريطاني ، بقوله : « ان هذا الاعتراف سيبيح على الازدراء ، وسي رسم صورة واضحة للمساومة القذرة التي ستنفذ في اوروبا على حساب المصالح الاميركية في الشرق الاقصى والتي تهم أميركا كثيرا . . »

وقامت اللجنة الوزارية للشؤون الخارجية بدرس رسالة السرئيس روزفلت ، وبعد سلسلة من الاجتماعات ارسلت الى واشنطن رسالتين مضمونهما

ان رئيس الوزراء يرحب كثيرا برسالة الرئيس روزفلت الا أنه لا يتحمل أي مسؤولية في حال فشلت العروض الاميركية . كما انه يلتفت نظر الرئيس روزفلت الى أنه ربما قد أساء فهم موقف حكومة جلالته بالنسبة الى الاعتراف . وقد شرح في الرسالة الثانية حقيقة موقفنا . فقد كنا عازمين على تقديم اعتراف كهذا ليكون جزءا من تسوية عامة مع ايطاليا .

وعندما قام السفير البريطاني بتسليم المستر سمزر ولس الرسائل قال له : « ان الرئيس روزفلت يعتبر مسألة الاعتراف هذا كدواء مر ، الا أنه يجب علينا ان نشربه معا ، كما انه يريد ان نشرب هذا الدواء معا وفي آن واحد . » وهكذا رفض المستر تشمبرلين اقتراح الرئيس روزفلت ، علما ان نفوذ الولايات المتحدة كان ضخما مع ما يمكن لها ان نستعمله من قوة جبارة !

✱ ✱ ✱

وفي ساعة متأخرة من ليل العشرين من شباط ، جاءني الخبر الى غرفتي القديمة في شارنويل بان المستر ايدن قد قدم استقالته من الوزارة . وهنا يتحتم علي ان اعترف بأني حزنت كثيرا ، وشعرت باليأس يسيطر علي . لقد مررت بظروف عصيبة طيلة حياتي ، وفي سنين الحرب ، وفي أحلك ساعاتها المرعبة لم أشعر بالقلق الذي يحرمني طعم النوم . ففي أزمة عام ١٩٤٠ حيث كانت المسؤوليات الضخمة ملقاة على عاتقي ، وفي السنوات الخمس التي تلتها ، كنت فريسة للقلق والفزع ، الا انني كنت أمضي الى فراشي واغرق في سبات عميق ، واستيقظ في الصباح نشيطا ، لا أشعر بتعب الليل الفائت بل أمضي الى عملي لاواجه المشاكل الضخمة واحاول ان اعالجها . أما اليوم وفي ليل العشرين من شهر شباط عام ١٩٣٨ ، وفي هذه المناسبة فقط ، شعرت بالارق ، ولم أتم طوال الليل ، وبقيت حتى الصباح في فراشي افكر بكثير من الاسى والخوف بذلك الشاب القوي الذي صمد بوجه تيارات مخيفة من الانشقاق والاستسلام ، ومن الحسابات الخاطئة ، والدوافع الضعيفة

الفصل السابع

اغتصاب النمسا

عندما تنهزم دولة من الدول أثناء الحرب ، فانها تبقى محتفظة بكيانها وجهازها وسرية وثائقها . وقد استطعنا ان نحصل على اسرار العدو بكامله ، بعد ان خضنا غمار الحرب الى نهايتها . وكان بإمكاننا ان نتأكد من صحة المعلومات التي توفرت لنا في السابق ، وما قمنا به أثناء الحرب على ضوء تلك المستندات والوثائق التي حصلنا عليها في النهاية . ففي شهر تموز عام ١٩٣٦ ، كان هتلر قد أصدر أوامره باجراء الاستعدادات ووضع الخطط لاحتلال النمسا عندما يحين الوقت المناسب . وقد دعيت هذه العملية عملية « اوتو » . وقد كشف عن مخططة هذا في الخامس من شهر تشرين الثاني عام ١٩٣٧ عندما قال لقادة القوات المسلحة بأنه يترتب على المانيا ان تضمن لنفسها « مداها الحيوي » وهذا المدى يمكن ضمائه في شرقي اوروبا ، أي بولندا وروسيا البيضاء واورانيا . أما احتلال هذه البلدان فيعني حربا رئيسية وابادة للشعوب التي تعيش في تلك المناطق . لذلك وجب على المانيا ان تصفي حسابها أيضا مع « العدوين المكروهين » انكلترا وفرنسا اللتين تعتبران ان قيام العملاق الالمانى وسط اوروبا سيكون غير محتملا . ولكي تستغل المانيا ما وصلت اليه من تفوق في الميدان العسكري ، وما بعثه الحزب النازي من حماس وطني صادق ، فان من الواجب عليها ان تقوم بالهجوم في اول فرصة ممكنة ، لكي تقضي على هاتين العدوتين ، قبل ان تتمكن من الاستعداد .

لقد كان هناك سببان اخران دفعا بهتلر الى اغتصاب النمسا خلاف ما ذكره من تصميم في كتابه « كفاحي » من رغبته في ضم جميع الشعوب التوتونية

الى الرايخ • فاحتلال النمسا يعني فتح ابواب تشيكوسلوفاكيا من جهة ،
ومداخل جنوب شرق اوروبا من جهة اخرى •

أما داخل النمسا فكانت الحركة النازية تنمو مع كل انتصار يحققه هتلر
سواء في داخل المانيا ام في خارجها • وقد صدرت تعليمات خاصة الى فون
باين لكي يبقى على احسن العلاقات مع الحكومة النمساوية بالاضافة الى
محاولته الحصول على اعتراف رسمي من الحكومة بالحزب النازي النمساوي
كمؤسسة مشروعة • واتقن فون باين دوره وعمل بذكاء كبير داخل النمسا ،
وقد رضى الكثير من الزعماء النمساوين لضغطه ومكائده • وكانت الحركة
السياسية التي تعتمد عليها النمسا ، قد تأثرت الى حد كبير نتيجة للاضطرابات
الداخلية ولاعمال الارهاب ولحوادث القنابل التي كانت تهز أسس الجمهورية
النمساوية •

وساد الاعتقاد ان الوقت قد حان لاستلام زمام الامور عن طريق ادخال
زعماء الحزب النازي النمساوي الى الحكم عن طريق الوزراء ، بعد ان تم
الاعتراف به مؤخرًا ••

وفي الثاني عشر من شهر شباط عام ١٩٣٨ استدعى هتلر المستشار
النمساوي الهر فون شوشنيغ الى مقره في برختسغادن • وحضر المستشار
برفقة وزير خارجيته غيدو شميدت • وبين أيدينا الان نسخة عما كتبه شوشنيغ
عن هذه المقابلة التي جرت بينه وبين هتلر ، وننقل النص الحرفي لهذا الحوار •

وقد بدأ هتلر بالسخرية من التحصينات العسكرية التي اقامتها الحكومة
النمساوية على الحدود وقال انها لا تتطلب اي مجهود من المعتدي سوى عملية
عسكرية بسيطة لزالتها من الوجود • ثم استطرد قائلاً :

هتلر : لن احتاج الا لاصدار أمر ، وستختفي هذه الخيالات المضحكة
التي وضعتها على الحدود ، في ليلة واحدة • ولا اظن انكم تصدقون ان في
امكانكم الوقوف امامي اكثر من نصف ساعة • ومن يعلم ، فقد اصل الى فينا
فجأة كما صفة من عواصف الربيع • وعندئذ ستختبرون تجربة جديدة • لكني
اريد ان اوفر عليكم هذه التجربة ، التي ستكلفكم الكثيرين من الضحايا •
فبعد الجيش ، سيصل جيش الصاعقة ، ثم الحرس النازي • وعندئذ لن يتمكن
أحد من ان يمنعهم من الثأر ، حتى انا نفسي • فهل تريد ان تجعل من النمسا
اسبانيا اخرى • ان كل ما اريده انا هو تجنيبكم كل هذا •

شوشنيغ : ساوقف عملية التحصينات الدفاعية على الحدود في الحال ،
كما انني واثق من انك تستطيع ان تزحف على النمسا • ولكن ، يا سيدي

المستشار ، ان زحفكم هذا سيؤدي الى سفك الكثير من الدماء وربما سيؤدي الى حرب عالمية ، فأنت تعلم اننا لسنا وحيدين في العالم !

هتلر : انه لمن السهل ان تقول كل هذا وانت جالس على كرسيك المريح ، الا ان وراء هذه الاقوال الكثير من الولايات والدماء . فهل انت على استعداد لتحمل مسؤولية كلامك ؟ لا تعتقد ان في هذا العالم من يستطيع ان يقف بيني وبين ما قررت ان انفذه . أتقصد ايطاليا ؟ لقد تفاهمت مع موسوليني ونحن الان على خير ما نكون . من ؟ انكلترا ؟ لن ترفع اصبعها واحدا من اجلكم ! فرنسا ؟ لقد غامرت ، منذ سنتين ، عندما زحفت لاحتلال منطقة الراين — بمجموعة من الكتائب . ولو قابلت فرنسا هذا الزحف بالهجوم لاضطرت الى الانسحاب اما الان فقد أضاعت فرنسا الفرصة على نفسها .

حصلت تلك المواجهة الاولى في تمام الساعة الحادية عشرة صباحا . وبعد الغذاء استدعي النمسيون الى غرفة صغيرة كان بانتظارهم فيها ريبنتروب وبابن ، حيث قاما بتسليمهم الانذار الخطي الذي لم يكن يقبل اي مناقشة . وقد تضمن الانذار تعيين . سايكس — انكورات وهو نمسوي نازي ، وزيرا للامن في الحكومة النمساوية . كذلك تضمن الانذار عفوا شاملا عن جميع النازيين المعتقلين ، ثم ضم الحزب النازي النمسوي رسميا الى الجبهة الوطنية التي تشرف عليها الدولة .

وبعد ذلك استقبل هتلر المستشار شوشنيغ وقال له : « ساكرر عليك ، ان هذه هي فرصتكم الاخيرة . واني منتظر تنفيذ الشروط خلال ثلاثة ايام » . وفي مذكرات « يودل » عن نفس هذه الحادثة العبارة التالية : « وقد تعرض هون شوشنيغ وغيدو شميدت الى أعنف ضغط سياسي وعسكري ، الى ان وقع البروتوكول في تمام الساعة الحادية عشر مساء » وعندما عاد هون بابن مع شوشنيغ قال له : « هذه هي طريقة الفوهرر ، وقد اختبرتها بنفسك ، ولكن في المرة المقبلة سيكون الفوهرر شخصا اخر ، انه للحقيقة ساحر كبير »

ومضت المهزلة بأن أرسل موسوليني برسالة شفوية الى شوشنيغ يقول له ان ما جرى في برختسغادن كان مشرفا وعادلا . ثم أكد له ان موقف ايطاليا من النمسا لن يتغير ابدا ، كذلك اعرب له عن اخلاصه وصداقته الشخصية له . وفي الثالث من شهر اذار بعث شوشنيغ برسالة سرية الى موسوليني يعلمه فيها انه قد عزم على اجراء استفتاء شعبي عن الوضع السياسي . وبعد اربع وعشرين ساعة جاء الرد من الملحق العسكري لبلاده ، يخبره باجتماعه بموسوليني ويحذره من مغبة هذا الاستفتاء الذي وصفه بأنه « خطيئة » وقال

ان كانت النتيجة مرضية فسيقول الناس ان الاستفتاء لم يكن نزيها ، اما اذا لم يكن مرضيا فسيصبح وضع الحكومة حرجا للغاية . واذا كانت النتيجة سلبية فلن تكون ذات نفع على الاطلاق . الا ان شوشنيغ لم يأخذ بنصيحة موسوليني وتحذيره ، فقد اعلن في اليوم التاسع من شهر اذار عن رغبته في اجراء استفتاء عام في جميع البلاد صباح الاحد القادم في الثالث عشر من الشهر الجاري .

وفي بداية الامر ، بدا ان سايكس - انكوارت قد قبل بالفكرة . الا انه في صباح يوم الحادي عشر تلقى شوشنيغ مكالمات هاتفية من مركز الشرطة في فيينا تقول ان الحدود الالمانية في سالزبورغ قد اُغلقت ، وسحب موظفي الجمارك الالمان وقطعت مواصلات السكك الحديدية . ووصلت رسالة ثانية من القنصل في ميونيخ تقول ان القوات الالمانية متاهبة للتوجه الى النمسا . . .

وبعد قليل وصل سايكس - انكوارت ليخبره ان غورنغ طلب منه ان يلغى الاستفتاء خلال ساعة . واذا لم يصله الرد بالالغاء خلال المدة المذكورة فسيفترض ان سايكس - انكوارت قد منع من استخدام الهاتف للاتصال به . وانه سيتصرف على ضوء هذا الافتراض . وعندما علم شوشنيغ ان الجيش لا يمكن الاعتماد عليه ، ابلغ سايكس - انكوارت ان الاستفتاء قد ألغى . وبعد ربع ساعة عاد هذا يحمل اليه خبرا سجله على ورقة كتب فيها :

« لا يمكن انقاذ الوضع الا باستقالة شوشنيغ في الحال ، واذا لم يعين سايكس - انكوارت خلال ساعتين مستشارا ، فان غزو المانيا للنمسا سيتلوه فورا » .

وفي خلال هذا الوقت انتظر شوشنيغ وصول الرئيس ميكلاس ليقدّم له استقالته . وعندما دخل الى مكتب الرئيس جاءته رسالة بالشفيرة من الحكومة الايطالية تقول انه ليس في امكانها تقديم النصيحة مرة اخرى او ان تقوم بأي عمل من اجلهم . ورفض الرئيس تعيين المستشار النازي ، وقرر ان يجبر الالمان على القيام بأعمال عنيفة معيبة . لكنهم كانوا على اتم الاستعداد لارتكاب هذه الاعمال ، فأصدر هتلر أوامره بالزحف على النمسا ومباشرة عملية « اوتو » .

وفي محاكمات نورمبرغ قدمت هذه الحادثة الهاتفية التي دارت بين هتلر وبين الامير فيليب هيسي ، مبعوثه الخاص الى الدوتشي ، التي قدمت كوثيقة هامة ، وجدنا ان ننقلها بنصها الحرفي :

هيسي - لقد وصلت لتوي من قصر البندقية . وقد وافق الدوتشي على الموضوع بروح ودية . وهو يرسل اليك بالتحيات والاحترام . وقد وصلته المعلومات من النمسا ومن شوشنيغ بالذات . واعلن ان تدخل ايطاليا هو مستحيل ، وهو لن يعدو ان يكون الا كذبة كبيرة او « بلفة » وليس في امكانه ان يقوم بها . وهكذا افهم شوشنيغ ان سوء الحظ قضى بذلك ، ولا يمكن تبديل الامور الان . ولم يلبث ان أعلن موسوليني ان امر النمسا لا يهمه على الاطلاق .

هتلر - حسنا ، اخبر موسوليني ، اني لن انسى عمله هذا .

هيسي - نعم

هتلر - ابدا ، ابدا ، مهما حصل . واننا لا زلت مستعدا لاجراء معاهدة مختلفة معه .

هيسي - نعم ، وقد اخبرته بذلك ايضا .

هتلر - وعندما تنتهي عملية النمسا ، ساكون مستعدا للمضي معه الى آخر الطريق . ولن يهمني شيء .

هيسي - نعم ايها الفوهرر

هتلر - اسمع ، ساعقد اي معاهدة . ولن اخشى بعد الان عما سيترتب من الناحية العسكرية اذا ما اشتبكنا في صراع ما . ويمكنك ابلاغه شكري العميق ، ولن انسى مطلقا عمله هذا .

هيسي - نعم ، ايها الفوهرر

هتلر - لن انساه مطلقا ، مهما حدث . واذا ما احتاج الى اي مساعدة ، او حين يجد نفسه في أي خطر فليثق باني سالاومه مهما حدث ، ولو كان العالم كله ضده .

هيسي - نعم ، ايها الفوهرر

ولا شك عندما قام بانقاذه من الحكومة المؤقتة الايطالية عام ١٩٤٣

قد وقى هتلر بوعده .

لقد كانت امنية العريف النمساوي ، ان يدخل الى فيننا دخول المنتصرين . وفي يوم السبت في الثاني عشر من شهر اذار ، اعد الحزب النازي استقبالا حافلا للبطل المظفر . الا انه لم يصل اي شخص الى

العاصمة ، بل وصل ثلاثة من الجنود البافاريين الذين قدموا لاعداد الترتيبات اللازمة للجيش المحتل ، فرفعوا على الاكتاف . وبدأت الاخبار تتسرب ببطء ، فقد توقف الجيش عند الحدود مترددا ، ثم بعد ذلك عند لينز . وبالرغم من الاحوال الجوية المؤاتية وسهولة المواصلات ، فقد تحطمت معظم الدبابات . وبانت نقائص المدفعية الثقيلة وعبوبها ، التي سدت الطريق من لينز الى فيينا المتوقفة عن الحركة . وقد ألقي باللوم على الجنرال فون ريخناو ، وهو من اقرب المقربين الى الفوهرر ، الذي كشف التقصير القاضح فسي تجهيزات الجيش الالمانى .

وقد استاء الفوهرر كثيرا حين مر في شوارع لينز ورأى هذه الفوضى في حركة السيارات ، وأمر بفصل الدبابات الخفيفة لتستمر في مسيرها ، وهكذا دخلت العاصمة في صباح يوم الاحد ، ثم نقلت السيارات المصفحة والمدفعية الثقيلة وغيرها في شاحنات ضخمة لتصل الى فيينا في الموعد المحدد وتشارك في الاستعراض . ولا شك ان صورة هتلر ، لا تزال ماثلة امام اعيننا ، حين عبر بسيارته شوارع فيينا بين الوف الجماهير المحتشدة ، منهم المتحمس له ومنهم الخائف منه . الا ان الفوهرر لم يكن راضيا عن فشل آلياته الثقيلة ، وراح يوزع التهم على جنرالاته الذين ردوا عليه بأنهم جذروه من مغبة هذا الهجوم لان الجيش لم يكن مهيبا بعد للاشتراك في صراع كبير . الا ان الجميع سيطروا على اعصابهم ، فاحتفظوا بالمظاهر ، وسارت الاحتفالات الرسمية والاستعراضات في مواعيدها . وبانتهاء الاستعراض وقف هتلر وأعلن حل الجمهورية النمساوية ، وضمها الى الرايخ الالمانى .



في هذه اللحظة كان الهر فون ريبنتروب يستعد لمغادرة لندن لاستسلام مهام منصبه الجديد كوزير للخارجية . وقد دعى المستر تشمبرلين ، في هذه المناسبة الى حفلة غداء تقام على شرف السفير بمناسبة سفره وكانت من جملة المدعوين . وكانت زوجتي تجلس قرب السير الكسندر كادوغان على مقربة من طرف الطاولة . وبينما كنا نتناول الطعام جاء رسول من وزارة الخارجية يحمل رسالة الى السير الكسندر ، الذي ما ان قراها حتى هب واقفا من مكانه ، ثم تقدم من رئيس الوزراء وسلمه الرسالة . وقد لاحظت ان الرئيس قد غرق في قراءة الرسالة ، التي بدت هامة للغاية ، بينما عاد السير الكسندر الى مكانه بكل هدوء . وكانت محتويات الرسالة ، كما علمت بعد

ذلك ، ان هتلر قد غزا النمسا في هذه اللحظة ، وان قواته تتقدم نحو العاصمة . وبعد قليل ، قامت السيدة تشمبرلين ودعت الحضور الى شرب القهوة في غرفة الجلوس . وبدا في هذه الدقيقة ان المستر تشمبرلين وزوجته ارادا انهاء المأدبة باسرع وقت ، فسيطر شعور من الخوف والقلق على الحضور ، وقاموا ليدعوا ضيف الشرف .

اما فون ريبنتروب فكان محتفظا بهدوئه ووقاره ، كانه غير عالم بما يحدث في تلك اللحظات . وتقدمت من السيدة ريبنتروب ، وقلت لها « ارجو ان تتمكن المانيا وانكلترا من الحفاظ على صداقتهما ٠٠٠ » وقد اجابتنسي بلهجتها الرقيقة ٠٠٠ « ارجو ان تحرصوا على ان لا تفقدوا هذه الصداقة » . وتأكد لي ان السفير وزوجته كانا على علم بما جرى ، وانهما يحاولان ابعاد الرئيس تشمبرلين عن عمله وعن جهاز الهاتف . الا انه اضطر الى ان يقول للسفير « انا آسف جدا ، لاضطراري للذهاب لامر هام جدا ٠٠٠ » ثم غادر الغرفة على الفور . وبقي فون ريبنتروب وزوجته ، حتى اضطر الجميع بعد ذلك الى مغادرة المنزل . وكانت هذه اخر مرة شاهدت الهر ريبنتروب قبل ان يشنق .

وتحرك الروس هذه المرة ، ليدعوا الى مؤتمر عام لبحث الوضع العام . واقترحوا اعادة البحث في مشروع تنفيذ الميثاق الفرنسي - السوفياتي ، ضمن حدود عصبية الامم ، في حال تكررت تهديدات المانيا للسلام . الا ان باريس ولندن استقبلتا هذا الاقتراح بكثير من البرود . فقد كانت فرنسا منشغلة بأشياء اخرى . وكان المستر تشمبرلين لا يزال على تشاؤمه وانهياء معنوياته ، ولم يكن ليتفق معي حول تفسير الاخطار المتوقع حصولها وامكانية تجنبها او معالجتها حين تحصل . فقد كنت في ذلك الوقت احبذ هذه الفكرة ، اي فكرة قيام تحالف فرنسي - بريطاني - روسي ، وكنت متأكدا ان هذا هو الحل الوحيد لكبح جماح النازيين .

الفصل الثامن

تشيكوسلوفاكيا

عندما كان هتلر متجها في سيارته نحو فيينا ، التفت الى الجنرال فون هولدر وقال له « لا شك ان خطوتنا هذه ستقلق التشيكيين » . وادرك هولدر على الفور ما قصده هتلر بكلمته تلك ، وظهرت له نواياه المقبلة .

وقد سمعنا ان غورنغ ، يوم دخلت الجيوش الالمانية اراضي النمسا ، قال للوزير التشيكي المفوض في برلين ، مؤكدا له بصورة قاطعة بأنه ليس لالمانيا اية نوايا سيئة ضد تشيكوسلوفاكيا . كما اعلن المسيو بلوم ، رئيس وزراء فرنسا يوم الرابع عشر من شهر اذار ، في حديث له مع الوزير المفوض في باريس ، اعلن له بكل جدية ووقار ، ان فرنسا ستقوم بالتزاماتها تجاه تشيكوسلوفاكيا دون اي قيد أو شرط . الا ان جميع هذه التأكيدات لم تستطع ان تغير شيئا من الحقيقة الرهيبة .

ومن جهة ثانية ، حاولت بريطانيا الوصول الى اتفاق مع ايطاليا حول البحر الابيض المتوسط ، رغبة منها في وقف المانيا عند حدها ، كما ان مثل هذا الاتفاق سيقوي من مركز فرنسا ، ويمكنها هي من مراقبه ما يجري من احداث في اواسط اوربا . وقد حاول موسوليني ان يتخذ لنفسه مركزا قويا للمساومة خاصة بعد ان اطمأن لسقوط ايدن . فقرر الاتفاق مع بريطانيا ، وتم توقيع الاتفاق الانكليزي الايطالي في السادس عشر من شهر نيسان عام ١٩٣٨ ، الذي يقضي بالسماح لاييطاليا بالعمل في الحبشه واسبانيا على هواها ، مقابل حسن نيتها في اواسط اوربا . وكانت وزارة الخارجية كثيرة التشكك في هذه

الاتفاقية • وقد قال لنا مؤرخ حياة تشمبرلين ، فيلينغ ، انه كتب في رسالة شخصية خاصة : « لو رأيت مسودة الاتفاقية التي قدمتها وزارة الخارجية ، لقلت انها كافية لان تجمد دبا قطبيا ! »

وكننت من ناحيتي اساطر وزارة الخارجية مخاوفها تلك •

وكان هتلر من جهته يراقب الوضع باهتمام ، فهو يعلم ان موسوليني بحاجة الى مساعدته حين تطلق يده للعمل في الحبشة ، وهذا ما سيفرض عليه قبول ما ستعمله المانيا في تشيكوسلوفاكيا • وراحت الدوائر الرسمية تدرس البيانات الانكليزية والفرنسية ، وشعرت بارتياح لعزم الدولتين الغربيتين على اقناع التشيكيين بوجوب التروي حفاظا على السلام في اوروبا • وفي هذه الاثناء ، بدأ الحزب النازي السويدي بزعامة هانلاين ، بوضع لائحة بمطالبه المتضمنة الحصول على الحكم الذاتي في المناطق المجاورة لالمانيا • وسارع الوزيران البريطاني والفرنسي الى زيارة الوزير التشيكي لاقناعه و « للاعراب عن املمها الصادق في ان تمضي الحكومة التشيكية الى هذا الحد ، رغبة منها في تسوية النزاع وحسمه » •

وفي شهر ايار ، وصلت التعليمات من المانيا ، الى الالمان في تشيكوسلوفاكيا ، بزيادة الاضطرابات • وكان موعد الانتخابات قد حان ، وبدأت الحكومة الالمانية تساعد الفوضى ، بحملة مركزة من حرب الاعصاب ، والاشاعات القائلة ان القوات الالمانية تتجمع على الحدود التشيكية • ولم تؤد التطمينات التي اذاعتها حكومة المانيا ، الى تهدئة التشيكيين الذين اعلنوا هم ايضا التعبئة العامة في صفوفهم •

لقد كان هتلر متيقنا ان انكلترا وفرنسا لن تدخلا الحرب دفاعا عن تشيكوسلوفاكيا • لذلك دعا مستشاريه واصدر التعليمات بالاستعداد للهجوم على تشيكوسلوفاكيا • الا ان هذا الهجوم المطلوب لم يكن بالامر السهل ، اذ يترتب على المانيا ان تقذف نحو من خمس وثلاثين فرقة عسكرية لتتمكن من اختراق الخطوط الدفاعية التشيكية ، فالجيش التشيكي يعتبر من احداث الجيوش كفاءة وتجهيزا • هذا بالاضافة الى ان روسيا السوفياتية مرتبطة مع تشيكوسلوفاكيا ، وهي تتربص بالمانيا في حال محاولتها الهجوم على الاراضي التشيكية •

الا ان هتلر ، بالرغم من اعتقاده بنجاح فكرته بالاستيلاء على تشيكوسلوفاكيا ، فقد حاول ان يطمئن قادته الذين عارضوا فكرته تلك ، بأن قال لهم بانه لن يبدأ هجومه الا حين يتأكد ان فرنسا وانكلترا لن تتدخلوا في

هذه المعركة . الا انه في الثاني عشر من شهر ايلول وفي خطاب القاه في اجتماع لشبيبة الحزب في نورمبرغ ، هاجم الحكومة التشيكوسلوفاكية بعنف ، ولم تلبث الحكومة هذه ان ردت عليه في اليوم التالي بأن فرضت الاحكام العرفية في بعض المناطق من الجمهورية

وفي الحادي والعشرين من شهر ايلول القى لتفينوف في جلسة الجمعية العامة لعصبة الامم انذارا رسميا هذا نصه :

« ان جمهورية تشيكوسلوفاكيا ، تعاني في الايام الحاضرة من تدخل احدى الدول الاجنبية المجاورة ، في شؤونها الداخلية ، كما انها تتعرض لتهديد سافر بالهجوم عليها . ولذلك سيجد هذا الشعب الذي نعتبره من اعرق الشعوب الاوروبية حضارة ، والذي كافح طويلا من اجل الحصول على استقلاله ، سيجد هذا الشعب نفسه مضطرا على حمل السلاح من اجل الدفاع عن كيانه واستقلاله . وقد تلقيت منذ ايام سؤالا من الحكومة الفرنسية ، عن موقف بلادي في حال تعرضت تشيكوسلوفاكيا لهجوم اجنبي مفاجيء . وقد وجهت الى الحكومة الفرنسية جواب بلادي الصريح التالي :

« اننا سنقوم بالتزاماتنا وسنطبق ميثاق عصبة الامم ، وسنقدم كل مساعدة ممكنة لتشيكوسلوفاكيا ، وذلك بالتعاون مع فرنسا . كما ان وزارة الحربية على اتم الاستعداد للاشتراك في اي مؤتمر يعقد بين فرنسا وتشيكوسلوفاكيا لدرس الوسائل المناسبة لمواجهة الاحداث . » كما ان حكومتي قد تلقت من الحكومة التشيكوسلوفاكية سؤالا حول موقف الاتحاد السوفياتي وهل هو على استعداد لتقديم المساعدات بموجب الاتفاق السوفياتي - التشيكي ، اذا قامت فرنسا هي الاخرى بالوفاء بالزاماتها . وكان جواب حكومتي على هذا السؤال واضحا بالاجاب . »

ولم يلق هذا البيان الصريح اننا صاغية لا من حكومة بريطانيا العظمى ولا من حكومة فرنسا . فقد تجاهلت الدولتان هذا العرض ، ولم يحسب اي حساب لهذه الدولة الكبرى . وقد اثرت هذه المعاملة المنطوية على الكثير من الازدراء ، وتركت اثرا كبيرا على عقلية ستالين وتفكيره ، وقد كلفنا الازدراء والتجاهل الكثير من التضحيات الغالية فيما بعد .

والقى هتلر في السادس والعشرين من الشهر الحالي ، خطابا هاجم فيه بعنف تشيكوسلوفاكيا ورئيسها ، الا انه كان معتدلا تجاه فرنسا وبريطانيا العظمى . ومما قاله في خطابه ، انه يجب على تشيكوسلوفاكيا ان تتخلى فوراً عن بلاد السوديت ، وانها اذا ما تخلت عن هذه المناطق ، فسيعتبر القضية منتهية تماما ولن يعود يهمهم امر تشيكوسلوفاكيا على الاطلاق . واضاف بقوله ان هذا المطلب هو آخر مطلب اقليمي له في قارة اوروبا . وفي الساعة الثامنة من الليلة نفسها صدر البلاغ التالي عن وزارة الخارجية البريطانية : « بالرغم من المحاولات المبدولة من جانب بريطانيا لتسوية المشكلة التشيكوسلوفاكيا ، واذا ما حدث ان تعرضت البلاد الى هجوم الماني عليها ، فان فرنسا ستسارع الى مساعدتها . كما ان بريطانيا العظمى والاتحاد السوفياتي سيقفان بلا شك ، الى جانب فرنسا . »

وشعرت ان ساعة القتال قد اقتربت ، فقد كان عدد الجيش التشيكسلي مليوناً ونصف المليون من الجنود المجهزين باحدث الاجهزة ، تساندتهم آليات جبارة رائعة التنظيم . وبدأت تعبئة الجيش الفرنسي في الحال ، كما اصدرت الاميرالية البريطانية الاوامر بتعبئة الاسطول .

وفي هذه الاثناء ، بدأ الصراع بين هتلر ومستشارية . فقد بدا لهم ان الازمة قد تفاقمت بشكل خطير . فهناك نحو من ثلاثين الى اربعين فرقة مدرعة قد احتشدت على طول الحدود الشرقية لمانيا ، كما ان الجدار الغربي للبلاد قد سدته الحشود الفرنسية التي كانت تفوق قوة المانيا بنسبة ثمانية الى واحد . كذلك الجيوش السوفياتية التي راحت تشق طريقها عبر بولنده ورومانيا . وفي الحال قام فريق من الجنرالات الالمان بمؤامرة لاعتقال هتلر و « انقاذ المانيا من هذا المجنون »

وفي هذا الوقت ، ابرق المستر تشمبرلين الى هتلر ، دون ان يستشير احدا ، مقترحا عليه زيارته وطار المستر تشمبرلين الى المانيا وقد اقتنع ان حل المشكلة التشيكية هو في فصل منطقة السوديت عن تشيكوسلوفاكيا ، ولذلك سيقنع هتلر ويتخلى عن هجومه . وفي ميونيخ ، حيث نزل المستر تشمبرلين ، لحق به السيوديلاديه رئيس وزراء فرنسا ، وموسوليني ، ولم توجه دعوة الى روسيا لحضور هذا الاجتماع ، كما لم يسمح للتشيكيين بالحضور ايضا . وقد ابلغت الحكومة التشيكوسلوفاكية بان مؤتمرا سيعقد في اليوم التالي يضم ممثلين عن الدول الاوروبية الاربعة فقط . وانعقد المؤتمر

عند الظهر من اليوم نفسه واستمر حتى الساعة الثانية من صباح اليوم التالي ، وتم الوصول الى اتفاق بين « الاربعة الكبار » ، واعدت مذكرة وقع عليها الجميع في الجلسة نفسها ، وكانت المذكرة تتضمن قبولاً بكل ما تطلبه المانيا وموافقة تامة على وجوب الجلاء عن منطقة السودان خلال عشرة ايام ، كما تقرر تعيين لجنة دولية للاشراف على تخطيط الحدود النهائية .

وهكذا بدأت عملية تقطيع تشيكوسلوفاكيا . ولم تنتهي المشكلة عند هذا الحد ، فقد وجهت بولندا انذار الى الحكومة التشيكوسلوفاكية يقضي بتسليم منطقة « تيشين » الواقعة على الحدود بين البلدين ، وذلك خلال اربع وعشرين ساعة ، ولم يكن هناك من سبيل لرفض هذا المطلب القاسي . كما جاء المجريون يطالبون هم ايضا بحصتهم من الغنيمة .

ليس من السهل ، بعد ان مررنا خلال تلك السنوات القاسية ان نصور للاجيال القادمة حقيقة المشاعر المتأججة في نفوس البريطانيين نتيجة لاتفاق ميونيخ . فقد انقسم الرأي بين افراد أسر المحافظين واصدقائهم الى حد كبير جدا لم أر مثيلاً له في حياتي . وكان الرجال والنساء الذين تربطهم ببعضهم البعض علاقات متينة ينظرون الى بعضهم البعض نظرات كلها احتقار وغضب . ونحن لم نكن لنهتم كثيراً آنذاك بالرغم من نظرات السخرية والهزاء التي يقابلنا بها انصار الحكومة . واهتزت اركان الحكومة ، الا انها ظلت متماسكة . ولم يصمد الا وزير البحرية المستر دا فكوبر ، الذي قدم استقالته بعد ان بقي محافظاً على كرامته حين أمر بتعبئة الاسطول . ففي الوقت الذي كان المستر تشمبرلين يسيطر على الرأي العام البريطاني سيطرة تامة ، كان المستر كوبر يندفع من بين الصفوف ليعلن الى الرأي العام معارضته التامة لوقف رئيسه .

والقى المستر كوبر خطاب استقالته ، في مجلس العموم اثناء مناقشة موضوع اتفاق ميونيخ . وقد اعتبرت هذه الاستقالة حدثاً بارزاً في الحياة البرلمانية . وتحدث الوزير لمدة اربعين دقيقة بحرية تامة مرتجلاً خطاباً وطنياً سيطر فيه على مشاعر خصومه ومعارضيه من نواب الحزب . وصفق له نواب العمال والاحرار المعارضين للحكومة ، طويلاً وهتفوا له محبين . وكانت هذه الحادثة بداية انشقاق في حزب المحافظين .

ولا زلت اذكر حين قمت في المجلس وأعلنت « اننا قد منينا بهزيمة منكرة

لم يسبق لها مثيل « فقد ثارت ضدي عاصفة ضخمة في المجلس مما اضطرني الى التوقف عن الكلام لفترة قبل ان اعود الى متابعة كلامي . فقد كان هناك شعور من الاعجاب بما يبذله المستر تشمبرلين من جهود صادقة للمحافظة على السلام ، وخاصة محاولاته الشخصية التي قام بها في هذا الصدد . وهنا لا بد لي من ذكر الاخطاء وسوء التقدير للحقائق الراهنة التي وقع فيها تشمبرلين في محاولاته ، وان كنت لا اعارض الدوافع التي حدثت به الى اتخاذ المواقف التي وقفها والتي تحتاج الى الكثير من الشجاعة الادبية التي كان المستر تشمبرلين يتمتع بها . وقد مدحت فيه هذه الشجاعة بعد عامين في خطابي الذي ألقيته بمناسبة وفاته .

لقد كان في امكان الحكومة ان تعتمد حجة أخرى، بالرغم من انها تعرض بسمعة الحكومة نفسها . فلم يكن امر عدم استعدادنا لدخول الحرب بالامر الخفي ، لكن هل كان من هو اسرع مني للدلال على هذه الحقيقة ؟ لقد سمحت بريطانيا للقوة الجوية الالمانية ان تتفوق عليها . وكانت جميع مراكزنا معرضة للهجوم ، دون اي حماية . ولم يكن في بلد من اكبر بلدان العالم واكثرها كثافة في السكان ، سوى مائة مدفع مضاد للطائرات . وهذا المثل من ابسط الادلة على الواقع الاليم .

لقد ادى اتفاق ميونيخ الى سلب الحلفاء جيشا قويا ، هو الجيش التشيكوسلوفاكي المجهز باحدى وعشرين فرقة نظامية ، بالاضافة الى فرق الخط الثاني التي تبلغ ست عشرة فرقة . اما خط دفاعها المحصن ، فقد كان يتطلب في هذه الاثناء ، ثلاثين فرقة المانية اي ما يعادل قوة الجيش الالمانسي الرئيسية باسرها . وقد ذكر الجنرال الالمانسي يودل ان ثلاث عشرة فرقة المانية ، بقيت في الغرب عندما جرى توقيع اتفاقية ميونيخ . وكانت الخسارة الفادحة حين قضت تلك المعاهدة بسلخ جزء هام من الاراضي التشيكية بما فيها مصنع سكودا البالغ الاهمية الذي كان يعتبر اهم مصنع في اوروبا الوسطى ، وكان انتاجه بين شهر آب ١٩٣٨ وايلول ١٩٣٩ معادلا لما تنتجه جميع المصانع البريطانية من سلاح . وبذلك اصبح هذا المصنع ملكا خاصا لهتلر قدمناه له على طبق من فضة .

الفصل التاسع

براغ ، البانيا ، وضمانة بولندا

في شهر كانون الثاني عام ١٩٢٩ . سافر فون ريبنتروب الى وارسو لمواصلة هجومه الدبلوماسي المركز على بولندا . فابتلاع تشيكوسلوفاكيا يجب ان يتبعه حصر بولندا . والمرحلة الاولى تقضي بعزلها عن البحر وتأكيد سيادة المانيا في دانزيغ ، ومد سلطتها على سواحل البلطيق حتى ميناء ميميل اللينوني . اما الحكومة البولندية فقد قاومت بشدة هذا الضغط ، بينما كان هتلر يترقب الفرصة المناسبة لبدء العمليات العسكرية .

وفي شهر اذار انتشرت الشائعات عن تحركات مريبة تقوم بها الجيوش الالمانية في المانيا والنمسا ، خاصة في منطقة فينا سالزبورغ وقد قالت الشائعات ان اربعين فرقة قد اصبحت جاهزة للمعركة . وفي نفس الوقت كان السلوفاكيون ، بعد ان تأكدوا من ان المانيا ستقوم بمعاونتهم ، يخططون لفصل بلادهم عن الجمهورية التشيكوسلوفاكية . واحست بولندا بشيء من الارتياح ، بعد ان زال الخطر عنها مؤقتا ، واعلن وزير خارجيتها في وارسو ان حكومتها تعطف على مطالب وآمال السلوفاكيين .

وفي بريطانيا ساد الشعور بالتفاؤل الضال على الرغم من المحن التي كانت تقاسيها تشيكوسلوفاكيا في ذلك الحين نتيجة للضغط الهائل من المانيا . اما الصندف البريطانية التي سبق وايدت اتفاقية ميونيخ ، فلم تفقد ثقتها في السياسة التي جرت اليها البلاد . وقام وزير الداخلية والقي خطابه في العاشر من شهر اذار اعرب فيه عن امله في مشروع خمس سنوات من السلم يؤدي

بعد ذلك الى خلق « العصر الذهبي » . وكان البحث جاريا لانشاء علاقات تجارية مع المانيا . وقامت الصحيفة الاسبوعية الشهيرة « بنش » بنشر صورة كاريكاتورية لجون بول ، وهو يستيقظ من كابوس مرعب . وفي نفس اليوم الذي نشرت فيه هذه الصورة ، وجه هتلر اخر اذار الى الحكومة التشيكية التي اصبحت ضعيفة واهنة بعد ان ضاعت خطوطها الدفاعية المحصنة نتيجة لاتفاقيه ميونيخ وهجمت الجيوش الالمانية على العاصمة براغ واحتلتها دون مقاومة . ولا زلت اذكر اني كنت في غرفة التدخين ، اجلس مع المستر ايدن حين طالعنا صحف المساء بهذا النبا الهام . وقد ذهلبا من هذا العدوان السافر المفاجيء الذي لم تكن نتوقه . ولم نصدق ان حكومة جلالته ، بما لديها من اجهزة قوية للاستخبارات لم تعلم من قبل بمثل هذا الهجوم المفاجيء .

وفي اليوم الرابع عشر من اذار اعلن السلوفاكيون استقلالهم . واجتازت القوات المجرية التي تؤيدها بولندا ، اجتازت الحدود الى المناطق الشرقية من تشيكوسلوفاكيا التي سبق وطالبت بها . ووصل هتلر بعد قليل الى براغ ليعلم فرض حماية المانيا على تشيكوسلوفاكيا ويعلن ضمها الى الرايخ الالمانى .

وكان رد المستر تشمبرلين على هذا العدوان في خطاب المقاه في مجلس العموم يوم الخامس من شهر اذار حيث قال : « في تمام الساعة السادسة من هذا الصباح تم احتلال القوات الالمانية لبوهيميا ، كما اصدرت الحكومة التشيكوسلوفاكية اوامرها بعدم المقاومة . » ثم قال عن الضمانة البريطانية لحدود تشيكوسلوفاكيا : « لقد تبدلت الاوضاع كلية عندما اعلن مجلس الداييت السلوفاكي انفصاله واستقلال سلوفاكيا . وادى بالتالي هذا الاعلان الى نهاية الدولة التي ضمنا حدودها بسبب من الانشقاق الداخلي . لذلك فان حكومة جلالته تجد نفسها غير مرتبطة بذلك الالتزام . . . »

وكان من المقرر ان يلقي رئيس الوزراء المستر تشمبرلين خطابا في برمنغهام بعد يومين . وكنت اتوقع ان يكون هذا الخطاب متسامحا ، الا اني فوجئت بتغير شامل لم اكن انتظره . وقد ادرك تشمبرلين الخطأ الذي وقع فيه كما ادرك انه خدع نفسه ، وفرض هذا الخطأ على الراي العام البريطاني . فبدل موقفه المسالم السابق مديرا له ظهره ، وقام ليكشف امام العالم عن حقيقة شخصيته القاسية الصلبة . قام المستر تشمبرلين ليلقي خطابا عنيفا هاجم فيه هتلر بشدة متهما اياه بالتنكر لجميع الوعود التي قطعها على

نفسه في مؤتمر ميونيخ وذكر جميع التأكيدات التي اكدها هتلر حين قال « ان هذا هو آخر مطلب اقليمي لنا في اوروبا » وقال رئيس الوزراء :

« لقد كانت غالبية الشعب البريطاني مقتنعة ، بعد مؤتمر ميونيخ ، بوجوب التقيد بسياسة الحفاظ على السلام ، اما الان فلا يسعني الا ان اشارك هذا الشعب خيبة امله المريرة وسخطه الشديد لتحطيم تلك الآمال . ان كيف يمكننا جمع هذه النقائص بين تأكيدات هتلر السابقة واحداث هذا الاسبوع ؟ وكيف سنطمئن الى ان هذا الهجوم لن يتلوه الهجوم الجديد على دولة صغيرة اخرى ؟ وهل سيكون هجومه هذا كخطوة اولى نحو فرض سيطرته على العالم بالقوة ؟ »

وفي الثلاثين من شهر اذار اعلن المستر تشمبرلين في البرلمان : بعد ان تأكد له ان خطوة هتلر التالية هي الهجوم على بولندا وابتلاعها .

« في حال وجود اي اعتداء من شأنه ان يهدد استقلال بولندا ، فسان حكومة جلالته ستجد نفسها مضطرة في الحال الى مساعدة الحكومة البولندية بكل ما في وسعها . وقد اكدت حكومة جلالته ذلك الى الحكومة البولندية . »

« واود في هذه المناسبة ان اقول ، ان حكومة فرنسا قد فوضتني ان اوضح موقفها المطابق لموقفنا من هذه المسألة الهامة . . . وقد ابلغت جميع حكومات الدومينيونات بهذا القرار . » !!

ولم يكن الوقت يسمح لتبادل التهم بين الاحزاب في المجلس ، وايد جميع الزعماء الضمانة التي قدمتها الحكومة الى بولنده . وقلت معلقا على هذا القرار « لن نجد اية وسيلة اخرى سوى ان نعمل هذا » فقد كان هذا العمل ضروري بعد ان وصلنا الى هذا الحد . ولكن هذه الضمانة تعني حتما نشوب حرب عالمية . . .

وهكذا نصل الان في هذه القصة من الاحكام الخاطئة التي ارتكبتها رجال اكفاء من ذوي النيات الحسنة . ولا شك ، بعد ان وصلنا نتيجة لتلك الاخطاء الى هذا المأزق ، لنضع المسؤولين عن زمام الامور مهما كانت نياتهم حسنة ، يتحملون وزر اعمالهم امام التاريخ . وبمنظرة الى الوراء سنجد ما سبق وقبلناه او ما سبق وتخلينا عنه : لقد كانت المانيا منهوكة القوى مجردة من السلاح بفضل معاهدة صارمة . وبعد ذلك قامت المانيا لتتسلح من جديد وتتحدى تلك المعاهدة ، ثم تخاذلنا فتقوت علينا المانيا في ميدان الطيران الحربي ، ثم احتلت منطقة الراين بالقوة واحتلت بناء تحصينات خط سيففريد ،

ثم انها اقامت معاهدة محور بينها وبين ايطاليا ، ثم انقضت على النمسا وابتلعتها • ثم تخليتنا نحن عن تشيكوسلوفاكيا ، وساعدنا على تحطيمها حين وقعنا معاهدة ميونيخ وسلمنا بذلك خط دفاعها الحصن الى الالمان بالاضافة الى مصانع السلاح في سكودا التي انتقلت بموجب تلك المعاهدة الى ايدي الالمان ليقوموا بتزويد انفسهم بالسلاح • ثم تجاهلنا وساطة ومساعي الرئيس روزفلت لاقامة سلام في اوروبا ، ثم اهمالنا لرغبة الاتحاد السوفياتي الصداقة في الاشتراك مع دول الغرب لانقاذ تشيكوسلوفاكيا • كل هذه الاخطاء والتخليات ذهبت هباء منثورا •

والان جاءت بريطانيا لتقدم ضمانتها لبولندا ، تلك الدولة التي ساعدت على تقطيع اوصال تشيكوسلوفاكيا قبل ستة اشهر فقط • وسنضطر الان لكي ندافع عنها ان نهاجم المانيا التي اصبحت اكثر قوة ومناعة مما كانت عليه عام ١٩٣٨ حين تراجعنا • اما الآن فقد عقدنا العزم على مجابهة المانيا • لكن هذا القرار قد اتخذناه في اسوأ الظروف ، وعلى اساس غير مقنعة والتي ستؤدي بحياة الملايين من البشر •••



ودفع البولنديون ثمن مقاطعة تيشن التي استولوا عليها من تشيكوسلوفاكيا • فعندما استقبل قون رينبتروب سفير بولنده في برلين ، كانت لهجته جافة حادة اكثر من المرات السابقة ، فقد نجم عن احتلال بوهميا وانشاء دولة سلوفاكيا ، وصول الجيش الالماني الى حدود بولندا الجنوبية • وقد قال له السفير البولوني ، ان رجل الشارع العادي لا يمكنه فهم المسبب الذي دعا المانيا الى حماية سلوفاكيا بشكل يعتبر عملا عدوانيا موجها ضد بولنده ، كما طلب السفير معلومات عن الحادثات التي جرت بين قون رينبتروب ووزير خارجية ليتوانيا ، وبالاخص فيما يتعلق بمرقا ميمل • ولم يات الرد على سؤاله هذا الا بعد يومين حين احتلت المانيا هذا المرقا • ولم يعد بالامكان صد الهجوم الالماني على اوروبا الشرقية • اذ ان المجر قد وقفت الى جانب المانيا • كما ان بولندا حين تخلصت عن تشيكوسلوفاكيا اصبحت غير مستعدة للتعاون مع رومانيا ، كما انها ورومانيا لا ترضيان بمرور القوات الروسية عبر اراضيها للوقوف في وجه المانيا • وكان محور الموضوع يدور حول التفاهم مع روسيا بالذات !!

وفي السادس والعشرين من شهر اذار القى موسوليني خطابا عنيفا بين فيه بشدة مطالب ايطاليا من فرنسا بشأن البحر الابيض المتوسط • وفي

الفصل العاشر

على حافة الحرب

واخيرا وصلنا الى النقطة الحاسمة، التي تدهورت فيها جميع علاقاتنا مع المانيا ، والتي راحت تهدد بالانقطاع . ونحن الان نعرف ان هذه العلاقات لم تكن صادقة بين بريطانيا منذ اليوم الذي جاء فيه هتلر الى سدة الحكم . فقد كان هتلر يحاول اكرامنا بشتى الوسائل والطرق على قبول الوضع الحاضر والسماح له باطلاق يده في شرق اوروبا بينما كنا نقوم بدورنا في تهدئة المخاطر بكل اخلاص . وما قد جاء الوقت الذي فقدت فيه حكومة تشمبرلين كل أمل في تسوية الوضع المتأزم . وما ان اقتنعت الوزارة ان المانيا جادة في طريق الحرب ، حتى سارعت الى عقد المحادثات ومنح الضمانات دون تفكير بما قد تجره هذه الضمانات علينا من اعباء مرهقة ، بالاضافة الى امكاناتنا المحدودة في تقديم العون لتلك البلاد . وهكذا منحت ضمانات اخرى بالاضافة الى الضمانات السابقة ، الى كل من اليونان ورومانيا وعقدت حلفا مع تركيا .

وترقب بالتالي ، على الحكومة ، ان تدرس امكانية تطبيق الوسائل العملية لتنفيذ هذه الضمانات نحو بولندا ورومانيا . وقد كانت هذه الضمانات غير ذات قيمة ، من الناحية العسكرية ، ما لم تكن ضمن برنامج من الاتفاقات يعقد مع روسيا . وحاولت الوزارة ان تنفذ هذا التحالف مع روسيا فطلبت من السفير البريطاني في موسكو ان يبدأ سلسلة من المحادثات مع المسيو لتفينوف . ولم اكن انتظرا نتيجة من هذه المحادثات بسبب معاملتنا الجافة لروسيا في السابق . وبالرغم من ذلك فقد قدم الروس مشروعا

لعهقد تحالف بين بريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفياتي يقضي بتقديم العون الى دول اوربا الشرقية التي تتعرض للغزو الالماني . وكانت العقبة الكبرى التي عرقلت هذا التحالف ، هو خوف تلك الدول الصغيرة من التعاون مع روسيا الذي يقضي بدخول الجيوش السوفياتية الى اراضيها للدفاع عنها ضد المانيا ، والسبب في ذلك خوفها من قلب نظام الحكم الحاضر وضم تلك البلاد الى النظام الشيوعي السوفياتي التي كانت تعارضه تلك البلاد . ووقعت البلاد في حيرة من امرها ، هل تخاف الغزو الالماني اكثر ام العون الروسي . وكان هذا التردد السبب في شل حركة السياسة البريطانية والفرنسية في تلك المنطقة .

وقف المستر تشمبرلين مذهولا امام هذه المشكلة الجديدة ، وبدأ طريقة المماطلة والتسويق . ولو انه قبل هذا العرض الروسي لتغير وجه التاريخ وسارت الامور بطريقة تختلف عما وصلت اليه ، وعلى الاقل ، لن تكون النتيجة باسواء مما اصبحت عليه بالفعل .

وساد الصمت ، وأعدت انصاف الحلول والتسويات والمساومات . واصيب المشروع بضربة قاصمة ، ومنيت محادثات ليتفينوف بالفشل الذريع ، وبدأ له ان التفاهم مع الدول الغربية اصبح مستحيلا ، وفقدت الثقة بين الروس والغرب ، وشعروا بوجوب اتباع سياسة خارجية مختلفة تماما عن السابق ، وذلك للحفاظ على سلامتهم . وصدر البيان الرسمي القاضي بعزل ليتفينوف من منصبه في وزارة الخارجية ، وتكليف مولوتوف ، رئيس الوزارة ، بمهام الوزارة بدلا منه . وهكذا تم اقضاء الوزير اليهودي الذي كانت المانيا تكره وجوده ، وتعاون مولوتوف مع ستالين نفسه في رسم سياسة خارجية جديدة اكثر تحررا من السياسة السابقة ، واكثر انسجاما مع مصلحة روسيا الخاصة . ولم يكن امامهم الا طريقا واحدا ، هو تأييد هتلر المطلق .

كان خوفي شديدا من تراجع حكومة جلالته عن ضمانتها لبولندا فسي حال تعرضها لهجوم الماني واسع النطاق . ولكن المستر تشمبرلين كان قد عقد العزم على خوض معركة ضارية مهما كان هذا العزم مريرا بالنسبة له . ولكنني لم اكن على معرفة وثيقة به كما اصبحت فيما بعد . وكان خوفي ان يقوم هتلر « ببيلة » جديدة من بنات افكاره ، كأختراعه لسلاح جديد رهيب يمكنه من تخريف مجلس وزارتنا المثقل بالاعباء . وكان الاستاذ ليندلمان

يحدثني دائما عن الطاقة الذرية ، وقد طلبت اليه ان يطلعني على المعلومات الكافية حول هذا الموضوع ، ففعل وبعثت برسالة الى كنفزلي وود ، وزير الطيران ، هذا نصها :

« قرأت في احدى الصحف قبل اسابيع ، عن قصة الطاقة الهائلة التي يمكن بعثها من الاورانيوم ، وقد توصلت الاختبارات الحديثة الى اكتشاف هذه الطاقة بعد ان يتجزأ هذا النوع من الذرة بواسطة النيوترون . وقد اوحى هذه التجارب عن وجود قوة هائلة من المتفجرات التي يمكن ان تحتوي على قوة تدميرية مخيفة . ولكن يمكننا الاطمئنان الى ناحية هامة ، هو ان هذا الاكتشاف الجديد لا يمكن وضعه في موضع الاستعمال قبل عدة سنوات .

« وهناك دلائل تشير الى ان القصص والروايات ستحلك حول امكانية استخدام هذا الاختراع العلمي الجديد لاستخراج مواد متفجرة سرية منه ، قادرة على محو لندن من الوجود . وستجري محاولات عديدة من قبل رجال الطابور الخامس لاقتناعنا باستخدام هذه التهديدات لقبول عملية استسلام من نوع جديد . لذلك رأيت من واجبي ان الفت نظرك الى ذلك .

« اما الخوف من ان يكون الالمان قد اكتشفوا مثل هذا السلاح الرهيب ، فهذا لا يستند الى اي اساس علمي صحيح . ولا شك فسي ان التلويح بهذا السلاح سيظهر وستنتشر الاقاويل الخيفة وستتضخم الاشاعات ، وكل املي ان لا تأخذ الجهات المسؤولة بهذه الاشاعات المضخمة . »

لقد كان هذا المتكهن صحيحا ودقيقا بنفس الوقت . فالالمان لم يجدوا الطريق الصحيح ، بل تبعوا طريقا خاطئا وما لبثوا ان تخلوا عن فكرة البحث عن اختراع القنبلة الذرية ، واستمروا في ابحاثهم لاختراع الصواريخ الموجهة والطائرات التي تطير دون طيارين ، بينما كنت والرئيس روزفلت نتخذ المقررات الهامة التي ساتي على ذكرها في الوقت المناسب ، لاتمام صنع القنابل الذرية على نطاق واسع .

في السابع من شهر تموز صرح موسوليني للسفير البريطاني بكلمة حول

موقف بلاده من المانيا فقال : « قل لتشميرلين ، انه اذا كانت بريطانيا راغبة حقا في الدفاع عن بولندا وحمل السلاح من اجلها ، فان ايطاليا لن تتأخر عن حمل السلاح والاشتراك مع حليفاتها المانيا » . اما موقف موسوليني المستتر فكان اهتمامه الشديد في تثبيت مركزه في البحر الابيض المتوسط وشمال افريقيا ، وحصوله على نتائج مرضية من جراء تدخله في اسبانيا ، واحتلاله لالبانيا . ولم يكن يرغب في الدخول في حرب اوروبية من اجل احتلال المانيا لبولندا . فبالرغم من تبجحه وادعاءاته فكان يدرك في قرارة نفسه ضعف مركزه العسكري السياسي . وربما كان على استعداد للدخول في الحرب عام ١٩٤٢ بعد ان تزوده المانيا بالسلاح اما في عام ١٩٣٩ فلا ، ثم لا . . .

وفي الصيف ، بعد ان اشتد الضغط على بولندا ، اراد موسوليني ان يمثل الدور الذي مثله في ميونيخ ، كوسيط للسلام . الا ان هتلر كان قد عقد العزم على احتلال بولندا ، ووضح لتشيانوف عن تصميمه لتسوية الوضع مع بولنده ، وانه سيضطر للدخول في حرب مع انكلترا او فرنسا ، وهو يظلمسب من ايطاليا الدخول معه في هذه الحرب ، وقال : « واذا قررت انكلترا الاحتفاظ بقوات كافية في بلادها ، فعليها ان ترسل بغرقتين من المشاة الى فرنسا مع فرقة مدرعة . وعليها ان تبعث بقاذفات القنابل الى المانيا ، اما الطائرات المقاتلة فيمكنها الاحتفاظ بها في بلادها ، لانها ستحتاج اليها هناك ، لان قواتنا الجوية ستهاجم انكلترا في الحال . وستحتاج الى تلك المقاتلات للدفاع عن بلادها . » اما عن فرنسا فقال ان تدمير بولندا لن يستغرق طويلا ، وستتمكن المانيا من حشد جيوشها على خط ماجينو وستكون على اتم الاستعداد للدخول في معركة الحياة او الموت ورجع تشيانوف لينقل الى رئيسه ما سمعه من هتلر ، فلقاه مقتنعا هو الآخر ان الدول الديمقراطية « تخوض الحرب ، كما وجده اكثر تصميمًا على البقاء خارجها . »

وقامت محاولات جديدة للتقرب من روسيا ، الا انها باءت جميعها بالفشل الذريع ، وقد قال لي ستالين حين زرته في شهر اب عام ١٩٤٢ ، عندما كنا في الكرملين ، موضحا ناحية واحدة من موقف روسيا عندما قال : « لقد تأكد لنا ان الحكومتين البريطانية والفرنسية غير عازمتين على الدخول في حرب مع المانيا اذا ما هاجمت بولندا ، وان رمزتهما في عقد الحلف الروسي - الفرنسي - البريطاني ليست كما تبدو في الظاهر ، بل لرغبتهما في كبح جماح هتلر . وكنا على ثقة تامة ان هذا الحلف لن يوقف هتلر . »

وقد سأل ستالين احد المفوضين : « كم فرقة تستطيع فرنسا ان تقذف بها الى الميدان ضد المانيا ؟ » وكان الرد « مائة فرقة » ثم سأل « وكم تستطيع انكلترا ان ترسل ؟ » وجاءه الرد « فرقتين اولاً ، ثم فرقتين فيما بعد » .
ثم سأل « هل تعلمون كم فرقة نستطيع ان نقذف الى الميدان في حال دخلنا الحرب ضد المانيا ؟ » ، ولما لم يجبه احد من المتفاوضين استطرد قائلاً :
« اكثر من ثلاثماية فرقة ! » . ٠٠٠٠

وهنا ارى من الواجب ان اسجل نص الميثاق المعقود بين المانيا وروسيا ، بعد ان فشلت المحاولات الغربية لاشراك روسيا في حلف ضد المانيا ، وبعد ان اتجهت روسيا نحو المانيا التي سارعت الى عقد ميثاق عدم اعتداء هذا نصه .
« ترى الدولتان المتعاقدتان ، ان من الواجب عدم القيام باي عمل وقد احتفل بتوقيع هذا الميثاق باحتفال رسمي كبير ، وقام ستالين ليشرب نخب هتلر وقال : « انا اعرف ان الشعب الالمانى يحب زعيمه حبا كبيراً . لذلك احب ان اشرب نخبه » .

نستخلص مما تقدم ان الاستقامة هي السياسة المثالية . وسنرى فسي هذا الكتاب امثلة عديدة على هذه النظرية . فقد يبدو الساسة والدهاة ، على خطأ في حساباتهم التي افترضوها . الا ان هذا المثل يبقى اوضح من غيره .
فبعد اثنين وعشرين شهراً ارغم ستالين وعشرات الملايين من الشعب الروسي ان يدفعوا ثمننا باهظاً ومخيفاً لما وقع . ٠٠٠٠



الفصل الحادي عشر الحرب

اصدر هتلر بيانه الاول في الحادي والثلاثين من شهر اب :

- ١ - لما فشلت جميع الاحتمالات السياسية لتسوية الوضع على الحدود الشرقية بطريقة سلمية ، ولما كانت الاوضاع الراهنة غير محتملة ، فقد قررت ان افرض الحلول بالقوة .
- ٢ - يجب تنفيذ الهجوم على بولندا حسب الخطة المرسومة ، وقد تقرر موعد الهجوم يوم الاول من شهر ايلول عام ١٩٣٩ في تمام الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والاربعين صباحا .
- ٣ - من المهم ان يكون الاعتداء من جانب انكلترا او فرنسا بشكل واضح . وفي حال وقوع حوادث طفيفة على الحدود ، يجب الاكتفاء بالعمل المحلي فقط .

وهكذا قامت المانيا بهجومها على بولندا في صباح الاول من شهر ايلول عام ١٩٣٩ ، كما اصدرت حكومتنا امرها بتعبئة جميع القوات المسلحة . وبعد ظهر ذلك اليوم طلب مني رئيس الوزراء ان احضر لزيارته في دوانغ ستريت . وقد قال لي انه لم يعد هناك من امل في تجنب الحرب مع المانيا ، لذلك فهو يقترح تشكيل وزارة صغيرة للحرب ، تضم وزراء دون وزارات معينة لتسيير دفة الحرب . وقال ان حزب العمال غير مستعد للاشتراك في حكومة ائتلافية . اما الاحرار فهم يطلبون المشاركة في الحكم . ثم طلب مني ان اكون عضوا في تلك الوزارة الحربية . وقد وافقت على هذا الاقتراح دون اي تعليق . وفي المساء انعقد المجلس ، والقى رئيس الوزراء خطاب تهدئة استقبله المجلس استقبالا سيئا . وعلا الصراخ والهتافات ، ولم يكن ثمة شك في ان

المجلس استقبالا سيئا . وعلا الصراخ والهتاف ، ولم يكن ثمة شك في ان التاسعة والنصف مساء ، وان هذا الانذار سيعقبه انذار ثان وثالث . واعلنت الاذاعة ان رئيس الوزراء سيوجه كلمة الى الشعب في الساعة الحادية عشرة والرابع من صباح الثالث من ايلول ، اي بعد ان تنتهي مهلة الانذار الثالث . وتوجه الرئيس بكلمته معلنا ان بريطانيا اصبحت في حالة حرب مع المانيا . وما ان انهى كلمته ، حتى سمعنا صرنا حادا غريبا يتطلق ، سرعان ما اعتدنا عليه فيما بعد . وهبطنا الى الملجأ المخصص لنا على بعد مائة ياردة من البيت ، ويتألف من قبو يلجأ اليه السكان . وكانت دلائل المسرح بادية على الوجوه ، وهي عادة انكليزية يتمسك بها الانكليز في اوقات الشدائد . وبعد عشرة دقائق دوت الصفارة من جديد معلنة انتهاء الغارة ، فصعدنا وتفرقنا الى بيوتنا وتوجهنا الى اعمالنا . وكان علي ان اتوجه الى مجلس العموم الذي اجتمع عند الظهر حسب العادة بعد ان تلونا صلاة استهلاكية قصيرة . وفي اثناء الجلسة تلقت رسالة من رئيس الوزراء يطلب مني موافقته الى مكتبة بعد انتهاء الجلسة . وقال لي المستر تشمبرلين انه يعرض علي وزارة البحرية ، مع مقعد في وزارة الحرب . وسررت جدا لهذا العرض ، فقد كنت امل ان يعهد الي بمهمة معينة محدودة قد عرضت علي هذه المهمة بالاضافة الى مركزي السابق في الوزارة .

وما ان توليت مركزي في وزارة الحربية ، حتى بعثت بكلمة سريعة الى الاميرالية ، اخبرهم فيها عن توليتي للقيادة فورا ، وابلغهم بانني ساصل الى الاميرالية في تمام الساعة السادسة . وكان المجلس رقيقا جدا اذ بعث بهذا الخبر الطريف الى جميع الوحدات يقول « لقد عاد ونستون » . وهكذا رجعت مرة اخرى الى نفس الغرفة التي غادرتها حزينا منذ ربع قرن ، عندما تنحيت عن وزارة البحرية بعد استقالة اللورد فيشر . وعندما جلست الى مقعدي القديم ، رايت شنطة الخرائط القديمة التي اعدتها في سنة ١٩١١ ، وفيها خريطة بحر الشمال التي كنت اطلب من دائرة المخابرات ان تسجل لي عليها تحركات الاسطول الالماني كل يوم ، كي اكون على اطلاع دائم على تحركاته . وهكذا بعد مضي ربع قرن ، عاد نفس الخطر القاتل يهددنا مرة اخرى ، وما نحن نضطر مرة اخرى الى حمل السلاح لنصرة بلد صغير تعرض للغزو وان نقاتل دقاعا عن حياتنا وشرفنا ضد قوة وغضب شعب شجاع هو الشعب الالماني المحب للنظام ، والبعيد عن الرحمة

كان اول عمل قمت به في وزارة البحرية ، تشكيل دائرة خاصة بسي للارقام ، وعهدت الى الاستاذ ليندمان ، صديقي والمؤتمن لدي منذ سنوات بها .

وقد اضطرت الى ابقائه بصورة مستديمة مع نخبة من الرجال الاخصائيين والاقتصاديين الذين لا يهتمون بشيء سوى بالحقائق والوقائع . وقد استطاعت هذه المجموعة من الرجال الاكفاء ان تقدم اصدق الجداول والرسوم ، وتشرح لي سير الحرب يوما بيوم .

ولم تكن ثمة هناك دائرة خاصة للاحصاء . فقد كانت الوزارات تقدم ما لديها حسب ارقامها وحساباتها . وكانت كل وزارة تتبع طريقة في الاحصاء تختلف عن طريقة زميلتها الاخرى ، كما كانت الوزارات تتحدث بلغات واصطلاحات مختلفة ، كثيرا ما كانت تخلق البلبلة واضاعة الوقت . اما انا فكانت مصادري كلها اكيدة وثابتة في المعلومات التي كنت اقدمها .

وفي مجلس الوزراء كنا نراقب عمليات التدمير السريعة لدولة ضعيفة ، حسب البرنامج الذي اعده هتلر . فقد قذف بالف وخمسمائة طائرة الى بولندا كما ارسل جميع فرقة الالية والمدركة ، التي اشتركت مع ست وخمسين فرقة اخرى من المشاة . ولم يكن البولنديون اكفاء للالقاء هذا العدد الضخم ، او هذه المعدات الهائلة ، كما لم يكونوا قد استعدوا ورسوموا خطة حكيمة لحماية انفسهم ، فكل ما عملوه من استعداد عسكري انهم وزعوا جيشهم على طول الحدود ، بينما بقيت البلاد دون اية قوة احتياطية . وهكذا لم تصمد بولندا امام الجيش الالماني الا اسبوعين اثنين ، وما لبث جيشها الذي يعد مليونين ، ان فقد معظم محاربيه واضحى لا قيمة له .

اما روسيا ، فقد ارسلت بجيوشها في السابغ عشر من شهر ايلول عبر حدود بولندا الشرقية الخالية من اي مقاومة ، ثم سارت غربا ، وفي الثامن عشر منه تالقت مع الجيوش الالمانية في بريست ليتوفسك . وزادت بذلك عملية التدمير الخيفة ودافعت وارسو بشجاعة فائقة واستسبل ابناءؤها ، وبعد عدة ايام من القصف الجوي المستمر ، من المدفعية الالمانية الثقيلة التي نقلت عبر الطرق الرئيسية الالمانية من الحدود الغربية ، توقفت اذاعة وارسو عن البث ، ودخل هتلر الى الدينة الخربة . وانتهى كل شيء خلال شهر واحد واضحى الشعب البولندي الذي يبلغ عدده خمسة وثلاثين مليونا تحت رحمة الغزاة الذي امعنوا فيه تقتيلا .

لقد شاهدنا تكتيكا جديدا من التعاون الوثيق بين القوات الجوية المغيرة والقوات البرية الزاحفة ، والقصف العنيف للمدن وطرق المواصلات الرئيسية كذلك راينا تسليح الطابور الخامس وبث العيون ، وهبوط المظليين بصورة

واسعة النطاق ، كما رأينا الاندفاع الهائل لقوات ضخمة من الاليات والمدركات التي لا يمكن مقاومتها . . . ولم تكن بولندا اخر من تحتم عليها ان تعاني مثل هذه المحنة .

ساد الجمود لفترة طويلة ، العالم الغربي ، بعد هجوم هتلر الساحق على بولندا ، وعمت الدهشة لهذا التوقف الغريب ، بعد ان اعلنت فرنسا وبريطانيا الحرب على المانيا . . . الا ان التحرشات الالمانية ، وعمليات الهجوم المباغت على السفن التجارية في البحر ، قد ازعج حركة التجارة . وبدأت السفن التجارية ، تغادر الموانئ يوميا على شكل مجموعات وقوافل وتزودت كل واحد منها بمدفع مضاد وببحارة مدربين . وراحت كائنات الالغام تجرب البحار بالاضافة الى المقطع البحرية الصغيرة المجهزة بقنابل الاعماق ضد الغواصات وأدت عملها على خير ما يرام ، وشعرنا بأن هجوم الغواصات الالمانية على السفن التجارية قد انتهى ، وغدت البحار تحت اشرافنا وسيطرتنا . وكان من المتوقع ان يزداد عدد الغواصات الالمانية بعد مدة وجيزة ، لان بناء الغواصات كان يجري في جميع الموانئ الالمانية بسرعة هائلة ، وكان علينا ان ننتظر بدء حرب الغواصات خلال سنة او سنة ونصف على الاكثر . الا اننا كنا ننتظر اكمال بناء مدمراتنا وقطعنا المضادة للغواصات التي اصبحنا بفضلها نملك زمام الامور لمواجهة الخطر بقوة .

وتلقيت رسالة من الرئيس روزفلت ، وكنت قد قابلته مرة واحدة اثناء الحرب الاولى في حفلة عشاء ، وقد ادهشتني حيويته وشبابه وحضور ذهنه . وقد كتب لي في رسالته الشخصية تلك : « لما كنا قد توصلنا الى مراكز مشابهة اثناء الحرب العالمية الاولى ، فاني اريد ان تعلم مدى سروري وغبطتي حين علمت برجوعك مرة اخرى الى الاميرالية . وربما تكون مشاكلكم قد ازدادت تعقيدا ، الا ان المشاكل الرئيسية لم تتغير . وفي هذه المناسبة اود ان اؤكد لك ولرئيس الوزراء عن استعدادي التام وترحيبي الكبير حين ترغبون الاتصال بي شخصيا بواسطة رسائل مخلقة ، وان تنقلا لي كل ما تريدان نقله . وبوسعكما ارسال رسائلكما الشخصية ضمن حقيبتنا الدبلوماسية او حقيبتكم » واجبت على رسالته في الحال واستخدمت توقيع « شخص من البحرية » وبدأنا بذلك سلسلة المراسلات الطويلة الخالدة التي بلغ عددها الف رسالة ، والتي استمرت حتى وفاة الرئيس روزفلت بعد خمس سنوات .

وقع في شهر تشرين الاول حادث اثر على الاميرالية بشدة . فقد جاء التقرير يقول انه في ليل الرابع عشر من الشهر ذاته دخلت غواصة الى ميناء سكابافلو ، واغرقت احدى بوارجنا وهي في الميناء ، بعد ان انطلقت الطوربيدات بشكل لا يصدق ، واصاب احدهما قوس البارجة واحداث فيه انفجارا كبيرا ، ولم يصدق قبطان البارجة ما حدث لبارجته وهي راسية في الميناء مطمئنة . وظن ان الانفجار داخلي . وممرت عشرون دقيقة بين الطوربيد الاول والثاني الذي الحقته بسيل كبير منها فاغرقت البارجة بعد ان تحطمت شر تحطيم . وفي عشرة دقائق ابتلعها المياه . وكان معظم البحارة في مراكز عملهم ، لكن السرعة التي تم فيها اغراق البارجة جعل من المستحيل عليهم النجاة من الغرق المحتم .

ولا ريب ان هذه المأساة ، كانت عملا بطوليا رائعا لقائد الغواصة الالمانية القبطان براميين . وقد اهتز الرأي العام البريطاني لهذا العمل الجريء . وكان في امكان هذا الحادث ان يقضي على اي وزير من الوزراء لو اعتبر مسؤولا عن الاجراءات الدفاعية التي اتخذت قبيل الحرب . اما لكوني حديث عهد في الوزارة ، فقد تخلصت من هذه الازمة ومن اللوم ومن استغلال المعارضة لهذا الحادث .

وجاءنا الخطر المميت الثاني . فقد اغرقت اثنتي عشرة سفينة تجارية عند مدخل موانئنا خلال شهري ايلول وتشرين الاول ، بالرغم من تنظيف تلك الموانئ من الالغام . وقد شكت الاميرالية على الفور ، بإمكانية استخدام العدو للالغام المغطاة . ولم تكن هذه الالغام جديدة علينا ، فقد استخدمناها على نطاق ضيق في نهاية الحرب الاولى ، لكن الاضرار المفظيعة التي يمكن ان تحدثها الالغام الارضية ، لم يكن فهمه شيئا سهلا ، وكان من المتعذر علينا ان نجد طريقه لعلاج هذه المشكلة الجديدة قبل ان نرى نموذجا من هذه الالغام . وقد تطورت الاعمال وازدادت الخسائر ، اذ بلغت خلال شهري ايلول وتشرين الاول نحو من ستة وخمسين الف طن ، مما حدا بهتلر الى الاشارة الى هذا « السلاح السري » الجديد الذي لا يمكن اتقاؤه . وفي ذات ليلة ، بينما كنت في شارنويل جاءني الاميرال باوند ، وقد بدا عليه القلق والاضطراب واخبرني ان ست بواخر جديدة قد اغرقت عند مداخل نهر التايمز . وكانت البواخر التي تدخل موانئنا وتخرج منها تجاوز المئات كل يوم ، وكانت حياتنا كلها متوقفة على هذه الحركة المستمرة . ولا شك ان الخبراء لدى هتلر قد ابلغوه ان هذا النوع الرهيب من الهجوم سيقضي علينا ويدمرنا . ومن حسن الحظ ان هتلر كان ينتج هذا السلاح على نطاق ضيق محدود .

وفي الثاني والعشرين من شهر تشرين الثاني ، وفي تمام الساعة التاسعة شوهدت طائرة المانية تسقط شيئا ضخما بمظلة كبيرة السى البحر قرب شوبارنيس ، ويطوق الساحل هنا مساحات شاسعة من الطمى التي تظهر عند حدوث المد ومن الممكن فحص هذا الشيء الضخم حال حدوث الجزر ، وهنا ساعدنا الحظ وواتتنا الفرصة المناسبة ، وفي الحال استدعي السى مركز الاميراليه ضابطان من ابرز الضباط المتخصصين بالاسلحة البرمائية وهما اوفري ولويس ، وتحدثت معهما ومع لورد البحر الاول ، واستمعت الى اراءهما . وفي تمام الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل توجهنا الى ساوثيند لاداء مهمتها الخطرة في الكشف عن هذا الشيء الغامض . وتمكننا قبل فجر يوم الثالث والعشرين من العثور على اللغم وفحصه .

وبدأت عملية دقيقة عندما وجد الضابطان لغما اخر قريبا من اللغم الاول . وراح اوفري يحاول تعطيل اللغم الاول ، بينما وقف زميله لويس ومعه البحار القدير فيرنيكومب يراقبه استعدادا لكل مفاجئة . وبعد ساعات رهيبة تم تعطيل اللغم الاول واستخلاصه ، ثم أرسل الى بورتسموث لاجراء الدراسات الدقيقة عليه . ووصل في الحال اكثر من مئة ضابط ليشاهدوا الخطر الذي كان يهدد حياتنا .

وبدأنا منذ ذلك الحين سلسلة من التجارب العلمية ، بعد ان تمكننا من اكتشاف سر تركيب الالغام ، لاختراع وسائل الدفاع ضد هذه الالغام وتوصلنا الى اختراع بعض الاسلاك الكهربائية وتطويق السفن بها . الا ان هذه الطريقة لم تؤد الى النتيجة المطلوبة . فقد استمرت حوادث الانفجارات لكن السفن المصابة لم تغرق في الحال ، بل كانت تستمر في مسيرها الى اقرب مرفأ لاصلاحها من جديد .

وبعد مدة طويلة من التجارب توصلنا الى اختراع وسائل اكثر فعالية لمكافحة الالغام ، وكانت النتيجة مذهلة . وتمكنت اخيرا كائنات الالغام من تطهير البحار من جميع الالغام المزروعة وبدأ الخطر يزول . وقد كلفتنا هذه العملية الكثير من المجهود الحربي ، واضطررنا الى تحويل الكثير من المعدات والاموال من ميادين اخرى الى هذا الميدان ، وقد جندنا لهذه العملية الهامة ما يقارب الستين الف رجل ، الا ان النتائج كانت مذهلة وتأثيرها المعنوي على رجالنا ورجال اسطولنا التجاري كانت رائعة . ولم نكن حتى ذلك الوقت قد تعرضنا لاي اعتداء معين في الميدان الواسع للمعارك البحرية . لكن هذا الاعتداء سرعان ما حدث

ففي يوم الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني، شاهد الطراد المسلح

« راولبندي » بينما كان يقوم بعملية استكشاف بين ايسلنده وفاروس، شاهد بارجة عدوة تقترب منه بسرعة . وظن قائد الطراد ان البارجة هي بارجة الجيب « دويتشلاند » فابرق الى الادارة المركزية في الحال ، وكان قائد الطراد يعلم انه من الجنون ان يحاول الدخول في معركة بحرية مع البارجة العدو، أما الطراد فلم يكن أكثر من سفينة تجارية تحولت الى طراد مجهز بأربع مدافع قديمة من عيار احد عشرة بوصة لذلك أبقى الى الادارة المركزية وقرر المجازفة والقتال حتى النهاية . واقتربت البارجة بسرعة هائلة وراحت تطلق نيرانها من مسافة عشرة الاف ياردة ، فرد الطراد عليها ، وبدأت النيران الهائلة تنصب عليها حتى تحولت الى كتلة من النار ، وما لبثت ان غرقت بعد حلول الظلام مع قبطانها و ٢٧٠ رجلاً من رجالها الشجعان .

وبالطبع لم تكن البارجة العدو هي البارجة « دويتشلاند » وانما كانت الطراد « شارنهورست » ومعها « غنيزناو » . اللذان غادرا المانيا لمهاجمة قطع اسطولنا في الاطلنطي . الا انهما بعد ان اصطدما براولبندي ، اضطرا الى العودة في الحال بعد اكتشاف امرهما . وهكذا لم تذهب تحصيات رجال الطراد البواسل هباء ، فقد تمكن الطراد « نيوكاسل » من التقاط اشارة الطراد « راولبندي » وتوجه الى ميدان المعركة وحاول مطاردة العدو ، الا ان هذا تمكن من الإفلات منه .

وفي شهر آب وصلت الانباء الى القيادة العليا ، ان بارجة او اثنتين قد غادرتنا المانيا متوجهة الى الاطلنطي ، فقام اسطولنا في الحال بالبحث عنهما . وعلمنا بعد مدة ان البارجة غراف شبي الالمانية قد اغرقت احدى بواخرنا الضخمة كليفت في شهر ايلول ، وذلك قرب برنا ميوكو . واضطربت الاميرالية لهذا النبأ المفجع ، وضج الرأي العام ، وارتسمت علامات الاستفهام وراح الهمس يدور : « اين هو اسطولنا ؟ » . فتألفت على الفور وحدات مسلحة لمطاردة البارجة واغراقها ، وقد انضم الى الوحدات عدد من حاملات الطائرات والبوارج والطرادات المجهزة بقوة كافية لتتمكن من القضاء على البارجة الالمانية .

وخلال الاشهر التالية كانت تسع وحدات بحرية مطاردة تجوب البحار بحثا عن البارجتين الالمانيتين « دويتشلاند » و « غراف شبي » . وكانت الثانية اكثر جرأة من الاولى ، فقد استمرت بنشاطها ، فكانت تضرب السفن الصغيرة ثم تختفي في الافساق الشاسعة . واستمر البحث عن « غراف شبي » الى ان عثر عليه في الثاني عشر من كانون الاول ، قرب مصب نهر لابلاتا، من قبل الطراد « اجاكس » . وكان على ظهره الكومودور هارود .

وتم في الحال حصار البارجة العدو وانضم الى المعركة الطرادان « اخيل » و « لاكسيتر » . وبدأت معركة حامية الوطيس واشتعلت البحار بالنيران الملاحية لمدة ساعة وعشرين دقيقة . واصيبت طراداتنا باضرار بالغة مما اضطرها الى الانسحاب تحت ستر الدخان الكثيفة بانتظار حلول الظلام كما اصيبت البارجة العدو وشوهدت ابراجها تتساقط مشتعلة . وكانت فرصة العدو الذهبية حين شعر قائد الطراد بان الذخيرة ستنضب فاضطر الى الانسحاب تاركا الفرصة للبارجة العدو للانسحاب الى ميناء مونيفيديو فتبعها الطرادان البريطانيان دون ان يشتبكا معها في اي معركة، ودخلت البارجة الى الميناء للتزود بالوقود ولاصلاحها من جديد . بينما وقف الطرادان بانتظارها واغراقها في الحال عند خروجها من الميناء .

وابرق قائد البارجة في السادس عشر من كانون الاول الى القيادة يقول ان سبيل النجاة قد سد أمامه وطلب تزويده بالتعليمات اللازمة هل يقوم باغراق الطراد ام يستسلم ؟ وجاءته التعليمات من الاميرالية الالمانية : « حاول ان تبقى في المياه المحايدة ٠٠٠ ثم حاول ان تتجه الى بيونس ايرس ان استطعت . ولا تستسلم في اورغواي ٠٠٠ واذا قررت اغراق البارجة دمرها تدميرا كاملا »

وهكذا ، بعد ظهر اليوم التالي ، شوهدت بحارة البارجة تغادرها الى احدى السفن الالمانية الراسية في الميناء ، وعند المساء توجهت البارجة ببطء الى عرض البحر حيث كانت طراداتنا بانتظارها . وما ان اقتربت من عرض البحر حتى سمعنا انفجارا مدويا وشاهدنا النيران تشتعل في البارجة العدو ، فعلمنا ان « غراف شبي » قد اغرقت نفسها ، كما علمنا ان قائدها لانغسروف قد اصيب بانفيار عصبي لخسارته الفادحة فانتحر بعد يومين .



الفصل الثاني عشر

الجبهة في فرنسا

اتجهت الحملة البريطانية حال نشوب الحرب الى فرنسا ، وما ان انتصف شهر تشرين الاول حتى كانت اربع فرق بريطانية تتمركز على الجبهة الفرنسية - البلجيكية ، وانضمت اليها ست فرق اخرى في شهر اذار . وقد وجدت القوات البريطانية ان الجبهة مستعدة تمام الاستعداد ، فقد حفرت الخنادق لمقاومة الدبابات ، وانشأت مراكز من الاسمنت المسلح ، ركزت عليها مدافع ورشاشات مضادة للدبابات ، بالاضافة الى الاسلاك الشائكة الممتدة على طول الجبهة . وكانت مهمة جنودنا تحسين الجبهة الدفاعية التي اعدھا الفرنسيون وتنظيم شكل من اشكال خط سيفغريد . وتقدم العمل بصورة سريعة بالرغم من الجليد، وعندما اخذت الصور الجوية تبين ان الالمان بدورهم بدأوا يوسعون خط سيفغريد من الشمال عبر الموزيل . وقد كانت المواد الاولى في متناول ايديهم مما سهلت لهم مهمة العمل ، الا اننا كنا نسير بسرعة تضاهي سرعتهم في التنفيذ . وتم تشييد المنشآت اللازمة لقاعدة ضخمة ، وانهينا تعبيد الطرقات وتحسينها ومدت سكة حديد جديدة يبلغ طولها مئة ميل . ثم اتممنا انشاء نحو من خمسين مطارا جديدا وقاعدة جوية صغيرة . كما تزودنا بكميات هائلة من العتاد والنخيرة توزعت في المستودعات على طول طرق مواصلاتنا . وقد تزودنا بالمؤن التي كانت تكفي لمدة عشرة ايام بين السين والاسوم ، بالاضافة الى كميات اخرى تكفي لسبعة ايام شمالي السوم . وقد ساعدتنا هذه المؤن وانقذتنا بعد ان تمكن الالمان من اختراق الجبهة .

كانت روح الجيش الفرنسي ، تختلف عن السابق اثناء الحرب الاولى ،

فقد ولت تلك الروح المتأثرة المشبعة بالانتقام يعد ان حققت نصرها الاول وكان معظم القادة الذين تولوا زمام الامور ، قد قضوا نحبهم منذ وقت طويل . وكان الشعب الفرنسي لا يزال مشدوها من هول المذبحة التي ذهب ضحيتها نحو مليون ونصف المليون رجل . وكانت فكرة الهجوم لا تزال مرتبطة بمخيلتهم وبالفشل الذي أصابهم اثناء هجومهم عام ١٩١٤ وعام ١٩١٧ وبالالام والخسائر التي تكبدوها اثناء الهجوم ، وسيطر عليهم الشعور بان الاسلحة والاختراعات الحديثة قد زادت من قوة الدفاع واصبحت تشكل خطر اكبر على الهجوم والمهاجمين . ولم يكن هناك من يمكنه ان يتفهم الحقيقة الجديدة القائلة بأن السيارات المدرعة قادرة على الصمود امام نيران المدافع ، بالاضافة الى سرعتها الفائقة التي تمكنها من قطع مائة ميل في اليوم الواحد . ولم يكتثر رجال الجيش وقادته لذلك الكتاب القيم حول هذه المواضع ، الذي كتبه شخص يدعى القومندان ديجول . فقد كانت افكار المارشال العجوز بيتان مسيطرة على عقول القادة ومغلقة الطريق امام الافكار الجديدة الجريئة .

وقد سمعنا بعد انتهاء الحرب بالنقد الكثير حول سياسة خط ما جينو . ولا شك ان فكرة الدفاع لدى الفرنسيين كانت نتيجة هذه السياسة . الا ان التدابير الاحترازية الصحيحة للدفاع عن حدود شناسعة تمتد الى مئات الاميال ، تقضي باقامة اكبر عدد ممكن من الحواجز والعقبات والحصون ، فهي توفر من استخدام القوات المحاربة . ولو احسن استعمال خط ما جينو لكان باستطاعته ان يقدم خدمة كبيرة لفرنسا .



هناك نكتة معروفة في بريطانيا تقول ان وزارة الحربية اليوم تستعد للحرب الماضية . وكانت هذه النكتة مطابقة لمواقع حال الجيش الفرنسي انذاك ، وكنت من جملة المؤمنين بنظرية الاجراءات الدفاعية التي يجب تنفيذها بدقة . وكنت بالاضافة الى ذلك عارفا بمدى تخوف الفرنسيين من الهجوم نتيجة المذابح المخيفة في الحرب الاولى . كما ان الوقت الذي اضعناه قد فسخ المجال امام الالمان لبناء خط سيغفريد . وكانت المجازقة ضخمة لو فكرنا بقذف البقية الباقية من الشبيبة الفرنسية لاقتحام هذا الجدار الهائل من الاسمنت المسلح . وكانت نظرتي في الاشهر الاولى للحرب لا تختلف كثيرا عن وجهه النظر السائدة المتعلقة بالدفاع . وكنت اعتقد ان الاجهزة المضادة للدبابات ومدافع الميدان قادرة على صد اي هجوم مهما كان . الا ان هذه

النظرية كانت خاطئة ، فقد قدر لنا ان نشهد بعد ثمانية اشهر هجوما هائلا شنته القوات المانية تتقدمها السيارات المصفحة التي لم تؤثر فيها قوة المدافع لقساوة فولانها ، فتمكنت من تحطيم جميع ما اعدناه من مقاومة دفاعية ، وجعلت من المدفعية سلاحا لا قيمة له ، لأول مرة في تاريخ الحروب منذ اختراع البارود .

لكن الجيش الفرنسي لم يكن في وسعه شن اي هجوم قبل نهاية شهر ايلول، الا ان بولندا في ذلك الوقت كانت قد استسلمت . ولم يحل شهر تشرين الاول حتى تمكن الالمان من حشد سبعين فرقة من الجبهة الغربية متفوقين بذلك على الحشود الفرنسية . ولو فكر الفرنسيون بشن هجوم من الجبهة الشرقية لتركوا الجبهة الشمالية خالية ، وهي الجبهة الاكثر اهمية .

اما السؤا الذي طالما اثير : « لماذا بقيتم جامدين الى ان دمرت بولندا ؟ » فالجواب عليه هو ان المعركة قد تقررنت نتيجهها منذ سنوات . فالفرصة كانت مواتية ومضمونة عام ١٩٢٨ يوم كانت تشيكوسلوفاكيا موجودة . وفي عام ١٩٣٢ كان في وسع عصبة الامم ان تستصدر أمرا ترغم به المانيا على الرضوخ دون حاجة الى امراق نقطة دم واحدة . ولا يجوز ان نلقى باللوم على الجنرال غاملان لانه لم يقم بهذه المجازفة التي ازداد خطرها منذ الايام الاولى للازمات التي تخاذلت امامها فرنسا وبريطانيا .

والان ما هي احتمالات شن هجوم الماني عام على فرنسا ؟ كانت هناك ثلاث احتمالات هي : ان تقوم المانيا بشن هجومها عبر سويسرا للالتفاف حول الجبهة الجنوبية لخط ما جينو . الا ان العقبات الطبيعية والاستراتيجية كانت تحول دون قيام هذا الهجوم . اما الاحتمال الثاني فهو في امكانية غزو فرنسا من الحدود المشتركة بين البلدين . ولم يكن هذا الاحتمال ممكنا ، اذ لم نكن نعتقد ان الجيش الالمانى يملك المعدات اللازمة لتحطيم المنشآت المقامة واختراق خط ما جينو . يبقى الاحتمال الثالث وهو الهجوم عن طريق بلجيكا وهولندا . فبأمكان الجيش الالمانى ان يتجنب اختراق خط ما جينو ويوفر الخسائر المتوقعة من جراء الهجوم على التحصينات المنيعه . ولم يكن في استطاعتنا صد الهجوم على بلجيكا ، وان كان ذلك في سباحتنا . وكان هناك خطان يمكننا ان نتقدم نحوهما اذا ما دعمتنا بلجيكا لاحتلالهما . فالخط الاول هو ما يدعى خط « الشلدت » وهو قريب من الحدود الفرنسية ، ويمكن الوصول اليه بسهولة ، وبأمكننا الاحتفاظ به للتضليل ، وهذا في اسوأ الاحتمالات ، كما يمكننا اذا ساعدتنا الظروف ان نقوم بانشائه وتدعيمه . أما الخط الثاني فهو الخط الذي يسير مع نهر الوز عبر جيفيت ودينانست

ونامور ولوفين الى انتويرب . ولو استطعنا ان نحفظ بهذا الخط مهما كلفنا الامر ، فان الجناح الايمن للجيش الالماني سيتوقف ، وسيمكننا معرفة قوة الجيش الالماني ، فاذا كان ضعيفا ، عندئذ يمكننا ابتداء هجوم كاسح ندخل به الى المانيا ونشرف على منطقة الروهر الهامة بالنسبة للانتاج الحربي الالماني .

ويقول رؤساء الاركان : « ان الخطة الفرنسية المسماة خطة « د » تقضي بأن يسرع الحلفاء الى احتلال خط جيفيت - نامور ، اذا تمكن البلجيكيون من الاحتفاظ بحوض الموز ، كما انه يترتب على القوات البريطانية ان تعمل في الجهة الشمالية . ونحن نجد ان هذه الخطة غير معقولة ، الا اذا وضعنا خططها مع البلجيكيين انفسهم لاحتلال هذا الخط ، قبل مدة من الزحف الالماني ، وبعد ان يتبدل موقف بلجيكا الحالي ، وترسم الخطط اللازمة بوقت قريب لاحتلال خط جيفيت - نامور والمسمى في بعض الاحيان خط الموز - انتويرب . ونحن نجد انه يترتب علينا ان نواجه الزحف الالماني في اماكن نعددها في وقت مبكر على الحدود الفرنسية بالذات ،

وفي اجتماع مجلس الحلفاء الاعلى في باريس ، اتخذ القرار التالي : « نظرا للاهمية الكبرى المترتبة على وجوب ابقاء الالماني في أقصى مكان ممكن الى الشرق . فمن الضروري جدا بذل كل محاولة للمحافظة على خط الموز - انتويرب ، في حال تعرضت بلجيكا للهجوم الالماني » .

وهكذا أمضت الحملة البريطانية فصلي الربيع والشتاء في تجهيز مواقعها وتحصينها ، واستعدادها للحرب الدفاعية او الهجومية . وقد كانت استعدادات الجيش رائعة ومنظمة واكثر قوة في نهاية فصل الشتاء . الا اننا كنا لا نزال نشكو نقصا كبيرا في الدبابات ، ولم يكن لدينا فرقة مدرعة واحدة ضمن الحملة البريطانية في فرنسا . فقد اهتمنا تطوير هذا النوع من السلاح الفعال في فترة ما بعد الحرب الاولى ، ولم يكن عندنا سوى كتيبة تضم سبع عشرة دبابة خفيفة ومائة دبابة « مشاة » معظمها مجهزة بالمدافع الرشاشة فقط . لقد اهتمنا هذا السلاح الهام الذي قدر له ان يسيطر على ميادين القتال

اما الجيش الفرنسي فلم يكن بحالة حسنة ، ففرنسا لم تواجه الحرب عام ١٩٣٩ - ١٩٤٠ بروح معنوية مرتفعة او بشيء من الثقة والايمان . فالسياسة الداخلية المضطربة قد خلقت نوعا من الانقسام والسخط . وكانت الدعايات السامة التي ييثرها غوبلز تلاقي اذانا صاغية تحفظها وتردها . وكانت تأثيرات الانقسام والشيوعية والفاشية تنعكس على الجيش وتتغلغل

في صفوفه خاصة في فترة الانتظار الطويلة قبل الهجوم . ولم يكن هناك من ادنى شك في ان الانتظار الطويل قد أضر في كفاءة الجيش الفرنسي فلو قاتل في الخريف مثلاً لكان قتاله رائعاً واروع منه في الربيع . وسرعان ما وجد هذا الجيش نفسه عرضه لهجوم الماني كاسح صعقه بعنف .

وختاماً لهذا الفصل اذكر هذه الحادثة المهمة التي حدثت في اليوم العاشر من شهر كانون الثاني عام ١٩٤٠ والتي اكدت المخاوف بالنسبة الى الجبهة الغربية ، فقد قضت الظروف بأن تهبط طائرة المانية كانت تقل ضابطاً ألمانيا ، في بلجيكا ، وعندما اعتقلته القوات البلجيكية حاول الضابط ان يتلف بعض الوثائق التي كان يحملها ، الا انهم تمكنوا من مصادرتها قبل ان يتمكن من اتلافها . وقد تضمنت تلك الوثائق الخطة الكاملة لغزو بلجيكا وهولندا وفرنسا ، هذه الخطة التي وضعها هتلر بنفسه . وبعد قليل اطلق سراح الضابط فعاد الى بلاده واخبر قادته بما جرى له . وعندما نقلت الي التفاصيل ذهلت وانا غير مصدق كيف لا يضع البلجيكيون خطة يشركوننا فيها في الحال . لكنهم لم يفعلوا شيئاً من هذا وقد طلبنا منهم ان يتعاونوا معنا، لكن الملك وقادة الجيش آثروا التروي والانتظار عله يأتيهم المستقبل بأشياء جديدة تقلب الاوضاع مرة اخرى . اما من الناحية الثانية ، فقد استدعى هتلر غورنغ وامطره بسيل من الشتائم ثم اضطر الى تغيير خطة الغزو من اساسها . وقد تأكد لنا الان من الوثائق المصادرة ان هذه الخطة كانت صحيحة .

لقد أثر ملك بلجيكا ان يبقى على الحياد ، أملاً ان يتمكن من الصمود أمام الجيش الألماني ، ثم يطلب الجيوش البريطانية والفرنسية لتسارع الى نجدة . لقد كان العصر عصر التردد والتخاذل ، ولم تكن لنلومه على موقفه هذا .

الفصل الثالث عشر

اسكندنافيا وفنلندة

ان لشبه الجزيرة الممتدة من داخل البلطيق الى الدائرة القطبية اهمية عسكرية كبيرة • وتمتد سلسلة الجبال الى المحيط ويفصل بينها ممر من المياه الاقليمية تتمكن المانيا بواسطته من المرور والاتصال بالبحار الخارجية ، مما يجعل حصارنا البحري لا قيمة له • وكانت المانيا تعتمد بصورة رئيسية على استيراد مسحوق الحديد من السويد الذي يصلها في أيام الصيف من ميناء لوليا السويدي عند رأس خليج بوثنيا ، اما في الشتاء وعندما تتجمد مياه الخليج تصلها من النرويج • لذلك فان احترامنا لحياة هذه الخلجان يعني سماحنا لهذا الاستيراد والتصدير الذي تستغله المانيا تحت ستار الحياد متحدية بذلك تفوقنا البحري • وقد شعرت الاميرالية بهذا الخطر ، واخطرت بدوري وزارة الحرب عن هذا الموضوع •

وعندما اثرت هذا الموضوع الهام اصطدمنا بعقبة احترامنا التام لحياة الدول الصغيرة ! هذا المبدأ الذي كنا نتعلق به بالرغم من استغلال المانيا لهذا الاحترام • ولبت الموضوع بين أخذ ورد الى أن أخذت الوزارة باقتراحي بعد مدة طويلة حيث بدا ان الوقت قد فات على اتخاذ مثل هذا القرار •

وفي نفس الوقت كان الالمان يفكرون بنفس الاتجاه الذي كنت افكر به ، فقد قدم الاميرال ريدير ، رئيس اركان البحرية الالمانية ، اقتراحا الى هتلر باسم « كسب قواعد جديدة في النرويج » وقد وضح في اقتراحه مقدار الضرر الذي سيلحق بالمانيا بحال تم احتلال البريطانيين للنرويج وتحكمهم في مداخل البلطيق • وقد اصدر هتلر بناء على اقتراحات ريدير اوامره الى القيادة

العليا باعداد الخطة لعملية غزو النرويج .

وفي هذه الاثناء تحولت شبه جزيرة اسكندافيا الى ميدان للصراع اثار ضجة كبيرة في بريطانيا وفرنسا ، وأثر على محادثاتنا مع النرويج بشدة . فقد ادت موائيق المساعدات المتبادلة المعقودة بين روسيا وأستونيا ولاتفيا وليتوانيا الى احتلال هذه الدول وتدميرها - وبذلك أصبح الجيش الاحمر يقطع الطريق للدخول الى روسيا من ناحية الغرب . وبقيت الطريق عبر فنلندا .

ومن ناحية فنلندا فقد وقع احد الساسة الفنلنديين مع روسيا معاهدة صلح في عام ١٩٢١ ، كان من اهم مطالب الروس العديدة رد الحدود الفنلندية عند برنخ كاريليا الى الوراء مسافة كافية لتصبح مدينة ليننغراد في مأمن من خط المدفعية المعادية ، كما تسلمت روسيا عددا من الجزر الفنلندية ، أما الاختلاف الذي ادى الى محاولة غزو فنلندا فكان حين طلبت روسيا استئجار الموانئ الوحيدة التي لا تتجمد في فصل الشتاء لكي تجعل منها قواعد بحرية وجوية . وكان الرضوخ لهذا الطلب يعني تهديد سلامة فنلندا بصورة اكيدة . وقد رفضت الحكومة الفنلندية هذا الطلب وانقطعت المفاوضات ، واعلن مولوتوف بناء على ذلك الغاء ميثاق عدم الاعتداء المعقود مع فنلنده . وبعد يومين بدأ الهجوم الروسي على فنلندا على ثمانية جبهات وقام الطيران السوفياتي بضرب العاصمة هلسنكي من الجو .

وقد استبسل الفنلنديون في الدفاع عن بلادهم ، فقد مضت الاسابيع الاولى للهجوم السوفياتي دون ان يتمكنوا من تحقيق اي نصر . وبرهن الجيش الفنلندي عن بطولة نادرة في صد الهجوم الكبير . وقوبلت الدبابات السوفياتية الضخمة بسلاح جديد من القنابل اليدوية التي سميت بكوكيل مولوتوف . وقد استمرت الحملة حوالي الشهر الا انها باءت بالفشل الذريع ، وتأكد للحكومة السوفياتية بانها تقابل عدوا يختلف بقوته عما كانت تتوقعه ان يكون ، لذلك قررت القيام بهجوم كاسح كبير مما يحتاج الى اعادة تنظيم ، فخففت من حدة القتال على طول الجبهة الفنلندية بعد ان تمكن الفنلنديون من صد عدوهم النرويجي .

وساد شعور من السخط لدى الجميع ضد الحكومة السوفياتية ، بالاضافة الى الشعور بالاحتقار لعجز القوات الروسية عن غزو فنلندا الباسلة ، وبالعطف والحماس على فنلندا بالذات . وبالرغم من اننا نخوض حربا كبرى فقد كانت لدينا رغبة شديدة في مد يد العون الى الفنلنديين وذلك بتزويدهم بالطائرات والاليات الحربية وارسال المتطوعين من بريطانيا والولايات المتحدة وحتى فرنسا . ولم يكن هناك الا ممر واحد لارسال المتطوعين

والمعدات الحربية • وهو عبر ميناء نارفيك النرويجي الذي اكتسب أهمية استراتيجية كبرى • وكان استعمال هذا الميناء كقاعدة للتموين يؤثر على حياد النرويج والسويد • وكان هم هاتين الدولتين البقاء خارج نطاق الحرب • فقد كانتا تخشيان كلا من ألمانيا وروسيا • وطلبت الحكومة البريطانية من النرويج والسويد السماح لها بنقل الجنود والمؤن الى فنلندة •

كانت احدى القطع البحرية الألمانية المسماة « التمارك » تشغل تفكيري ، وهي القطعة البحرية التي كانت تساعد غراف شبي بالاضافة الى كونها سحبا عائما لبحارة البواخر التي كانت غراف شبي تفرقها • وقد وصلتنا الاخبار ان هناك ثلاثماية بحار بريطاني على ظهر (التمارك) التي تمكنت من الاختفاء لمدة شهرين في جنوب الاطلنطي وعندما اطمئن ربانها الى انه أصبح في مأمن من مطاردتنا ، حاول العودة بباخرته الى ألمانيا • وفي الرابع عشر من شهر شباط شاهدت احدى طائراتنا الباخرة المذكورة في المياه الإقليمية للنرويج •

وفي الحال تحركت المدمرات البريطانية بقيادة القبطان فيليب فيان على متن مدمرته « قوزاق » وقطعت طريق الباخرة الألمانية ، الا انها لم تبأشر بضربهما فالتجأت الباخرة الى خليج جوسينغ ، واعطيت الاوامر بتفتيش الباخرة ، وشوهد في نفس الوقت زورقين نرويجيين مسلحين ابلاغهما ان الباخرة الألمانية غير مسلحة ، وقد سمحا لها بالمرور عبر المياه الإقليمية ، فاضطرت المدمرتان البريطانيتان الى الانسحاب على الفور •

وما ان وصلت هذه الاخبار الى الاميراليه ، حتى عادت واصدرت الى مدمراتنا الاوامر بدخول الخليج • فدخل القبطان « فيان » بمدمرته الخليج وصعد الى احد الزورقين النرويجيين وطلب من قائده ان تساق « التمارك » الى ميناء بيرغن للكشف عليها حسب القانون الدولي • فكر القائد النرويجي ان الباخرة غير مسلحة وقد فتشوها مرتين ولم يجدوا على متنها اي أسير بريطاني • عند ذلك طلب القبطان « فيان » من القائد النرويجي مرافقته الى ظهر الباخرة الألمانية فرفض هذا طلبه •

واغتنمت الباخرة الألمانية هذه الفرصة لتتحرك وتحاول الاصطدام بالمدمرة « قوزاق » الا انها فشلت ، وفي الحال صعد اليها فريق من البحارة ونشب قتال عنيف بالسلاح الابيض بين رجال الباخرتين ادى الى مقتل اربعة من الالمان وجرح خمسة واستسلم الباقيون • وبدأ البحث في الحال عن الاسـ

البريطانيين ، وبعد تفتيش دقيق عثر عليهم في المستودعات وفي خزان بترول فارغ وقد كتمت افواههم كي لا يتمكنوا من الاستغاثه وطلب النجدة من رفاقهم .
 كما عثر على مدفعين وأربعة مدافع رشاشة . وعلمنا فيما بعد ان النرويجيين لم يقوموا بتفتيشها بالرغم من صعودهم على متنها .
 وكان هذا الحادث قد ساعد الالمان على اتخاذ قرارهم بوجوب غزو النرويج الذي أعد هتلر خطة غزوها في الرابع عشر من كانون الاول . وبعد ان اجتمع الفوهرر مع الجنرال فون فولكنهورست تقرر بدء العملية في التاسع من شهر نيسان .
 وفي هذه الاثناء كان الروس قد ضاعفوا من مجهودهم الحربي ، وقاموا بهجومهم الكبير على فنلندا في اليوم الاول من شهر شباط ، والذي استمر حوالي اثنين وأربعين يوما ، يصحبه قصف جوي عنيف . وتمكن الجنود الروس من اختراق خط الدفاع الفنلندي وتحطم خط مانرهايم وتركز الهجوم الروسي على خليج فيبوري .
 وفي اول شهر اذار ارسلت الحكومة الفرنسية خمسين الف متطوع ومائة قاذفة قنابل الى فنلندا ، كما قامت الحكومة البريطانية ايضا بارسال خمسين قاذفة قنابل . الا ان الفنلنديين قد وصلوا الى حد من الاعياء والجهد وكادت معداتهم الحربية ان تنفذ فساقر المستر باسيكي في مرة ثانية الى موسكو لاجراء المباحثات في شروط الهدنة ، ووافقت الحكومة الفنلندية على شروط الروس في الحال .



الفصل الرابع عشر

النروج

في ليلة الجمعة الخامس من شهر نيسان دعا وزير المانيا المفوض في اوسلو عددا من الوجهاء والوزراء الى حفلة عرض فيها شريطا سينمائيا عن عملية احتلال بولندا التي وضع فيها المناظر المرعبة التي صورت اثناء قصف مدينة وارسو . وقد علق الوزير على الصور بقوله : « ان البولنديين يجب ان يشكروا اصدقاءهم الانكليز والفرنسيين على ما حل بهم من كوارث » !!

وتفرق الضيوف وعلى وجوههم امارات الرعب والقلق ، خاصة ممايقوم به الانكليز من نشاط كبير في النروج ومن زرع للالغام في مداخل الخليج الغربي المؤدي الى ميناء نارفيك ، واحتجت الحكومة النرويجية على هذه الاجراءات الخطيرة ، الا ان الاميرالية البريطانية اعلمت المفوضية النرويجية في لندن ان البوارج الالمانية بدأت تتحرك متجهة نحو الساحل النرويجي ، بينما كانت الجحافل الالمانية تجتاح الدانمارك ، لكن الاخبار لم تصل الى النروج الا بعد ان تعرضت هي للهجوم الالمني .

كان الهجوم الالمني الصاعق يتميز بالمفاجأة والشدة والدقة، في مداومة بلدا اعزل وشعبا بريئا كشعب النروج . فقد استخدمت المانيا سبع فرق عسكرية ، وثمانماية طائرة وثلاثماية طائرة ثقل ، بالاضافة الى الهجوم البحري الكبير . ولم تمض ثمان واربعين ساعة حتى سقطت جميع الموانئ النرويجية في ايدي الالمان . وتغلغل الدعايات الالمانية بسرعة البرق بين صفوف الشعب ، ووقف الماجور كويزلنغ ليعلم نفسه حاكما على المناطق التي سقطت في ايدي الالمان .

وبدأت في الجبال تعبئة الجيش الذي يقاتل بضراوة الجيوش الغازية الزاجفة شمالاً من اوسلو . والتجأ الوطنيون الى الجبال والغابات ، وانسحب الملك وحكومته الى هامار التي تبعد مئة كيلو متر عن اوسلو ، وطاردتهم المدرعات الالمانية وقصفتهم الطائرات من الجو الا انهم تمكنوا من الوصول ، واذاعوا بيانات تدعو الى المقاومة والثورة . ولا شك ان السرعة التي تمكن بها هتلر ، بعد ذلك ، من السيطرة على البلاد تعتبر عملاً وحشياً من اعمال الحرب والسياسة ومثلاً حياً يدل على مدى اتقان المانيا لفضاعة الحرب ووحشيتها .



وبهجوم هتلر على النرويج انتهى وميض الحرب ، وتلاه أعظم انفجار عسكري عرفته البشرية . فمنذ ان تحالف ستالين مع هتلر ، تلقى الشيوعيون الفرنسيون الاشارات من موسكو بوجوب اعلان استنكارهم للحرب ونعتها بجريمة استعمارية رأسمالية ضد الديمقراطية ! وحاول الشيوعيون وسعهم في تحطيم معنويات الجيش، وعرقلة اعمال المصانع . وتمكنت الدعايات الهدامة من تحطيم الروح المعنوية لدى الجيش والشعب .

ولم يحدث شيء من هذا في بريطانيا ، فقد كانت توجيهات موسكو للشيوعية المحلية في بريطانيا ضعيفة كل الضعف . وقد ادت الحملة على النرويج الى اضطرابات عنيفة نشبت في بريطانيا ، واتقدت العواطف البائرة ، وطالبت المعارضة باجراء مناقشة في المجلس عن الوضع الحربي . فنقرر اجراء هذه المناقشة في السابع من شهر ايار . وحاول المستر تشمبرلين تهدئة العواطف المعادية ، لكنه قوطع بالاستهزاء . ورد المستر تشمبرلين على المستر هربرت موريسون بقوله اني لم اكن اتمتع بصلاحيات كبيرة اثناء حملة النرويج . وراح الخطباء يهاجمون الحكومة بعنف مشوب بالمرارة . ويقام المسبتر ايمري الذي قوبل بالهتافات العالية ليقول ما سبق وقاله كرومويل : « لقد امضيتهم وقتاً كثيراً هنا لا ينسجم مع النفع الذي كنتم تفعلونه . وانني اقول لكم الان ، اخرجوا وخلصونا منكم ، بحق الله ، اندهيوا ... »

وفي اليوم التالي اعلن المستر هربرت موريسون ، باسم المعارضة عن عزمه طلب الاسراع على الثقة ، وقام رئيس الوزراء ليعلن قبوله التحدي . وقام المستر لويد جورج ليلقي خطاباً قصيراً وجه فيه ضربة قاضية على رأس الحكومة ، الا انه ابرأ نعمتي بقوله : « لا اظن ان وزير البحرية يعتبر مسؤولاً

عن ما حدث في النروج « وقد قاطعته على الفور بقولي : « انني اتحمل كل المسؤولية عن كل ما قامت به الاميرالية متحملا العبء كله » فحذرنني المستر لويدي من مغبة جعل نفسي ملجأ بقي الحكومة من النشاطا . ثم التفت الى المستر تشمبرلين وقال : « ان القضية اضخم بكثير مما نتصور . لقد طلبت منا في السابق ان نضحى ، وانا اقول ان الشعب باسره على اتم الاستعداد للتضحية اذا رأى على رأسه القيادة الصالحة . واذا رأى هذا الشعب ان الذين يتولون زمام الامور يقومون بدورهم باقصى ما يمكن من جهد . وانا اقول بكل احترام ، ان من واجب رئيس الحكومة ان يقوم بتضحية كبيرة مقبما بذلك مثالا اعلى للشعب ، اذ ليس ثمة من شيء يكون اكثر اسهاما من النصر في هذه الحرب من تضحيته بمركزه . . . »

وعندما طرحت الحكومة الثقة فازت بها بأغلبية واحد وثمانين صوتا ، بالرغم من امتناع ثلاثين نائبا محافظا عن التصويت . الا ان النتيجة لم تقنع المستر تشمبرلين ولم تطب نفسه بعد الالم الذي اصابه .

في اليوم العاشر من شهر ايار وردت الاخبار الهائلة بان جحافل هتلر قد اجتاحت هولندا وبلجيكا ، واجتازت حدودهما في عدة مواقع ، واتجهت حركة الجيش نحو الاراضي المنخفضة وفرنسا . . .

وفي مكنتي بالاميرالية وجدت بعض الوزراء الهولتين ، الذين وصلوا من امستردام ، بعد ان هوجمت بلادهم دون اي سبب . وطلبوا منا ان نفعل شيئا ، ولحسن الحظ ان عمارة بحرية كانت قريبة فاصدرنا اليها الامر بالتوجه فورا وضرب العدو وانزال اكبر عدد ممكن من الخسائر بقواته مع علمنا ان الامر قد انتهى وأصبحت البلاد في أيدي الالمان . وكانت الملكة لا تزال في البلاد ، الا انها لن تتمكن من البقاء طويلا .

وفي اثناء هذه المعركة الجديدة وصلقتني رسالة تستدعيني للمثول امام الملك في تمام الساعة السادسة . وما ان وصلت الى القصر حتى سمح لي بالدخول على الفور ، واستقبلني جلالته ببشاشة ولطف كثيرين وامرني بالجلوس ، ونظر الي وقال : « اعتقد انك تعلم لماذا استدعيتك ؟ » وأردت ان اجاربه في طريقته فاجبت « لا اعتقد اني اعلم ياسيدي » فضحك جلالته وقال : « اريد ان اطلب منك تأليف الوزارة . » واجبته بانني سامتثل لامره في الحال .

ولم يشترط جلالته على نوع الحكومة وقوميتها . وشعرت ان تكليفي ليس مشروطا بتأليف حكومة قومية ، الا انني كنت افضل في هذه الظروف

بالذات قيام حكومة قومية • ولكن اذا تعذر على التفاهم مع المعارضة ، فاني عند ذلك لن اكون ممنوعا من الناحية الدستورية من تأليف حكومة قوية تضم جميع القادرين على الوقوف الى جانب بلادهم في هذه الظروف العصيبة شرط ان تكسب تأييد الاغلبية في المجلس • واخبرت جلالته اني عازم على تقديم اسماء خمسة او ستة وزراء ممن ستتألف منهم الوزارة ، قبل منتصف الليل • ودعوت المستر تشمبرلين هاتفيا وطلبت منه تولي رئاسة المجلس ، فوافق وجرى الاتفاق على اذاعة بيان استقالته في الساعة التاسعة • وقد قام بهذه المهمة بطريقة رائعة كريمة ودعا الى تأييد خلفه والالتفاف حوله • وبعد ذلك تمكنت من تأليف الوزارة وارسلت لجلالته قائمة بخمسة اسماء ، كما وعده ان افعل • وقررت ان اتولى بنفسى مهام وزارة الدفاع • وهكذا تم لي تسليم القيادة في الدولة ، وبقيت محتفظا بها طيلة خمس سنوات وثلاثة أشهر ، بكل اخلاص وقوة ، الى ان انتهت الحرب واستسلم اعداؤنا دون قيد او شرط •



الجزء الثاني

سقوط فرنسا

الفصل الاول

معركة فرنسا

منذ نشوب الحرب في أيلول عام ١٩٣٩ ، خصص الالمان قوتهم الرئيسية لغزو بولندا . وكانت تقف على الحدود الغربية الممتدة من اكس - ليشابل الى حدود سويسرا ، اثنتان وأربعون فرقة المانية ، وكانت هذه الحشود خالية من أية فرقة مدرعة . وكان بوسع فرنسا ان تواجه هذه القوة بنحو من سبعين فرقة ، الا أنهم لم يفعلوا ذلك وقرروا انه من المعتذر الهجوم على المانيا انذاك . اما الان فقد تغير الوضع تماما ، فقد اغتنم العدو الفرصة التي منحت له خلال ثمانية أشهر ، وبعد ان تمكن من احتلال بولندا عبا ما يقارب المائة والخمسة والخمسين فرقة من بينها عشرة فرق مدرعة . وقد ساعده في ذلك الاتفاق المعقود بين هتلر وستالين ، والذي مكن هتلر من سحب وتخفيض قواته على الجبهة الشرقية الى اقل عدد ممكن . وقد وصف الجنرال هولدر تلك القوات البسيطة المتبقية امام روسيا بأنها قوة صغيرة تصلح لجمع الضرائب فقط . وهكذا استطاع هتلر ان يخصص لهجومه الكاسح على فرنسا مائة وست وعشرين فرقة مجهزة بأقوى الاسلحة ، تدعمها ثلاثة الاف سيارة مصفحة والاف دبابة ثقيلة .

اما فرنسا فقد حشدت مائة وثلاث فرق ، بينها الفرق البريطانية الموجودة في فرنسا ، واذا تقرر اشراك الجيوش البلجيكية والهولندية فسيزداد العدد بمقدار اثنين وعشرين فرقة إضافية ، ولما كان الهجوم الالمانى الذي بدأ في العاشر من أيار عام ١٩٤٠ قد استهدف الجبهات الثلاث مجتمعة ، فقد بلغ مجموع القوات الحليفة مائة وخمس وثلاثون فرقة ، أي ما يوازي عدد الفرق

الالمانية تقريبا . ولو كانت هذه القوة الكبيرة منظمة تنظيما حسنا ومدرية تدريبيا تاما لكان في امكانها وقف الهجوم الالمانى . الا ان الجيش الالمانى انذاك اصبح في وضع يمكنه من اختيار الوقت والاتجاه والقوة اللازمة لبدء هجومه . وكان اكثر من نصف الجيش الفرنسى متمركز في القطاعات الجنوبية والشرقية من البلاد ، بينما بقيت احدى وخمسون فرقة فرنسية بريطانية لتواجه الهجوم المكاسح في الشمال الذي تقوم به نحو من سبعين فرقة المانية . وقد بدأ الالمان هجومهم بزحف الدبابات الحديثة التي لا تخترقها قذائف المدافع والطائرات ، وقد صدرت الاوامر الى خمس فرق مدرعة وثلاث فرق اليه بعبور الاردن الى سيدان وموتمري .

اما الفرنسيون فقد واجهوا هذه الدبابات بدبابات من النوع الخفيف وقد بلغ عددها الفين وثلاثماية دبابة ، وقد تضمنت فرقهم الالية المدرعة بعض الانواع القوية ، الا ان معظم قوتهم المدرعة تلك كانت مجزأة ومتفرقة على عدة جبهات . اما بريطانيا التي كانت اول من اخترع الدبابة فقد اكملت تدريب اول فرقة مدرعة لها قبل ايام من بدء الهجوم ، ولم تتمكن من ارسالها الى فرنسا .

اما الطائرات الالمانية ، فكانت تفوق الطائرات الفرنسية بالعدد والقوة . اما القوة الجوية البريطانية العاملة في فرنسا فكانت تضم عشرة اسراب من طائرات « الهاريكين » ، التي تمكنا من الاستغناء عنها ، بالاضافة الى تسعة عشر سربا من انواع مختلفة اخري . اما طائرات الانقضاض ، هذا النوع الجديد من الطائرات الذي بدأ في الظهور منذ غزو بولندا ، فلم تكن فرنسا او بريطانيا قد انتجته بعد . وقد اثرت هذه الانواع من الطائرات على كتائب المشاة الفرنسيين وحطمت من معنوياتهم بشكل كبير .



بدأ الهجوم الالمانى ليلة التاسع - العاشر من شهر ايار عام ١٩٤٠ ، وقد سبق هذا الهجوم ، غارات جوية على المطارات وطرق المواصلات والمنشآت العسكرية ، وبدأ الهجوم عبر حدود بلجيكا وهولندا واللوكسمبورغ . وتمكن الالمان من مباغتتهم في كل مكان ، وكان جنود العاصفة وهم يحملون المدافع الخفيفة ، ينطلقون من جميع الجهات ليشعلوا الجبهة بالنيران . وعندما بدأ الزحف الكبير على هولندا وبلجيكا صرختا تطلبان النجدة . اما الهولنديون فقد اركنوا الى خطهم المائي وفتحوا جميع الثغرات التي لم يتمكن

الامان من الاستيلاء عليها ، كما راح حرس الحدود يقاومون الغزاة . الا ان الامان كانوا قد اخترقوا الجبهة على عدة مواضع واقاموا الجسور واستولوا على فتحاتها والمفاتيح التي تضبطها . بينما راحت الطائرات المغيرة تضرب بقوة ، واصبحت مدينة روتردام بعد ليلة واحدة كتلة من الانقاض ، كذلك لاهاي واوترخت وامستردام ٠٠٠٠

وفي الرابع عشر من ايار ، بدأت الاخبار السيئة تصلنا عن اختراق الامان للجبهة في سيدان ، ولم يتمكن الفرنسيون من الوقوف في وجه الجيش الالمانى ، ومقاومة الدبابات وطائرات الانقضاض الهائلة . وقد وصلتنا الى مجلس الوزراء رسالة من السيورينو ، يطلب فيها ارسال عشرة اسراب من الطائرات لمساعدته في اعادة تنظيم الخطوط . كما وصلت رسائل اخرى الى رؤساء الاركان تشرح الموقف وتقول ان الجنرالين غاملان وجورج يعتبران الوضع خطيرا جدا ، وقد ذهل الجنرال غاملان من سرعة الزحف الالمانى . وفي جميع الاماكن التي اشتبكت فيها الجيوش كانت قوة الهجوم الالمانى تسيطر على الموقف في الحال . اما الطائرات البريطانية فقد قاتلت ببسالة وقسوة وحطمت الجسور الرئيسية في سيدان ، الا ان الخسائر التي تعرضت لها الطائرات البريطانية كانت كثيرة الى حد مخيف . فمثلا خسرن في يوم واحد حوالي سبعة وستين طائرة انزلتها المدفعية الالمانية المضادة للطائرات ، كما انا اسقطنا حوالي ثلاثة وخمسين طائرة المانية . ولم يبق لدينا في ذلك اليوم سوى ٢٠٦ طائرات من اصل ٤٧٤ طائرة في فرنسا ٠٠٠ واتضح لنا ان الاستمرار على هذه الحال سيؤدي الى نهاية القوة الجوية البريطانية . وكان السؤال الان ، ماذا في وسعنا ان نرسل من طائرات الى فرنسا دون ان نترك بلادنا بلا دفاع . وكانت نداءات فرنسا الملحة ، ورجبتنا في القيام بالتزاماتنا تدفعنا الى ارسال المزيد ، الا اننا سنصل الى حد لا يمكننا تجاوزه لانه سيكلفنا بذلك حياتنا .

وبحثت وزارة الحرب ، التي كانت تجتمع كل يوم ، هذا الوضع المخيف . وكان مارشال الجو داودينغ قد اعلمني ان باستطاعتنا الدفاع عن وطننا بخمسة وعشرين سربا مقاتلا من الطائرات ، حتى لو هاجمنا السلاح الجوي الالمانى كله . اما اذا انخفض هذا العدد ، فلا يمكننا الدفاع بعد ذلك . وكانت الهزيمة لا تعني فقط تدمير مطاراتنا وقوتنا الجوية ، بل تعني تدمير مصانع انتاج الطائرات الذي يتوقف عليها مستقبل بلادنا كله ٠٠٠٠

وفي الساعة السابعة والنصف صباحا من يوم الخميس في الخامس عشر

من شهر أيار وصلتني مخابرة هاتفية الى المنزل وانا في فراشي من المسيرينو . وكان يتكلم بالانكليزية ، والاضطراب باديا على صوته وهو يقول : « لقد هزمنا » . لقد خسرنا المعركة « فقلت له : « لا يمكن ان تهزموا بهذه السرعة !! » فأجاب « لقد تحطمت الجبهة عند سيدان ، وهم الان يتقدمون بالدبابات والاليات المدرعة » واجبته على الفور بانني ساتي الى فرنسا للتحديث معه .

لقد استطاع الالمان ان يقتحموا الجبهة ، واندفعت قوات كبيرة بعد ان اضمحل الجيش الفرنسي التاسع . وفي السادس عشر منه توغلت القوات الالمانية ستين ميلا وراء الجبهة ، كما انتهى القتال في ذلك اليوم ايضا ، في هولندا بعد ان استسلمت القيادة العليا . . .

في الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم نفسه ، توجهت الى فرنسا ومعني الجنرال ديل ، نائب رئيس اركان حرب الامبراطورية والجنرال ايسماي . ووصلنا بعد ساعة الى مطار « لابورجيه » . وظهر لي الوضع اسوأ بكثير مما كنت أعتقد . وقد قال الضباط الذين كانوا في استقبالنا ان الالمان سيصلوا باريس خلال ايام معدودة ، وهذا على أكثر تقدير . وتوجهت الى سفارتنا وبعد ان استمعت الى الاخبار ، توجهت الى الكي دورسيه ، ودخلت الى الغرفة حيث كان بانتظارنا رينو ووزير الدفاع ديلايديه والجنرال غاملان . وكان الجميع وقوفا ، ولاحظت على وجوههم دلائل التعصب والاضطراب . ورايت امامهم خريطة قد رسم عليها بخط اسود جبهة الحلفاء ، وقد احدثت فيها ثغرة صغيرة مشؤومة عند سيدان .

وأوضح القائد باختصار تفاصيل ما حدث . فقد اخترق الالمان الجبهة الى الشمال والجنوب من سيدان على بعد ستين ميلا ، وقد تمزق الجيش امامهم وتحطم شر تحطيم . وبدأت السيارات تتجه بسرعة هائلة نحو اميان وارس ، معقمة الوصول الى البحر عند ابينغل او قريبا ، وربما غيرت هذه القوات وجهة سيرها ، وتحولت نحو باريس . وقال ان القوات المدرعة البالغة ثمانين فرق تزحف وراء السيارات وتوسع في اجنحتها اثناء تقدمها بعد ان شطرت الجيش الفرنسي وفصلت بينه تماما . وقد استمر الجنرال يحدثنا عن الوضع حوالي خمس دقائق . وبعد ان انهى حديثه ساد الوجوم والصمت لفترة طويلة ، ثم سألته « اين القوة الاحتياطية واين قسوات المناورات ؟ »

واجابني غاملان وهو يهز برأسه : « لا يوجد عندنا قوات احتياط او قوات مناورة ٠٠٠٠ »

وساد الصمت فترة اخرى . وارتفع الدخان في الحقائق من المشاعل ورأيت الموظفين يحملون الوثائق والمستندات الهامة ويضرموا فيها النيران . استعداداً للجلاء عن باريس .

وعلى الرغم من ان للتجارب الماضية ميزات عديدة ، الا انها تنقص نقصا هاما هو في كون الامور لا تتكرر على نفس الصورة مرتين . ولولا ذلك لكانت الحياة تسير بسهولة كبيرة . وفي السابق تحطمت جبهاتنا وتمكن العدو من اختراقها ، لكننا كنا دائما نتمكن من وصل الاشياء ببعضها ونخفف من حدة الهجوم . اما الان فالتجربة كانت مختلفة ، فقد انقطعت طرق المواصلات ، وتم الاستيلاء على الريف القائم وراء الجبهة باندفاع هائل من السيارات المدرعة ، ولم يكن باستطاعتنا المقاومة لعدم وجود احتياطي استراتيجي لدى الفرنسيين . . . لقد اجابوني بانه ليس لديهم احتياطي ، وقد اذهلني جوابهم هذا ، اذ كيف يمكننا اعتبار هذا الجيش الفرنسي الكبير بعد الان ؟ ولم استطع ان اتصور ان قائدا يعهد اليه مهمة الدفاع عن جبهة تقدر مساحتها بخمسة ميل ، ويبقى عاجزا عن المناورة . اذ لا يمكن لاي قائد ان يدافع عن جبهة واسعة كالجبهة الفرنسية ، خاصة بعد ان يندفع العدو بهذه القوة الهائلة ويخترق الجبهة . لذلك يتوجب على القائد ان يطلق فرقة الاحتياطية لمهاجمة العدو في نفس اللحظة التي تكون حدة هجوم العدو قد خفتت .

اذن لماذا اقامت فرنسا خط ماجينو هذا ؟ فهو بلا شك قد وفر استخدام قوات كبيرة من الجيش ، وبنفس الوقت خلق مراكز اندفاعية ، باستطاعة الجيش ان يستخدمها اثناء هجومه المعاكس بالاضافة الى استخدامه لتلك المراكز لحشد قوات اضافية تساعد الجيش عند الضرورة . وهذه هي الطريقة الوحيدة لمواجهة مثل هذا الموقف . ولكنهم يقولون انه ليس عندهم احتياطي . وهنا لا بد ان اعترف ان قولهم هذا كان اكبر مفاجأة تلقيتها في حياتي . فلماذا لم يعرفوني بهذا الامر من قبل ، حتى ولو كنت منهمكا في اعمالي فسي الاميرالية ؟ بل لماذا لم تعرف الحكومة البريطانية بهذا الامر من قبل ، وخاصة وزارة الحربية ؟ ولا اعتقد ان القيادة الفرنسية ما كانت لتكشف لنا عن هذا الضعف او عن طريقة توزيع قواتها ، فهذا العذر هو اقبح من الذنب . اذ انه من حقنا ان نعرف ، فالجيشان يخوضان معركة حياة او موت في الجبهة . . . وعدت الى النافذة لأراقب السنة اللهب تلتهم الوثائق والمستندات الخاصة

بالجمهورية الفرنسية . وكانوا لا يزالون يقذفون بمزيد من المستندات السـيـ
النيران المتأججة

وعاد الجنرال غاملان الى الحديث مره اخرى ، ويقول اذا لم يكن من
الضروري اعادة جمع القوات المشتتة لتضرب القوات الغازية . وقال ان
هناك ثمانى فرق أو تسعة يمكننا سحبها من المراكز الهادئة في الجبهة عند
خط ماجينو ، كما ان هناك ثلاث فرق مدرعة لم تشترك بعد في المعركة .
بالاضافة الى ثمانى او تسع فرق ستصل في طريقها من أفريقيـا خـلال
اسبوعين . وفي هذه الحالة سيجتاز الالمان طريقهم عبر ممر بين جبهتين
فيمكن شن الغارات المعاكسة عليهم ، ولن يتمكن الالمان من الصمود نتيجة
ضـغط الجبهتين عليهم

ومع ان اقوال الجنرال غاملان كانت منطقية ومعقولة ، الا انني شعرت
بان بقية الرجال لا يصدقون ما يقوله . وسألت الجنرال غاملان عن الموعد
الذي سيحدده للهجوم ، وعن الطريقة التي سيتبعها في هجومه ، وكان رده :
« اننا اقل منهم عددا وعدة ، وأضعف منهم في أساليب الحرب . » وبعد ذلك
اكتفى بان هز كتفيه ، ولم نتكلم بعد ذلك ، اذ لم يكن من ضرورة لذلك . ثم
اين تقف بريطانيا ازاء هذا الوضع ، بأسهامها الضعيف الذي لا يتعدى العشر
فرق والتي لا يوجد بينها فرقة واحدة من الدبابات الحديثة ، وذلك بعد مضي
ثمانية أشهر من اعلان الحرب ؟؟

وفي الصباح ، قبل ان اغادر المكان ، وصلني التفويض من مجلس
الوزراء في لندن لنقل أربعة اسراب من الطائرات المقاتلة الى فرنسا . ورجعت
الى السفارة لاطلب ارسال ستة اسراب اخرى ، تاركا خمسة وعشرين سربا
فقط للدفاع عن الجزر البريطانية كلها ، وهذا هو الحد النهائي . وجاءتني
الموافقة في المساء ، فتوجهت لتوي الى منزل الميسو رينو وابلغته النبا ، كما
طلبت منه استدعاء الميسو ديلاييه ليسمع النبا المفرح ، الذي بدا لي انه
سيرفع من معنويات اصدقاءنا الفرنسيين . وعندما سمع الميسو ديلاييه
بالخبر لم ينبس بكلمة واحدة ، واكتفى بان قفز من مكانه وامسك بيـسـدي
وعصرها وامارات الفرحة ترسم على وجهه وفي صباح اليوم التالي
عدت الى لندن . وقد اخبرت اصدقاءنا الفرنسيين ، قبل ان اغادر باريس ،
انهم ما لم يبذلوا جهدا فائقا فان مغامرتنا الكبرى في ارسال تلك الاسراب من

الطائرات تصبح دون فائدة • وقد قيل لي ان خسائر العدو كانت اكبر من خسائرنا بخمسة أضعاف ، كما قيل لي ان فرنسا فقدت معظم طائراتها ••• وخيل للجنرال غاملان ان الوضع قد أصبح منتهيا ، وقد اخبروني بعد ذلك انه اعلن بأنه لن يتمكن من الصمود أكثر من يوم واحد فقط ، وان بـاريس ستسقط بين ليلة وضحاها !! وفي نفس اليوم الذي وصلت فيه لندن ، وصلتني الاخبار ان الالمان دخلوا بروكسل وفي اليوم التالي دخلوا كامبرية ثم اجتازوا سان كانتان ، بينما كانت القوات الحليفة تتراجع منسحبة •••

وفي منتصف ليل الثامن عشر - التاسع عشر ، قام الجنرال بيلوتسي بزيارة اللورد غوت في القيادة العليا • ولم تكن شخصية هذا القائد تبعث على الارتياح والثقة • ومنذ تلك اللحظة بدأت فكرة الانسحاب الى الشاطئ - تراود مخيلة القائد العام البريطاني ، وقد ابرق اليها يقول ان الوضع في فرنسا قد تغير ولم تعد المسألة مسألة خرق لخط الدفاع ، بل أصبح الوضع يشكل صورة القلعة المحاصرة والمهددة بالسقوط •

وبدا المسيو رينو بتغيير اعضاء وزارته وقيادته العليا • وعين المارشال بيتان نائبا لرئيس الوزراء ، ونقل المسيو ديلايديه الى وزراء الخارجية واخذ عنه مهام وزارة الدفاع والحربية واحتفظ بها لنفسه ، كما عين الجنرال ويفان قائدا اعلى بدلا من الجنرال غاملان •

كان اخر امر أصدره الجنرال غاملان هو ان تشق الجيوش الشمالية طريقها الى الجنوب الى نهر السوم مهما كلفها الامر ، وان تهاجم مدرعات العدو التي قطعت طرق مواصلاتنا • وفي نفس الوقت يترتب على الجيش الثاني والجيش السادس ان يخترقا الصفوف باتجاه الشمال نحو ميزيير • وقد اعجبت بهذه القرارات المتخذة ، فقد كانت قرارات صائبة جدا •

وقد اثار اضطراب القيادة الشمالية ، وهزيمة الجيش الفرنسي الاول وغموض الموقف العام ، اثار القلق في نفوسنا ، وبقيت في نفس الوقت جميع الاجراءات التي اتخذناها هادئة مرنة وجاءتنا رسالة من اللورد غورت تقول أنه يدرس امكانية انسحاب جيوشنا الى دنكرك ، بحال اضطر الى ذلك ••• ولم يكن باستطاعة رئيس الاركان الموافقة على مثل هذا الاقتراح الذي لم تكن نحن ايضا نوافق عليه ، فبعثنا برسالة الى اللورد غورت ، نعلمه بها بوجود الاتجاه بالقوات البريطانية نحو الجنوب الغربي لتتضم

الى القوات الفرنسية في الجنوب ، وفي نفس الوقت يحث البلجيكيين على العمل بنفس الخطة . واذا لم يوافقوا عليه ان يخبرهم عن استعدادنا لاجلاء اكبر عدد ممكن من القوات من مواني المانش . وقررنا في نفس الجلسة ان نرسل الجنرال ديل الى مقر قيادة الجنرال جورج ، الذي كنا على اتصال تلفوني دائم معه ، بينما كانت اتصالاتنا مع اللورد غورت متقطعة وصعبة ، وقد وصلتنا الاخبار بان الذخيرة والمؤن لم تعد تكفي الا لمدة اربعة ايام فقط . وفي العشرين من ايار ، بعد ان درسنا وضع جيشنا من جديد ، قررنا بالجلسة الخاصة ما يلي : « يتوجب على الاميراليه ان تقوم بحشد اكبر عدد ممكن من السفن الصغيرة ، وذلك كاجراء احتياطي ، لنكون على استعداد للابحار الى المواني القائمة على طول الساحل الفرنسي » . وفي نفس اليوم عقد المؤتمر الاول لجميع من يعينهم الامر لدرس قضية الجلاء الطارئ عبر القناة لقوات كبيرة جدا . كما وضعت الخطة لاجلاء عشرة الاف رجل عن مواني كاليه وبولون ودنكرك ، كل اربعة وعشرين ساعة . وقد اسميت هذه الخطة « عملية دينامو » التي برهنت على انها الطريقة الوحيدة التي انقذت الجيش بعد عشرة ايام

وفي ليلة العشرين من الشهر نفسه دخل الالمان مدينة ابينغل ، بعد ان قطعت طرق مواصلات الجيوش الشمالية ، واصبح اتجاه قواتهم واضحا الان وكانت الفرق الالية والمدرمات تتدفق كالسيل الجارف دون ان تلقى اية مقاومة من الفرنسيين ، وكانت تتقدم مجتازة المدن والقرى بمعدل ثلاثين او اربعين ميلا في اليوم الواحد . وكان الضباط الالمان ينظرون الى السكان ويبتسمون بسخرية وهم يلوحون لهم بايديهم . وتتحدث الاخبار ان جماعات من الاسرى الفرنسيين كانت تسير معهم والبنادق لا تزال في ايديهم ، وكان الالمان يجمعونها بين الفترة والآخرى ويحطمونها تحت الدبابات وقد اذهلني هذا الفشل في الوقوف امام هجمات المدرعات الالمانية التي تمكنت من تحطيم جيوش قوية بكاملها ، كما اذهلني الانهيار السريع في المقاومة الفرنسية بعد ان تمكن الالمان من اختراق الجبهة . فقد كانت القوات الالمانية تسير على الطرقات الفرنسية الرئيسية بحرية تامة . ولم يبد ان اي طريق قد اغلق في وجه الاعداء ولو في نقطة واحدة تدل على شيء من المقاومة

الفصل الثاني

المسير نحو البحر

لقد كان هتلر الرجل الوحيد الذي يستطيع اختراق حياض بلجيكا وهولندا ، وبلجيكا لن تطلب العون من الحلفاء الا اذا هوجمت . لذلك بقي زمام المبادرة العسكرية في يد هتلر الذي وجه ضربته في اليوم العاشر من شهر ايار . وانتقلت الجيوش الفرنسية والبريطانية من وراء خطوطها الى بلجيكا لمحاولة انقاذها ، بدلا من البقاء عند خطوط الدفاع المحصنة . وقد كانت هذه المحاولة حسب خطة رسمها الجنرال غاملان والملقبة بالخطة «د» . وكان الفرنسيون قد تركوا نقطة الدفاع المقابلة للاردن ، دون دفاع قوي ، فتمكن الجيوش الالمانية من الاندفاع بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ وقسمت خط الجيوش الفرنسية . وبعد ثمان واربعين ساعة اصبحت الجيوش الالمانية تهدد بقية الجيوش المتمركزة بالشمال قاطعة خط مواصلاتها الجنوبية وعن البحر ايضا . وكان على القيادة العليا الفرنسية ، ان تأمر جيوشها بالانسحاب فورا وبأقصى سرعه ممكنة متحملة الخسائر البالغة في المعدات . الا ان الجنرال غاملان لم يواجه هذه الحقيقة المخيفة ، بينما كان قائد الجيوش الشمالية ، بيلوتي ، عاجزا عن اتخاذ القرارات الهامة بنفسه . لذلك عمت الفوضى جميع الجيوش في الجبهة الشمالية المهددة .

وعندما شعرت هذه الجيوش بالخطر المحقق بها ، تراجعت الا ان العدو كان قد طوقها من اليمين ، فقامت بانشاء خط دفاعي . لكنها لو بدأت هذه الجيوش بالتراجع قبل هذا الوقت الذي تراجعت فيه ، لكان باستطاعها ان تصل الى خطها القديم فتتمكن من النجاة . لكن هذه الجيوش تأخرت وفقدت

ثلاثة ايام بين اخذ ورد فاستكمل العدو حركة التطويق ! ورات وزارة الحرب في بريطانيا ان القتال الفوري في الجنوب هو الطريقة الوحيدة لانقاذ الجيش البريطاني . لكن اللورد غورت ، لم يوافق على هذه الفكرة وبأمكانية نجاحها فالخطة المقترحة من وزارة الحرب تقضي باشغال العدو على عدة جبهات لتتمكن من خرق جبهة واحدة لتنفيذ خطة التراجع . وفي هذا الوقت تغيرت القيادة العليا في فرنسا وصرف الجنرال غاملان وخلفه في القيادة الجنرال ويغان . وادى هذا التغيير في القيادة الى التأخير ثلاثة ايام اخرى . واقترح الجنرال خطة مشابهة لخطة سلفه واضطربنا الى قبولها مرغمين وحاولنا بكل جهد ان ننفذها مخلصين الى ان انقطعت طرق المواصلات امامنا ، بعد ان صد الالمان هجماتنا الضعيفة واحتلوا اراس وانهارت الجبهة البلجيكية واوشك الملك ليوبولد على الاستسلام . وفقدنا كل امل في الانسحاب الى الجنوب . ولم يبق امامنا الا البحر وفي الحال ، اقام اللورد غورت راس جسر حول دنكرك محاولا شق طريقه بكل قوته . وكنا في هذه الايام بحاجة الى كل ما عرف عنا من نظام وطاعة ودقة في القيادة

وهنا سنعرض قصة كثر الجدل حولها . فقد ذكر الجنرال هولدر رئيس اركان الجيش الالماني ، ان هتلر قد تدخل في هذا الوقت شخصيا ولاول مرة لانه شعر بالخوف على الياته المدرعة لانها اصبحت في وضع خطر للغاية ، فهي الان في ارض وعرة محاطة بالاقنية ولا يمكنها التقدم بشكل سريع . وينفس الوقت لا يمكنه احتمال أي خسارة في معداته ، فهو بحاجة اليها في المرحلة الثانية من حملته . واعتقد ان سلاح الطيران سيتمكن من السيطرة ومنع التراجع والانسحاب عن طريق البحر . لذلك ارسل اوامره بوقف آلياته المدرعة وتراجعها في بعض الاماكن . وهكذا اصبح في مقدور البريطانيين الانسحاب والوصول الى دنكرك . هذا حسب قول هولدر نفسه . وعلى كل حال فقد تمكنا من التقاط رسالة المانية في صباح الرابع والعشرين من ايار ، تأمر بوقف الهجوم على دنكرك . ويقول هولدر ايضا انه رفض التدخل في تحركات الجيوش التي كانت تحت امره رونشتادت والتي كانت تحمل الاوامر الصريحة بمنع العدو من التقدم والوصول الى البحر . وقال انه كلما اسرع في تحقيق النصر كان اسهل فيما بعد التعويض عن الدبابات والمدرعات المفقودة .

ولم يلبث هتلر ان اصدر امرا بايفاد ضابط ارتباط شخصي الى الجبهة . ومضى الجنرال هولدر يقول :

« لم اعرف كيف اقتنع هتلر بضرورة عدم تعريض قواته المدرعة الى الخطر ومن المرجح ان يكون كايقل قد اوحى له بهذه الافكار عن طريق القصص التي كان يقصها عليه »

وقد صرح قادة اخرون بقصة مشابهة وأشاروا الى ان هتلر قد اصدر اوامره هذه لاسباب سياسية منها فسخ المجال امام انكلترا لطلب السلام بعد الهزيمة التي لحقت بفرنسا . وقد ظهرت بعد انتهاء الحرب بعض الوثائق التي صدرت عن مقر قيادة رونشتادت على شكل يوميات دونت في ذلك الوقت اما هذه الوثائق فتروي القصة بشكل مختلف تماما ! فالوامر صدرت عند منتصف ليل الثالث والعشرين من ايار من مقر القيادة العامة ، تحمل توقيع براوخيتش تذكر فيها ان الجيش الرابع سيبقى تحت قيادة رونشتادت ليقوم بالمرحلة الاخيرة من معركة التطويق . وفي صباح اليوم التالي ، عندما وصل هتلر لزيارة رونشتادت ، اخبره ان الاليات المدرعة ، التي توغلت بعيدا قد ضعفت قوتها ، وهي بحاجة الى فترة من التوقف لاستعادته نشاطها كي تتمكن من توجيه الضربة القاضية للعدو الذي يقاتل بضراوة . وكان رونشتادت ينتظر هجمات شديدة من الحلفاء في الشمال والجنوب ، وهي الخطة التي اقترحها ويغان . وقد وافق هتلر على وجوب توقف السلاح المدرع لتجهيزه للمعركة الحاسمة المقبلة . ومع ذلك ، فقد وصل في صباح اليوم التالي الامر من براوخيتش ، القائد العام ، باستمرار تقدم المدرعات . وهنا رفض رونشتادت الامر الموجه اليه ، بعد ان اطمأن الى موافقة هتلر الشخصية . ، ولم ينقل هذا الامر الى قائد الجيش الرابع « كلوغه » بل طلب منه ان يستمر في تجميع القوات المدرعة . وقد احتج « كلوغه » على هذا التأخير ، ولكن رونشتادت لم يصدر اوامر القيادة العليا الا في صباح يوم السادس والعشرين واضاف انه يجب ان لا يهاجموا دنكرك بالذات وقد ذكرت هذه اليوميات عن احتجاج قادة الجيش الرابع على هذا التخصيص وكتب رئيس اركان حربته يقول :

« ان الوضع في الموانئ كان على الشكل التالي : فالبواخير الكبيرة كانت تقترب من الارصفة ، وتمد الألواح الخشبية الى الشاطئ وبسرعة عجيبة كانت اسطحة البواخير تكتظ بالرجال . اما اسلحتهم وعتادهم الحربي فبتركونه وراءهم . لكننا لم نكن

نريد ان نرى هؤلاء الرجال أنفسهم يعودون مرة اخرى وقد تسلحوا
بسلاح جديد ليقوموا بجولات جديدة ضدنا » .
ومن هذه اليوميات يتبين ان المدرعات قد توقفت بناء للاوامر التي صدرت
عن رونشتادت لا عن هتلر . ولا بد ان تكون هناك وجهة نظر خاصة ، الا ان
القادة الالمان اجمعوا على ان هذه الاوامر قد اضاعوا فرصة عظيمة عليهم .

لم تكن القوات الالمانية تضغط بشدة على خط الدفاع البلجيكي ، ولكنها
ما ان بدأت ضغطها المتزايد حتى انهار الخط وتمكن الالمان من تحطيمه على
جانبي كورثاني ، التي لا تبعد عن اوستند ودينكرك اكثر من ثلاثين ميلا ، وما
لبث ملك بلجيكا ان يأس من الوضع الحاضر فقرر الاستسلام .
واتخذ اللورد غورت قراره الحاسم بالتخلي عن خطة الجنرال ويفان
القاضية بالزحف نحو الجنوب ونحو السوم . وقرر بدلا عنها بعد اقتناعه
التام بان اشراف الحكومتين البريطانيتين والفرنسيه قد انتهى على ميدان
المعركة ، وكل سيطرة للقيادة الفرنسية العليا قد زالت . لذلك قرر ان يستبدل
فكرة الهجوم نحو الجنوب ، بسد الثغرة التي ستحدثها استسلام بلجيكا في
الشمال ، وان يزحف باتجاه البحر . وهكذا اصدر اوامره الى الفرقتين
الخامسة والخمسين بوجوب الانضمام الى اللواء البريطاني الثاني لسد
الثغرة في الجبهة البلجيكية ، كما نقل الى الجنرال بلانشار الفرنسي عزمه
على تغيير الخطه الاولى ووافق الجنرال وقرر الانسحاب الى الخط الواقع
وراء قناة ليز غربي ليل ، وقرر اقامة راس جسر حول دينكرك .
وفي الصباح الباكر من اليوم السادس والعشرين من شهر ايار ، قام
غورت وبلانشار برسم خطة الانسحاب نحو البحر . ولما كان على الجيش
الفرنسي ان يقطع مسافة اطول ، لذلك مهدت قوات الحملة البريطانية الطريق
بينما بقيت القوات الاخرى في خطوط الدفاع في الجبهة حتى ليله الثامن
والعشرين من ايار . وكان اللورد غورت يتصرف حسبا يراه مناسبا وعلى
مسؤوليته الخاصة ، الا اننا في الوزارة كنا قد توصلنا الى نفس النتيجة حسب
المعلومات التي حصلنا عليها . لذلك اصدرنا له برقية تأييد للاجراءات التي قام
بها طالبين منه التوجه الى البحر بالاشتراك مع مع القوات الفرنسية
والبلجيكية . ثم بدأ حشد اكبر عدد ممكن من المراكب والسفن .
وفي هذه الاثناء ، استمرت عملية اقامة رؤوس الجسور حول دينكرك ،
كما تقرر ان يحتفظ الفرنسيون بالاماكن الواقعة بين « غريفلاين » و « بيرغ »

بينما يحافظ البريطانيون على القناة عبر فيرنز الى نيويورك والشاطئ وتلقى اللورد غورت من الوزارة تأكيداً للامر الذي صدر اليه في اجلاء اكبر عدد ممكن من الرجال . وكنت قد اخبرت المسيو رينو ان هدفنا هو سحب القوات البريطانية ، كما طلبت منه ان يصدر أوامر مماثلة ، وكانت حركة المواصلات قد اصبحت ضخمة حتى ان قائد الجيش الفرنسي الاول اصدر امره في السابع والعشرين من ايار الى جنوده يقول : « ان المعركة تدور الان دون تراجع حتى خط ليز »

أصبح الخطر يهدد فرقاً بريطانية اربعة ، بالإضافة الى الجيش الفرنسي الاول كله ، بالعزلة والانتقطاع . وراحت (الكماشه) الألمانية تحاول الضغط بكل قوتها على جيوشنا . وكانت هذه اللحظة من اللحظات الحاسمة التي تلعب فيها وسائل النقل الميكانيكية دورها البارز . فما ان اصدر اللورد غورت امره بالتراجع حتى كانت الفرق الاربعة تتراجع بسرعة مذهلة في ليلة واحدة . وتمكنت بقية الفرق البريطانية من الاحتفاظ بالممر المؤدي الى البحر بكثير من الجهد ، وبعد معارك دامية تمكن العدو من اغلاق (الكماشه) بعد ان تم تأخيرها ثلاثة ايام بفضل الفرق البريطانية الثانية ، وتم اغلاق ذراعي الكماشه بصورة تشبه تلك العملية الروسية العظيمة حول ستالينغراد سنة ١٩٤٢ . وقد تم انسحاب الجيوش البريطانية والفرنسية ، خلال هذه الفترة ، وتمكنت من النجاة عدا اللواء الخامس من الجيش الفرنسي الذي فقد ٥٠٠ .



قبل عشرة ايام طلبت من المستر تشمبرلين درس امكانية استمرارنا في الحرب وحدنا ، والان ما لبثت ان عرضت الامر بصفة رسمية على مستشارينا العسكريين . وقد وضعت الاسئلة بطريقة تترك المجال امام رؤساء الاركان لاداء ارائهم بحرية تامة ، مهما كانت تلك الاراء . وبالرغم من ثقتي القامة بانهم سيطلبون الاستمرار في الحرب ، الا اني وجدت من الحكمة ان احتفظ بسجلات خطية عن مثل هذه الاراء . كما اردت ان اؤكد للبرلمان ان اراءنا بالاستمرار في الحرب تدعمها اراء الخبراء العسكريين المحترفين . وهنا اسرد نص السؤال بحرفيته مع رد رؤساء الاركان عليه :

« ١ - لقد اطلعنا على التقرير عن « استراتيجية بريطانيا في حال حدوث تطور معين » على ضوء المهمة التي كلفنا بها رئيس الوزراء في رسالته التالية :

« في حال عجزت فرنسا عن الاستمرار في الحرب ، وفي حال اتخذت

موقف الحياد ، وفي حال احتفاظ الالمان بوضعهم الحالي واستسلام الجيش البلجيكي بعد مساعدة الحملة البريطانية على الوصول الى البحر ، وفي حال التقدم بعروض من شأنها ان تضع بريطانيا تحت رحمة المانيا بسبب اقتراحات نزع السلاح ووقف القواعد البحرية عن العمل في جزر اوركني وغيرها ، فما هو الامل في استمرار الحرب ضد المانيا ، وربما ضد ايطاليا ايضا ؟ وهل سيتمكن الاسطول والسلاح الجوي ، من حمايتنا ضد غزو الماني خطير ، وهل ستتمكن قواتنا التي سنحشدنا في هذه الجزر من مقاومة الغارات الجوية عليها ، مع العلم ان هذه القوات تضم وحدات لا يبلغ عدد افرادها العشرة الاف ! شرط ان نأخذ بعين الاعتبار ان اطالة مدة المقاومة ستشكل خطرا كبيرا على المانيا التي ستكون منصرفة الى السيطرة على الاجزاء التي احتلتها في اوروبيا .

- « ٢ - هذا وقد توصلنا الى نتائج سنذكرها في الفقرات التالية :
- « ٣ - يمكن لاسطولنا البحري ان يتعاون مع سلاحنا الجوي في الدفاع ومنع المانيا من القيام بهجوم كبير عن طريق البحر » .
- « ٤ - اذا افترضنا ان المانيا استطاعت ان تتفوق على قواتنا الجوية ، فنحن نعتقد ان الاسطول سيتمكن من المقاومة لفترة محدودة فقط » .
- « ٥ - اذا لم يتمكن اسطولنا من المقاومة ، واذا ما تمكن العدو من التغلب على سلاحنا الجوي ، واذا حاولت المانيا ان تغزونا ، فلن تتمكن قواتنا الساحلية من الدفاع ومنع انزال قوات برية على الشواطئ . وفي هذه الحال ستكون قواتنا البرية غير قادرة على الصمود امام غزو الماني كبير » .
- « ٦ - فاذا ما تمكنت المانيا من احراز تفوق جوي ، فباستطاعتها غزو بلادينا واخضاعها عن طريق الجو فقط » .
- « ٧ - لن تتمكن المانيا من التفوق علينا في الجو ، الا اذا تمكنت من القضاء على سلاحنا الجوي برمته ، واذا ما تمكنت من تحطيم جميع مصانع الطائرات في كوفنترى وبرمنغهام » .
- « ٨ - قد تقع الغارات الجوية على مصانع الطائرات في الليل وفي النهار . ونحن نرى انه بإمكاننا ان نلحق بالعدو خسائر فادحة اثناء قيامه بغارات في النهار . ومهما حاولنا فلن نتمكن من حماية جميع مصانع طائراتنا خاصة اثناء غارات العدو الليلية ، فعلى ان نحول بينه وبين تنفيذ اهدافه قدر امكاننا » .
- « ٩ - ان نجاح العمليات الجوية في القضاء على صناعة الطائرات ،

لا تعتمد على القنابل والتخريب الذي ينجم عنها ، بل يعتمد ايضا على التأثير المعنوي على العمال الذين سيتوقف عليهم وحدهم الرغبة في الاستمرار في العمل بالرغم من الاضطرابات والمخاوف » .

« ١٠ - اذا استمر العدو في غاراته الليلية على مصانع طائراتنا ، فقد ينجح في الحاق الاضرار المادية والمعنوية بنا ، وسيتوقف العمل في مصانعنا على الفور » .

« ١١ - علينا ان نتأكد من ان الالمان متفوقون علينا في عدد الطائرات بنسبة اربعة الى واحد . بالاضافة الى ان مصانع طائراتهم اكثر توزيعا وقوة من مصانعنا » .

« ١٢ - ومن ناحية ثانية ، فبإمكاننا نحن ايضا توجيه ضربات قوية على مصانع العدو ، ما دامت لدينا قوة كبيرة من قاذفات القنابل ، التي ستلحق بغاراتها على مصانعهم الكثير من الاضرار المادية والمعنوية وتوقف قسما كبيرا منها عن العمل » .

« ١٣ - وبالإجمال ، تبدو المانيا لاول وهلة انها تملك زمام الامور بيدها . ولكن النتيجة تتوقف على مقدرة جنودنا وسكاننا المدنيين على الصمود ، بفضل ما نتمتع به من روح معنوية عالية تمكننا من موازنة المانيا التي تبدو انها متفوقة علينا » .

لقد كتب هذا التقرير في احلك الاوقات ، وقبل عملية انقاذ دنكرق وقد وقع على التقرير رؤساء اركان الحرب الثلاثة ، وهم : « نيووال - باوند - وايرونسايدي ، ونوابهم الثلاثة : ديل - فيليبس وبيرس » . وعندما قرأت هذا التقرير بعد سنوات ، اريد ان اقر على ما كان يحتويه من خطورة وغموض . الا اننا كنا قد حزمنا امرنا وقررنا المضي يدا واحدة وقلبا واحدا . وقد اصدرنا التعليمات العامة التالية :

سري للغاية

« ان من دواعي امتنان رئيس الوزراء ، في هذه الايام السوداء ، ان يرى زملائه الوزراء وهم محتفظين بروحهم المعنوية العالية ، خلال الفترات الصعبة التي يعيشونها . وعلينا ان لا نقلل من اهمية هذه الاحداث وخطورتها وحراجتها ، وعلينا ان نبرهن عن عزمنا وتصميمنا الاكيد على المضي في هذه الحرب ، حتى نحطم ارادة العدو الراغب في السيطرة على اوروبا واخضاعها لنفوذه وسيطرته » .

« وعلينا ان لا نتسامح بالفكرة القائلة ان فرنسا ستقوم بعقد صلح

منفرد مع المانيا . ولكن مهما حدث على هذه القارة الاوروبية فعليتنا ان لا نشك في واجباتنا ، وسنستخدم كلما نملكه من قوة للدفاع عن بلادنا وامبراطوريتنا وقضيتنا .

وفي صباح اليوم الثامن والعشرين استسلمت بلجيكا ، وقد وصلت الانباء الى اللورد غورث قبيل الاستسلام بساعة واحدة ، وكان هذا الانهيار متوقعا قبل ثلاثة ايام ، وقد استطاعت القوات البريطانية ان تسد هذه الثغرة التي كان متوقعا حدوثها . واستطاعت قوات الحملة البريطانية الجلاء ، كما تمكن نصف الجيش الفرنسي الاول من الوصول الى دنكرك سالما حيث تم نقل رجاله بسلام . لكن خمس فرق لم يكتب لها النجاة بعد ان اطبقت عليها الكمائن الالمانية ، الا انهم صمدوا امام الضغط الهائل واستبسلوا في القتال حتى مساء الحادي والثلاثين من ايار ، واضطروا الى الاستسلام بعد ان نفذ ما لديهم من غذاء وعتاد . وهكذا استسلم نحو من خمسين الف جندي فرنسي للاعداء . وقد تمكن هؤلاء من الصمود بقيادة الجنرال مولينييه الباسل واتاحوا بذلك الفرصة امام رفاقهم للنجاة عن طريق دنكرك .

وقد مرت بمحنة قاسية خلال الايام المخيفة ، ولم اكن اجروء على التدخل ، اذ ان التدخل سيؤدي الى زيادة الخطر على الرجال بدلا من تخفيفه عنهم . ولا شك ان التزامنا المخلص لخطة الجنرال ويغان قد زادت من خطورة الموقف . الا ان قرار اللورد غورث ، الذي وافقنا عليه وايدناه ، والقاضي بالزحف نحو البحر قد نفذ بدقة متناهية بفضل عبقرية القائد ومساعدوه ، وسيبقى هذه الحادث كاسطورة رائعة من اساطير البطولة في تاريخ بريطانيا العسكرية .

الفصل الثالث

انقاذ دنكرك

منذ العشرين من أيار ، بدأ حشد البواخر والقطع الصغيرة تحت قيادة الاميرال رامسي قائد موقع ووفر . وفي مساء السادس والعشرين من الشهر نفسه اعلنت الاميرالية ابتداء عملية « دينامو » ووصلت أول قوة جلت عن دنكرك الى الوطن . وبعد ان فقدنا ميناء بولون وكاليه ، لم يبق عندنا سوى السواحل الرملية القريبة من حدود بلجيكا وما تبقى من ميناء دنكرك . وقد خيل لنا ان اكبر عدد يمكننا انقاذه في ذلك الوقت لن يتعدى الـ ٤٥ الف رجل خلال يومين . وقد اتخذت اجراءات الطوارئ للحصول على اكبر عدد ممكن من السفن الصغيرة للقيام « بمهام خاصة » وهذا يعني نقل نصف قوات الحملة البريطانية . وكان عمل السفن الصغيرة يقتصر على الشواطئ الرملية ، بينما تعمل بقية السفن الكبيرة في ميناء دنكرك نفسه . وقام ضباط الاميرالية بالبحث عن الزوارق الصغيرة في جميع الاحواض القائمة بين تيدلنفتون وبراتيلينغسي ، فتمكتوا من جمع اربعين زورقا بخاريا ولنشا ، كما جمعت كافة القوارب واليخوت والزوارق وزوارق صيد السمك والمواكين وكل ما كان على شواطئ البحر من وسائل النقل . وفي ليل السابع والعشرين من أيار اندفع سيل هائل من هذه القطع الصغيرة نحو شواطئ دنكرك لانقاذ جيشنا الحبيب .

وبعد ان تأكد للاميرالية ان الامر لم يعد سريريا اطلقت العنان لكل حركة من حركات الانقاذ وسمحت لكل من يملك قارباً او زورقاً مهما كان نوعه ان يبحر الى دنكرك . وعمل الجميع في هذا الجو الرائع من الحماس الوطني على

انقاذ ما لا يقل عن مئة ألف جندي من جنود الوطن من الشواطئ الى السفن
الراسية في عرض البحر ، تحت وابل من الغارات الجوية العنيفة ، والقصف
الذي لم ينقطع من طائرات العدو .

في هذه الاثناء ، كانت القوات الاضافية تعزز المواقع الامامية حول دنكرل
وبدأت النجذات تصل الى خطوط الدفاع الامامية . وكان من المقرر ان تشترك
ثلاثة ألوية في عملية الدفاع ، لكن الفرنسيين حملوا عنا القسم الاكبر من
مهمة الدفاع عن الجبهة ، فقررنا الاكتفاء بلواءين فقط . وكان الالمان يطاردون
جنودنا اثناء انسحابهم فينشرب القتال المرير بين جنودنا ومطاردتهم خاصة
حول الجناحين في نيوبورت وبيرغر . ومع استمرار الجلاء كان العدد ينخفض
ويتقلص الخطوط الدفاعية . ووقفت الالوف من الجنود موقف الابطال أمام
القصف الجوي المستمر مدة اربعة او خمسة ايام حريرة . وثبت ان مزاعم
هتلر حول منع عملية الانسحاب بواسطة سلاحه الجوي لم تكن صحيحة
بالاضافة الى انها كانت غير معقولة وفاشلة . فقد تبين ان القصف الجوي
المستمر على حشودنا الكبيرة على الشواطئ لم يلحق بهم اضرارا كبيرة . وفي
البداية عندما بدأت اولى الغارات الصاعقة ، ذهل جنودنا من ان تلك الغارة
لم تقتل ايا منهم تقريبا ، فقد كانت الانفجارات تقع حولهم في كل مكان ، الا
انها لم تصيبهم بأذى . فلو كانت تلك الشواطئ صخرية لتغير الوضع ووضحت
النتائج مهلكة ، الا ان الشواطئ الرملية بطبيعتها جعلت من نفسها مكانا
امينا يقيهم شر الغارات الوحشية .

وقد اذهل سلاح طيراننا العدو لشدة بأسه ونشاطه . فقد كانت
المعارك الجوية التي دارت في سماء دنكرل تجربة للكفاءات الجوية البريطانية
والالمانية . واحتفظت قيادتنا الجوية بطائرات مقاتلة ملأت سماء المعركة
بصورة مستديمة ، بانذلة جهدا عظيما في مجابهة العدو الذي يفوقها في العدد .
وكانت طائراتنا تتغلب على الطائرات العدو بسرعة مذهلة وتنزل بها خسائر
فادحة وتطردها خارج سماء المعركة . وقد استمرت هذه المعارك الماثلة يوما
بعد يوم الى ان حقق سلاحنا الجوي النصر الكبير . وما ان تشاهد الطائرات
العدوة حتى تهاجمها اسرابنا وتلتحم معها في معارك ضارية وتسقط منها
العشرات . وهكذا استخدمنا في هذه المعركة العنيفة كل ما نملكه من طائرات
احتياطية في الوطن . وكان الطيار البريطاني يقوم بأكثر من أربع غارات

يومية ، ولذلك حصلنا على نتائج واضحة ومرضية . فقد كان العدو المتفوق علينا يتهزم امامنا او يقتل ويتخاذل ويضعف . لقد كانت المعركة فاصلة . ولم يكن جنودنا على السواحل يشاهدون هذا الصراع الهائل في الجو ، فالمعارك كانت مشتعلة بعيدا عن انظارهم . وكانوا يجهلون ما يفعله نسورنا في الجو ، وكل ما يشعرون به هو هذه القنابل المنهمرة على الشواطئ التي يرسلها العدو الذي يتمكن من الافلات والوصول الى الشواطئ . ولستوء الحظ ، سيطر شعور من الغضب والنقمة على سلاحنا الجوي البطل لان الجنود لم يشاهدوه في سماء المعركة ، ولم يعلموا شيئا عن الخسائر الهائلة التي كان يلحقها بالعدو . وقد وصل بعض الجنود الى دوفر وموانيء التيمز وهم يشتمون زملائهم الطيارين ، جهلا منهم لتلك الحقيقة المشرفة والبطولة النادرة . لذلك قررت ان اذيع تلك الحقائق في البرلمان .

اما في البحر فقد ساد النظام الكامل على ظهر السفن والبواخر ، وكان البحر هائجا مما ساعد على استمرار الهدوء والنظام . وراحت الزوارق تعمل بهمة لتنقل الرجال من الشواطئ الى البواخر غير عابئة بالغارات الرهيبة التي كانت تمطرهم بوابل من قنابلها المميعة . وكان عدد هذه الزوارق الكبير هو وحده الذي تحدى الغارات الجوية . وثبت ان « اسطول البعوض » الجبار لا يفرق .



وفي الحادي والثلاثين من شهر ايار بلغ القتال في دنكرك ذروته ، وقد نقل خلال يومين فقط ما يزيد عن ١٣٢ ألف رجل ، انتقل معظمهم من الشواطئ في زوارق صغيرة تحت وابل من القنابل بل والمدافع . وقد بذلت القاذفات المعادية اكبر مجهود لها في اليوم الاول من حزيران . وكانت تركز غاراتها اثناء عودة مقاتلاتنا للتزود بالوقود . وقد خسرنا عددا ضخما من بوأخرنا نتيجة لتلك الغارات ، وبلغ مجموعها مجموع ما غرق في الاسبوع الماضي بكامله . وبلغت خسائرنا في ذلك اليوم احدى وثلاثين سفينة بالاضافة الى احدى عشر سفينة اخرى اصببت اصابات طفيفة . وزاد العدو من ضغطه وهو يأمل في اختراق خطوط دفاعنا الا انه لم يتمكن بفضل مقاومة قواتنا الحليفة الرائعة .

ومضت المرحلة النهائية لعملية الجلاء بكثير من الدقة والمهارة ، واصبح بإمكاننا رسم الخطط سلفا ، بدلا من اضطرارنا الى الاعتماد على الظروف

والاحداث التي كانت تتغير في كل لحظة . وعندما حل فجر اليوم الثاني من حزيران لم يبق في ضواحي دنكرك سوى اربعة الاف بريطاني ومعهم سبعة مدافع مضادة للطائرات و ١٢ مدفعا مضادا للدبابات ، ظلوا بالاشتراك مع القوات الفرنسية التي كانت لا تزال تحافظ على خط الدفاع الرئيسي . وقرر الاميرال رامسي النزول دفعة واحدة الى الميناء في تلك الليلة ، اذ لم يعد ممكنا الانسحاب الا اثناء الليل . واحترق من انكلترا في هذه الليلة اربع وأربعون باخرة بالاضافة الى الزوارق الصغيرة المحترقة ، كما اشترك في هذه العملية اربعون سفينة اخرى فرنسية بلجيكية . وتم نقل قوة المؤخرة البريطانية كلها قبل حلول منتصف الليل .

لكن هذه لم تكن النهاية في دنكرك . فقد كنا على أتم الاستعداد لنقل المزيد من القوات الفرنسية الموجودة في الميناء . لكن عندما اضطرت باخرنا الى الانسحاب في تلك الليلة ، كان على الشواطئ عدد كبير من الجنود الفرنسيين لا يزالون مشتبكين مع العدو في قتال عنيف ، وكان علينا ان نحاول مرة اخرى بالرغم من الاعياء المسيطر على بحارتنا من جراء الجهد الهائل الذي بذلوه دون توقف خلال الايام الماضية دون ان يذوقوا طعما للراحة والنوم . وفي اليوم الرابع من حزيران انزلنا في انكلترا ٢٦١٧٥ فرنسيا كان بينهم واحد وعشرين الفا في سفن بريطانية . اما الباقون والبالغ عددهم بضعة الوف ، فقد وصلوا القتال عندما وصل العدو الى ضواحي البلدة بعد ان بلغ بالجنود الاعياء واحتملوا اقسى ما يمكن للطاقة البشرية ان تحتمله بحيث تمكنوا من تغطية انسحاب زملائهم ، فسقطوا اسرى في أيدي الاعداء . واعلنت الاميرالية اخيرا في تمام الساعة الثانية والدقيقة الثالثة والعشرين من بعد ظهر يوم الرابع من شهر حزيران انتهاء عملية « دينامو » . وقد تم نقل (٣٢٨٠٠٠) جندي بريطاني وحليف الى الجزر البريطانية .

الفصل الرابع

التسابق نحو المغانم

كانت علاقاتي الشخصية مع موسوليني في المرتين اللتين اجتمعت فيهما معه عام ١٩٢٧ ، وثيقة ، ولم اكن لاحرض حكومتي على مقاطعته حول موضوع الحبشة ، او لاثير نقمة عصابة الامم عليه ، الا اذا كنا على استعداد لخوض معركة ضده حتى النهاية .

وفي هذه الاثناء ، وبعد الكارثة التي المت بنا في فرنسا ، وجدت انه يترتب علي بصفتي رئيسا للوزارة ان ابذل ما في وسعي لابقاء ايطاليا خارج الحرب . وبالرغم من ثقتي بعدم جدوى هذه المحاولة الا انني لم اتردد في استخدام كل ما لدي من نفوذ وطاقات . فبعد ستة ايام من تسلمي للحكم في بريطانيا بعثت بنداء الى موسوليني ، وقد سمحنا بنشر النداء والرد عليه بعد عامين في ظروف مغايرة عن تلك الظروف . وكان تاريخ ندائي هذا هو السادس عشر من ايار عام ١٩٤٠ وهذا نصه :

من رئيس الوزراء الى السنيور موسوليني

« الان بعد ان اصبحت رئيسا للوزارة ووزيرا للدفاع ، فقد رجعت بذاكرتي الى اجتماعاتنا الماضية في روما ، فاني اشعر بالرغبة في نقل عبارات حسن النية بوصفك رئيسا للشعب الايطالي ، عبر ما يبدو انها ثغرة تتسع بسرعة . هل فات الوقت لصدر نهر الدماء من الاندفاع بين الشعبين البريطاني والايطالي ؟ ان في امكاننا ان نلحق ببعضنا اصابات قوية مؤلمة ، وان يضرب بعضنا البعض دون رافة ، وان نحيل

البحر الابيض المتوسط الى ظلام بنزاعنا وخصامنا . فاذا كانت هذه رغبتك ، فلتكن كذلك ، ولكنني اعلن بانني لم أكن يوما من الايام عدوا لعظمة ايطاليا او عدوا للمشرع الايطالي الذي منحنا القوانين والشرائع ان من العبث معرفة وجهة هذه المعارك الدائرة الان في اوروبا ، ولكنني متأكد من شيء واحد هو انه مهما حصل في القارة الاوروبية ، فإن بريطانيا ستتمضي بثبات الى نهاية الطريق ، حتى لو اضطرت الى البقاء لوحدها كما جرى في السابق . كما انني متيقن من ان المساعدات الاميركية لنا ستزداد ، بل اننا سننتلقى العون من الاميركيين انفسهم . « واني ارجو ان تصدق ، ان الدافع الذي دفعني الى توجيه هذا النداء اليك ، لم يكن الخوف او الضعف ، فهذا النداء سيسجل على صفحات التاريخ . فبعد الاجيال المقبلة وفوق الهتافات ، سيبقى المهتاف الوحيد قائما بأن لا يشترك الوارثان للحضارتين اللاتينية والمسيحية في صراع دموي ضد بعضهما البعض . واني اناشدك ان تصغي الى هذا النداء بكل اجلال واحترام قبل ان تصدر اشارتك المخيفة وعلى كل حال ان هذه الاشارة المخيفة لن تصدر عنا أبدا . »

وكان جواب موسوليني على هذا النداء قاسيا جدا ، ولكنه لم يخلو من الصراحة ، وهذا نص الجواب :

من السناتور موسوليني الى رئيس الوزراء

« اجيب على الرسالة التي بعثت بها الي ، انك بلا شك مطلع على الاسباب الخطيرة التي حدثت ببلدينا الى الوقوف في معسكرين متعاكسين ولا أرى سببا للرجوع الى الماضي ، ولكنني اذكرك بالدور الذي قامت به حكومتك عام ١٩٣٥ في فرض العقوبات على ايطاليا التسي ارادت ان تحتفظ لنفسها بقطعة صغيرة من ارض أفريقيا دون ان تلحق الاضرار بممتلكاتكم او مصالحكم او ممتلكات او مصالح غيركم . كما اريد ان الفت نظرك الى الحالة الراهنة من العبودية الحقيقية التي تجد ايطاليا نفسها فيها وفي بحرهما الخاص بها . واذا كانت حكومتك تريد المحافظة على كلمتها وتوقيعها ، لذلك اعلنت الحرب على المانيا ، فيمكنك اذن فهم حقيقة هذا الشعور بالنسبة لاطاليا أيضا التي هي الاخرى تريد المحافظة على كلمتها ومعاهدتها مع المانيا ، مهما كانت الظروف والاعتبارات . »

وبعد وصول هذا الرد من موسوليني لم نعد نشك في انه لا يريد الحرب، فهو سينتظر الفرصة المناسبة ، وقد وجد في هزيمة فرنسا الفرصة الذهبية لاعلان الحرب على بريطانيا وفرنسا معا . وقد ذكر تشيانو ان موسوليني سيعلم الحرب خلال شهر واحد وفي أي وقت يراه مناسبا بعد الخامس من حزيران ، الا ان الموعد تأجل الى العاشر منه بناء لطلب خاص من هتلر نفسه .

وقد حاولت الولايات المتحدة التدخل لمنع اعلان الحرب من جهة ايطاليا ، وبذلت جهودا هائلة في هذا السبيل ، الا ان الدكتاتور الايطالي رفض كل عرض تقدمت به الولايات المتحدة . وفي الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والاربعين من بعد ظهر اليوم العاشر من حزيران ، ابلغ وزير الخارجية الايطالية سفير بريطانيا ان ايطاليا ستعتبر نفسها في حالة حرب مع المملكة المتحدة منذ منتصف تلك الليلة . كما وجهت مثل هذا الاشعار الى حكومة فرنسا أيضا ، وعندما نقل تشيانو هذا الخبر الى السفير الفرنسي قال هذا وهو يتجه الى الباب : « وانتم أيضا ستجدون ان الالمان هم سادة قساة » . واعلن السنيور موسوليني من شرفة قصره الى الحشود المتجمهرة ان ايطاليا قد اعلنت الحرب على بريطانيا وفرنسا .

وبدا الايطاليون معركتهم بأن راحوا يهاجمون القوات الفرنسية في جبال الالب ، واصلت بريطانيا الحرب على ايطاليا في الحال . وصدرت الاوامر بتوقيف خمس بواخر ايطالية كانت في جبل طارق كما اخطر الاسطول بموجب توقيف كل باخرة ايطالية يجدها . وقامت اسراب طائراتنا بالاغارة على تورين وميلانو .

اما فرنسا فلم تتمكن من حشد اكثر من ثلاث فرق بالاضافة الى عدد مماثل من الحاميات الجبلية ، وذلك لصد أي محاولة للغزو من قبل الايطاليين عبر الالب وساحل ريفيرا . وكانت الجيوش الايطالية تقدر باثنتين وثلاثين فرقة تحت قيادة الامير اومبرتو . وفي نفس الوقت شرع الالمان بتطويق الفرنسيين عبر نهر الرون . وصمدت الفرق الفرنسية المقاتلة امام الايطاليين، حتى بعد ان سقطت باريس وليون في ايدي الغزاة الالمان . وعندما اجتمع موسوليني وهتلر بعد ذلك لم يجد الدوتشي ما يفخر به امام صديقه . اذ لم يتمكن الايطاليون من تحقيق أي نصر في فرنسا رغم محاولاتهم المتكررة . وكان مقررا ان يلقي الرئيس الاميركي خطابا يوم العاشر من حزيران . واستمعت الى خطابه العظيم حوالي منتصف الليل وانا لا ازال في غرفة العمليات الحربية في الاميرالية . وعندما توجه الرئيس روزفلت بهذه العبارة

الجارحة لايطاليا : « في هذا اليوم العاشر من حزيران عام ١٩٤٠ ، ارتفعت اليد المسكة بالخنجر وطعن ظهري جارتها « شعرنا جميعا بالرضى والارتياح . فقد كان خطابه رائعا يحمل في طياته بريق الامل نحونا . وبعث على العصور برسالة اشكر له فيها عواطفه .



وبعد سقوط فرنسا بدأ التكالب على المغام ، ولم يكن موسوليني الوحش الوحيد الجائع ، فقد لحقه الدب الذي جاء يركض مع ابن آوى . لقد كان سير العلاقات الانكليزية - الروسية بسير الى حد قطع العلاقات مع بريطانيا وفرنسا ، خاصة بعد ان غزا الروس فنلندا . وكان المانيا وروسيا تعملان معا الى الحد الذي تسمح به خلافاتهما العميقة القديمة ، وراح ستالين وهتلر يعملان بنفس الاسلوب من الدكتاتورية المتشابهة الى حد كبير . وكان مولوتوف يتني بشدد على اجراءات هتلر وسياسة المانيا العسكرية . وعندما قام الالمان بهجومهم على النرويج صرح مولوتوف ان الحكومة السوفياتية تقدر كل التقدير لجميع الاجراءات التي ارغمت المانيا على هجومها هذا . وقال ان الانكليز قد تجاهلوا تماما حقوق الدول المحايدة ، ثم اضاف متمنيا النجاح والتوفيق لالمانيا في اجراءاتها الدفاعية . وفي يوم العاشر من حزيران ابلغ هتلر زميله ستالين عن ابتداء الهجوم الالمانى الكاسح على فرنسا وعلى البلاد المنخفضة المحايدة . وكتب شولنبرغ يقول : « وقد استحسن مولوتوف هذا الاجراء . عندما قمت بابلأغه النبا ، وقال انه من الواجب على المانيا حماية نفسها ضد أي هجوم انكليزي - فرنسي مشترك تقوم به هاتان الدولتان . واطاف انه لا شك مطلقا في انتصارنا . »

وفي الرابع عشر من حزيران ، أي يوم سقطت باريس ، ارسلت موسكو انذارها الاخير الى ليتوانيا تتهمها والدول البلطيقية الاخرى بالتآمر على روسيا ، وتطالبها باجراء تغييرات شاملة في الحكومة ، وبيع بعض التنازلات العسكرية . وفي اليوم التالي قام الجيش الاحمر بغزو تلك البلاد التي لم تتمكن من المقاومة . ثم تعرضت لاتفيا واستونيا لنفس الطريقة وفرضت عليها حكومات جديدة موالية لروسيا ، كما فرضت عليها حاميات سوفياتية في أراضيها . ولم تلبث جميع تلك الدول ان انضمت الى الاتحاد السوفياتي في الثالث من شهر آب .

ووجه الروس انذارا الى رومانيا طلبوا فيه منها التخلي عن بساربيا
 والجزء الشمالي من بوكوفينا لمصلحة الاتحاد السوفياتي ، وطلبوا ان يصلهم
 الرد في اليوم التالي . وقد انزعجت المانيا اشد الانزعاج لهذا التصرف من
 قبل روسيا ، لما يترتب على هذا العمل من اضرار بمصالح المانيا في رومانيا ،
 الا أنها اضطرت للموافقة طبقا لارتباطها بمعاهدة ريبنتروب - مولوتوف عام
 ١٩٣٩ الذي اعترفت فيه المانيا بحق روسيا بتطبيق سياستها في جنوب شرق
 اوروبا . وبناء على ذلك أوعزت المانيا الى رومانيا بالموافقة فوراً على المطالب
 الروسية . وهكذا انسحبت القوات الرومانية من المقاطعتين المذكورتين
 وانتقلت اليها القوات الروسية ، وبذلك أصبحت القوات السوفياتية متمركزة
 على طول سواحل البلطيق وعلى مصب نهر الدانوب .



الفصل الخامس

مأساة فرنسا

عندما اذعنا عدد الذين تم انقاذهم من دنكرك ، ساد البلاد شعور من الراحة والاطمئنان . لقد ساد شعور من الارتياح بعد فترة طويلة من القلق الذي سرعان ما تحول الى نوع من الاحساس بالنصر . فان انقاذ ربع مليون جندي شاب من خيرة جنودنا يعتبر نصرا عظيما بعد سنوات طويلة من الهزيمة . وقد عاد هؤلاء الى الوطن وهم لا يحملون شيئا سوى بنادقهم والحرب وبضع مئات من المدافع الرشاشة . وقد كان الجميع يتمتعون بمعنويات عالية ، وكانوا على ثقة تامة من انهم سيتغلبون على عدوهم اذا ما اتاحت لهم فرصة ثانية للاشتباك معه . لكن معركة دنكرك كانت قد خسرتنا كل ما نملكه من معدات ، لا سيما تلك التي انتجتها معاملنا مؤخرا وارسلت بها الى ميدان المعركة في فرنسا ، وستمضي عدة اشهر قبل ان نتمكن من انتاج وتعويض تلك الخسارة القادحة . لكن العواطف الجياشة في الولايات المتحدة ، وخاصة تلك التي كانت تتأجج في صدور القادة البارزين هناك ، حثمت عليهم التفكير بالموضوع جديا ، وسرعان ما اصدر الرئيس الاميركي اوامره الى وزارتي الحرب والبحرية ، كما طلب الجنرال مارشال من نائبيه اعداد قوائم بموجودات الجيش الاميركي من سلاح احتياطي . وفي خلال ثمان واربعين ساعة كانت القوائم الكاملة جاهزة ، وفي الحال وافق الجنرال مارشال عليها ، وطلب ارسالها الى بريطانيا وفرنسا . وتضمنت القائمة الاولى نصف مليون بندقية من مجموع مليوني بندقية يعود تاريخ صنعها الى عامي ١٩١٧ و ١٩١٨

وبقيت مخترنة حوالي عشرين عاما . وقد ارسل مع كل بندقية ٢٥٠ طلقة . كما ارسل معها أيضا تسعمائة مدفع من عيار (٧٥) ومليون قذيفة وثمانون الف رشاش وأنواعا أخرى من الاسلحة . وشرعت جميع مخازن الجيش الاميركي بحزم الاسلحة وتوضيئها وشحنها . وقد وصل الى الميناء في الحادي عشر من حزيران اثنتا عشر باخرة بريطانية لتبدأ بنقل شحنات الاسلحة الى بريطانيا وفرنسا .

لقد كان هذا العمل الذي قامت به اميركا عملا رائعا من اعمال الايمان والقيادة ، فقد حرمت نفسها من تلك الاعداد الهائلة من الاسلحة لترسلها الى بلاد يعتبرها الكثيرون من ابناء البلاد انها قد منيت بالهزيمة .

كانت لا تزال لدينا في فرنسا فرقة جبلية خاصة بقيت وراء السوم وكانت لا تزال في حالة ممتازة . كما كانت هناك فرقتنا المدرعة الاولى والوحيدة وكتيبة الدبابات اللتان ارسلتا الى كاليه للمشاركة في عملية الانقاذ . ولم يحل شهر حزيران حتى كانت الفرقة هذه قد خسرت أكثر من ثلثي رجالها ، فصدرت الاوامر اليها بوجوب انسحابها الى ما وراء نهر السين لاعادة تنظيمها . وفي نفس الوقت جمعنا تسعة أنواع من فرق المشاة التي لم تكن تملك سوى البنادق ، أي انها كانت شبه عزلاء .

وفي هذا الوقت بدأت المرحلة الاخيرة من معركة فرنسا ، وبدأ هجوم الماني جديد اتسم بالعنف والقوة خاصة المدرعات التي وفروها لهذه المعركة الفاصلة والتي تدفقت بمجموعها الآن على الجبهة الفرنسية التي كانت تترنح من شدة الضعف . وحاول الجيش الفرنسي المقاومة للحفاظ على حدود نهر السوم ، لكن فرقتين المانيتين تمكنتا من اختراق صفوفه واندفعت نحو روان فعزلت جناح الجيش الفرنسي الايسر والذي يضم فرقتنا الجبلية ، عن بقية اجزاء الجيش . وصدرت الاوامر الى الجنرال فورشون بوجوب الانسحاب باتجاه روان . لكن هذه الاوامر لم تنفذ بسبب بدء انحلال القيادة الفرنسية ، فقدمنا عدة احتجاجات وبيانات الى القيادة الفرنسية بهذا الشأن لكن دون جدوى

وتمكنت فرقتنا من التراجع بعد قتال مرير ضار باتجاه سان فاليري وهي تأمل بالجلء عن طريق البحر . لكن الضباب الكثيف حال دون جلاءها ، ووصل الالمان الى الشواطئ الصخرية وسدت سبل النجاة أمام فرقنا

الباسلة بعد ان أصبح الشاطئ تحت سيطرة رشاشاتهم • واستسلم اللواء الفرنسي وارتفعت الرايات البيضاء فوق البلدة ، فاضطرت فرقتنا الجبلية الباسلة الى الاستسلام ووقع ثمانية الاف بريطاني وأربعة الاف فرنسي في الاسر وكان قائد الفرقة الألمانية المدرعة التي أسرتهم ، هو الجنرال رومل بالذات •

تلقيت في الساعة الحادية عشرة من قبل ظهر الحادي عشر من حزيران رسالة من المسير رينو يطلب فيها مقابلتي في « بريار » على مقربة من اورليان بعد ان انتقلت العاصمة من باريس • فاستقلت طائرتي بعد الظهر وسافرت يصحبني المستر ايدن وزير الحربية في ذلك الوقت والجنرال ديل رئيس الاركان والجنرال ايسماي • وكانت رحلتي هذه هي الرحلة الرابعة الى فرنسا •

وبدأنا الاجتماع في تمام الساعة السابعة ، فطلبت من الحكومة الفرنسية الاستمرار في الدفاع عن باريس وقلت لهم مؤكدا ضرورة بدء حرب الشوارع والقتال من بيت الى بيت لاستنزاف قوة الجيش الغازي • وقد ذكرت المارشال بيتان بتلك الليالي التي قضيناها سوياً في قطاره في مدينة « بوفيسه » بعد الكارثة التي حلت بالجيش البريطاني في عام ١٩١٨ ، وذكرته كيف تمكن من انقاذ الوضع في عملية مشابهة • وقد ذكرت المارشال بأقوال كليمنصو حين صرح بقوله : « سأقاتل أمام باريس • وفي داخلها ، ورائها » • وقد أجابني المارشال بيتان بكل اعتزاز وهدوء انه كان تحت تصرفه في تلك الايام قوات تبلغ بعدها ستين فرقة ، اما الان فليس لديه أي منها • كما ذكرني ان الفرق البريطانية كانت تبلغ بعدها الستين فرقة في تلك الايام أيضا ، كما اضاف ان تهديم مدينة باريس لن يغير شيئا من النتيجة المرتقبة ...

وعرض علينا الجنرال ويغان الوضع العسكري بالنسبة الى المعركة « المائعة » الدائرة على مقربة منا ، وأثنى ثناء كبيرا على الجيش الفرنسي وبسالته ، وطالبنا بارسال نجدات عسكرية عاجلة وفي طليعة مطالبه ارسال جميع ما لدينا من اسراب المقاتلات ، واستطرد قائلاً : « ان هذه اللحظة حاسمة ، لذلك لا يجوز الابقاء على أي سرب من الطائرات المقاتلة في انكلترا » وقد أجبت على الفور بقولي : « ان هذه اللحظة ليست باللمحة الحاسمة وستأتي تلك اللحظة حين يقوم هتلر بهجومه الجوي على بريطانيا العظمى ، واذا تمكنا من الاحتفاظ بسيطرتنا على الجو ومن ابقاءنا على البحار مفتوحة ،

وهذا ما سنقدر عليه حتما ، فعندئذ سنعود لاستعادة كل ما فقدتموه » • لقد كان لدينا خمسة وعشرون سربا من الطائرات ، وقد قررنا الاحتفاظ بها ولن نفرط بسرب واحد منها مهما كلف الامر ، فنحن قد قررنا الاستمرار في الحرب الى أجل غير محدود ، واما التخلي عن هذه الاسراب فمعناه القضاء على أملنا الوحيد في الحياة ••

وبعد قليل وصل الجنرال جورج الذي اطلع على خلاصة حديثنا السابق ، وبعد ان عرض ملخصا للوضع القائم في الجبهة ، اكد ضرورة ما سبق وطلبتة أي البدء في حرب الشوارع وحرب العصابات • فالجيش الالماني ليس بالقوة التي يبدو عليها حين مجابهته بجيوش مماثلة • فلو حاول كل لواء من الجيش الفرنسي الاصطدام مع لواء مماثل من الجيش الالماني ، واستعمل في اصطدامه كل ما يملكه الجيش الفرنسي من حيوية ونشاط لتمكن من التغلب على عدوه أو عرقلة تقدمه السريع على الأقل • وكان ردهم المتخاذل ان الاوضاع اصبحت مخيفة على الطرق التي امتلأت بأفواج اللاجئين الذين تطاردتهم نيران رشاشات الطائرات العدو ، والحقوا هذا ببيانات عن حالة السكان وعن انهيار الجهاز الحكومي والسيطرة العسكرية • وقال الجنرال ويغان بأنهم قد يضطروا الى طلب الهدنة • وقد أجبته بقولي : « اذا وجدت فرنسا ، في هذه المحنة ، انه من الخير لها استسلام جيشها فعليا أن تبادر الى اعلان ذلك ولا تتردد بسببنا ، فنحن قد صممنا على المضي في حربنا وعلى القتال الى الابد ، الى الابد والابد » • وعندما اعدت لهم قولي ان على الجيش الفرنسي ان يستمر في القتال اينما كان وحيثما استطاع لانهاك قوة مائة فرقة المانية ، أجاني الجنرال ويغان على الفور : « حتى لو قاتلنا ، فسيبقى لديهم مائة فرقة اخرى تقوم بمهاجمتكم واحتلال بلادكم ، وماذا تستطيعون ان تعملوه بعد ذلك ؟ » واجبته : « ان مستشاري العسكريين يرون ان طريقة صد أي هجوم الماني على بريطانيا هي في محاولة اغراق أكبر عدد ممكن منهم في البحر ، اما الباقي فيمكننا تحطيمهم على الشاطئ » •

الفصل السادس

مشاكل الدفاع

في هذا الوقت من صيف عام ١٩٤٠ ، أصبحنا منفردين تماما بعد هزيمة فرنسا ، ولم يكن في امكان دول « الدمنيونات » او الهند او المستعمرات ان تمدنا بالمساعدات اللازمة التي كنا في اشد الحاجة لها ، وكانت الجيوش الالمانية الضخمة المنتصرة المدربة والتي توفر لديها السلاح الاحتياطي الضخم ، والمستودعات والمصانع التي غنمتها بكل بساطة ، اخذت هذه الجيوش تستعد للمعركة الفاصلة .

اما ايطاليا فوقفت بقواتها الكثيفة الجرارة ، بعد ان اعلنت علينا الحرب ، تبحث في شوق عن طريقة لتدميرنا في البحر المتوسط ومصر . كذلك وقفت اليابان في الشرق الاقصى تنظر الينا نظرة غريبة يتعذر علينا تفسيرها وتطالبنا في الحاح وتهديد اغلاق طريق بورما في وجه المساعدات الى الصين ، كما كانت روسيا تقدم الى هتلر مساعدات هامة من المواد الاولى

اما اسبانيا التي احتلت منطقة طنجة الدولية ، فقد تغدر بنا بين آونة واخرى وتطالبنا بجبل طارق وربما استنجدت بالمانيا لمساعدتها في احتلاله او في اقامة بطاريات المدفعية الهائلة لتطويق اسطولنا عبر المضيق ، وفي هذا الوقت كانت الحكومة الفرنسية التي اصبح بيتان رئيسا لها ، قد انتقلت الى فيشي ، واصبح من المنتظر بين لحظة واخرى ان تعلن الحرب علينا بعد ان اصبحت ميالة الى فكرة أوروبا النازية ، كذلك اصبح الاسطول الفرنسي في

قبضة الالمان في طولون . وهكذا وجدنا اننا لسنا في حاجة الى المزيد من
الاعداء .

ومع ان معنوياتنا لم تضعف ، الا ان السؤال الذي ظل يراودنا هو :
كيف يمكن لنا ان نجتاز هذه الصعوبات القائمة ؟ لقد كان من المعروف ان
جيشنا في الوطن لا يحمل سلاحا اكثر من البنادق ، وستمضي فترة من الزمن
قبل ان تتمكن مصانعنا من التعويض على ما خسرنه من عتاد في دنكرك
ليس من العجيب بعد كل هذا الا يكون العالم كله مترجع على يقين من ان
ساعتنا الاخيرة قد دنت ؟؟

وانتشر الرعب في الولايات المتحدة وسائر الدول الاخرى الحرة ، واخذ
الاميركيون يتساءلون في اهتمام : هل من واجبهم ان يجازفوا بمواردهم
المحدودة الضئيلة ارضاء للمشاعر الطيبة وحدها وان كانت المخاطرة ميثوسا
منها ؟

ليس من الاجدى ان يبذلوا اي جهد وان يوفرنا كل سلاح للمقاومة ضعف
استعدادهم . وكان التغلب على هذه الاسانيد ، يتطلب منطقا مستقيما وعلى
جانب من الثقة ، ولا ريب في ان الشعب البريطاني مدين لرئيس الولايات
المتحدة وكبار القادة والمستشارين ، لانهم على الرغم من اقتراب موعد
انتخابات المرة الثالثة للرئاسة لم يتخلوا عن ثقتهم القوية في تصميم بريطانيا
وقدرتها على النضال . وليس من شك في ان تصميم بريطانيا القوي الذي لم
ينله اي ضعف او وهن كان عاملا من عوامل رجحان كفتنا في القتال .

ان هذا الشعب الذي ظل في سنوات ما قبل الحرب يسير في طريق
المسألة وعدم التفهم ، ويخوض غمار المهازل الحزبية ، ويفرق الى أبعد
الحدود في لجنة السياسات الاوروبية بلا خوف ما هو الان يلاقي مصير
تقصيره في التاهب والاستعداد ، وثمره اتكاله على النوايا الحسنة والحوافز
الكريمة ، ولكن العالم يراه في الوقت نفسه مصمما على ان تصبح بلاده قطعة
من الخراب قبل ان تبدو جزيرته خانعة ذليلة

وهذه بلا جدال احدى صفحات التاريخ الرائعة ، ولكنها ليست الصفحة
الوحيدة به ، فعندما استولى الاسبرطيون على اثينا ، اصرت قرطاجة على
الصمود والاستبسال حتى الموت امام روما ، والتاريخ حافل بصفحات كثيرة
عن شعوب استماتت في النضال ، ودول شجاعة تفيض بالكبرياء أثرت
ان تفنى وتموت والا يبقى لها اثر .

ولم يكن هناك في ذلك الحين سوى اقلية معدودة من البريطانيين والاجانب

تقف على الاهمية الاستراتيجية لموقعنا الجغرافي المنعزل ، ولم يكن كثيرون قد عرفوا في مدى سنوات ما قبل الحرب اننا كنا نحافظ على مقومات دفاعنا البحري والجوي ، وقد مضى على الجزر البريطانية ما يقرب من الف عام لم تشهد ارضها نيران غزو من الجو ، وظل كل بريطاني في قمة الكفاح محتفظا بهدوء اعصابه ، راضيا كل الرضا بالتضحية بحياته في سبيل بلاده . وسرعان ما أخذ الاعداء والاصدقاء في سائر بلاد العالم يدركون ان هذه هي طبيعتنا الاصلية . . . وماذا يكمن خلفها ؟ انه الامر الذي يمكن ان يظهر في الشدائد . . .

وكانت هناك ناحية اخرى ، فقد تعرضنا خلال شهر حزيران لخطر كبير . . . فقد رأينا اخر ما لدينا من قوات احتياطية تسحب ليقضى عليها في محاولة يائسة في فرنسا ، وان قواتنا الجوية تتضاءل شيئا فشيئا في هذه الغارات التي نمضي بها الى القارة او في نقلها الى هناك . ولو كان هتلر موهوبا ، او متمتعا بحكمة خارقة ، لابطأ في هجومه على الجبهة الفرنسية مدة ثلاثة أسابيع او أربعة بعد معركة دنكرك على خط نهر السين ، ليتم استعداداته للهجوم على بريطانيا . . . ولو حدث هذا لاصبحنا في وضع مخيف لا خيار لنا فيه . فاما ان نتخلى عن فرنسا وفي هذا تعذيب لنا ، والم لفرنسا ، واما ان ننثر قواتنا وننشرها مع ما في هذه القوات من ضرورة قصوى لمستقبلنا وحياتنا ، اذ كلما حفزنا الفرنسيين على المضي في القتال ، تحم علينا نحن ان نزيد في العون لهم ، وهذا يؤدي الى اشتداد الصعوبات في طريق اعدادنا للدفاع عن بريطانيا نفسها ، ولا سيما بالنسبة للاسراب الخمسة والعشرين من طائراتنا المقاتلة التي يتوقف مصير كل شيء عليها . وبالطبع كان مستحيلا ان نتخلى عن هذه الاسراب ، ولكن رفضنا سيؤدي بالتأكيد الى اغضاب حليفنا الباسلة مما يعكر صفو علاقاتنا ، وعلى هذا فقد رأينا عددا من كبار قادتنا ، ينظرون الى مشكلاتنا الهينة نوعا ما ، بعد ان اصبحنا لوحدنا ، بشيء من الراحة ، وكأن عبئا ثقيلا قد نزل عن كواهلهم ، واصبح وضعنا كوضع مدرب احد النوادي العسكرية الذي اخذ يخاطب لاعبا قد تهاوت معنوياته بقوله : « ايا ما كان الامر فقد بلغنا المعركة الفاصلة ، وسيكون نادينا ميدانها »

لم تكن القيادة الالمانية العليا ، حتى هذه الفترة قد استهانت بقيمة ما عليه مركزنا من قوة ، وقد ذكر تشيانو انه قابل هتلر في برلين في ١٧ تموز

عام ١٩٤٠ وتحديث مع الجنرال فون كايتل طويلا ، كما تحدث هتلر نفسه عن غزو لبريطانيا ، فأكد له ان الرأي لم يستقر نهائيا على أي شيء وقد ذكر ان عملية النزول الى البر في انكلترا غير مستعجلة الا انها صعبة جدا ، ويجب ان تقوم بها المانيا وهي في غاية الحذر ، اذ ان اخبارنا عن الترتيبات العسكرية في الجزيرة ، وطرق الدفاع عن شواطئها قليلة وغامضة ومثبتة في صحتها .

واضاف كايتل ان ما يبدو سهلا وجوهريا هو شن هجوم جوي مركز على المطارات والمصانع ومراكز المواصلات الرئيسية في بريطانيا العظمى ، ومن المحتم ان يعرف كل انسان ان السلاح الجوي البريطاني في منتهى القوة ، وذكر كايتل ان هذا السلاح الجوي يتألف من حوالي ألف وخمسمائة طائرة مستعدة للدفاع والهجوم المضاد ، كما اعترف ان الغارات التي يقوم بها السلاح الجوي البريطاني قد تزايدت كثيرا ، وان من ناحية اصابة الاهداف من الجو فهم في غاية المهارة . وكان عدد الطائرات المغيرة في كل مرة يصل الى الثمانين لكن بريطانيا تعاني نقصا كبيرا في الطيارين ، وليس في وسعها ان تستعير عن هؤلاء الذين يهاجمون المدن الالمانية الان ، بالطيارين الجدد الذين ينقصهم التدريب الى حد كبير .

واصر كايتل على ضرورة توجيه ضربة الى جبل طارق لقطع شرايين المواصلات البريطانية وشل حركتها ، ولم يشر كايتل او هتلر الى مدة الحرب او اجلها ، وكان هملر وحده الذي ذكر عرضا ان الحرب يجب ان تنتهي قبل ابتداء شهر تشرين الاول .

هذا هو التقرير الذي وضعه تشيانو في مذكراته ، وقد عرض على هتلر استجابة لطلب الدوتشي العاجل امداده بحوالي عشر فرق من قواته ووحدة جوية تتكون من ثلاثين سربا للمساهمة في الغزو وقد اعتذر هتلر عن قبول القوات البرية في لباقة ، ووصلت بعض الاسراب الجوية الايطالية ، لكنها لم تصب نجاحا في مهمتها كما سنرى .

وقد ألقى هتلر في ١٩ تموز خطاب القائد المنتصر في الرايشتساغ ، وبعد ان تنبأ بانني سألجأ الى كندا ، قدم ما يمكن ان يسمى عرضا للصلح ، وقد ارفق عرضه هذا بمذكرات دبلوماسية ارسلت عن طريق السويد والولايات المتحدة والفاتيكان - وبدا من الطبيعي بعد ان خضعت اوربا كلها لارادته ، سيكون في غاية السرور اذا تمكن من الحصول على موافقة بريطانيا على كل ما فعله ، ولم يكن العرض في الحقيقة يتناول السلام ، وانما يتناول الاستعداد لتقبل اذعان بريطانيا للتخلي عن كل ما خاضت الحرب من اجله .

وفكرت في أول الامر في اشارة الموضوع بصفة رسمية في البرلمان ، ولكن زملائي الوزراء رأوا ان مثل هذا العمل يؤدي الى التشويش حول موضوع كنا جميعا متفقين حوله ، وتقرر عوضا عن ذلك ان يكلف وزير خارجيته بالرد على عرض هتلر في اذاعة موجهة في يوم ٢٢ تموز يرفض فيها دعوة هتلر واذيع الحديث الذي « قذف جانباً » بدعوة هتلر « للاستسلام لارادته » . ثم قارن بين اوربوا الهتلرية ، واوربوا التي نقاتل في سبيل حمايتها ، واعلن اننا لن نتوقف عن القتال حتى نضمن وجود الحرية . . . وفي خلال ذلك كانت الصحف البريطانية والاذاعة قد رفضت أي حديث عن الصلح ، دون تدخل من حكومة جلالتها ، وانما يدافع من نفسها بعد الاستماع الى خطاب هتلر من الاذاعة .

ويذكر تشيانو في مذكراته انه « عندما اذيع اول رد بريطاني ، الذي كان متسما بالبرودة ، على الخطاب في الساعات الاخيرة من ليلة ١٩ تموز . . . ساد بين الالمان شعور بخيبة الامل . بيد ان هتلر كان يتطلع الى التفاهم مع بريطانيا العظمى ، فقد كان يدرك ان الحرب مع البريطانيين ستكسبون قاسية تقيض بالدماء - وهو يدرك تماما ان الناس في كل مكان يكرهون سفك الدماء - اما موسوليني فيخشى من ناحية اخرى ان يجد الانكليز في خطاب هتلر الماكر للغاية مبررا للبدء في المفاوضات ، وهذا مما يحز في نفس موسوليني لانه يرغب في الحرب الان اكثر من أي وقت مضى ، وایا كان الامر قلم يكن موسوليني في حاجة الى الغضب او الثورة ، فسيتاح له ان يخوض كل أهوال الحرب التي يتمناها .

وقد قدم رؤساء أركان الحرب بواسطة الجنرال ايسماي اقتراحا في أواخر شهر حزيران لازور المناطق المهددة في السواحل الجنوبية والشرقية . وتلبية لهذا الاقتراح خصصت يوما او يومين من كل اسبوع للقيام بهذه الزيارة المحبوبة ، وكنت انام عندما تفرض الظروف في قطاري الخاص الذي تهيأت لي فيه كل أسباب الراحة ليتاح لي اداء اعماله العادية بكل انتظام . . . مع العلم اني كنت اتصل دائما (بهوايتهول) . وقد قمت بزيارة « القاتين » و « الهامير » وغيرهما من الاماكن المهددة بانزال محتمل ، وشاهدت مناورة للفرقة الكندية في كنت ، وقمت بالكشف عن الخطوط الدفاعية الداخلية في هارويتسن ودوفر ، وكانت احدى زياراتي الاولى للفرقة الثالثة التي يقودها الجنرال مونتغمري وهو ضابط لم اكن قد التقيت به . وقد صحبتني زوجتي في هذه الزيارة للفرقة المذكورة المراقبة على مقربة من برايتون . وكانت هذه

الفرقة قد اعطيت أهمية خاصة من ناحية الاعداد ، وكانت على وشك الإبحار الى فرنسا .منذما انهارت المقاومة الفرنسية .

وقد أقام الجنرال مونتغمري مركز قيادته في ستيتنج ، وأراني مناورة صغيرة كانت الحركة الرئيسية فيها مناورة قامت أساسا على تحركات حاملات مدافع برن الرشاشة التي لم يكن في استطاعته ان يستخدم منها حينذاك سوى سبع أو ثماني حاملات . ومضت بنا السيارة بعد ذلك على الساحل عبر « شورهام » و « هوف » الى ان وصلنا الى جبهة برايتون المعروفة التي لي فيها الكثير من الذكريات القديمة . وقد تناولنا عشاءنا في فندق « البيون » الملكي الذي يقع على الناحية المواجهة لرصيف الميناء الداخلي . وكاد الفندق ان يكون مقفرا من الناس بسبب عمليات الانسحاب الاخيرة، ومع ذلك فكان هناك من يستنشق الهواء الطلق ويتنزه على الشاطئ ، وفي اليادين وقد سرني ان أرى طائفة من « حرس قاذبي القنابل » يمهدون مركزا لمدفعهم الرشاش في احد اكشاك الرصيف . فذكرني ذلك بما كنا نفعله في طفولتنا ونحن نعبث بالخلفات القديمة . وكان الجو رائعا جميلا ، وتحدثت الى القائد احاديث مثمرة . . . والحق اني كنت شديد السرور بهذه الزيارة .

وفي منتصف شهر تموز اقترح علي وزير الحربية اطلاق الجنرال بروك محل الجنرال ايرونسايد في قيادة الجيوش ، وفي ١٩ تموز حينما كنت اطوف لاستطلاع القطاعات المعرضة للهجوم زرت القيادة الجنوبية ورأيت التجربة الواقعية التي ساهمت فيها اثنتا عشرة دبابة تقريبا ، وبقيت في السيارة طيلة بعد الظهر مع الجنرال بروك الذي كان يتولى قيادة تلك الجبهة ، ولا شك ان سجل ماضيه كان رائعا ، فقد قاد المعركة الفاصلة عند « أبيرس » اثناء عملية الانسحاب الى دنكرك ، ثم تمكن بما أوتي من حذق وصلابة ، وفي وسط عوامل في منتهى الصعوبة والقوة ، عندما كان يقود القوات الجديدة التي ارسلناها الى فرنسا خلال الاسابيع الاولى من شهر حزيران ، تمكن من انقاذ حملته ، وكانت تربطني به صلة أيضا عن طريق اخوية البطالين اللذين كانا لي صديقين في بداية حياتي العسكرية .

على ان هذه العلاقات والذكريات لم يكن لها أي تأثير على وجهة نظري في موضوع حيوي كهذا الذي يتصل باختيار القائد العام ولكنها وثقت الصلات بيني وبين الان بروك في غضون الحرب . وقطعنا ما يقارب الاربع ساعات معا في السيارة في ذلك اليوم من تموز عام ١٩٤٠ ، وكنا على اتفاق تام بشأن كافة وسائل الدفاع في داخل الوطن . وبعد المشاورات الضرورية مع الآخرين

وافقت على اقتراح وزير الحربية بتولي بروك القيادة العامة خلفا للجنرال ايرونسايد الذي واجه حالته الى التقاعد بما اشتهر عنه من اعتزاز في جميع الظروف التي تمت بها أعماله العسكرية .

وظل بروك في القيادة سنة ونصف تعرضنا فيها لخطر الغزو ، فنظم القوات تنظيما حسنا ، وعندما صار فيما بعد رئيسا لاركان حرب القسوات الامبراطورية استمر التفاهم بيننا رائعا حتى انتهينا الى النصر . . . وسأورد بعد قليل المكاسب التي حققتها من استشارته في اجراء تغييرات حاسمة في القيادات في مصر بالشرق الاوسط في شهر اب عام ١٩٤٢ ، وما كان لها من خيبة أمل في موضوع قيادة عملية الغزو عبر القنال (المانش) في عملية السيد الاكبر (أوفر لورد) عام ١٩٤٤ . وقد أدت خدمات جليلة في المسدة الطويلة التي عمل فيها رئيسا للجنة رؤساء اركان الحرب ، في معظم سنني الحرب ورئيسا لاركان حرب القوات الامبراطورية ، لا للامبراطورية البريطانية فحسب بل للحلفاء جميعا ، وسأحكي في هذه القصة بعض الاختلافات في وجهات النظر التي حدثت فيما بيننا أحيانا ، وأقص كذلك كثيرا من المسائل التي اتفقنا فيها وهي تؤكد مدى صداقتنا كل التأكيدات .

وفي هذا الشهر وصلت اليها كميات وافرة من السلاح الاميركي عبر الاطلنطي من غير ان تمس بسوء ، وبينما كانت البواخر تقترب من سواحلنا بما تحمله من عتاد لا يقدر بثمن ، كانت هناك قطارات خاصة اعدت لتحملها من الموانئ ، وقد مكث الحرس الوطني في كل مقاطعة وكل بلدة وكل قرية متلهفا على تسلم هذه الاسلحة ، واكب الرجال والنساء على العمل بكل قواهم لتجهيز هذه الاسلحة وجعلها صالحة للاستعمال . وهكذا أصبحنا في نهاية شهر تموز شعبا مسلحا على أهبة الاستعداد لمواجهة أي غزو يقوم به المظليون . نعم لقد أصبحت بريطانيا أشبه ما تكون « بخلية نحل » وإذا قدر لمقاومتنا ان تنهار ، وهو احتمال بعيد ، فان حشدا من الرجال والنساء ، سيظل شاكي السلاح وقد استطعنا بوصول المدفعة الاولى من البنادق الاميركية الى حرسنا الوطني بصرف النظر عن ضالة كمية الطلقات التي لم تزد عن خمسين طلقة لكل قطعة ، استطعنا ان نزود جيشنا العامل بثلاثماية السف بندقية بريطانية .

وبدأ كثير من الخبراء يجهزون بكل سرعة مدافع الخمسة والسبعين

مليمترا التي وصلت اليها ، ومع كل مدفع منها الف قذيفة ، ولم يكن بحوزتنا معدات لايصال المدافع بعرباتها كما انه لم توجد لدينا الوسائل العاجلة لانتاج عدد أكبر من القذائف على الرغم من ان المدافع المختلفة الاحجام تعقد العمليات الحربية ، الا انني صممت منذ البداية على استخدامها . وأصبحت هذه المدافع منذ وصولها اليها وطيلة عامي ١٩٤٠ و ١٩٤١ جزءا مهما في قوتنا العسكرية المدافعة عن الوطن . كما قمنا بعمل ترتيبات خاصة تصد ميكره دربنا عليها عددا من الرجال لادارة هذه المدافع وربطها في سيارات الشحن لنقلها من مكان الى اخر ، وعندما تقايل دفاعا عن كيانك فان وجود مدفع خير من عدمه . وقد مكث المدفع الفرنسي من طراز ٧٥ ملميترا سلاحا فعالا بالرغم من قدمه بالنسبة للمدافع البريطانية الحديثة من طراز ٢٥ رطلا والمدافع الالمانية (هاوتزر) .

وعندما مضت أشهر تموز وآب دون ان تنزل بنا الكارثة الساحقة ، هدأنا بعض الشيء وازدادت ثققتنا في مقدرتنا على خوض غمار حرب طويلة قاسية ، وكنا نشعر بقوتنا تزيد يوما عن يوم . فكل فرد في المجموع يعمل بكل طاقته ليل نهار ، ويمضي الى نومه بعد ذلك شاعرا بشمار أعماله ، واثقا بان الوقت أصبح في صالحنا ، واننا سننتصر في الحرب دون شك .

وازدحمت الشواطئ الان بمختلف أنواع الوسائل الدفاعية وتم تنظيم البلاد كلها في مجموعات ووحدات دفاعية وغدا السلاح يتدفق من المصانع ، ولم يكتمل شهر آب حتى أصبح في حوزتنا مائتان وخمسون دبابة جديدة . وبدأنا نجني ثمار المساعدة الاميركية واخذ رجال الجيش البريطاني العامل وزملاؤهم من رجال الجيش الاقليمي يقومون بتدريباتهم في ساعات الصباح الباكر حتى المساء ، وبهم لهفة الى لقاء العدو ، وازداد عدد جنود الحرس الوطني الى ما فوق المليون ، وعندما كان ينقصهم السلاح كانوا يعتمدون الى استخدام أسلحة الصيد والرياضة والمسدسات الخاصة وأحيانا القنوس والمجارف . ولم يتكون في بريطانيا طابور خامس ، وان صادفت قسوات الامن بعض الجواسيس ، اما القلة الشيوعية الموجودة في بلادنا فقد تلاشت اصواتهم على حين أقدم الشعب كله على بذل كل ما يستطيع من تضحيات غالية .

وعندما زار فون ريبنترروب روما في أيلول قال لتشيانو : « ان الدفاع الاقليمي عن أنكلترا لا وجود له بلا شك ، وان فرقة المانية واحدة يمكنها ان تؤدي الى انهيار كامل فيها » ان قوله هذا يكشف عن جهله الفاضح بنا ،

وعلى كل فقد تساءلت في قرارة نفسي : ماذا يكون لو تمكن مائتا ألف الماني من جنود العاصفة التجمع على شواطئنا ؟ لا شك بأن المذبحة ستكون رهيبة مروعة لدى الفريقين - إذ لم يكن هناك مجال للرحمة أو الشفقة ، فقد كان الألمان على استعداد لاستخدام الإرهاب ، وكنا من ناحيتنا على استعداد للمضي في المقاومة إلى أقصى حد ممكن . وقد قررت تطبيق المثل السائر : « بوسعك دائما أن تمضي بشخص آخر معك بعيدا عن هذه الدنيا » وقد قدرت أن أهوال هذا المنظر ستقضي بالنهاية إلى ترجيح كفة الولايات المتحدة ، لكن كل هذه العواطف لم توضع موضع التجربة والاختبار ، وفوق مياه المانش ومياه بحر الشمال الزرقاء ربضت عشرات العمارات البحرية المتلفة على القتال ساهرة الليل بطوله ، بينما كان طيارو المقاتلات يلقون في السماء أو يقفون إلى جانب طائراتهم استعدادا لتلقي أي إشارة تصدر إليهم .

حقا لقد كانت تلك الفترات جديرة بالحياة أو الموت . إذا وقفت على حقيقة القوات البحرية فقد وقفت على معرفة لها شأنها وروعها . فاقترام جيش لياح المحيطات والبحار ، بالرغم من وجود أساطيل قوية وعمارات بحرية هائلة أمامه ، عمل حربي معجز ، وقد أضاف البخار كثيرا من القدرات إلى امكانيات الأسطول في الدفاع عن بريطانيا العظمى . ففي عصر نابليون كانت الرياح تستطيع الدفع بقواربه المسطحة القعر إلى الخلف ، لكن ما حصل بعد ذلك قد ضاعف من تفوق الأساطيل القوية ومقدرتها على تحطيم الغزاة وهم في الطريق . وأدى كل تعقيد في الأجهزة الحديثة بالنسبة إلى الجيوش إلى أن أصبحت مهمتها أكثر صعوبة ومشقة ، وإلى أن صارت المتاعب التي تواجه قيادتها في تزويدها بالعتاد والذخائر بعد انزالها أمرا فوق الطاقة ، وفي أزمة الحرب السابقة التي اهتز فيها مصيرنا كانت لنا قوة بحرية متفوقة ، ولم يستطع العدو كسب معركة بحرية واحدة هامة ضدنا ، لقد عجز عن مجابهة قوة طراداتنا وبالطبع كانت ثمة فرص أكثر من أن تعد تتصل برداءة الطقس وخاصة في حال تكاثف الضباب ، على أنه على فرض قيام هذه الفرص المعادية لنا واستطاع العدو النزول إلى شواطئنا في مكان أو أكثر ، فإن مشكلة تزويد هذه القوات بما يلزمها وتغذيتها بأية تجمعات أخرى ، هذه المشكلة تظل مستعصية الحل . هكذا كان الوضع في الحرب العالمية الأولى . أما الآن فقد دخل عنصر الطيران ، فما هو تأثير هذا التغيير الرئيسي على الغزو ؟ من الظاهر أن العدو إذا تمكن من السيطرة على مضائق دوفر ، بقوته الجوية المتفوقة ، فإن خسائرها في المدمرات ستكون كبيرة للغاية ، وقد

تكون أيضا قاضية علينا ، ولن يوجد انسان لديه الرغبة في الاتيان ببوارج ضخمة او طرادات كبيرة الى مياه تسيطر عليها القاذفات الالمانية ، وبالفعل لم نضع أي بواخر ضخمة الى الجنوب من « فيرث اوف فورت » او الى الشرق من « بلايموث » ولكننا جهزنا في هارويش ونور ودوفر وبورتسموث وبورتلاند دوريات دائمة اليقظة تتألف من سفن حربية خفيفة ، وقد أخذ بعدها يتكاثر باستمرار ولم يأت شهر أيلول حتى صار العدد أكثر من ثمانماية ، ولم يكن في الامكان بعد ذلك تدميرها الا بواسطة قوة جوية متفوقة معادية تحاول العمل على عدة مراحل .

وهنا يرد السؤال : لمن كان التفوق في الجو ؟ لقد كنا نقاتل الالمان في معركة فرنسا وهم متفوقون علينا في العدد بضعفين او بثلاثة اضعاف ، وبالرغم من ذلك فقد الحقنا بهم خسائر تعادل النسبة السابقة ، وفي سماء دنكرك وقد فرضى علينا الاحتفاظ بدوريات مستمرة لتغطية انقاذ جيشنا ، كنا نحاربهم بكسب وغنم على الرغم من تفوق عددهم بنسبة أربعة اضعاف او خمسة ، وتوقع مارشال الجو الاعلى داودنج ، قدرتنا على قتالهم وصد هجماتهم بنجاح ، فوق مياهنا وشواطئنا ومقاطعاتنا المكشوفة ، حتى لو تفوقوا علينا بنسبة سبعة أو ثمانية اضعاف .

وقد كانت قوة السلاح الجوي الالمانى في ذلك الحين حسب معلوماتنا الصحيحة تعادل ثلاثة اضعاف ما نملكه ، وبالرغم من ان هذا التفاوت كبير بالنظر الى القتال مع اعداء شجعان اقوياء كالالمان . فقد توصلت الى النتيجة التي سبق التوصل اليها ، وهي ان في سمائنا وفوق بلادنا ومياهنا نستطيع الانتصار على السلاح الجوي الالمانى ، واذا صح هذا فان بحريتنا هي الاخرى ستبقى محتفظة بسيطرتها على البحار والمحيطات وستقوى على احباط محاولات الاعداء الذين يحاولون شق طريقهم اليها .

وبقي عامل ثالث في الامكانيات والاحتمالات ، فلو تمكن الالمان بما عرف عنهم من مقدرة . وبعد في النظر - من تجهيز حملة كبيرة بطريقة سرية تحوي قطعاً خاصة للانزال لا تحتاج الى موانئ او أرصفة ، وانما تقسم بعملية الانزال للدبابات والمدافع والسيارات المدرعة في أي نقطة مناسبة على الشاطئ ، فهل يقدرّون بعد ذلك على تزويد هذه القوات بالموّ؟ ومع انه لم يكن لدينا أي مبرر يحملنا على الاعتقاد بوجود مثل هذه المخترعات لدى العدو ، الا ان قواعد الحساب الصحيحة تقضي باحتمال الخسائر تماماً كالارباح .

وتطلب منا ايجاد المعدات التي لزممتنا في عملية غزو نورماندي ، بذل جهد كبير متواصل بالاضافة الى التجارب والعون المادي الضخم من جانب الولايات المتحدة الاميركية طوال أربع سنوات . وبالحقيقة لم يكن الالمان بحاجة الى هذا العدد الكبير من المعدات في مثل هذا الوقت ، الا انهم كانوا يملكون معابر قليلة في العدد .

وهكذا اوجبت علينا مشكلة غزو بريطانيا في صيف عام ١٩٤٠ وفي الخريف من نفس العام ، تفوقا جويا ضخما وامكانية ضخمة في السيطرة على المياه الاقليمية بالاضافة الى كميات هائلة من معدات الانزال . لكن السيطرة على البحار كانت الى جانبنا ، كما كان لنا التفوق الجوي ، وكنا على ثقة - وقد ثبت لنا فيما بعد صحة هذا الاعتقاد بان الالمان لم يقوموا ببناء قطع بحرية ضرورية للانزال .

هذه هي اسس تفكيري عام ١٩٤٠ وكان هناك الكثير من الحديث حول هذا الموضوع بالذات والكثير من القلق في شهر تموز لدى الدوائر الحكومية وخارجها ، وبالرغم من عمليات استطلاعها المستديمة عن سفن النقل الالمانية في البلطيق او في مرافئ الراين والمشلدات ، وقد كنا على يقين كذلك من ان أية بواخر او ضنادل من ذوات المحرك الالي لم تعبر المضائق الى بحر المانش ، فبالرغم من كل هذا فقد كان شغلنا الشاغل هو التجهيز والاستعداد الكامل لمواجهة أي غزو وسحقه . وكنا نعتمد اعتمادا كليا على تفكيرنا هذا في وزارة الحربية وفي القيادة العسكرية .

وكانت خطة الالمان التي كشف عنها ، تعتمد على وجوب الغزو عبر القنال بسفن متوسطة الحجم تتراوح حمولتها بين أربعة الاف طن وخمسة الاف ، بالاضافة الى قطع صغيرة اخرى ، والان نحن نعلم انهم لم يكونوا يتطلعون الى المضي بجيوشهم من مرافئ البلطيق او بحر الشمال في سفن كبيرة ، كما انهم يفكرون بالغزو في موانئ بسكاي ، وهذا لا يعني انهم كانوا منصفين حين اختاروا الساحل الجنوبي كهدف لغزوهم ، وان كان كل منا على خطأ ، فعملية غزو الساحل الشرقي كانت ذات قيمة اكبر لو تمكن العدو من ان يؤمن السبل والوسائل لتلك المحاولة ، وطبعاً لم يكن هناك من مجال لغزو الساحل الجنوبي الا بعد ان تمر البواخر الضرورية جنوباً عبر مضيق دوافر ، بعد ان تتجمع في المرافئ الفرنسية القائمة على القنال ، وطوال شهر تموز لم نر أثراً لشيء من هذه التحركات .

وبالرغم من كل هذا فقد ترتب علينا ان نستعد لكافة الظروف

والاحتمالات ، والا نوزع قواتنا المتحركة في الوقت ذاته ، وان نقوم بجمع قواتنا الاحتياطية وحشدنا ، وفي الامكان حل هذه المشكلة المستعصية والمشائعة في نفس الوقت ، فالاحداث تتالى من اسبوع لآخر والساحل البريطاني المعروف بكثرة تعاريجه يبلغ طوله اكثر من الف ميل ، باستثناء ايرلندا ، والسبيل الوحيد للدفاع عن محيط متسع كهذا قد يتعرض اي جزء منه او جزءان منه في وقت واحد لهجوم مفاجئ ناجح يحتتم علينا انشاء مراكز للمراقبة والمقاومة حول الشاطئ او الحدود غايتها عرقلة الزحف الاجنبي مع ايجاد اكبر قوة ممكنة من الاحتياطي في الوقت نفسه تضم جنودا مدربين وعاملين في وحدات متحركة يمكنها الوصول الى اي مكان يقع عليه هجوم مفاجئ في اقصر مدة ممكنة ، ثم البدء في هجوم معاكس .

وعندما وجد هتلر نفسه محاطا - في مراحل الحرب الاخيرة - بالاعداء ، وواجه نفس المشكلة ، وقع في اخطاء كبيرة حين عالجها ، فلقد اقام شبكه من المواصلات تشبه نسيج العنكبوت ، لكنه نسي العنكبوت نفسه ، ولما كانت قصة تشتيت القوات الفرنسية الخاطئة التي ادت الى الكارثة واقتضت لنا ثمنا فادحا لا تزال حاضرة في ذهني ، قانني قد صرفت جهدي كله منذ البداية الى حشد قوات المناورة ، وقد رسخت هذه السياسة في نفسي الى اقصى حد ممكن تسمح به موازينا المتضاعفة .

وقد التقت ارائي بوجهات نظر البحرية ، وارسل الي الاميرال باوند بيانا مفصلا في ١٢ تموز اعهده بالاشتراك مع رؤساء اركان حربه ، الذي كان قائما على هذه الاسس النظرية وقد فصل البيان بالطبع جميع الصعوبات التي علينا مواجهتها وقال الاميرال باوند في اجماله للخطه : « ربما يصل الى شواطئنا ما يقارب المئة الف جندي دون ان تكون لدينا القوات البحرية الكافية لقطع الطريق عليهم ووقفهم » .

الا ان الابقاء على خط مواصلات لتموين هذه القوات امر مستحيل عمليا اذا استطاع السلاح الجوي الالماني ان يتغلب على سلاحنا الجوي واسطولنا في نفس الوقت ، واذا ما قام العدو بعملية كهذه فريما كان التقدم نحو لندن بسرعة والاعتماد في تموينه على البلاد التي يحتلها في طريقه ، على حين يرغم الحكومة على الخضوع والاستسلام . وقد اقتنعت بهذا الاحتمال اقتناعا تاما ، وتغير الوضع تغيرا حاسما في شهر آب ، فقد تاكد لمخابراتنا الماهرة ان هتلر قد اصدر تعليماته بالاعداد لعملية « اسد البحر » وان هذه العملية في دور الاعداد الفعلي في هذا الوقت ، وبدا لنا بشكل نهائي ان الرجل سيقدم المغامرة

وكانت الجبهة التي سيهجم عليها تختلف تماما ، وقد تكون ثانوية بالنسبة للساحل الشرقي الذي كنت انا قد وجهت اليه بالغ العناية مع رؤوسا اركان الحرب الاميراليه وسرعان ما بدأ عدد كبير من الصنادل ذوات المحرك الالي ، والزوارق البخارية يعبر مضائق دوفر اثناء الليل زاحفا بالقرب من الشاطئ الفرنسي ، ليتجمع شيئا فشيئا في سائر الموانئ الفرنسية الممتدة من كاليه الى بريست . وكانت الصور الفوتوغرافية التي ترد الينا كل يوم تظهر لنا هذه التنقلات بدقه وعناية ، ورأينا انه من العسير علينا ان نزرع الغامنا على مقربة من الساحل الفرنسي ، ومضينا فورا الى مهاجمة هذه المراكب المتحركة بوحداتنا الصغيرة ، وركزت قيادة قائدات القنابل هجومها على موانئ الغزو وسرعان ما انهالت علينا الانباء عن احتشاد جيش او جيوش المائتة ضخمة استعدادا للقيام بهذا الغزو على قطاع الساحل المعادي ، وعن تحركات واسعة النطاق على السكك الحديدية واحتشادات ضخمة في خليج كاليه وفورماندي وظهرت الى حيز الوجود اعداد وفيرة من بطاريات المدافع القوية البعيدة المدى ، منتشرة على طول الساحل الفرنسي القائم على القتال ، وكان يترقب علينا ان نجابه الخط الجديد وننقل اعتمادنا على هذه الخطوة الى خطوة اخرى ونهيء كافة السبل لتيسير نقل احتياطنا المتحرك الذي بتضاعف عدده الى الجبهة الجنوبية ومضى الوقت وقواتنا المتزايدة عددا والمتقدمة كفاءة وسرعة في التحرك ، تطمئننا الى قدراتها وفعاليتها . ولم ينقض النصف الاخير من شهر ايلول ، حتى كان في استطاعتنا ان نحشد ستة عشر فرقة من احسن الفرق نظاما واعدادا على الساحل الجنوبي بينها ثلاث فرق مدرعة عدا اجهزة الدفاع الساحلية المحلية ، وقد اصبح في مكنتها القيام على الفور بأي عمل عسكري يوكل اليها ضد اية عملية للغزو او الانزال واصبحت لنا قوة ضاربة او مجموعة من القوى الضاربة التي كان الجنرال بروك وحده القادر على تحريكها عندما تحين الساعة فهو أكثر سيطرة عليها من كل من عداه .

جرى كل ذلك بالرغم من عدم ثقتنا بان جميع المداخل ومصبات الانهار المنتشرة من كاليه الى تيرشيلنج وهيلجولاند ، وكل ما امامه من جزر تقع بالقرب من الساحلين الهولندي والدمركي ، لا تخفي قوات معاديه هائلة اخرى من نوع صغير او متوسط . وقد خطر في بالنا ان الهجوم سيبدأ من هارويش حول بورتماوت وبورتلاند الى بليموث مع تركيز خاص على مقاطعة « كنت »

ايضا ، ولم توجد لدينا اية براهين اخرى ايجابية على ان موجة ثالثة من الغزو قد لا تتسق وتتوافق في الزمن مع الموجتين الاوليين ، وتشن من موانئ البلطيق خلال مضائق سكاغراك في سفن كبيرة ، ولا شك في ان مثل هذا الغزو جوهرى بالنسبة لخطط الالمان لتحقيق النجاح ، اذ تعتبر الوسيلة الوحيدة لوصول الاسلحة الثقيلة التي تم انزالها ، او لاقامة مستودعات تموين كبيرة .

ودخلنا في ذلك الحين فترة من التوتر الشديد ، واليقظة الدائمة وكان علينا طيلة الوقت ان نحرص على وجود قوات كبيرة في الشمال من « دوش » حتى « كروماريتي » كما قمنا بعمل الترتيبات اللازمة لسحب جزء منها في حالة وقوع الغزو في الجنوب ، وكان في مقدرتنا بفضل الشبكة الرائعة الداخلية من سكك حديدنا ، وبفضل استمرار سيطرتنا على الجو في سماء وطننا ، ان نسحب اربع فرق او خمسة من الشمال لتعزيز الدفاع عن الجنوب في حالات الضرورة القصوى خلال ايام الرابع والخامس والسادس من بدء تحرك العدو .

واجرينا دراسه دقيقة لاوزاع القمر والمد والجزر وتيقنا من ان العدو سيؤثر عبور البحر في الليل والنزول الى الارض عند الفجر ، وما نحن اولا نعرف ان ما تيقنا به كان على صواب ايضا ، ولم نجد لدينا ذرة من المشك في مقدرتنا على تحطيم كل ما ييسر للعدو النزول في اكمة دوفر البحرية او في القطاع الساحلي الممتد من دوفر الى بورتسموث والى بورتلاند ، وكانست افكارنا جميعا - نحن الذين نتولى القيادة - تسير في اتجاه وتوافق تامين مما يثير الاعجاب لتوجيه ضربة الى عدونا تخلف دونا في كافة انحاء العالم ، ولم يكن في استطاعة أي انسان الا أن يحس بالحماسة ويشعر بالتأثر من هذا الجو الذي يولى بعزم هتلر وعتاده .

وكان من بيننا من يتحرق شوقا الى قيام هتلر بمحاولته ، يحدهم الى ذلك العوامل المجردة التي تؤكد لهم مدى تغير مجرى الحرب لومني هتلر بتدمير محاولته وتحطيم امانيه . وكنا قد انتهينا خلال شهري تموز وآب من السيطرة الجوية على سماء بريطانيا ، وكانت قواتنا متفوقة تماما وبصيرة خاصة في سماء القطاعات الواقعة في الجنوب الشرقي لبلادنا ، واخذت المعدات الدفاعية الدقيقه ، والمراكز المنيعه والحصون الشامه وحواجز مكافحه الدبابات ، وحواجز الطرق الى غير ذلك تملأ كل مكان . وتوهجت سواحلنا بالاجراءات الدفاعية والبطاريات كما توفر لدينا عدد من المدمرات العاملة في الاطلنطي مع ما في هذا الاجراء من ثمن باهظ تكبدته قوافلنا التجارية فسي الاطلنطي كما شيدنا عددا آخر منها ليزيد استحكام الدفاع عن السواحل ،

وقد احضرنا بارجة التدريب (سنتوريون) واحدى الطرادات الى بلايموث وظل اسطولنا في ذروة قوته ، وفي قدرته ان يعمل مع تجنّب كثير من الاخطار وبهذا كنا على اتم الاستعداد لمواجهة اي شيء . ٠٠٠ واخيرا اقتسرب موسم الزوايح الاستوائيه المعروفه في شهر تشرين الاول ، وكان شهر ايلول هو الشهر الذي يتحتم على هتلر ان يوجه فيه ضربته اذا واتته الجراءة الكافية حيث يكون في صالحه ظواهر المد والجزر والقمر في اواسط الشهر المذكور .

وارى ان الوقت قد حان لانتقل بالقاريء الى معسكر الاعداء ، حتى اطلعه على مدى استعداداته وخططه ، كما وقفنا عليها في هذه الآونة .



الفصل السابع

عملية اسد البحر

لم تكد تنشب الحرب في ٢ ايلول عام ١٩٢٩ ، حتى بدأت البحرية الالمانية ، كما تشير الوثائق المصادرة بعد الحرب ، عدا الدراسات اللازمة لغزو بريطانيا . وقد رأت عكس ما ارتأيناه ، ان السبيل الوحيد هو اتمام الغزو عبر المياه الضيقة لبحر المانش ، ولم يقدر الالمان اي احتمال آخر . ولو كنا قد علمنا بالحقيقة هذه انذاك لاسترحنا كثيرا حيث يواجه الغزو عبر المانش اكثر سواحلا تحصينا ، وهي الجهة البحرية القديمة المواجهة لفرنسا حيث الموانئ المحصنة ، وحيث قواعد المدمرات الرئيسية ، واغلب المطارات ومحطات الاشراف الجوي للدفاع عن لندن ، ولم تكن نعتمد في اي جزء من اجزاء الجزيرة اعتمادنا على هذا الجزء في المسارعة الى العمل بقوة ضخمة وبجميع قواتنا المسلحة الثلاث ٠٠٠ وكان الاميرال رايدر موجهها كل اهتمامه للاعداد في حال قيام الاسطول الالماني بغزو بريطانيا ، وفي نفس الوقت طلب تركيز الكثير من الاوضاع ، وفي مقدمتها الاشراف الكامل على سواحل فرنسا وبلجيكا وهولندا وموانئها ومصبات انهارها وهذا هو سبب نوم المشروع طيلة فترة ما قبل الحرب ٠٠٠

وفجأة برزت الافتراضات بصورة تثير الاستغراب ، وتمكن رايدر بالرغم من بعض وساوسه من التقدم الى الفوهرر مساء معركة دנקرك واستسلام فرنسا بمشروع نال اعجابه ، كما تحدث في الحادي والعشرين من ايار مع هتلر في الموضوع ذاته وفي العشرين من حزيران تحدث اليه لا عن اقتراح الغزو بل عن نسبة التاكيد من انه في حال صدور الامر بالغزو فان اعداد التفاصيل المتعلقة

بالمشروع لن يتم بطابع العجلة . وكان هتلر بدوره تساوره الظنون في النجاح فعقب قائلاً ، ان يقدر تماماً الصعوبات المحتومة التي سيواجهها مشروع كهذا ، وكان هتلر ينعلق بالامل الواهي من ان انجلترا قد تطلب الصلح وتتشده ، ولم تتنبه القيادة الالمانية الى فكرة الغزو الا في آخر اسبوع من حزيران . وفي الاسبوع الثاني من تموز صدرت الاوامر الاولى بتجهيز خطة للغزو كأنه أمر محتمل الوقوع ، وتقضي هذه الاوامر بان الفوهرر قد علق غزو انكلترا على توفر بعض الشروط الخاصة وفي طليعتها السيطرة الجوية .

واصدر هتلر في ١٦ تموز توجيهها منه يقول انه بالرغم من المازق العسكري الحرج لانكلترا فانها لم تظهر اية رغبة في التفاهم ، ومن اجل هذا عزمت على اعداد عملية النزول في انكلترا لتنفيذ في الوقت المناسب . وينبغي ان تتم الترتيبات اللازمة للخطة كلها قبل منتصف شهر آب ، وكانت الاجراءات العملية لتنفيذ هذه الاشارة قد بدأت في كل مكان . فقد كانت خطة الاسطول الالمانى تنقسم بالميكانيكية بوجه عام ، فتحت ستار ثيران المدفعية الساحلية من كاليه في اتجاه دوفر ، وتحت حماية مدفعية قوية على طول الساحل الفرنسي المقابل للمضيق ، كانت خطة البحرية تقضي باقامة نطاق ضيق عبر المانش في اقصر مسافة ممكنة واحاطته من الجانبين بسياج من الالغام مع قيام الغواصات بحماية خارجية . وكان من المتفاهم عليه ان ينقل الجيش في مراكب عبر القنال على ان تمونه سلسلة طويلة من الامدادات . والى هنا ينتهي دور الاسطول الالمانى . وعلى قيادة الجيش معالجة بقية المشكلة .

فاذا قدرنا انه كان في استطاعتنا بفضل تفوقنا البحري الهائل ان نقضي على حقول الالغام المذكورة بالقطع البحرية الصغيرة تحت ستار قوة جوية ماهرة وضرب الغواصات المحتشدة من الجانبين لحماية الحقول لاتضح لنا ان هذه الخطة كانت خطة متداعية منذ بدايتها . وكان في استطاعة اي انسان يعرف انه بعد انهيار فرنسا لم يكن هناك مفر من امتداد اجل الحرب وتزايد الاخطار الا اذا اضطرت بريطانيا الى التسليم . وكان الاسطول الالمانى قد تأثر بمعركة النروج ولم يعد في امكانه ، بوضعه الحالي ، ان يقدم الى الجيش الا بمساعدة جزئية ضئيلة ، ومع ذلك فقد جهز الاسطول خطة ولم يكن في امكان احد ان يقول ان حسن الحظ قد هبط عليه فجأة . وكانت القيادة العليا الالمانية قد اعتبرت غزو انكلترا في بادىء الامر شيئاً يثير القرف في النفوس ، ولم تكن قد دبرت اية خطط او استعدادات لتنفيذه ، كما لم يتلق جنودنا تدريبا على العمليات الخاصة به . لكنه بعد ان توالى أسابيع من نشوة الانتصارات

الرائعة وجدت القيادة في نفسها الجرأة والشجاعة للقيام بأية مهمة ، ولم يكن اقتحام البحر بأمان مسؤولية تتعلق برجال القيادة من الناحية الادارية ولكنهم كانوا على ثقة من ان الجيش اذا بلغت قواته الضخمة شاطئ بريطانيا فسي سلام وأمان فان مهمة احراز النصر على بريطانيا تصبح امرا يسيرا .

وقد شعر الاميرال رايدر في شهر اب بوجوب الانتباه الى ان عبور القنال يتضمن مخاطر كبيرة ، والى امكانية فقدان الجيش كله في هذه المحاولة .

وعندما تولى الاسطول مهمة نقل الجيش العابر ، اصبحت البحرية الالمانية تدور في حلقة مفرغة من القلق المستمر ، وقابل قادة الاسلحة الثلاثة القوهر في ٢١ تموز ، فابلغهم ان الحرب قد شارفت على المرحلة الفاصلة الا ان انكلترا لا ترغب في الاعتراف بذلك ، وما زالت تأمل ان تدور عجلة القدر . ثم تحدث عن الامدادات التي تصل الى انكلترا من الولايات المتحدة ، كما اشار الى احتمال تبدل في العلاقات السياسية في المانيا وروسيا . واستطرد قائلا ان تنفيذ عملية « اسد البحر » الخطة الأكثر جدوى في التعجيل بنهاية الحرب . وبعد حديث طويل مع الاميرال ، بدأ هتلر يكشف خطورة ما تخفيه عمليات عبور المانش بما فيه من تيارات ومد وجزر ، وبما في البحر من غموض . ثم وصف عملية « اسد البحر » بأنها عملية في منتهى الجرأة والغامرة ، واستطرد يقول : « وبالرغم من قصر المسافة فان العملية ليست مسألة اجتياز نهر ، لكنها اقتحام بحر كبير يسيطر العدو عليه . وليست العملية اجراء فرديا في العبور ، كما حدث في الغزو ، اذا لم تكن هناك عناصر المفاجأة ، ولكننا هنا سنواجه عدوا مستعدا للدفاع وقد صمم على القتال وفرض سيطرته على المنطقة البحرية التي يجب علينا استخدامها ، وستقتضينا عملية الجيش نحوا من اربعين فرقة وربما يكون نقل الامدادات اصعب شيء في هذه العملية ، اذ ليس في مقدورنا ان نعتد على أي نوع من المؤن يتيسر لنا الحصول عليه داخل انكلترا ، وكان الاساس الاول في نجاح الغزو هو السيطرة الكاملة في الجو واستخدام مدفعية قوية في مضيق دوفر والحماية عن طريق الالغام . » ثم تابع هتلر حديثه بقوله « والطقس عامل حيوي ايضا ، فهو في بحر الشمال وفي المانش يشهد في النصف الثاني من شهر ايلول ، كما يتكاثر الضباب في منتصف شهر تشرين الاول لذلك يتحتم علينا انهاء عملية الغزو قبل الخامس من ايلول ، فبعد هذا التاريخ يصعب علينا ان نضمن قيام تعاون بين الطيران والاسلحة الثقيلة . فهذا التعاون من الطيران يعتبر عملا هاما وحاسما في تحديد الموعد

وقد نشب نقاش حاد تخلله شيء من العنف بين اركان الحزب الالمان

حول عرض الجبهة وعدد المراكز التي يجب ان تهاجم ، وقد طلب الجيش ان تتم سلسلة من عمليات الانزال على طول الساحل الجنوبي لانكلترا الذي يمتد من دوفر الى « لايم ريجيز » الى القرب من بورتلاند . وطالب بانزال قوات مساعدة في رامسجيت الى الشمال من دوفر . واعلن اركان البحرية الان ان اصلح مكان للعبور هو المكان الواقع ما بين فورلاند الشمالية وجزيرة وايت . وعلى هذا الاساس جرى تجهيز مائه الف جندي لانزالهم في هذه المنطقة على ان يلي ذلك مائة وستين ألف جندي اخرين في اماكن اخرى تمتد من دوفر غربا الى خليج لايم . واعلن الجنرال هود رئيس الاركاب انه من المحتم انزال اربع فرق على الاقل في منطقة برايتون ، كما طالب بانزال قوات اضافية بين ريل ورامسجيت على ان يجرى توزيع ثلاثة عشر فرقة ان امكن وفي وقت واحد في اماكن متعددة على طول الجبهة ، كما طلب سلاح الطيران سفنا كافية لتتقل اثنين وخمسين مدفعا من المدافع المضادة للطائرات مع حملة الانزال الاولى .

لكن رئيس اركان البحرية بين استحاله القيام بعمليات واسعة وسريعة كهذه العمليات ، قرر انه لا يستطيع عمليا حراسة اسطول الانزال في هذه المسافة الممتدة من البحر ، وان على الجيش اختيار افضل مكان ضمن هذه الحدود المذكورة . انذ ليس لدى الاسطول قوة لحماية اكثر من عملية عبور واحدة في وقت واحد ، حتى لو كانت لنا السيادة على الجو ، وهو يرى ان اضيق مكان في مضائق دوفر هو اكثرها سهولة من ناحية الحماية بطلب نقل المائة والستين ألف جندي في المرحلة الثانية في عملية واحدة وهذا يحتاج الى الف سفينة تبلغ حمولتها مليون طن . ثم اضاف رئيس اركان البحرية انه حتى في حالة توفر هذا العدد الخيالي فان موانئ الابحار لا تستطيع استيعاب مثل هذا العدد الضخم ، اما ما يمكن عمله فهو القيام بنقل الفصائل الاولى من الفرق الاربع لتشييد رؤوس جسور ضيقة على ان تقوم بنقل الفصائل الباقية في اليومين التاليين وذلك دون ذكر اي معلومات عن الفرق الست الباقية المتوجب انزالها لنجاح العملية . وأشار ايضا الى ان الانزال على جبهة واسعة يعني ايجاد فرق في اوقات المد العالي بين مختلف الاماكن المختارة يتراوح بين الثلاث ساعات والخمس ساعات ونصف . وعلى هذا يتوجب ان نختر بين امرين : اما اوضاع المد غير المناسبة في بعض الاماكن واما الرجوع عن فكرة انزال القوات في مناطق مختلفه في وقت واحد . وكان الرد على هذا الاعتراض من ايد الصعوبات . ومر وقت طويل ضاع خلال تبادل المذكرات واخيرا استقى اكرم آل هولدر ورئيس اركان البحرية في اجتماع بينهما لأول مرة عقد

في ١٧ اب ، وقال هولدر في هذا الاجتماع : « اني ارفض اقتراحات الاسطول رفضا قاطعا ، فمن وجهة نظر الجيش تعتبر العملية بهذا الوضع انتحارية . »
 ان ارسال القوات بالشكل الذي اقترحتموه معناه القاؤها في مفرمة للحجم ، تماما كما نلقي اللحم في المفرمة . » واجابه رئيس اركان البحرية بقوله انه هو ايضا لا يمكنه قبول فكرة النزول على جبهة واسعة ، ان ذلك لا يعني الا شيئا واحد ، هو التضحية بالجنود أثناء عبورهم ، وتم الوصول ، اخيرا ، الى حل وسط قام به هتلر نفسه ولم يقتنع الجيش أو البحرية . فقد صدر الامر من القيادة العليا في السابع والعشرين من شهر اب يقضي بان على عملية الجيش ان تتسق والحقائق التي توجبها شروط الحمولة المحدودة في البواخر وسلامة العبور والانزال . وقد تم نبذ فكرة النزول في منطقة ريل رامسجيت ، ولكن تقرر ان تمتد الجبهة من فولكستون الى بوجور . وهكذا لم يتم الاتفاق النهائي قبل نهاية شهر اب ، فكل شيء بالطبع متوقف على النصر والتفوق في المعركة الجوية الناشبة منذ ستة أشهر

وتم تجهيز الخطة النهائية على ضوء طول الجبهة التي جددت في النهاية كما عهد بالقيادة العسكرية الى رونشتادت ، لكن النقص في عدد السفن قلل من عدد القوات فأضحت ثلاث عشرة فرقة أساسية واثنيتي عشرة فرقة اخرى احتياطية ، وتم القرار على ابحار الجيش السادس عشر من المرافئ الواقعة بين بولون وروتterdam ، وان تنزل بالقرب من هايث وهيسنجر وايسستورن ، على ان يبحر الجيش التاسع من المرافئ الواقعة بين بولون والهافر وان يهاجم المناطق بين برايتون دورتيج . وقد جهزت الخطة على اساس الاستيلاء على دوفر من ناحية البر وان يزحف الجيخان بعد ذلك على الخط الممتد من كانتربوري الى اشفورد فيفيلد واروندابل ، كما تنزل احدى عشرة فرقة في المراحل الاولى فقط . وتمتد القيادة العليا الالمانية ان تتمكن القوات المهاجمة في الاسبوع الاول من التقدم الى جريفسن وريفيت وبورفيلد وبورسماوث ، وان يقف الجيش السادس الاحتياطي على اهبة الاستعداد لتعزيز القوات المهاجمة او لتوسيع رقعة الهجوم اذا قضت الظروف الى ديماو . ولا ريب ان القيادة الالمانية لم تفتقر الى الجنود الشجعان المسلحين احسن تسليح افتقارها الى سفن للنقل ولسلامة العبور .

ووقع عبء المرحلة الثقيل في الهجوم على اركان البحرية ، ولم يكن في حوزة المانيا ما يزيد على حمولة مليون ومائتي الف طن من السفن المجهزة تجهيزا كاملا ونقل القوات الغازية يحتاج الى اكثر من نصف هذه الحمولة ،

كما يؤدي الى الكثير من المشكلات الاقتصادية . وعندما حل شهر ايلول
تمكنت القيادة البحرية من ان تعلم انها استطاعت ان تضع يدها على ١٦٨
باخرة مجموع حمولتها سبعماية الف طن و ٤١٩ قاطرة وسفن لصيد الاسماك
و ١٦٠٠ زورقا بحريا . وكان بالامكان نقل هذا الاسطول العتيد بعد تجهيزه
باخرة مجموع حمولتها سبعماية الف طن و ٤١٩ قاطرة وسفن لصيد الاسماك
في اليوم الاول من ايلول عملية اندفاع الملاحه الضرورية للغزو جنوبا كانت
قواتنا الجوية تراقبها وترصد تحركاتها وتتصقها بعنف على طول الجبهة من
انتويرب الى الهافر . وسجلت اركان البحرية الالمانية ان دفاعنا المستمر من
المساحل وتركيز غارات طائراتنا على مرافئ ابهار سفن عملية « اسد البحر »
ومواصله اعمال الاستكشاف توحى جميعها باننا على علم بالغزو القريب .
ونذكرت تقارير اركان البحرية الالمانية ايضا ، انه ما زالت الطائرات
البريطانية من قاذفات للقنابل وطائرات لبث الالغام تواصل اعمالها بصفة
دائمة ، وعلينا ان نقر ان غارات الطائرات البريطانية كانت موقفه وان لم
تكن فاصله في عرقلة نقل السفن الالمانية الى المرافئ .

وبالرغم مما حدث من تدمير وتعويق فقد استطاعت البحرية الالمانية
اتمام الجزء الاول من مهمتها الخطيرة ، ولم تتجاوز خسائرها العشرة في المئة
من مجموع قوة الغزو الكاملة ، وهي نسبة اقل بكثير مما قدرته القيادة
الالمانية ، اما ما تبقى على اهبة الاستعداد فلم يكن باقل من الحد الادنى الذي
قدرت القيادة حتمية وجوده للقيام بالمرحلة الاولى من العملية . وقد القى
الجيش والاسطول الالمانى العبء كله عاتق السلاح الجوي ، وكانت حماية
المرربما يلازمها من بث الالغام التي بمثابة الاسوار موكله الى السلاح الجوي
الالمانى ضد التفوق الظاهر لعمليات المدمرات البريطانية . والسفن الصغيرة .
اي ان الخطة كانت قائمة على الحاق الهزيمة بالطيران الانكليزي والسيطره
المطلقه لالمانيا على الجو ، لا فوق المانش وجنوب شرقي اسيا فقط بل فوق
مناطق العبور والانزال كذلك . وهكذا اوكل السلاحان الالمانيان القديمان
مهمة الخطة الى ماريشال الرايخ غورنغ .

وقد رجب غورنغ بقبول هذه المهمة ، لثقتيه المطلقة بالتفوق العددي
للطيران الالمانى ، وانه لن تمضى اسابيع معدودة من القتال الشديد حتى تنزل
الهزيمة المنكرة بالدفاع البريطانى ويتم تدمير مطاراته في كنت وسكس ومن
ثم تسيطر المانيا على المانش ٠٠٠ وقد ظن غورنغ ايضا ان قصف انكلترا من
الجو وخاصة العاصمة لندن سيدفع بالشعب البريطانى المنحل الذي يفضل

المعافية الى الرضوخ وطلب الصلح ، هذا بالاضافة الى ان نذر الغزو وكانت قد بدت في الافق القريب لكن البحرية الالمانية لم تجاربه في تفاؤله هذا وكانت شكوكها عميقة الجذور . لان عملية « اسد البحر » لا يمكن الا ان تكون اجراء اخيرا ، فلو صحت في شهر تموز بتأجيلها حتى ربيع عام ١٩٤١ ، الا اذا اجبرت الغارات الجوية وحرب الغواصات الرهيبة الانكليز على مفاوضات الفوهرر بالشروط التي يفرضها ، اما الفيلد مارشال كايتل والجنرال يودل فقد كانا مغتبطين من تفاؤل قائد الجو الاعلى غورنغ .

لقد عاشت المانيا اياما مجيدة رائعة انتشى فيها هتلر بخمرة النصر قبل ان تذلل له فرنسا في هدنة كومبين ، وسار الجيش الالمانى الظافر تحت اقواس النصر وعبر الكاب اليسيه ، فهل بقي هناك شيء يعجزون عن تنفيذه ؟ فلم التردد اذن في الاقدام على مجازفة مضمونه ؟ وهكذا فان الاسلحة الثلاثة التي تشترك في انقاذ عملية « اسد البحر » ولغقت نظر كل منهما الى الجانب المضيء في الدور الذي سبقوه به وترك الجانب المظلم الى السلاحين الاخرين . وبمرور الايام تضاعفت الشكوك وقامت العراقيل ، وكان قرار هتلر الصادر في ١٦ تموز قد حدد انتهاء جميع الاستعدادات قبل منتصف شهر اب لكن كافة الاسلحة وجدت ان تنفيذ هذه الخطة في الوقت المحددة غير ممكن . وقبل هتلر في نهاية شهر تموز تحديد موعد ١٥ ايلول كموعده المبكر للغزو ، بينما أجل قراره الاخير القاضي بتحديد موعد البدء في العمل حتى تتضح نتائج معركة الجو التي حمي وطيسها

وابلغت البحرية في ٣٠ اب القيادة العليا ، ان استعدادات اسطول الغزو يستحيل ان تتم في ١٥ ايلول بالنسبة للاجراءات المضادة التي اقدمت عليها بريطانيا وعلى هذا تأجل البدء في الغزو حتى ٢١ ايلول مع اشتراط عشرة ايام كإذار مسبق ، وهذا يعني ضرورة اصدار الامر الاول في ١١ ايلول . وابلغت البحرية مرة أخرى في العاشر من ايلول القيادة العليا مدى الصعوبات الكثيرة التي تجابهها نتيجة لرداءة الطقس واعمال بريطانيا المضادة ، وبالرغم من ان التجهيزات البحرية المطلوبة قد تتم فعلا قبل ١١ ايلول ، الا ان الشرط الاساسي الذي يحتم السيطرة المطلقة على جو القنال لم يتحقق بعد . وقد أدى ذلك الى ان اصدر هتلر قراره في ١١ ايلول بتأجيل صدور الامر التمهيدي لثلاثة ايام اخرى ، وبذلك يكون الغزو قد تأجل الى الرابع والعشرين ، كما تأجل مرة ثانية في الرابع عشر ثلاثة ايام اخرى وفي السابع عشر من ايلول تأجل اصدار هذا الامر الى اجل غير مسمى لاسباب هامة في نظرهم ونظرنا ايضا .

وقد علمنا من الاخبار الواردة الينا في ٧ ايلول ان تحركات السفن الصغيرة ما زالت مستمرة في الغرب وفي الجنوب في اتجاه المرافئ الواقعة بين هومستند والهافر ، ولما كانت هذه المرافئ تحت وطأة الغارات البريطانية القاسية فقد كان من المعقول الا تنتقل اليها السفن الكبيرة الا قبيل الغزو ، وتضاعفت القوة الضاربة للسلاح الجوي الالماني بين امستردام وبريست حتى بلغت مائه وستين قاذفة قنابل وصلت من النروج الى هذه المنطقة ، كما رأينا مجموعات من طائرات الانقضاض ذات المدى القصير في المطارات الامامية الواقعة في خليج كاليه وقد اعترف اربعة من الجواسيس الالماني الذين تم اعتقالهم قبل مضي بضعة ايام من نزولهم من احد زوارق التجذيف على الساحل الجنوبي والشرقي من انكلترا انهم جاءوا ليكونوا على استعداد في أية لحظة اثناء الاسبوعين القادمين ، وليرسلوا بتقارير خاصة عن تحركات الوحدات البريطانية الاحتياطية في ايبويس ولندن وريدنج واوكسفورد . وكانت اوضاع القمر والمد بين الثامن والعاشر من شهر ايلول مناسبة للغزو من الساحل الجنوبي الشرقي . لذلك قرر رؤساء اركان الحرب عندنا انهم يتوقعون الهجوم في أية لحظة ، وان على قواتنا المدفعية ان تقف على اهبة الاستعداد لمواجهة أي طارئ عاجل .

ولم يكن في القيادة العامة حينذاك جهازا يستطيع اعلان حالة الطوارئ المحددة له ثماني ساعات إلى عمل فوري ، ومع ذلك فقد صدرت كلمة السر « كرومويل » التي يقصد بها ان عملية الغزو محتملة في أية لحظة ، صدرت الكلمة الى القوات في الساعة الثامنة من مساء السابع من شهر ايلول ، والى القيادتين الجنوبية والشرقية ، للعمل الفوري السريع للفرق الساحلية الامامية ، وجميع الوحدات في منطقة لندن ، والى الفيلقين الرابع والسابع من قوات الاحتياط التابعة للقيادة .

وتكررت الكلمة الى جميع القيادات الاخرى ، للعلم بها فقط ، في جميع انحاء المملكة المتحدة ، وعندما وصلت هذه الكلمة الى قادة الحرس الوطني في بعض انحاء البلاد ، قاموا بدافع من انفسهم باستدعاء قوات الحرس لدق اجراس الكنائس . ولم اكن انا ورؤساء اركان الحرب قد علمنا بان كلمة « كرومويل » قد استخدمت فعلا ، ولذا فقد صدرت اوامرنا في الصباح التالي بضرورة ايجاد مراحل انتقالية يتضاعف فيها الحذر في المناسبات المقبلة دون اعلان ان الغزو قد حصل ، وفي استطاعة كل انسان ان يتخيل ما اثاره هذا الحادث من هرج ومرج وقوضى ، وأن لم يشر اليه سواء في الصحف ام

في البرلمان ٠٠٠ وعلى كل فقد كان هذا الحادث اشارة تدريب لكل من يعينهم الامر .

والان وبعد ان تتبعنا مراحل اعداد القيادة الالمانية العليا حتى وصلت الى القمة ، فقد اصبح في مقدورنا ان نعرف كيف تغير الموقف من الزهو بالانتصار المبكر الى قيام حالة من الشك ، ثم الى فقدان كل ثقة في النتيجة ، وقد شاهدها القائد البحري وايدر في شهري تموز وآب وحاول ما استطاع تثقيف زملائه من قادة البحر والجو وتبصيرهم بمتاعب الحرب البرمائيه الواسعة النطاق ومشقاتها ، فقد احس الاميرال بضعفه واحتياجه الى عامل الوقت لاستكمال المعدات ، وان كان تنفيذ الخطه الواسعة النطاق التي وضعها هولدر هي انزال قوات ضخمة في وقت واحد في منطقة مترامية الاطراف ، وكان غورنغ بخياله الجامع مصرا في الوقت نفسه على احرار النصر الساحق بقواته الجوية وحدها وابي ان يساهم بدور متواضع في الاعداد لخطه مشتركة تهدف الى تخفيض قوات المقاومة بحرية وجوية في جبهة الغزو .

ويتضح من الوثائق والسجلات ان القيادة الالمانية العليا لم تعمل بانسجام وتعاون في سبيل الهدف المشترك ولم تواجه مشاكل الاسلحه المختلفه الوعي الناجح السليم . فقد كان الاحتكاك فيما بينهما واضحا منذ البداية ، وطالما كان في مقدور هولدر ان يلقي بالمسؤولية على كاهل رايدر فانه لم يحاول ان يوجد الانسجام بين خطته الشخصية وبين الامكانيات العملية ، وكان من المحتم ان يتدخل هتلر ، وقد تدخل بالفعل لكن تدخله لم يعمل على تحسين العلاقات بين القوات المسلحة ، وكانت سمعة الجيش في المانيا قد ارتفعت الى ما فوق السحب ، وكان القادة العسكريون ينظرون بتعال الى زملائهم من قادة البحرية .

وقد يكون من الصعب على اي انسان ان يقاوم الادلة التي تنهض على تأكيد ان الجيش الالمني لم يكن راضيا عن وضعه تحت اشراف البحرية في عملية رئيسية كهذه وعندما سئل الجنرال يودل بعد انتهاء الحرب عن هذه الخطط اجاب وهو نافذ الصبر « كانت خططنا تشبه تماما الخطط التي وضعها يوليوس قيصر »

وربما يكون في هذا القول الصادر عن جندي الماني موثوق به بالنسبة لعمليات البحار ، ما يلقي الضوء على ان الجندي الالمني لم تتضح في ذهنه

المشكلات الخاصة بعمليات الانزال والاحطار الناجمة عن نقل قوات بحرية كبيرة وتوزيعها على ساحل. قد أجد الدفاع عنه .
 اما نحن في بريطانيا فضلا عما كنا نعانيه من نقص ، فقد خبرنا البحر ووقفنا على مشكلاته ، فالبحر منذ قرون عديدة جزء من كياننا ، وتقاليده لا تستثير بحارتنا فحسب بل الشعب البريطاني بأسره . ولعل هذا التفهم هو الذي مكّننا أكثر من اي عامل اخر من النظر الى خطر الغزو بكل ثقة وهدوء .
 وقد خضع التخطيط الذي وضعناه لاشراف رؤساء اركان الحرب الثلاثة برئاسة وزير الدفاع مما ادى الى ايجاد نظام متناسق ككتله واحدة والى التعاون التام الذي لم نر له مثيلا في الماضي والى التعرف المتبادل الى كافة المصاعب .
 وعندما آن الاوان لنبدأ نحن في عمليات غزو عظيمة واسعة النطاق من البحر ، كان عملنا آنذاك مرتكزا على اساس وطيد من الاستعداد الشامل لاداء العمل ومن الاحاطة الكاملة بكل الاحتياجات التكميلية للأقدام على مشروعات واسعة لها هذه الدرجة الكبرى من الخطورة .

ولو كان للامان في عام ١٩٤٠ قوات برمايه جيدة التدريب مستكملة مختلف المعدات الحربية البرمايه الحديثه لما قدر لمهمتها النجاح امام قواتنا البحرية والجوية ، فكم بالاحرى والامان لم يكن لديهم شيء من ذلك لا من ناحية المعدات ولا من ناحية التدريب وهما عاملان ضروريان في مثل هذه الحرب . وكلما زادت رغبة الفوهرر والقيادة العليا في المغامرة ضعفت آمالهم فيها ، ولم يكن في استطاعتنا ان نصل الى معرفة اوضاع بعضنا البعض وتقديرات كل منا ، ولكن كلما مر اسبوع ابتداء من اواسط تموز وانتهاء منتصف ايلول كان الغموض الذي يكتنف الموقف بالنسبة للبحرية البريطانية والالمانية وللقيادة العليا الالمانية ورؤساء اركان الحرب البريطانية وبالنسبة للفوهرر ولؤلف هذا الكتاب ينجلي رويدا رويدا . ولو قدر لنا الاتفاق على نفس المستوى في القضايا الاخرى لما وجدت ضرورة لقيام حرب ، فقد اتفقنا بادىء ذي بدء على ان المصير سيتقرر في الجو ، كان السؤال الذي يعرض لنا ولهم في وقت واحد هو كيف ستنتهي هذه المعركة الدائرة في الجو ؟ وكان الالمان يتساءلون هل يصمد الشعب البريطاني لنيران الغارات الجوية التي كان تأثيرها قد بولغ في تقديره في تلك الايام ؟ او انه سينهار تحت وطأتها ويفرض على حكومته الاستسلام . وكان مارشال الرايخ ذا أمل كبير وثقة بالنتيجة بينما كنا نحن لانهابها .

الفصل الثامن

معركة بريطانيا

ذكرنا سابقا ان مصيرنا اصبح مرتبطا باحرازنا للنصر الجوي ، وان القادة الالمان قد ادركوا ان نجاح عملية غزوهم لبريطانيا يتوقف على السيطرة الجوية في سماء القنال ، وفي بعض الاماكن على الساحل الجنوبي لبلادنا ، على انه لم يكن في مقدور الالمان القيام باستكمال استعداداتهم في مرافئ الابحار ، وحشد سفن النقل ، وتطهير المعابر من الالغام ثم القيام ببث الغام اخرى دون ان تكون لديهم الوقاية من غارات السلاح الجوي البريطاني . اي ان الامر الفصل كان للسيادة الجوية في سماء مناطق العبور والانزال ومن اجل هذا كان لا بد من تدمير السلاح الجوي الملكي وسائر المطارات الممتدة على طول الطريق بين لندن والبحر ، ونحن نعلم الان من الوثائق التي حصلنا عليها ان هتلر ابلغ الاميرال رايدر في ٣١ تموز : «انه اذا لم يتمكن سلاحنا الجوي من القيام بعملية تدمير المطارات العدو بالإضافة الى موانئه وقواته البحرية خلال مدة ثمانية ايام ، فان عملية الغزو ستتأجل بالضرورة حتى ايار من العام المقبل » . وهذه المعركة التي كان علينا ان نخوض غمارها ، على اني لم احس بخوف لحظة واحدة - ولو عن طريق التصور - من التجربة العظمى التي كنا نواجهها ، وكنت في الرابع من حزيران قد ادليت للبرلمان ببيان هذا نصه :

« ان الجيش الفرنسي العظيم قد اضطر الى التراجع ، واضطرب حل اموره نتيجة الهجوم الذي قامت به بضعة الوف من السيارات المدرعة فبلا يدافع عن قضية الحضارة بضعة الوف من الطيارين بمهارتهم واخلاصهم !! وارسلت الى سمطس في ٩ حزيران الثاني اقول وانني ارى

الآن بوضوح ان هتلر بشكل قاطع سيشن هجوما على هذه البلاد ،
فبدمر سلاحه الجوي في هذا الهجوم .
والآن جاءت الظروف مواتية . . .

ولاشك ان كتبنا كثيرة قد صدرت لتوضح مدى الصراع الجوي بين السلاحين
البريطاني والالمانى ، وهو الصراع الذي يكون معركة بريطانيا ، وقد استطعنا
الآن التعرف الى اراء القيادة الالمانية العليا ، والى ردود الفعل لديها في المراحل
المتباينة ، ويظهر ان خسائر الالمان في بعض المعارك الرئيسية ، كانت اقل بكثير
مما خيل الينا ، وان تقارير الجانبين في وقتها كانت تتسم بكثير من المغالاة ،
ولكن لم يكن هناك خلاف على الخطوط الرئيسية لذلك الصراع المعروف الذي
كانت تتوقف عليه حياة بريطانيا وحرية العالم قاطبة .

كان السلاح الجوي الالمانى قد التحم في معركة فرنسا بكل ما لديه من
قوة واضحى في حاجة الى الراحة بعد هذا القتال ، تماما كما حدث للأسطول
الالمانى بعد معركة النروج ، كذلك كان الامر بالنسبة لنا اذ ان ثلاثة اسراب من
مجموع كل أربعة من اسراب طائراتنا المحاربة كانت قد اسهمت في وقت او اخر
في معارك القارة ، ولم يكن في مقدور هتلر الا ان يعتقد ان بريطانيا سترحب
بعرض للصلح ، بعد انهيار فرنسا .

وكان هتلر يشبه في ذلك المارشال بيتان وفيجان وغيرهما من القادة
الفرنسيين العسكريين والسياسيين ، الذين لم يدركوا ما لدى دولة تقوم في
جزيرة من موارد مستقلة وما حبتها الطبيعة به من شمس . لقد كان من شأنه
شان هؤلاء الفرنسيين الذين استهانوا بعزيمتنا وارادتنا ، وقضى هتلر شهر
حزيران في تحويل الاوضاع لتتمشى مع الاحوال التي وجد نفسه فيها تدريجيا ،
وفي خلال ذلك كان الطيران الالمانى يقضي فترة من النقامة واعادة التنظيم
استعدادا للمهمة الجديدة ، ولم يكن ثمة شك في خطر هذه المهمة ، اذ كان على
هتلر ان يختار واحدة من اثنتين ، اما ان يغزو انكلترا ويحتلها او يخوض
غمار حرب طويلة الامد ، تنطوي على كثير من الاخطار والمشكلات ، على ان
احتمال نصر جوي يقضي على المقاومة البريطانية كان ماثلا في اذهانهم مما
يجعل الغزو الفعلي امرا غير محتم الا باحتلال بلاد مغلوبة على امرها .
واستطاعت القوة الالمانية الجوية خلال شهر حزيران ومطلع شهر تموز ان
تنظم نفسها وتبث النشاط والحيوية في صفوفها ، وان تنتشر في جميع المطارات
الفرنسية والبلجيكية التي يحتمل بدء الهجوم منها ، واستطاعت الغارات

الاستطلاعية والتجريبية الوقوف على حقيقة المقاومة التي ستجابهها ومدى طاقتها .

وشرعت في ١٠ تموز بشن أولى هجماتها الضخمة الكبيرة التي تعد بحق بدء معركة بريطانيا ، وهناك تاريخان مهمان يرتفعان أيضا في هذه المعركة هما ١٥ آب و ١٥ ايلول ، وكانت ثمة مراحل ثلاث متتابعة ومتداخلة في الوقت ذاته حين الغزو الألماني ، وقد اتسعت المرحلة الاولى بين ١٠ تموز و ١٨ آب بالتركيز على القوافل البريطانية في المانش وعلى الموانئ الجنوبية الواقعة بين دوفر وبلایموث حيث تقرر حصر سلاح الطيران البريطاني وإيقاعه في معركة حاسمة والقضاء عليه ، وكذلك تدمير الموانئ التي تقرر النزول فيها . وفي المرحلة الثانية الواقعة بين ٢٤ آب و ٢٧ ايلول كان من المحتم تهديد الطريق الى لندن وذلك بتعطيم السلاح الجوال البريطاني ومنشأته لتأمين الهجمات المتواصلة العنيفة على العاصمة وقطع طرق المواصلات من الشواطئ المهددة بالغزو . أما غورنغ فلا شك انه كان يرى في هذه الغارات غرضا اكبر وهما أبعد وهو احداث الاضطراب الكامل في اكبر مدن العالم وشل حركتها ، وإيقاع الفزع الاكبر في بريطانيا حكومة وشعبا ، واضطرابهما اخيرا الى الخضوع لارادة المانيا ، واتجه امل الجيش الألماني والاسطول الى الرغبة في ان يكون غورنغ مصيبا فيما رآه ، ولكن مع مرور الوقت ، وتغير الاحوال رأى قادة السلاحين ان السلاح الجوي البريطاني لم يقض عليه ، وان املهم في عملية « اسد البحر » قد تبدو في سبيل تحقيق ما أراده غورنغ من تدمير لندن ، واخيرا عندما انتابتهم خيبة امل في كل شيء ، وعندما تأجل الغزو الى أجل غير معلوم لان الشرط الحيوي الاساسي وهو السيطرة على الجو لم يتحقق ، بدأت المرحلة الثالثة والاخيرة . فقد تبدد حلمهم في النصر الذي بدا كسراب خادع وسلاح الطيران البريطاني ما زال حيا ، مما حدا بغورنغ في شهر تشرين الاول ان يقوم بشن غارات عمياء رعناء على لندن وغيرها من مراكز الانتاج الصناعي .

ليس هناك وجه للمقارنة بين طائراتنا المقاتلة وطائراتهم ، فالطائرات الألمانية اسرع واقدر على الارتفاع ، أما طائراتنا فاقدر على المناورات وأفضل تسليحا ، وكان طيارو المانيا على ثقة من تفوقهم العددي ، كما كانت الانتصارات التي احرزوها في بولندا والنرويج والاراضي المنخفضة وفرنسا تشعرهم بالعزة والكبرياء . أما طيارونا فكانوا واثقين بتفوقهم الشخصي ، وكانوا يتحلون بتلك العزيمة التي تعتبر من صفات الشعب البريطاني وتبدو في وقت الازمات

والعواصف . وقد كان الالمان متمتعين بمزية استراتيجية هامة ، احسنوا استغلالها . فقد توزعت قواتهم وانتشرت في جبهة واسعة للغاية ، وكان في وسعها ان تشن هجمات علينا باعداد كبيرة مع اتخاذ كافة الوسائل لتشتيت أفكارنا حتى لا يتسنى لنا ان نعرف مواقعهم الحقيقية ، وكان الطيران الالمانى قد جمع في شهر آب ٢٦٦٩ طائرة بينها ١٠١٥ قاذفة قنابل ، و ٢٤٦ طائرة من طائرات الانقضاض . وأصدر الفوهرر في ٥ آب أمرا يحمل الرقم ١٧ يقضي بتوسيع جبهة الحرب الجوية ضد بريطانيا ، ولم يكن غورنغ واثقا من عملية « أسد البحر » ، بل ركز اهتمامه على الحرب الجوية « المعلقة » ولم تكن هذه القيادة تعتبر تحطيم سلاحنا الجوي الهدف الاساسي بل تعتبر تحول الحرب الجوية بعد بلوغها الذروة الى شن الهجوم الشامل على بوارجنا وسفننا . وقد عبرت هذه القيادة عما تشعر به من اسف لان غورنغ لا يهتم كثيرا بتركيز غاراته على الاهداف البحرية ، كما احتقها التأجيل المتكرر للغارات الجوية . وفي ٦ آب ابلغت القيادة البحرية القيادة العامة بأن بث الالغام في بحر المانش اصبح من المتعذر القيام به نتيجة لضغط التهديد البريطاني المتواصل في الجو . وقد تركز القتال الجوي المتواصل طيلة شهر تموز ومطلع شهر آب على قاعدة « كنت » البحرية وساحل القنال ، وقد تأكد غورنغ ومستشاروه ان غاراتهم قد شغلت كل اسرابنا المقاتلة في ميدان المعركة في الجنوب ، فقرروا القيام بغارة في وضع النهار على مدننا الصناعية الواقعة في الشمال ، وكانت المسافة تعد طويلة على مقاتلاتهم من الطراز الاول وهي (المسرز شميت ١٠٩) فاضطروا الى المغامرة بطائراتهم القاذفة على ان تصحبها طائرات (المسرز شميت ١١٠) وهذه بصرف النظر عن مقدرتها على الطيران الى مسافات أبعد ، فهي غير مجهزة بأسلحة القتال ، وهو امر له اهميته في هذا الوقت ، ومع ذلك فقد نجحت المغامرة .

وهكذا قامت في الخامس عشر من آب نحو مائة قاذفة قنابل ، واربعون طائرة مسرز شميت ١١٠ ، بشن هجوم على مدينة تاينيسان ، وفي الوقت نفسه كانت اكثر من ثمانماية طائرة تشن هجوما على قواتنا الجنوبية لحصرها في منطقتها ، ادخيل لهم انها متجمعة في هذه المنطقة . لكن التوزيع الذي وضعه داودنج لطائراتنا المقاتلة بدأ يظهر اثره ، فقد كان داودنج يفكر في مثل هذا الخطر فسحب سبعة اسراب من طائرات « الهاريكين » و « السبثفاير » من معركة الجنوب المحتدمة للاستجمام قليلا ولحماية الشمال في نفس الوقت ، وقد احس رجال هذه الاسراب ببالح الاسى

لأبتعادهم عن ميدان اسر - مضطرين ، اذ اكدوا لقيادتهم ان القتال لم يجهدهم ولم ينل من نشاطهم ، وما هم اولا يفاجئون بما لا يخطر على بالهم ، فقد اصبح في مقدورهم ان يلتقوا بالمهاجمين بعد اجتيازهم الساحل واستطاعوا اسقاط اربعين طائرة المانية اغلبها من قاذفات القنابل الثقيلة من طراز (هينكل ١١١) التي تنقل الواحدة منها اربعين رجلا مدربا ، ولم يصب طيارينا بأي جراح سوى اثنين . وليس هناك مجال للشك في سعة أفق المارشال داودنچ وتفكيره السديد في توجيه الطائرات المحاربة مما يستحق عليه كل ثناء وتقدير ، ولكن عظمة هذا الرجل تتجلى في احتفاظه بهذه القوة من طائراتنا المحاربة في الشمال اثناء الاسابيع الطويلة من اشتعال الحرب في الجنوب . وهذا النوع من القيادة يعد مثالا على العبقرية في فن الحرب .

وأعقب هذا اليوم الفاصل ان اصبحت مدن الشمال في مأمن من الغارات الجوية وبعد يوم ١٥ آب اليوم الذي بلغ فيه الصراع الجوي أشده ، فقد حدثت خمس معارك رئيسية على جبهة مساحتها خمسمائة ميل ، كان حقا يوما رائعا ، فقد التحمت جميع اسرابنا الاثنتين والعشرين في موقعه في الجنوب ، وبعضها عاود المعركة مرتين او ثلاثا ، وكانت خسائر الالمان في الجنوب والشمال قد بلغت ستا وسبعين طائرة ، مقابل اربع وثلاثين من جانبنا . ولا شك في ان هذا الرقم يعد كارثة بالنسبة للسلاح الجوي الالمانى .

وليس هنا مجال للشك في ان قادة الجو الالمان قد هالتهم هذه الهزيمة الساحقة التي انطوت على أسوأ النذر بالنسبة للمستقبل ، وكان السلاح الالمانى قد ركز اهتمامه في الاغارة على ميناء لندن ، ذي الارصفة الطويلة التي تقف عليها مختلف انواع البواخر ، واذلال كبرياء المدينة باعتبارها من اكبر مدن العالم واوسعها ، على ان تحديد الهدف لا يهم الطيار مما يجعل مهمته اسهل وأيسر .

قام اللورد بيفربروك خلال تلك الاسابيع الطويلة من القتال المتواصل والقلق الذى لا نهاية له ، بمساعدات واضحة ، فمن الضروري ادخال تجديد على اسرابنا المقاتلة وتزويدها بطائرات مضمونة ، وقد حال ضيق الوقت دون الاخذ والرد والاطالة في البحث والشرح بالرغم من ضرورة ذلك في كل نظام هادئ رتيب . وكانت طباع اللورد بيفربروك مناسبة كل المناسبة للضرورة الملحة ، فلقد كانت حيويته ونشاطه من بواعث الاقبال على العمل ، وقد اغتبطت

لذلك كثيرا فقد اعتمدت عليه ووثقت في مساعدته فلم تخب هذه الثقة مرة واحدة ، وما قد دنت الساعة لظهار عبقريته واستعداده الشخصي مع ما يصحبها من قدرة على الاقناع تمكنه من تذليل شتى الصعاب . وكنا نلقي في جحيم المعركة بكل مواردنا ، فقد تدفقت علينا الطائرات الجديدة او ما تم اصلاحه من اسرابنا التي اغتبطت حينما طالعتها هذه الاعداد الكبيرة غير المتوقعة ، واخذت ورش الصيانة والاصلاح تضاعف من جهدها وقوة طاقتها . حينئذ تجلت لي قيمة الرجل واهميته فدعوته في الثاني من شهر آب بعد موافقة الملك الى الاشتراك في عضوية وزارة الحرب ، وفي الوقت نفسه كان ولده الاكبر ماكس اتيكن قد تصدر قيادة الطائرات المقاتلة واحرز انتصاره السادس .

وكان ارنست بيغن وزير العمل والخدمة الوطنية من الوزراء الذين حرصت على الاكثار من لقائهم في تلك الفترة الحرجة نظرا للمهمة الحيوية التي كان يقوم بها من ادارة اليد العاملة في البلاد ، وبعث الحيوية والنشاط فيها . وكان جميع العمال في مصانع الذخيرة مستعدين لتلقي توجيهاته ، وانضم هو الآخر الى عضوية وزارة الحرب في شهر آب . وضحى العمال النقابيون بارباحهم وحقوقهم التي احرزوها بعد جهد طويل والتي كانوا يولونها اعظم الرعاية ، ضحوا بها من اجل المصلحة الوطنية وهم يرون بقية الثروات والامتيازات والممتلكات التي يملكها الغير قد ضحوا بها هم الاخرين . وكنت انا على وفاق تام مع بيغر بروك وبيغن في اسابيع الازمة التي خضناها ، وقد وقع خلاف بين الرجلين فيما بعد ، وهذا مما يؤسف له فقد نتج عن اختلافهما كثير من الصدام ، اما في تلك المرحلة من الكفاح الذي بلغ ذروته ، فقد كنا جميعا نعمل يدا واحدة ، وليس في مقدوري الا ان اثنى كل الشناء على ولاء المستر تشمبرلين وثبات جميع الزملاء وكفايتهم ، فالى الجميع تحياتي .

ولم يدرك غورنغ حتى نهاية شهر اب اي اثر سيء للصراع الدائر في الجو ، فقد كان على ثقة هو ورجاله من ان المطارات البريطانية وصناعة الطائرات ، وقوة سلاح الطيران البريطاني المحاربة قد منيت بكوارث ساحقة ، وكانت هناك فترة خلال شهر ايلول تحسن فيها الطقس فازداد امل السلاح الالمانى في احراز نتائج فاصلة ، وامتحنن المطارات حول لندن بغارة جوية عاتية ، وقامت ثمان وستون طائرة ليلة ٦ ايلول بالاغارة على لندن تبعهما في الليلة التالية هجوم اخر قامت به ثلاثماية طائرة في وقت واحد ، وفي ذلك

اليوم كما حدث فيما تلا ذلك من أيام حيث أتممنا تعزيز المدفعية المضادة للطائرات . في ذلك اليوم دارت معارك شديدة ومتواصلة في سماء العاصمة ، وكانت القوة الجوية الألمانية توفن بالنتيجة بسبب مغالاتها في تقدير خسائرها .

وكان ميزان القتال الذي وقع بين ٢٤ آب و ٦ ايلول قد رجح ضد طائراتنا المحاربة ، فقد اتخذ الالمان في تلك الايام الفاصلة بصورة مستمرة قوات ضخمة لتشن غارات على مطاراتنا في جنوب انكلترا والجنوب الشرقي، وكانوا يهدفون الى تدمير الجهاز الدفاعي عن العاصمة في اثناء النهار التي استبدت بهم اللهفة لمهاجمتها ، وكان العمل المتواصل في هذه المطارات ودوام تحركات اسرابنا منها ، اكثر اهمية لنا من حماية العاصمة التي منيت بحملات من القصف الجوي ، غرضها الاول نشر الرعب واثارة الفزع . وكانت هذه المرحلة فاصلة في الصراع بين الحياة والموت بالنسبة لكلا الفريقين المتنازعين، ولم تكن نفكر حينذاك بالدفاع عن لندن او غيرها من المدن بقدر ما كنا نقاسم لمن سيكون النصر ؟ وقد ساد قيادة الطائرات المحاربة في (ستاجور) احساس بالقلق وخاصة فيمقر قيادة المجموعة الحادية عشرة في اوكسبريدج ، ان منيت خمسة من مطارات المجموعة الامامية وستة من مراكز الجبهة باضرار جسيمة وكذلك محطة قطاع بجين هيل الى الجنوب من لندن ، حتى ان سربا واحدا هو الذي استطاع العمل وحده مدة اسبوع كامل ، ولو استمر العدو في هجماته الثقيلة على الاماكن القريبة وهدم غرف العمليات فيها ، وقطع اتصالاتها الهاتفية لاضحت جميع تنظيماتنا الدقيقة في القيادة الجوية معرضة لاشد الاخطار ، ولم يكن دليلا على مجرد توجيه الاساءة الى لندن بل على وهن اشرافنا على سمائنا في هذا المكان الحيوي الحساس . وقد فرضت زيادة عدد من هذه المحطات في الثامن والعشرين من آب وخصوصا مانستون وبجين هيل القريبة من منزلي ، كانت المحطتان متداعيتين وطرقهما مملوءة بالحفر ، وعندما غير العدو هجومه في السابع من ايلول الى لندن ، أدركت قيادة الطائرات المحاربة هذا التغيير واستشعرت قيادتنا الكثير من الراحة لذلك ، وكان على غورنغ ان يستمر في هجماته على مطاراتنا التي تعتمد عليها قوتنا الجوية المحاربة في ذلك الوقت ، لكن بتخليه عن قواعد الحرب المألوفة ، وما تعلمه الروح الانسانية من قواعد مقرر ، ارتكب أجسام الاخطاء وابشعها . وكانت هذه الفترة الواقعة ما بين ٢٤ آب و ٦ ايلول من الايام التي شقت على قيادة طائراتنا المقاتلة الى اقصى حد ، وكانت القيادة قد منيت بخسارة ما يقرب من مائة وثلاثة من الطيارين خلال اسبوعين بالاضافة الى مائة وثمانية

وعشرين اصبوا بجراح خطيرة ، كما تحطمت حوالي ٤٦٦ طائرة من طراز الهاريكين والسبيتفاير او اصببت بأضرار جسيمة ، واذا اعتبرنا ان عدد الطيارين في قوتنا المحاربة كان في هذه الالوة الف طيار ، بدا لنا ان سلاحنا الجوي قد فقد ربع رجاله تقريبا .

ولم يكن في وسعنا ملء هذا الفراغ الذي نشأ عن فقدانهم ، الا باستحضار مائتين وستين طيارا جديدا ينقصهم التدريب وان لم تنقصهم الحماسة ، نقلوا من وحدات التدريب قبل ان يستكملوا مدتهم الدراسية في كثير من الاحيان ، وتسببت الهجمات الليلية على لندن خلال عشرة ايام بعد السابع من ايلول والتي استهدفت الارصفة ومراكز السكك الحديدية في قتل عدد كبير من المدنيين واصابة الكثير بجراح ، لكنها برغم ذلك اعتبرت بمثابة نعمة هبطت علينا من السماء ، ارسلت الينا على حين كنا في اشد الحاجة اليها لتأخذ انفاسنا .

وعلينا ان نعتبر الحرب الجوية قد بلغت ذروتها في الخامس عشر من ايلول ، فقد شن سلاح الطيران الالماني - بعد غارتين متواليتين في ١٤ من الشهر نفسه - اكبر هجوم جوي مركز في راحة النهار على مدينة لندن . لقد صارت احدى المعارك الفاصلة في الحرب ، وقد حدثت في يوم من ايام الاحد كمعركة « واترلو » تماما ، وكنت في ذلك اليوم في تشيكرز ، وطالما قمت - قبل هذا اليوم - بزيارة لمقر المجموعة الحادية عشرة من الطائرات المقاتلة لارى بنفسى سير احدى المعارك الجوية التي لا يحدث فيها الكثير ، وأحسست في ذلك النهار ان الطقس مناسب لعدونا ، ولذلك فقد ركبت سيارتي الى اوكسبرديج حيث زرت مقر الجمعية التي تتكون من حوالي خمسة وعشرين سربا تختص بالدفاع عن ايسكس وكنت وساكس وهامشاير وجميع المداخل المؤدية الى لندن ، وكان نائب مارشال الجو بارك يقوم بقيادة هذه المجموعة منذ حوالي ستة اشهر، وكان عليها يتوقف مصيرنا الى درجة عظيمة ، ومنذ ان ابتدأت معركة دنكرك اسند الى بارك ادارة كافة اعمال الطيران في النهار في جنوب انكلترا وقد بلغ استعداداته حد الكمال ، وتسلمت مع زوجتي الى غرفة العمليات الحربية المحصنة ضد القنابل والواقعة على بعد خمسين قدما تحت الارض ، ومن المعلوم ان تفوق طائرات السبيتفاير والهاريكين انما يرجع الى وجود هذا الجهاز الدقيق من الاشراف ، وامتداد شبكة اسلاك التليفون تحت الارض قبل الحرب بفضل توجيه وزارة الطيران ونصيحة المارشال داودنج . وكانت القيادة العامة توجه التعليمات والاوامر من مقر القيادة العليا للطائرات المحاربة في ستاجور ، لكن القيادة الفعلية لاسراب الطائرات قد عهد بيه الى

المجموعة الحادية عشرة التي كانت تتولى الاشراف على سائر الوحدات الموزعة في شتى محطات الطائرات قد عهد بها الى المجموعة الحادية عشرة التي كانت تتولى الاشراف على سائر الوحدات الموزعة في شتى محطات الطائرات المحاربة في مختلف انحاء البلاد . وكانت غرفة عمليات المجموعة تشبه المسرح الصغير ، وطولها يبلغ ستين قدما ، وتتكون من طابقين ، وقد اخترنا مقاعدنا في الحلقة الوسطى وامامنا على المائدة افردت الخريطة الضخمة وقد التفت حولنا حوالي عشرين شابا وفتاة تم تدريبهم ومعهم مساعدوهم من موظفي التليفونات وامامنا يقع لوح أسود كبير بطول الجدار كله ، وقد قسمته المصابيح الكهربائية الى ستة اعمدة يمثل كل منها محطة من المحطات الست ، ولكل منها ايضا عمود اضافي مقسم بخطوط افقية . وهكذا كانت المصابيح المنخفضة تكشف عن الاسراب الواقفة على اهبة الاستعداد والمستعدة للطيران خلال دقيقتين ، ثم تملوها المصابيح التي توضح الاسراب المتأهبة للعمل خلال خمس دقائق ، ثم تملوها تلك التي يتم استعدادها في عشرين دقيقة ، وهكذا بالنسبة الى تلك التي تقوم بالطيران او التي شاهدت العدو او المشتبكة معه في هذه اللحظة او تلك التي في طريقها الى قاعدتها ، وهناك غرفة صغيرة على الجانب الايسر تشبه المقصورة في المسرح يجلس فيها اربعة او خمسة ضباط من فرقة المراقبة التي كان عددها قد بلغ حينذاك حوالي خمسين الف رجل وامرأة وشاب ، وقد كان الرادار انذاك في بدايته ، ومع ذلك فقد كان كافيا لتوجيه الانذار بالغارات حين تقترب من السواحل ، وكان المراقبون من خلال مناظيرهم وتليفوناتهم المتنقلة ، مصدر كل المعلومات عن الطائرات الغيرة ، وهكذا كانت القيادة تنهال عليها الوف الرسائل والاشارات في اثناء وقوع الغارة . وكان يجلس عدد كبير من الرجال المدربين في غرف تمتليء بهم في مقر القيادة الكائن تحت الارض ، يحلون رموز تلك الرسائل ويلخصونها بأقصى سرعة وينقلون من دقيقة الى اخرى النتائج التي يصلون اليها الى الذين يضعون ويخططون للمعركة وهم جالسون حول المائدة الرئيسية ، والى الضباط المشرفين على سير العملية من مقصورتهم التي اشرنا اليها .

وفي الناحية المقابلة (مقصورة) ثانية يحتلها عدد من ضباط الجيش الذين يقومون بنقل أعمال المدفعية المضادة للطائرات وقد كان لدينا منها تحت اشراف هذه القيادة مائتا مدفعا ، وكان من الضروري جدا ان تتوقف هذه المدفعية عن العمل لبضع ساعات اثناء الليل في بعض المناطق ، ان أن طائراتنا المقاتلة تكون في ذلك الوقت قد اشتبكت في القتال مع العدو ، وكنت

على علم بهذا النظام ، فقد اطلعني داودنج على عمل الجهاز كله قبل ان تبدأ الحرب بعام عندما زرتة في ستاغور ، ولقد مر النظام بمراحل من التحسين والاصلاح منذ تلك الزيارة وصار الان اداة حيوية من ادوات الحرب لا نظير لها في أي بلد من بلاد العالم . وقال لي بارك عندما نزلنا الى المقر في الطابق الاسفل : « لا أستطيع التخمين عما يحدث اليوم ، كل شيء هاديء » .

ولم يكد يمضي ربع ساعة على هذا الكلام ، حتى كان منظموا الخطة قد بدأ تحركهم ، اذ ابلغوا انه حوالي أربعين طائرة تحركت للأغارة من المحطات الالمانية في منطقة ديبب ، واخذت المصاييح تضيء في الصف الأدنى مشيرة الى الاسراب التي وقفت على أهبة الاستعداد ، ثم وصل خبر اخر يقول ان عشرين طائرة مغيرة اخرى تستعد ، ولم تمض عشر دقائق اخرى حتى صار من البين ان معركة قاسية في طريق الوقوع وبدأ الجو يحتشد بطائرات من الجانبين . وتتابعت الاشارات ، اربعون طائرة ، ستون طائرة ، وكان اتجاه سير الطائرات المغيرة يبدو أمامنا على الخريطة من وقت الى آخر في علامات توضح اتجاهاتها ، بينما كانت على اللوحة المواجهة تضيء المصاييح ، مشيرة الى طيران اسرابنا بصورة متتابعة حتى لم يبق منها على الارض على أهبة الاستعداد أكثر من عدد قليل ، وقد ظلت هذه المعارك الجوية التي يعلق عليها الكثير - أكثر من ساعة بعد وقوعها - وقد كان عدونا ما تزال لديه القوة التي مكنته من ارسال هذه الدفعات المتوالية من الطائرات الى قلب الهجوم ، وكان على اسرابنا التي تم طيرانها كلها لتكون لها السيادة على الجو ان تعود الى قواعدهما بعد سبعين او ثمانين دقيقة من طيرانها لتتزوّد بالوقود او الذخائر ، ولو تمكن العدو في اثناء ذلك من حشد طائرات جديدة في حومة القتال لاستطاع تدمير العديد من طائراتنا وهي على الارض ولذا فقد كان هدفنا الرئيسي دائما ان نوجه اسرابنا بحيث لا يتجمع عدد كبير منها على الارض في وقت واحد .

وسرعان ما اوضحت الاضواء الحمراء ان معظم اسرابنا ملتحمة مع العدو ، وكنت اسمع همسا متصلا بين القائمين بالتخطيط ، وهم ينقلون الاشارات من مكان لآخر ليوضحوا تطور المعركة وتغير الاوضاع . وكان نائب مارشال الجو يصدر التعليمات العامة موجها طائرته المقاتلة التي تترجم فورا الى تعليمات تفصيلية يوجهها ضابط شاب يجلس في وسط الغرفة الى كل محطة من المحطات .

وكنت اجلس بجواره ، وسألت عن اسمه بعد سنوات ، فقيل لي انه

اللورد ويلوبي دي بروك . وقد التقيت به لثاني مرة في عام ١٩٤٧ عندما استجبت لدعوة من نادي الفرسان ، وكان عضوا في مجلس ادارته لمشاهدة حفلة سباق الدربي . وقد استغرب كثيرا لانني لم انس لقائي الاول به . وكان في ذلك الحين يصدر التعليمات والامور للاسراب الفردية بالتطبيق في الجو والقيام بأعمال دورية على هدى من النتائج الظاهرة على الخريطة .

وكان مارشال الجو انذاك يسير في الغرفة جيئة وذهابا وهو يلحظ بعين حذره متنبهة كل حركة وخطوة في اللعبة ، مراقبا بنفسه رجال جهازه التنفيذي ومتدخلا اذا اقتضى الامر بكلمة حاسمة لتعزيز نقطة مهددة . ولم تمر لحظات حتى صارت جميع اسرابا ملتحمة في المعركة ، ولم يبق سرب واحد في الاحتياطي ، وتحدث بارك في تلك الاثناء تلفونيا الى داودنج في ستاغور ، فطلب منه ان يضع ثلاثة اسراب من المجموعة الثانية عشرة تحت تصرفه احتياطا للطوارئ ، وفيما اذا وقع هجوم رئيسي اخر ، خلال قيام اسرابه بالترزود بالسلاح والذخائر ، وقد تم فعلا هذا ، وكانت الاسراب الزم ما تكون لحماية لندن ومطارات الطائرات المحاربة حيث ان المجموعة الحادية عشرة كانت قد استنفذت كل قواها .

واستمر الضابط الشاب الذي اتخذ من هذه الامور مسألة روتين في اعداد أوامره المنسقة مع تعليمات قائده العام ، بلهجة هادئة ، وسرعان ما انطلقت الاسراب الاضافية الثلاثة الى ميدان المعركة مرة اخرى ، وشعرت بقلق القائد الذي كان يصطنع الهدوء في وقفته وراء مقعد مساعده ، وكنت حتى هذه الاثناء اشهد التطورات صامتا ، فسألته : « هل تملك قوات اخرى احتياطية ؟ » فأجابني نائب المارشال : « كلا ٠٠٠ لم يبق لدينا في الاحتياطي أي شيء . » وقد كتب في تقريره فيما بعد انني ظهرت حينذاك بمظهر المتجهم العبوس ، وربما اكون حقا قد قطبت جبيني ، وعبس وجهي ، اذ ماذا يكون الامر لو فاجأت اربعون طائرة جديدة او خمسون اسرابا وهي على الارض تتزود بالوقود لتعود الى التحليق من جديد . ان الميزان حينذاك كان في كفة القدر ، وكانت قدراتنا محدودة ، والاضطراب التي تتعرض لها جد كبيرة ٠٠٠ ومرت خمس دقائق اخرى ، واغلب طائراتنا المحاربة تعود الى الارض لتتزود بالوقود ، ولم يكن في وسع مواردنا الحالية ان تضمن لها الحماية الجوية الكافية ، وعرفنا ان طائرات العدو قد أخذت تعود من حيث أتت ، وبدأت العلامات على الخريطة تظهر اتجاه الطائرات الالمانية نحو الشرق ولم يبد اثر لأي هجوم جديد ، وبعد عشر دقائق من انتهاء المعركة بدأنا نرتقي السلم

نحو سطح الارض ، وحينما وصلنا كانت صفارات الامان تدوي في الاسماع
منبئة بانتهاء الغارة .

وقال بارك : « اسعدنا يا سيدي ، انك رأيت المعركة ، للحقيقة لقد كنا
في الدقائق العشرين الاخيرة نكاد نختنق من المعلومات التي عجزنا امامها ،
ولعلك يا سيدي شهدت القيود المفروضة على مواردنا الحالية ، وقد تحملت
الموارد اليوم أكثر مما نستطيع . »

وسأله عما اذا كان شيء من نتائج المعركة قد وصل اليه ، وذكرت ان
الهجوم قد رد بصورة رائعة وفعالة ، فأجاب بارك بأنه غير راض وان طائراته
لم تستطع ان تسقط العدد الذي كان يتوقعه ، وكان من المستبعد ان يكون العدو
قد اجتاح خطوطنا الدفاعية في كل مكان تقريبا ، وقد سرت الانباء بان عشرات
من القذائف الالمانية قد استطاعت تحت حراسة المحاربات من التسلسل الى
لندن ، ولكن الصورة الصادقة عن النتائج لم تتضح تماما ، كما لم تصل
اليانا اية ارقام نهائية عن الخسائر او الاضرار .

وكانت الساعة قد شارفت على الرابعة والنصف من بعد الظهر ، عندما
رجعت الى تشيكرز ، فمضيت بعد ذلك الى فيلولني ، ويبدو ان المسرحية التي
عابنتها في مقر قيادة المجموعة الحادية عشرة قد انهكت قواي حتى انني لم
أصبح من نومي الا في الثامنة مساء ، وحينما دقت الجرس حضر لي جون
مارتن رئيس امناء سري ومعه موجز اخبار المساء من جميع أنحاء العالم .
كانت اخباره تدعو الى القلق ، فقد سار هذا الامر سيرا خاطئا هنا ، وتأخر
ذاك هناك ، والرد غير مقنع عن اخره ، او ان الاطلنطي قد ابتلع قطعة من
قطعنا البحرية ، ومضى جون مارتن يقول : « اننا قد حققنا في الجو ما نهدف
اليه ، فقد اسقطنا مائة وثلاثا وثمانين طائرة عدوة مقابل خسارتنا التي لم
تبلغ الاربعين . »

وبالرغم من ان المعلومات التي بلغتنا من العدو بعد الحرب تشير الى
ان خسائره في هذه المعركة لم تزد عن ست وخمسين طائرة ، الا ان الخامس
عشر من ايلول كان قمة معركة بريطانيا حقا ، وبدأت قيادة طائراتنا القاذفة
في تلك الليلة القيام بهجمات مركزة على كافة موانئ العدو من مولون الى
انتويرب ، وقد انزلت بالميناء الاخير خسائر بالغة ، وها نحن نعلم الان ان
الفوهرر قد قرر في السابع عشر من ايلول تأجيل عملية « اسد البحر » الى

أجل غير مسمى ، وتم أخيرا في الثاني عشر من تشرين الاول تأجيل هذا الغزو نهائيا الى الربيع التالي .

وقرر هتلر في تموز عام ١٩٤١ تأجيل الغزو مرة اخرى حتى ربيع عام ١٩٤٢ عندما تكون الاغارة على روسيا قد انتهت . وكان هذا الحلم ضروريا مع كل ما فيه من عبث واستحالة . وفي الثالث عشر من شباط عام ١٩٤٢ اجتمع الاميرال رايدر بهتلر للمرة الاخيرة للبحث في عملية « اسد البحر » واضطره ان يقرر العدول عنها نهائيا ، ومن ذلك يتضح ان الخامس عشر من ايلول عام ١٩٤٠ كان نقطة تطور هامة . ولا شك في اننا كنا متهاونين في تقدير خسائر العدو ، وفي الحقيقة كنا نسقط طائرتين او ثلاثا للعدو مقابل طائرة واحدة تهوى من طائراتنا ، وفي هذا ما يكفيننا . وقد استطاعت قواتنا الجوية ان تحقق النصر ، بدلا من ان يحرق بها الدمار على يد العدو . وكان هناك عدد من الطيارين الجدد لا ينقطع ، وبالرغم من الاصابات التي لحقت بمصانع طائراتنا - وهي العامل الفعال في قدرتنا على شن حرب طويلة الاجل ، الا مجرد امدادنا بحاجاتنا العاجلة فحسب ، بالرغم من ذلك فلم تشل حركتها نهائيا ، وبقي عمالها من فنيين وغير فنيين وراء مخارطهم تزدهم بهم المصانع غير مبالين بالنيران التي تتوهج من حولهم ، فكانوا أشبه ما يكونون بالمدافع التي تواصل عملها دون انقطاع . وكان هوبرت موريسون في وزارة التموين يشجع الجميع على مواصلة الجهد ، كل في حدود عمله ، وكان يحفزهم بكلمة : « هيا ، الى العمل » فلا يمتنع احد عن الاسراع بتلبية ندائه ، وقامت قيادة مقاومة الطائرات المغيرة برئاسة الجنرال بايل ، ببذل كل عون مستطاع الى معركة الدفاع الجوي ، لكن اشتراكها الرئيسي كان متأخرا ، اما فرقة المراقبة فكانت تواصل عملها ليل نهار لا تعرف التعب وبدون ان يتأثر اخلاصها ؛ اما قيادة الطائرات المقاتلة التي تعتمد عليها المقاومة كل الاعتماد ، وقد اقنعنا بقدرتها على الصمود المتواصل اشهرها عديدة امام الاجهاد المستمر ، حقا لقد ادى كل فريق واجبه احسن الاداء .

واستمرت ارواح طيارينا وشجاعتهم ، وهم يخوضون غمار المعركة في منتهى القوة والروعة ، وهكذا انقذت بريطانيا ، واصبح علي ان اقف في مجلس العموم واقول : « لم يسبق قط في تاريخ الصراع الانساني ان احسن مثل هذا العدد الضخم من الناس ما في اعناقهم من دين جسيم نحو عدد قليل من الناس مثما نحس به جميعا اليوم نحو طيارينا » .

الفصل التاسع

الحرب الخاطفة

لا شك في ان الاراء التي تروى عن الهجوم الجوي الالماني على بريطانيا هي اراء متناقضة ذات اهداف متباينة ، وخطط مبتورة ، ففي خلال هذه الاشهر كلها ، كان يقلق راحتنا ، ليتخذ اسلوبا جديدا ، ولكن هذه المراحل جميعها متداخلة وليس في المستطاع الفصل بينها بتواريخ دقيقة محددة . فالمرحلة الواحدة منها تسلم الى المرحلة الثانية وتتداخل فيها ، وكانت العمليات الاولى تهدف الى الالتحام مع قواتنا الجوية في معارك فوق المانش والساحل الجنوبي ثم تحول القتال الى سماء المقاطعات الجنوبية وخصوصا في كنت وساسكس حيث اراد العدوان يحطم جهاز قوتنا الجوية ، ثم اخذ يتجه نحو لندن قليلا قليلا حتى اصبح اخيرا يحلق في قلب سمائها حيث اوضحت المدينة هدفه الرئيسي ، واخيرا عندما احرزت لندن النصر ، انتقل القتال الى سماء المدن في الاقاليم والى شريان الحياة البريطاني خلال الاطلنطي عن طريق ميرس وكلايد .

وقد شهدنا الهجمات الالمانية العنيفة على مطارات الساحل الجنوبي في الاسبوع الاخير من شهر اب . والاسبوع الاول من شهر ايلول ، وفي السابع منه تسلم غورنغ قيادة المعركة الجوية وجعل الغارات ليلية ، ونقل مكان المعركة من مطارات « كنت وساسكس » الى عمارات لندن وابنيتها ، اما الغارات النهارية فلم تنقطع وان كانت ثانوية ، حدث هذا باستثناء غارة نهائية ضخمة اخرى ، لكن الطابع العام للهجوم الالماني قد تغير تماما ، وقصفت لندن بصفة متواصلة لمدة سبع وخمسين ليلة دون انقطاع مما جعل

أكبر مدن العالم تواجه تجربة خطيرة بل محنة قاسية ، ولم يكن في مقدور أي إنسان أن يتنبأ بالتناحج ، ولم يسبق قط أن تعرضت هذه البلدان لمثل هذا القصف الجوي الرائد ، كما لم يسبق أبدا أن واجه العدد الضخم من الاسراب والمشكلات والمصاعب التي أحدثها هذا القصف الرهيب وذكباته .

وقد قمنا بغارة على برلين ردا على هذه الغارات المتواصلة على لندن في نهاية شهر اب ، بالرغم من المسافات الشاسعة التي كان على طائرتنا أن تجتازها ، ولم تكن مثل هذه الغارة شيئا مذكورا بالنسبة للغارات الألمانية المركزة على لندن والمطارات القريبة الفرنسية والبلجيكية . ولكن وزارة الحرب رأت نفسها في وضع يحتم عليها التآثر رفعا للروح المعنوية ، وتأكيدا لتحدينا للعدو ، وكنت على ثقة من صحة هذا الرأي وجدواه ، إذ اني اعلم ان هتلر يثير اضطرابه صمود بريطانيا واطهار قوتها ، وان كان هتلر في اعماق نفسه يعجب بشعبنا ، وبالطبع وافته الفرصة حين قمنا بغارتنا الثأرية على برلين فأعلن ما انطوت عليه نفسه من رغبة في تحويل لندن وغيرها من المدن البريطانية الى اطلال ورسوم حين صرح في الرابع من ايلول قائلا : « ان هجومهم على مدننا سيدفعنا الى ازالة مدنهم من الوجود » .

وقد بذل هتلر أقصى ما يستطيع من جهد .

واسهم في الغارات الليلية المتواصلة على لندن بين ٧ ايلول و ٣ تشرين الاول أكثر من مائتي طائرة في كل غارة ، وكانت الهجمات القمعية العديدة التي نزلت بمدننا الاقليمية في الاسابيع الثلاثة الماضية قد فرضت علينا ان نوزع مدفعيتنا المضادة للطائرات بصورة فعلية ، وعندما أصبحت لندن الهدف الرئيسي للمرة الاولى لم تكن تحتوي على أكثر من اثنين وتسعين مدفعا ، وراينا ان الاجدى ترك الجو حرا لطائرتنا الليلية المقاتلة تحت قيادة المجموعة الحادية عشرة ، وكان من بين تلك الطائرات ستة اسراب من طراز « بلنهايم » وطراز « دينايانت » وكان الاشتباك الليلي ما يزال في بدايته ولذلك فان خسائر العدو كانت طفيفة ومحدودة

وهكذا استمرت مدافعنا المضادة متوقفة عن العمل في الليالي الثلاث الاولى ، وبالرغم من عدم دقة الوسائل التي تستخدمها المدافع المضادة ، فقد اضطرنا ضعف طائرتنا الليلية الحارية ومدى ما نواجهه من مشاكل في حاجة الى الحل ، اضطرنا كل اولئك الى ان نعطي لرجال هذه المدفعية الحرية التامة في اطلاق نيرانهم على اهداف غير واضحة متخذين أي أسلوب يختارونه لتحديد الهدف ودقته وبعد ثمان واربعين ساعة ، تمكن الجنرال بايل ،

المشرف على قيادة المدافع المضادة من زيادة عددها في العاصمة بجلب عدد من مدن الاقاليم ، وهكذا اخلت السماء من طائراتنا المقاتلة ، وقامت المدافع المضادة بمهمة الدفاع . ومكث أهل لندن ، ثلاث ليال متعاقبة ، ملازمين مساكنهم او معسكراتهم غير المعدة ، محتملين أعنف الغارات حتى كانت ليلة العاشر من ايلول حين انطلقت مدافعنا المضادة فجأة تضيء لها السبيل المصابيح الكاشفة المتوهجة ، وبالرغم من دويها العظيم فلم تنزل بالعدو اضرارا جسيمة الا انها اعلت الروح المعنوية بين أبناء العاصمة ، وتمشت الحماسة في صدر كل انسان لمجرد الاحساس باننا نرد الصاع صاعين ، واستمرت المدافع المضادة منذ ذلك الوقت تتابع اطلاق نيرانها بصفة منتظمة ومتواصلة ، ومهد التمرين والاختراع والحاح الحاجة الى زيادة التصويب دقة ، واخذ عدد الطائرات المصابة من سلاح العدو يتكاثر ليلة بعد اخرى ، وكانت الدفعية تلوح بالصمت أحيانا حين تنطلق الطائرات الليلية المقاتلة لتخوض غمار المعركة ، بعد ان تحسنت أساليبها ، وظلت الغارات الليلية بل النهارية متواصلة الى الحد الذي كانت تشن فيه هذه الغارات مجموعات صغيرة من الطائرات بل طائرة واحدة أحيانا ، وطالما اطلقت صفارات الانذار ، ودوى صوتها فترات متلاحقة طيلة ساعات اليوم بأكمله ، ولكن أهل لندن الذين يبلغون في ذلك الوقت سبعة ملايين قد رتبوا حياتهم على وضع يلائم تلك الاحوال الشاذة .



ولتنوير القراء ورغبة مني في الترفيه قليلا عنهم ، والتخفيف من وقع هذه التجربة القاسية على مشاعرهم ، اورد هنا بعض ملاحظاتي الشخصية عن غارات لندن ، متيقنا ان لدى الالاف من أبناء العاصمة كثيرا من الحكايات التي تفوق في اثارها هذه الملاحظات .

فعندما اخذت طائرات العدو في قصف جو العاصمة كنا نرى ان نواجه هذه الغارات بالتهوين وعدم الاكتراث ، فاستمر كل انسان في حي « الوست اند » يعمل ويلهو ، ينام ويأكل كما تعود ، دون ان يغير شيئا من مجرى حياته العادية ، فالمسرح مزدحم بالمشاهدين والشوارع المظلمة تموج بالمارة ، ولعل هذا الموقف كان رد فعل صائب للرعب الذي بدأ في العناصر الانهزامية في باريس ، عندما تعرضت المدينة لأول هجوم جوي في شهر ايار . وانذكر اني كنت على مائدة العشاء ذات ليلة مع صحبة خيرة ، عندما حدثت غارات

مستمرة قوية ، وكانت نوافذ قصر « ستورانواي » - حيث كنا نجلس - تطل على - جرين بارك - الذي انارته اضواء المدافع المضادة وانفجار القذائف المضادة ، وهيء لي اننا كنا نغامر بأرواحنا ، دون ما ضرورة او مبرر . وبعد ان تناولنا العشاء انتقلنا الى عمارة شركة الصناعات الكيماوية الامبراطورية وهي تطل على الجسر ، وكان منظر النهر يأخذ بنفوسنا ونحن نطل عليه من الشرفات العالية ورأينا على الاقل عشر حرائق تشتعل في الجانب الجنوبي ، وبينما كنا نقف تساقط عدد من القنابل الثقيلة ، انفجرت احداها بالقرب مني فدفعني صديق الى وراء عمود حجري راسخ القواعد ، وأكدت لي هذه الحادثة الفكرة التي خطرت ببالي وهي ان نكيف حياتنا مع الوضع الجديد ، وان نفرض على متع حياتنا كثيرا من القيود .

وسقطت القنابل مرات عديدة على مجموعة من الابنية الحكومية المحيطة بالبيت الابيض ، على ان دور الحكومة في « داوننج ستريت » قام ببنائها قبل مائتين وخمسين عاما المتعهد الاستغلالي الذي ما زال اسه محفورا على أسس ضعيفة واهنة ، وخلال أزمة ميونيخ اقيمت المخابيء لسكان رقمي (١٠ و ١١) من هذا الشارع ، كما دعمت الاسقف بأعمدة جديدة قوية ، وانتشئت سقفوف اخرى داخلية ، وكان الظن ان هذه الاسقف الجديدة تستطيع ان تصمد فيما اذا نسفت الابنية او انهارت ، لكنها لا تحتمل على أية حال الاصابة المباشرة ، وقد تم في الاسبوعين الاخيرين من ايلول نقل مقر رئاسة الوزارة الى مكاتب جديدة أكثر تحملا وصلابة ، مطلّة على ميدان « سانت جيمس » وكنا ندعو هذه الابنية باسم (الملحق) وقد ظللت مع زوجتي خلال الايام الباقية من الحرب في هذا البناء ، ننعم بالهدوء والراحة ، وكنا نوقن ان هذه الابنية القوية المشيدة من الاسمنت في وسعها ان تصد الحديد والفولاذ وعلقت زوجتي عددا من صورنا في غرفة الاستقبال التي كنت اقترح عليها ان تظل بلا صور ، ولكنها نفذت فكرتها ، وتغلبت علي بالطبع ، وساعدتها الاحداث ، وكان منظر لندن رائع الجمال حين نراها من سطح (الملحق) على مقربة من القبة في الليالي الساجية ، وقد هياوا لي مكانا على السطح ، فوقه سقف متين ، كي أتمكن في ضوء القمر من مراقبة الغارات الجوية ، وتحت هذا المكان اقيمت غرفة الحرب حيث زودت ببعض الاثاث الصالح للنوم ، وحيث لا تجد القنابل اليها منفذا . وكانت القنابل في تلك الايام أصغر بالطبع من القنابل التي طالعنا في المراحل الاخرى من الحرب ، وبالرغم من ذلك كانت حياتنا في داوننج ستريت في الفترة التي سبقت بناء هذا المسكن

الجديد مثيرة للغاية ، ان كان كل منا يحس وكأنه قد دفع به الى مركز قيادة احدى الفرق في ميدان القتال .

ولست أنسى مساء يوم السابع عشر من تشرين الاول حيث كنا نتناول عشاءنا في غرفة الحديقة في داوونج ستريت رقم ١٠ عندما انطلقت الفسارة الليلية المألوفة ، وكان يشاركني العشاء ارشي سنكلير واوليفر ليتلتون . وكانت النوافذ القولاذية مغلقة ، وحدثت بعض الانفجارات المدوية بالقرب منا ، وسقطت قنبلة على مكان استعراض حرس الفرسان ، وهو لا يبعد عنا بأكثر من مائة ياردة ، وكان دويها هائلا ، وعلى حين غرة شعرت بهاتف سماوي .٠٠٠ ينبهني الى الخطر المائل . فالمطبخ عال ومكشوف وبه نافذة زجاجية يبلغ طولها خمسة وعشرين مترا ، والساقى والفتاة يقدمان لنا العشاء دون تأثر بدوي الانفجارات ، وخلف النافذة توجد السيدة لاندمير الطباخة وسائر الخدم ان يسرعوا الى المخبأ ، ثم عدت الى مكاني بالمائدة ، وأمرت الساقى ان يحمل العشاء الى غرفة المائدة مباشرة ، وطلبت الى الطباخة وسائر الخدم ان يسرعوا الى المخبأ ، ثم عدت الى مكاني بالمائدة ، فلم تمر ثلاث دقائق حتى فوجئنا بدوي هائل وأصوات دمار جد قريبة وشعرنا بهزة عنيفة مما يؤكد ان البيت نفسه قد أصيب وجاء مفتش المباحث المحقق بخدمتي ليخبرني بفداحة الخسائر ، فقد أصيب المطبخ ، ومخزن التموين ومكاتب القسم المالي .٠٠٠

وذهنا الى المطبخ لنشاهد ما جرى ، فلم نر الا انقاضا ! فقد سقطت القنبلة على بعد خمسين ياردة على القسم المالي ، فدمرت كل ما في المطبخ ، وتحول الى انقاض ، وتهشمت النافذة الزجاجية الكبيرة وتطايرت شظاياها في كل جوانب المطبخ ، ولو ظل به أحد الى ان حدث الانفجار لغدا اشلاء مبعثرة ، ولا شك في ان الهاتف السعيد الذي خطر لي جاء في وقته المناسب . اما مخبأ القسم المالي في الساحة فقد اصابته قذيفة مباشرة فتناثرت اجزائه ، واستشهد تحت انقاضه أربعة حراس كانوا يقومون ليلا بأعمال الحراسة ، وعلى أية حال فلم يكن في مقدورنا ان نحدد عدد المفقودين ، فقد دفن الجميع تحت ركام الانقاض .٠٠ ولما كانت المغارة متواصلة ، فقد لبسنا خوذنا وارتقينا الدرج الى سطح الملحق لنشاهد المنظر كاملا ، وقبل ذهابي لم أستطع مقاومة الرغبة في ان اغري الطباخة والخدم بالتوجه الى المطبخ ، وبالطبع أصيبوا بالهلع من رؤية مكانهم وقد استحال الى ركام . وصحبت ارشي الى سطح الملحق ، وكان المساء ساكنا والجو صافيا ، وكانت لندن بكاملها تجاهنا ،

ورأيت معظم حي (بال مال) تأتي عليه النيران ، وعلى أية حال كانت ثمة خمس حرائق مضطربة في الجانب المقابل من المدينة على طول النهر ، لكن (بال مال) كان طعمة للنيران ٠٠٠ ثم أخذت الغارة تنزاح غمقتها شيئاً فشيئاً الى أن دويت صفارة الامان ، وان ظلت الحرائق مشبوبة في المدينة ٠٠ ونزلت الى مسكني الجديد في الطابق الاول من الملحق فوجدت الضابط دايفيد فارجسون ، رئيس مراقبي مجلس العموم ، والذي يقطن في نادي كارلتون ، وقد اخبرنا ان دار النادي قد تهدمت ، وكنا قد تخيلنا ذلك بأنفسنا بمجرد ان شاهدنا اندلاع النيران ، وكان فارجسون في النادي عندما دوى الانفجار ، وحوالي مائتين وخمسين من الاعضاء والموظفين ، وقد احدث الانفجار قذيفة ضخمة مباشرة ، اطاحت بواجهة المدخل من جهة شارع (بال مال) . وكان الاعضاء يزدهمون في قاعة التدخين ، فتهاوى السقف عليهم ، وعندما شاهدت الانقراض في اليوم التالي اخذتني الدهشة لان احداً من كانوا في القاعة لم يقتل ، وانما نجا الجميع رغم الانقراض والدخان وكانما حدثت معجزة ، ولئن اصاب بعضهم بجروح الا انهم نجوا من الموت جميعاً . وعندما سمعت بالحقائق مفصلة الى مجلس العموم ، قال زملاؤنا الوزراء من حزب العمال مازحين : « ان الشيطان لا يمس انصاره بسوء » . وقد انتشل المستر كانتان هوغ والده ، وهو وزير مالية سابق ، انتشله من بين الركاب ، كما حمل اينياس والده انخيزاس في حرب طروادة . ولم يجد فارجسون مسكناً يأوي اليه في تلك الليلة ، فاعدنا له سريراً في الطابق الارضي من الملحق ، لقد كانت هذه الليلة بصورة عامة مثيرة للفرح ، وكان من الغريب حقاً بالنظر الى اصابات المباني الا يزيد عدد القتلى عن خمسمائة شخص وعدد الجرحى عن الفين او ثلاثة الاف .

ومضيت للمرة الثانية الى زيارة رامسفيت ، وشن علينا الهجوم فمضوا بي الى النفق الكبير الذي يقيم فيه عدد كبير من الناس بصفة مستمرة ، وعندما غادرنا النفق بعد ربع ساعة تقريباً ، بدأنا نتأمل الخرائب التي ما زال يتصاعد الدخان من جوانبها ، وقد تهدم فندق صغير دون ان يصاب احد من نزلائه بأذى على الرغم من تحوله الى تل من الركاب والحجارة تتناثر خلالها قطع الاثاث المحطم ، وادوات المطبخ ، وراعنا صاحب الفندق وزوجته والطباخون والخدم ، وهم يولولون حول فجيعتهم في مصدر رزقهم ومأوى حياتهم ٠٠٠ وعندها قررت بكل مالي من نفوذ وامكانيات ان اصدر أمراً بالتعويض الفوري الكامل ، وعندما عدت بالقطار املت على وزير المالية

كنغزلي وود الرسالة التي توضح هذا المبدأ الهام وهو ان كافة الخسائر التي تحدثها الغارات يجب ان تكون على مسؤولية الدولة ، وان الحكومة تلتزم بتعويضها حتى لا يقع عبؤها على كاهل الذي يصابون في بيوتهم او أعمالهم ، بل على كاهل الشعب كله تحقيقا للعدالة فقد اثار هذا القرار فزع كنغزلي وود بما ينطوي عليه من التزام لا نهائي ، ولكنني اكدت له ضرورة القيام بهذا الاجراء ، ولم يمض اسبوعان على ذلك حتى كانت وزارة المالية قد جهزت مشروع التأمين الذي قدر له ان يقوم بدور فعال في حياتنا . . . وقد واجهت وزارة الخزانة مشاعر مضطربة ومقاومة ازاء هذا المشروع ، فقد ظنت في بادئ الامر انه سيستنزف الخزانة حتى الافلاس ، ولكن بعد ايار عام ١٩٤١ ، حيث توقفت الغارات الجوية اكثر من ثلاث سنين ، اخذت المكاسب تنهال على خزانة الوزارة بفضل هذا المشروع الذي اعتبرته انا في حينه عملا من أعمال التوفير والبراعة السياسية ، وفي اواخر مراحل الحرب عندما اخذنا بغارات الصواريخ والقذائف الموجهة صعدت الارقام ثانيا الى جانب الخسارة وتكبدنا ما لا يقل عن ثمانماية وتسعين مليوناً من الجنيهات في شؤون التعويض وبالرغم من كل ذلك فقد كنت غير مستاء لما يحدث .

وأصبح من المحتم في هذه الفترة الجديدة من الحرب ، ان نستفيد بغاية ما نستطيع من العمل ، ليس في المصانع فقط بل في الدوائر الحكومية بلندن كذلك ، بالنسبة لتعرضها لهجوم جوي مستمر ليل نهار ، فكان الموظفون في البداية عندما تدوي صفارات الانذار يسرعون الى الطوابق الارضية حيث تستخدم كملاجيء للوقاية ، وكان يؤثر زهوونا ان تتم هذه العملية في هدوء ونجاح ، وفي احوال كثيرة لم تكن الغارة تعني اكثر من هجوم من بضع طائرات او حتى طائرة واحدة ، وطالما عوقت هذه الطائرات فلم تصل الى العاصمة ، وهكذا يتوقف العمل في جميع المصالح الحكومية الادارية والتنفيذية بسبب غارة صغيرة تافهة . لذلك فقد فكرت في ان يستخدم الانذار على مرحلتين . مرحلة التنبيه المبدي ومرحلة الخطر الفعلي الذي لا تنطلق صفاراته الا حين يحل الخطر ويصبح في حالة مداومة فعلية ، فقبل اقتراحي ونسقت الخطة على أساسه .

وكان البرلمان أيضا في أشد الحاجة الى الارشاد بالنظر الى مواصلة عمله في تلك الايام المليئة بالخطر ، وكان اعضاء المجلس يوقنون بان واجبه

يحتّم عليهم ان يكونوا مثلاً للشعب ، ولا شك في ان الحق كان بجانبهم في هذا اليقين ، ولكن كان علي ان أوجه انتباههم الى ضرورة اتخاذ الحيطة والحذر نظرا الى الاخطار المحدقة ، واستطعت اقناعهم في جلسة سرية بوجوب اتخاذ الاجراءات الوقائية الضرورية ، فاتفقوا على كتمان مواعيد الجلسات ، وايقاف النقاش حين تدوي صفارات الانذار ، وصاروا يخفون بنظام السري المخابيء المفعممة والتي لم تكن معدة كما يجب .

ولا شك في ان مواصلة البرلمان البريطاني اداء مهمته وتصريف الشؤون في تلك الاونة يعتبر صفحة مشرقة في تاريخه وذيوع شهرته ، والنواب عادة أكثر الناس حساسية بالنسبة لمهامهم في هذه الظروف ، فكان من اليسير على أي انسان ان لا يحسن الحكم على حقيقة تصرفاتهم ، فعندما تنزل الاضرار بأحدى القاعات كانوا ينتقلون الى قاعة اخرى ، وكنت أواجه صعوبات جمع في اقناعهم بضرورة الاخذ بوسائل الحكمة والموعظة الحسنة لكن جميع النواب في هذه الفترة قد نهجوا نهجا ينم عن التعقل ووزن الامور والحرص على الكرامة . ومن حسن الطالع ان الانفجار الذي حدث بعد عدة شهور وأطاح بقاعة مجلس الشيوخ ، حدث ليلا حينما كانت القاعة خالية من أي انسان .

ولقد أعطانا تفوقنا على الغارات النهارية احساسا بالراحة والهدوء النفسي ، أما في خلال الشهور الاولى فقد سيطر علي الشعور بالقلق السذي يتمتع بحقوق السيادة ، والذي انتخب بطريقة عادلة ونزيهة وهي الاقتراع العام ، وفي يده دائما القدرة على اسقاط الحكومة ، ولكنه الان في اقسى الظروف كان يدعمها ويسند مركزها . . وهكذا كتب النصر لبرلماننا .

واني لا أعتقد ان أي دكتاتور قد حاز من السلطات الفعلية في بلاده مثل تلك التي خولت لوزارة الحربية البريطانية ، وكنا عندما نعبر عما نريده يعطينا نواب الشعب تأييدهم فيطيع الناس رغباتنا بسعة افق وحرية ، وعلى الرغم من ذلك لم نحاول مرة مصادرة الحريات وان ظل الناقدون بأنفسهم يرجحون المصلحة القومية على أي شيء آخر . واذا تحدانا النقد رأينا المجلسين يصورتان ضدهم بأغلبية ساحقة ، واذا ما قورن هذا بأساليب الدول الجماعية، بدا لنا ان برلماننا كان يخولنا هذه السلطة ضد الناقدين بلا أدنى اضطهاد او كبت او ايجاء او استعمال للشرطة وأجهزة الامن السرية ، ولا شك في ان هذا كان يثير زهونا واعتزازنا ، ويؤكد لنا ان الديمقراطية البرلمانية او على الاصح ما يحق ان نسميه السلوك البريطاني في الحياة العامة قد استطاع

الصعود والانتصار والبقاء بالرغم من كل المحن القاسية ، ولم يستطع التهديد بالابادة واقفاء اعضاء برلماننا ان يرهب احدا ، وكان من حسن الحظ ان هذا التهديد لم ينفذ ولم تحدث الابادة .

وحل منتصف شهر ايلول ، ففاجأنا العدو باستعمال نوع جديد ومدمر من وسائل الحرب علينا ، فقد بدأت الطائرات تلقي بقذائف تنفجر بعد مرور بعض الوقت مما وضعنا امام مشكلة حساسة وغريبة ، وكثيرا ما سارت في وجوهنا مسافات شاسعة من السلك الحديدية ، فنخترق الطرقات الهامة ، والسبل الموصلة للمصانع الحيوية والمطارات والمؤسسات ، وحظر علينا دخولها في اوقات احتياجنا اليها ، اذ فرض علينا اولا ان نتعقب هذه القنابل لنفجرها او نتلفها ، وكانت هذه عملية خطيرة وخاصة في بداية الامر ، عندما اضطررنا الى ان نتعلم الوسائل والاساليب بواسطة عمليات من التجارب الموضحة .

وقد تكلمت سابقا عن حكاية الالغام المغنطة ، اما هذه القذائف المتفجرة من تلقائها فقد أصبحت منتشرة ، وصارت مشكلة تحتاج الى التفكير ، وقد وجهت اهتمامي الى القنابل المؤقتة منذ عام ١٩١٨ عندما استعملها الالمان لأول مرة ضدنا بصورة شاملة ليرغمونا على عدم استخدام القطارات في زحفنا على المانيا ، وكنت قد اقترحت ان نستخدمها في النروج وقناة كييل ومنطقة الراين ، ولا شك في ان هذا السلاح من اكثر اسلحة الحرب فعالية بالنسبة الى ما يشيعه من التوجس والقلق والارتباب . وهكذا دار الزمن لنذوق نحن طعم هذا السلاح ، فانشأنا هيئة خاصة للتصرف في شأنه ، وعهدنا الى مجموعات خاصة شكلت في كل مدينة وبلدة ومقاطعة لتتبعه ، وسارع المتطوعون يبذلون جهودهم لمكافحة هذه القنابل ، وتكونت فرق كان بعض منها حسن الحظ وكان للآخرى سوء المصير . وقد استطاع رجال من هذه الفرق النجاة من العاقبة الوبيلة لهذا السلاح ، والعيش الى نهاية الحرب ، بينما نجا البعض الاخر من التجربة العاشرة او العشرين او الثلاثين او الاربعين قبل ان يلقوا حتفهم ، وكنت حين اشاهد اعضاء هذه الفرق اينما ذهبت في رحلاتي وتجولاتي ، ارى وجوههم مغايرة تماما لكل الوجوه التي اعرفها او رايتها ، بالرغم مما يتحلون به من شجاعة وتقان وصبر ، فعلى هذه الوجوه تبدو واضحة ظلال الشحوب ، ومعالم الاجهاد ، وسماته الضخمة والجهد ،

فضلا عن بريق العيون وزرقة الوجوه وجفاف الشفاه ، فاذا ما تذكرنا الايام المضنية التي عشناها ، فيجب ان لا نستعمل كثيرا كلمة (اوقات كئيبة) اذ تكاد الكتابة كلها تخص افراد هذه الفرق وحدهم .

وواجب علي ان اسرد هنا ما حدث لاحدى هذه المجموعات كمثال لما كانت تواجهه سائر المجموعات ، كانت هذه المجموعة تضم اللورد سافولك وسكرتيرته وسائقه العجوز ، وكانوا يسمون أنفسهم « الثالوث المقدس » وقد شاعت اخبار جرائهم ، وذاع الكثير عن شجاعتهم ، وقد استطاعوا ان يتخلصوا من اربع وثلاثين قنبلة لم تنفجر ، بروح طيبة مرحة ، لكن القنبلة الخامسة والعشرين قد ثارت لزملائها ، فانفجر معها اللورد وثالوثه المقدس ولكن الايمان يملأ نفوسنا بان ارواحهم عرفت مستودعها الامين في دار الخلود

وقد توصلنا بفضل كل فرد في هذه المجموعات ، وبالتضحيات النبيلة التي بذلوها الى ان نتحكم في هذا الخطر الجديد .

من الشاق علينا ان نعقد مقارنة بين الاختبار القاسي الذي مر به سكان لندن في شتاء عام ١٩٤٠ - ١٩٤١ ، وبين الاختبارات التي عايناها الالمان في سنوات الحرب الثلاث الاخيرة ، فقد غدت القنابل اشد هولا والغارات أكثر قسوة ، ولكن من ناحية ثانية - كان الاعداد الطويل ، وما اشتهر عن الالمان من دقة قد ساعدهم على انشاء وحدات كاملة من الملاجيء المحصنة ضد القنابل ، وكان يفرض على كل الماني الالتجاء عند قيام الغارات كعمل عادي رتيب ، وعندما اجتزنا المانيا في النهاية شاهدنا انها قد أصبحت بكاملها خرائب وأطلالا ، ولكننا شاهدنا أيضا عمارات مشيدة ما تزال صامدة على الأرض وملاجيء حصينة كان السكان ينامون فيها كل ليلة بالرغم من تساقط دورهم وخراب كل ما يملكونه على سطح الأرض ، اما في لندن ، فعلى الرغم من ان الغارات كانت أقل قسوة ، الا ان وسائل التأمين والوقاية كانت ابطأ تطورا فاذا استثنينا الاقبية لم نجد عندنا اماكن للوقاية والتأمين . حقا لقد كان ثمة طوائف أرضية ، وطوابق تحت الأرض تستطيع ان تجابه الضربات المباشرة ، ولكن عددها كان قليلا لدرجة ملحوظة وكانت الغالبية من سكان لندن يمضون الليل في الخنادق الخاصة ببيوتهم تحت سيل من قذائف العدو ، مستمتعين بما اشتهر عن الانكليز من حبه للاسترخاء بعد يوم من العمل

المثمر الجاد ، ولم تكن ثمة أية وسائل للوقاية الا من شظايا القذائف لكن الانهيار النفسي لم يكن شيئاً بجانب الاحتمال البدني ، وحقيقة لو كانت قذائف عام ١٩٤٣ قد اسقطت على لندن في عام ١٩٤٠ لانتبهنا الى وضع قد دمر فيه كل تنظيم بشري ، ولكن لكل شيء وقته المعين ، ونسبه المحدودة ، ولا يملك انسان القول بان لندن التي لم تجرب الخضوع قط ، كانت محصنة ضد الاستسلام .

ولم تكن الحكومة قد شيدت قبل الحرب او في الفترة السلبية الاولى التي مرت في مطالعها ، أية اماكن محصنة ضد القنابل ، تستطيع هيتها المركزية ان تلجأ اليها لمواصلة الاعمال ، فقد درست خطط لتحويل العاصمة عن مدينة لندن ، وفعلاً انتقلت فروع باكملها من جميع الوزارات والدوائر الى هاروغيت وشبلتيفهام وغيرها ، واستولت السلطات على المساكن الكافية في مناطق شاسعة لسكنى جميع الوزراء وكبار الموظفين حين الانسحاب من لندن ، اما في هذه الاونة وطائرات العدو تواصل عدوانها فقد انعقد عزم الحكومة والبرلمان ورغبتها الاكيدة على البقاء في لندن دون مناقشة ، وكنت اشاركهما نفس هذه المشاعر ، وكنت مثل غيري يخيل لي ان الدمار سيكون عاما ، بحيث يصير الانتقال وتوزيع الاعمال امراً محتماً ، ولكن بالنسبة الى ما حدث بالفعل ، فقد امتلأ بعكس هذا الاحساس ، وظللنا في تلك الاشهر نعقد اجتماعاتنا الوزارية ليلاً في غرفة الحرب في الطابق الاسفل . ولم اكن اتخيل مدى ما يتحمله المستر تشمبرلين من عناء هذا السير بالنظر الى العملية الجراحية التي اجريت له ، ولكن لم يستطع أي شيء ان يقعد به عن هذه الاجتماعات التي كان يتسم فيها بكثير من الهدوء البارد والتصميم الاكيد ، والتي كانت اخر ما شاهده من اجتماعات .

ونظرت ذات مساء في اواخر شهر ايلول عام ١٩٤٠ من باب داوننغ ستريت الذي يطل على الطريق ، فشاهدت العمال يقومون بوضع اكياس من الرمال تجاه النوافذ المنخفضة من بناء وزارة الخارجية المواجهة لنا ، وسألته عما يقومون به ، فقل لي ان المستر نفيل تشمبرلين في أمس الحاجة الى العلاج من حين لآخر بعد العملية التي اجريت له ، وكان من غير الميسور ان يقوم بهذا العلاج في ملجأ داوننغ ستريت رقم ١١ لان هشرين شخصاً على الاقل يتجمعون فيه اثناء قيام الغارات ، ولذلك فقد رؤي تهيئة ملجأ صغير خاص به وظل حريصاً على عاداته اليومية ، لابسا خير ثيابه ، بادياً غاية في الاناقة وانسجام الهدام . وكان هذا كله أكثر مما في طوقه ، ولذلك قررت

ان استخدم سلطاتي فذهبت الى الطريق الممتد بين رقمي ١٠ و ١١ وحين
رأيت السيدة تشمبرلين قلت لها : « ينبغي الا يوجد هنا في هذه الظروف ،
ويجب ان تبتعدي به حتى تعاوده الصحة وسأرسل اليه يوميا بالأنباء »
وذهبت السيدة للقاء زوجها ، وبعد ساعة ارسلت لي تقول « لقد ابدى
استعداده لتنفيذ مشيئتك » سنرحل الليلة » ولم التق به ثانية ، ولكنني
على يقين انه كان يرغب في الموت اثناء قيامه بواجبه ولكن القدر شاء غير
ذلك .

ونتيجة لوفاة المستر تشمبرلين حدثت بعض التغييرات الوزارية الهامة ،
فقد اظهر المستر هربرت موريسون نشاطا ملموسا كوزير للتأمين ، كما قابل
السير جون اندرسن الهجمات على لندن بادارة في منتهى الصمود والكفاية ،
وتبين لي في مطلع تشرين الاول ان الهجوم المتواصل على اعظم مدن العالم
كان من القسوة والعنف بحيث خلف الكثير من المشاكل السياسية والاجتماعية
لدى اهل المدينة الذين واجهوا اقصى الظروف ، مما يفرض علينا ان نعهد الى
برلماني حازم صاحب خبرة وتجربة في شؤون وزارة الداخلية التي أصبحت في
تلك الاونة وزارة الامن الداخلي كذلك ، فلندن هي التي تعاني قسوة الغارات ،
وهربرت موريسون واحد من اهلها ، وهو لم بكل جانب من جوانب ادارتها ،
وكانت له خبرة لا تبارى في حكم مدينة لندن . ان كان رئيسا فيما سبق لمجلس
مقاطعتها ، وكان الشخصية البارزة في كافة امورها وكنت في ذات الوقت في
احتياج للسير جون اندرسن ليمثل الحكومة في مجلس الملك الخاص ، ليقوم
كما يمل عليه منصبه الجديد بالاشراف على الكثير من الامور الداخلية في
مجال اوسع باعتباره رئيسا للجنة الشؤون الداخلية التي يعهد اليها بالكثير
من المشاكل تخفيفا لاعباء مجلس الوزراء . واثاحت لي هذه التغييرات التي
خففت العبء عن كاهلي ان احشد اهتمامي لتصرف شؤون الحرب ، التي
تبين لي ان زملائي يميلون الى توسيع مسؤولياتي بشأنها وزيادة اختصاصاتي
ولذلك فقد رغبت الى هذين الوزيرين اللامعين ان يحل كل منهما محل الآخر ،
ولم يكن ما قدمته لهربرت موريسون طريقا مفروشا بالورود وليس في مقدور
هذه الصفحات بحال ما ان توضح المصاعب الجمة في ادارة لندن وحكومتها
في ذلك الوقت الذي كان يضحى فيه عشرة الاف مواطن او عشرون الفا كل ليلة
بدون مأوى نتيجة للهجوم الجوي المستمر ، عندما كان حذر السكان وحرصهم

وحده بمثابة حرس اولي يقاوم حدوث الحرائق على أسطح المنازل التي قد يتعذر القضاء عليها ، وعندما اكتظت المستشفيات بمشوهي القنابل من الرجال والنساء ، وعندما طل مئات الالاف من البشر المنهكين يكسسون كل ليلة في هذه الخنادق التي تحتاج الى الامان والوسائل الصحية ، وعندما كانت طرق المواصلات بالقاطرات وغيرها تغلق باستمرار ، وعندما كانت المجاري والقوة الكهربائية والغاز تدمر تدميرا ، وعندما يجب ان تظل - بصرف النظر عن ذلك - روح لندن المناضلة صامدة عالية . وان يتيسر نقل حوالي مليون مواطن في كل يوم ليلا ونهارا من مساكنهم الى المصانع وبالعكس ، كان يجب علينا كل هذا ، ولم يكن في مقدورنا ان نعرف مدى هذه المحنة ومتى تنتهي ، ولم يكن لدينا ما يشير الى انها لن تستمر او لن تزداد سوءا . وعندما حدثت المستر موريسون عن رغبتني بالنسبة للمهمة الجديدة كان يدرك جيدا ما ينطوي عليه هذا العرض من خطورة ومشاكل ، فاستمهلني بضع ساعات ليفكر ، ولم يلبث ان جاءني قائلا انه سيكون فخورا بالقيام بكل هذه المهمات ، وهزني اعجابا به هذا القرار الذي يدل على كل صفات الرجولة .

وبعد ان تمت هذه التعديلات الوزارية ادى تغيير العدو لوسائله الى ان تتأثر سياستنا العامة ، فقد كانت الغارات حتى الان تستخدم القنابل الشديدة الانفجار ، لكن في ليلة ١٥ تشرين الاول وكان القمر بدرا ، نزلت بنا اقصى غارات جوية في ذلك الشهر ، واسقطت الطائرات الالمانية فضلا عن حملتها المعروفة من القذائف المتفجرة حوالي سبعين الف قذيفة حارقة وكنا حتى هذه الاثناء نبث الشجاعة في سكان العاصمة ونحثهم على اللجوء للخنادق وقت حدوث الهجوم ، وكنا نفتش عن كل وسيلة ممكنة لتأمين وقايتهم . ولكن بعد هذه الليلة اضطررنا ان نطلب اليهم الصعود الى سطوح المساكن بدلا من اللجوء الى الخنادق اثناء الهجوم . وكان على وزير الداخلية الجديد ان ينفذ هذه السياسة ، فاعد على الفور تشكيلا هائلا لمراقبي الحرائق ، ومقاومتها على مدى واسع يكفي مدينة لندن بكاملها ، فضلا عن اجراءات اخرى اتخذت من المدن الاقليمية في اقصر مدة ممكنة . وكانت مراقبة الحرائق عملا اختياريا في اول الامر ، ولكن اشتداد الحاجة لمزيد من الافراد والاحساس بحتمية قيام كل انسان بواجبه في مثل هذه المحنة القاسية ليشارك في الامها ، فرض علينا ان نلزم المواطنين بالمشاركة في اعمال المكافحة ، وقد ادى ذلك الى مزيد من نشاط كافة المواطنين على جميع الوانهم ومستوياتهم . وصمعت النساء على المساهمة بقدر حيوي في هذه الخدمة واتخذت التدابير على

نطاق واسع للقيام بتدريبات عامة ، ولتعويد مراقبي الحرائق مكافحة كل أنواع القذائف المحرقة التي يسقطها الاعداء وقد تفوق الكثيرون في اداء هذه الخدمة حتى استطاعوا ان يخدموا الوف الحرائق قبل شوبها ، وسرعان ما صارت تجربة الصعود الى أسطح المنازل ليلة اثر اخرى تحت وطاة النيران المشتعلة ودون ادنى اجراء وقائي اخر سوى الخوذة النحاسية امرا مالفوا .

ورأى المستر موريسون ان يجمع الفرق المحلية للاطفاء التي يبلغ عددها حوالي الف واربعمئة فرقة في تشكيل قومي موحد لمقاومة الحرائق ، وان يزود هذا التنظيم بحرس شعبي كبير للحرائق من المدنيين المدربين المتطوعين للعمل في اوقات فراغهم ، وكان حرس الحرائق أول الامر يتألف من المتطوعين أيضا . ولكن ما لبث ان تقرر بالاجماع تحويله الى خدمة الزامية ، وقد استطعن بواسطة الجهاز القومي لمكافحة الحرائق من استخدام النقل الآلي ، وأحدث الاجهزة وأدق التدريبات في أعمال رسمية تشرف عليها مجموعة من العسكريين . أما أسلحة الدفاع المدني الاخرى فقد كانت تضمن وجود مجموعات على استعداد للتوجيه الى أي مكان في خلال دقيقة واحدة ، وقد اكتفي باسم سلاح الدفاع المدني عن الاسم القديم الذي عرف قبل الحرب بقوات الاحتياط من الغارات الجوية وزود رجال السلاح الجديد بمسلبات عسكرية خاصة تبث الشعور في نفوسهم بانهم يؤلفون السلاح الرابع من قوات التاج المسلحة .

وقد اغتبطت لان لندن قد صمدت امام الموجات المتتالية من الغارات الجوية على مدنتنا . ان لندن تشبه فيما أرى حيوانا هائلا من حيوانات ما قبل التاريخ في وسعها ان تتحمل الاذى الخفيف ، ثم تظل رغم جراحها النازفة عتبة الصمود تموج بالحياة والحركة . وقد كثرت خنادق أندرسن في احياء الطبقات العاملة المكونة من بيوت ذات طابقين . وقد بذلنا كل ما في وسعنا لتكون هذه الخنادق صالحة للاقامة والحياة ، مع الحرص على تخفيفها من الرطوبة أثناء الامطار .

وللمرة الاولى منذ حوالي شهرين لم تدو في الجو صفارة الانذار ليلية الثالث من تشرين الثاني في لندن ، فاستغرب الكثيرون جو الهدوء السائد وبدأوا يتساءلون ما الخبر ؟ وفي الليلة التالية شنت الغارات على نطاق واسع حتى عمت أكثر الجزر البريطانية ، وظل هذا بصفة مستمرة الى بعض الوقت

واتضح ان الالمان قد جددوا وسائلهم الهجومية ، وبالرغم من ان لندن استمرت كهدف أساسي الا ان جهودا ملحوظة كانت تبذل لتشل العمل في المراكز الصناعية البريطانية . وقد ارسل العدو اسرايا جديدة مدربة على ابتكارات جديدة في الملاحة الجوية لتهاجم مراكز حساسة في الجزيرة ، فمثلا تمكنت فرقة خاصة من الطائرات الالمانية على تحطيم مصانع الات الطائرات « رولز رويس » في (« هلينجتون » قرب غلاسكو ، ولا شك في ان هذه الخطة الجديدة لم تكن تعني مجرد التغيير ، فقد قرر العدو تأجيل غزو بريطانيا الى حين ، ولم يكن قد انتهى من تدبير هجومه على روسيا بعد ، كما لم يفكر فيه احد غير هتلر والمقربين اليه . وهكذا كانت أشهر الشتاء الباقية مجرد فترة تمرينات بالنسبة لسلاح الجو الالمانى على التكتيكات الجديدة في الهجوم الليلي والاغارة على التجارة البحرية في بريطانيا . أما الغاية من ذلك فهي تدمير انتاج العسكري . وكان أجدى للالمان لو ظلوا على هجومهم في ناحية واحدة حتى اخر الشوط فربما وصلوا الى نتيجة حاسمة ، ولكن الحيرة والتردد كانا طابعهم في ذلك الوقت لان ثقتهم بأنفسهم كانت غير كاملة .

وبدأت هذه الوسائل الجديدة في الهجوم بغارة جوية عارمة على كوفنترى ليلة الرابع عشر من تشرين الثاني ، وقد اتضح لغورنغ ان مدينة لندن شاسعة الابعاد الى الدرجة التي لا تتيح له نتائج فاصلة ، بينما كان في مقدوره ان يزيل من الوجود مدن الاقاليم ومراكز انتاج الذخيرة ، وقد بدأ الهجوم في الساعات الاولى من الليل وتواصل حتى الفجر واشترك فيه حوالي خمسمائة طائرة المانية اسقطت حوالي ستماية طن من القذائف الشديدة الانفجار عدا الوف القنابل المحرقة . وكانت تلك الغارة اقسى ما دهمنا من غارات ثقيلة مدمرة بصورة عامة ، فقد تحطم قلب كوفنترى ، واصيبت الحياة بالشلل التام في المدينة ، وقد قتل حوالي اربعمائة شخص كما اصيب بجراح عدد اضعف من هذا بكثير . واذاغت المانيا ان جميع مدننا ستلقى نفس المصير ، ومع هذا فلم يعطل العمل بمصانع الطائرات او قطع الماكينات الاخرى ، كما لم تمت حركة اهل المدينة بالرغم من عدم مجابتهم قبل ذلك لمثل هذه الغارات . ولم يمر اسبوع حتى كانت لجنة تجديد الابنية قد قامت بأعمال رائعة تيسر عودة الحياة الى طبيعتها في المدينة .

وشن العدو ليلة ١٥ تشرين الثاني هجوما اخرنا على لندن استخدم فيه عددا ضخما من الطائرات في ضوء القمر الساطع فاصيبت العاصمة بكثير من الخسائر وخاصة في كنائسها ونصبها التذكارية ، وكانت بيرمنجهام هدف

العدو الثالث ، فشن عليها هجومه لثلاث ليال متتالية بين ١٩ و ٢٢ تشرين الثاني فاصيبت المدينة بخسائر فادحة في الارواح والممتلكات ، ووصل عدد القتلى الى حوالي ثمانماية والجرحي اكثر من الفين ، ولكن روح بيرمنجهام وحياتها قاومتا المحنة ، وارتفع المليون من اهلها بتنظيمهم ووعيهم وفهمهم الى اعلى مما نزل بهم من الام ، وتحولت وجهة الغارات في اخر اسبوع من الشهر نفسه ومطلع شهر كانون الاول الى الموانسيء فتعرضت برستول وساوثا ميبتون وليفربول لهجمات قاسية ، ومرت بلاموت وشفيلد ومانشستر وليدز وجلاسكو بالمحنة ذاتها بشجاعة نادرة ولم يعد يعنينا ان يوجه العدو ضربته فان الشعب كله واجهها بايمان وصبر وعزيمة .

وبلغت الغارات ذروتها مرة ثانية حين شن العدو هجومه على مدينة لندن يوم الاحد في ٢٩ كانون الاول ، فقد جمع الالمان فيها كل ما حصلوه من خبرات ، فكان الهجوم مقعما بالقذائف المحرقة التي ركزت قسوة نيرانها على حي « السيتي » . وكانت هذه الغارة مدبرة لتقع حين ينحسر الماء عن النهر بسبب الجزر ، فتهدمت سدود المياه في بداية الامر بسبب الغام شديدة الانفجار اسقطتها المظلات ، وكان الضرر الذي اصيبت به محطات السكة الحديدية والارصفة فادحا ، وهدمت ثمانني كنائس وشبت الحرائق في « غيلدهول » وفي كاتدرائية القديس بولس ، ولم تنج من الدمار الا بجهود خارقة تفوق حسد الوصف ، واخذنا نرى الخراب يجتاح العالم البريطاني ، ولكن عندما زار الملك والملكة هذه الاماكن المصابة قويا بحماس بالغ اشد مما كانا يقابلان به في اية زيارات اخرى .

وظل الملك صامدا في غضون هذه الاشهر الطويلة من التجربة القاسية والتي لم تنته بعد في قصر باكنجهام ، وقد شيدنا خنادق ملائمة في الطابق الاسفل من القصر ، ولكن اعمال البناء استلزمت الكثير من الوقت ، وكثيرا ما حضر الملك خلال اشتداد الغارة من قصر باكنجهام . وقد انقذ جلالته والملكة باعجوبة من الموت ذات مرة . ففي حديقة القصر انشيء ميدان خاص للرماية ، كان جلالته وغيره من افراد الاسرة المالكة ، وكبار رجال الحاشية يتدربون على الرماية فيه بالمسدسات ومدافع التومي ، وقد قدمت للملك غدارة اميركية قصيرة المدى ، كانت واحدة من مجموعة وصلنتني وكان سلاحا قيما .

وبدل الملك في تلك الاثناء موعد لقائي الرسمي بجلالته من الساعة الخامسة مساء كل يوم ثلاثاء كما جرت عادته في خلال الشهرين الاولين منذ

توليت الحكم ، الى ان اتناول الغذاء معه في نفس اليوم من كل اسبوع . وكنت في هذه الزيارات التي قد تحضرها الملكة ، اعرض على جلالته شؤون الحكم ، وكثيرا ما اضطررنا الى حمل صحاف الطعام واقداح الشراب الى الخندق الذي كان لا يزال في حالة الاعداد فنستكمل طعامنا فيه ، واصبحت هذه الزيارات الاسبوعية عادة رتيبة ، وبعد مرور الاشهر الاولى ، امر جلالته ان يبعد الخدم جميعا من هذه الاجتماعات وان نمارس نحن خدمة انفسنا بانفسنا ، وقد تكشف لي خلال السنوات الاربع والنصف التالية من الحرب ان جلالته كان يطلع بكثير من الاهتمام على جميع البرقيات والوثائق الرسمية التي اقدمها اليه ، ويقرر العرف الدستوري البريطاني ان من حق الملك ان يطلع على كل شيء يقع تحت اختصاصات وزرائه ، وان يقدم المشورة الى حكومته بدون قيد ولا شرط ، وكنت حريصا جدا على ان اطلعه على كل شيء ، وكثيرا ما بدا لي خلال اجتماعاتنا الرسمية الاسبوعية انه قد قام بدراسة كافة الوثائق التي لم اكن قد درست بعضها بعد ، وانني لاقول ان من حسن الطالع لبريطانيا انه كان على عرشها في مثل هذه السنوات المصرية ملكا خيرا ن كملكتنا ومليكتنا ، واني كواحد من الذين يؤمنون بالملكية الدستورية ، نظرت ببالغ التقدير الى الشرف الذي اسبغه علي صاحب الجلالة بهذه الصلات التي وثق عراها معي كوزيره الاول ، وانني لا ارى لذلك نظيرا في تاريخنا الا في ايام الملكة آن ورئيس حكومتها مارلبورو .

وهكذا ابلغ بنا العام الى نهايته ٠٠٠ ، وان كنت قد استطردت - راغبا - بعيدا عن شؤون القتال الخاصة ، وسيرى القاري ان كل هذا الدوي وتلك الزعازع لم تكن الا رفيقا على الطريق يسير مع اجراءاتنا الهادئة التي حرصنا عليها في ادارة جهودنا الحربية ، وتوحيد سياستنا ودبلوماسيتنا ، وعلي ان اقر هنا ان هذه الخسائر التي منينا بها والتي لم تكن مميتة ، كانت في اعتبارنا نحن المقيمين في قمة الموقف دافعا فعالا للتعبير عن ارائنا ، وتوطيد زمالة بارة بيننا وتدعيم اسس اعمالنا الجهرية الواعية ، وربما يكون من غير الحكمة على كل حال ان افترض بان الغارات التي شنت علينا لو تزايدت الى عشرة او عشرين ضعفا او حتى بنسبة ضعفين او ثلاثة فان هذه الانطباعات السلمية التي فصلتها ، كانت ستوجد بصورة مؤكدة ، وعلى النحو الذي اوضحت .

الفصل العاشر

الإعارة والتأجير

اطل علينا فجر جديد ، وصليل الاسلحة يملأ الجو ، لكن مصدره هذه المرة كان مختلفا عما سبق . فقد دارت الانتخابات الاميركية للرئاسة في الخامس من تشرين الثاني ، وبالرغم مما تقسم به من حيوية وصلابة تتميز بها هذه المصارعة الحادة التي تحدث مرة كل اربع سنوات ، وعلى الرغم من الخلافات التي تثار حول الشؤون الداخلية بين الحزبين الرئيسيين ، الا ان كبار الزعماء في كل من الحزبين الديمقراطي والجمهوري كانوا يجمعون على تقدير قضيتنا العظمى والاهتمام بها ، فاعلن المستر روزفلت في ٢ تشرين الثاني بمدينة كليفلاند ان سياسته تؤمن ببذل كل مساعدة فعالة للشعوب التي ما زالت تكافح العدوان عبر المحيطين الاطلنطي والهادي . كما صرح منافسة المستر ويندل ويلكي في نفس اليوم في خطاب القاه بحديقة هاديسون بانهم جميعا جمهوريين وديمقراطيين ومستقلين مصممون على مؤازرة المقاومة البريطانية الباسلة وانهم يتعهدون للشعب البريطاني بان يستخدم متى شاء ثمار صناعتهم . ولا شك في ان هذا الشعور الوطني النبيل كان الطريق المخلص لحياة الولايات المتحدة وحياتنا نحن ايضا .

ومع ذلك فقد كنت أحس بالقلق العظيم ، وانا اترقب النتيجة ، فليس في مقدور كل من يتولى الرئاسة ، ان يكون مسلحا بالخبرة والمعرفة كما يتمتع بها فرانكلين روزفلت ، وليس في مقدور أي شخص سواه ان يحوز نفس المواهب والكفايات ، وكنت قد وثقت علاقتي الشخصية به ، وحافظت على تنميتها وزايت انها قد بلغت اسمى مراتب الثقة والصداقة الى الدرجة التي

أصبحت بها ذات أهمية في تفكيري ، وكنت لهذا أحس بالقلق ازاء كل ما يهدد هذه الزمالة ، وقد تم توطيدها بعناية وعلى مهل ، وانقر من فكرة قطع هذا الاتصال في احاديثنا ومباحثاتنا لابدأ من جديد مع شخص آخر صاحب عقلية وشخصية مختلفتين ، ولم أحس منذ أيام بمثل ما أحس به الان من قلق ، ولذلك فقد كانت غبطتي عظيمة عندما علمت ان الرئيس روزفلت قد أعيد انتخابه .

وكنا حتى تلك الساعة نلجأ فيما نحتاجه من الذخيرة للمصانع الاميركية بحرية وحيوية ، وان كان ذلك يتم بعد التفاوض معها .
وادت زيادة رغباتنا وتعدد مطالبنا الى التناقض أحيانا ، مزاحمة الرغبات الاميركية ذاتها ، مما كان ينذر بحدوث اصطدام على المستويات الخفية بالرغم من توافر حسن النية لدى الطرفين . وكتب الستر ستيتينيوس يقول :

« ان في امكان سياسة موحدة من اجل تحقيق غايات المقاومة ان تؤدي اغراض هذه المهمة التي تواجهنا الان » . ومعنى هذا ان لحكومة اميركا ان توصي وحدها بصنع الاسلحة التي نحتاجها من اميركا . وخرج الرئيس روزفلت بعد توليه الرئاسة بثلاثة أيام بنظرية جديدة تقرر الافضلية في توزيع انتاج الاسلحة الاميركية ، على ان يكون خمسون في المائة من انتاج اميركا للأسلحة مخصصا لاحتياجات اميركا الدفاعية ، وخمسون في المائة للقوات البريطانية والكندية . وأصدر مجلس الافضلية الاميركي في نفس اليوم موافقته على رغبة بريطانيا في اعداد اثني عشر ألف طائرة في الولايات المتحدة فضلا عن رغبتنا السابقة في احد عشر ألف طائرة اخرى ، ولكن من اين نأتي بالاموال الضرورية لنغطي ثمن الاسلحة التي نحتاجها من المصانع الاميركية ؟

وامضى اللورد لوثيان في اواسط تشرين الثاني يومين في ديتشلي معي ، وكان قد ركب الطائرة من مقر عمله في واشنطن الى الوطن ، وكنت قد استمعت الى نصيحة بان لا أمضي في تشيكرز جميع نهايات الاسابيع ، خصوصا عندما يكون القمر بدرا ، خشية ان يعطف علي العدو بلطفه الخاص ، وكان السيد رونالد تري وزوجته قد استقبلاني أحسن استقبال ، انا وموظفي ، في بيتهما الكبير الجميل الذي يقع على مقربة من اوكسفورد ولا تزيد المسافة

على أربعة أو خمسة أميال بين ديتشلي وبلنهايم ، وهكذا التقيت بسفيرنا في واشنطن في هذا الجو الامن ، وكان يعرف شتى جوانب الموقف الاميركي ولم يكن قد حصل على شيء سوى النية والثقة من واشنطن ، وكان قد اتصل منذ قليل بالرئيس الذي توثقت بينهما اطياب العلاقات ، وكان فكره مشغولا بمسألة الدولار ، وهي مسألة كئيبة بلا شك .

فعندما خاضت بريطانيا غمار الحرب ، كان في حوزتها حوالي ٤٥٠٠ مليون دولار أما على صورة دولار بالفعل ، او ذهب او استثمارات أميركية من المستطاع ان تتحول الى دولارات ، وكانت الوسيلة الوحيدة المستطاعة لتزويد هذه الموجودات ، هي التوسع في استخراج الذهب في الامبراطورية البريطانية وخاصة في جنوب أفريقيا . وبذل كافة السبل لزيادة الصادرات الى أميركا وخاصة الكماليات كالويسكي والمنسوجات الصوفية الرائعة والخزف . وقد استطعنا بهذه الوسيلة زيادة حصيلتنا بحوالي الفي مليون دولار في خلال ستة عشر شهرا منذ بداية الحرب ، وكنا في السابق نتجاذبنا الحيرة بين حاجة ملحة الى العتاد من أميركا ، وبين فزعنا من نقصان دولاراتنا الموجودة لدى أميركا ، وكان السير جون سيمون وزير المالية في حكومة المستر تشمبرلين يتحدث كثيرا عن المصير المؤسف لارصدتنا الدولارية ، ويوجه انظارنا الى ضرورة الحرص عليها ، وكنا على أية حال متفقين على ضرورة الحد من مشترياتنا الاميركية بقدر المستطاع ، وكنا نبدو كما قال مرة المستر بوفيز ، رئيس لجنة المشتريات للمستر ستيتينوس « وكأننا نحيا في جزيرة منقطعة بكمية محدودة من الطعام الذي نحاول الابقاء عليه اطول مدة ممكنة » .

وكان يقصد بهذا اعداد ترتيبات واسعة المدى لزيادة أموالنا ، وكنا قبل الحرب نمارس حريتنا في الاستيراد ، ونُدفع بالعمللة التي نريد ، وعندما قامت الحرب اضطررنا ان نوجد هيئة لتعبئة الرصيد الخاص من الذهب والدولار والنقد الاجنبي ، وان نقف دون تحقيق رغبات ذوي النوايا المنحرفة في تحويل رؤسائهم الى البلاد التي يحسون انها أكثر أمنا من بلادهم ، وان نقلل من قيمة الواردات غير الضرورية وغير ذلك من وسائل الاتفاق الاخرى ، وفضلا عن عزمنا على الابقاء على أموالنا ، كان علينا ان نضمن استمرار الآخرين في قبول عملتنا ، وكانت بلاد الكتلة الاسترلينية معنا ، فهي تحتم سياسة الاشراف ذاتها على النقد التي تحتمها ، وهي تريد التعامل الدائم بالاسترليني ، وقمنا بأبرام عقود خاصة مع الآخرين تلزم بأن ندفع لهم بالاسترليني الذي يقدرّون على التعامل به في أي مكان داخل حدود الكتلة الاسترلينية ، كما

ضمنوا الابقاء على فائض الاسترليني لديهم ، وان يحرصوا في مبادلاتهم على هذه الشروط مع السويد والارجنتين ، ثم ما لبثت ان اتسع نطاقها فشملت بلادا اخرى في القارة وفي جنوب اميركا . وقد تم تنسيق هذه الخطة بعد ربيع عام ١٩٤٠ ، ولا شك في ان مما هو جدير بالثناء وباطراء الاسترليني نفسه اننا استطعنا الابقاء عليه في مثل هذه الظروف القاسية ، وقد قدرنا بهذه الوسيلة على الاستمرار في معاملتنا التجارية مع غالبية البلاد في العالم بالاسترليني ، وأن نبقي على ما لدينا من دولار وذهب ثمين لمعاملتنا الحيوية مع اميركا .

وعندما أصبحت الحرب واقعا مرعبا في أيار ١٩٤٠ ، أدركنا على الفور اننا نشهد ميلاد حياة جديدة للعلاقات الانكليزية الاميركية ، فمنذ ان توليت تاليف الوزارة ، وعهد الى السير كنغزلي بوزارة المالية ، بدأنا نسير في طرق أكثر يسرا ، وهي ان توصي باحتياجاتنا ورغباتنا بغض النظر عن المصاعب المالية المقبلة ، تاركين للالهة الخالدة ان تتولاها بعنايتها ، ولقد كان من الزيف في شؤون الاقتصاد ومن الخداع بالنظر للروية والعقل ان نترك الفرصة للقلق ونحن نواجه معركة حياة او موت ، منفردين ، لا نصير لنا ولا معين ونقع تحت وطأة هجوم جوي مستمر ، ونتعرض لاهوال غزو يذيقنا من ويلاته، ان نترك الفرصة للقلق يستولي علينا من جراء نفاد ارصدتنا الدولارية لدى اميركا . وكنا قد شعرنا بالتحول الكبير في الرأي العام الاميركي وشعرنا بالادراك الجديد الذي سرى لا في واشنطن وحدها بل في جميع ارجاء الولايات المتحدة ، بأن مصير اميركا وثيق الصلة بمصيرنا نحن ، وقضلا عن هذا فقد سرى تيار من العطف والاعجاب ببريطانيا بين صفوف الشعب الاميركي ووصلتنا برفقيات مودة من واشنطن مباشرة ، وعن طريق كندا ، لمسنا في غضوننا التشجيع والمؤازرة ، والاحساس بأن شيئا ما في الافق سيتحقق عن قريب . ولقيت قضية الحلفاء في المستر مورغنتا ووزير الخزانة الاميركية نصيرها وحاميها الذي لا يكل من الذود عنها ، وبسبب ورود الطلبات الفرنسية الينا في شهر حزيران تضاعف معدل اتفاقنا في النقد الاجنبي . زيادة على ذلك اننا رغبتنا من جديد في صنع طائرات ودبابات وسفن تجارية من مختلف الانواع ، وحثنا على انشاء مصانع ضخمة جديدة في اميركا وكندا .

والى شهر تشرين الثاني قد قمنا بدفع الثمن لكل ما وصلنا من اميركا وكنا قد بعنا ما قيمته (٣٣٥) مليون دولار من السندات والاسهم الاميركية التي قمنا بمصادرتها من ذويها في لندن مقابل الدفع بالاسترليني ، وكنا قد

قمنا أيضا بدفع ما يزيد على (٤٥٠٠) مليون دولار نقدا ، وأصبح كل ما لدينا
الفي مليون معظمها في صورة استثمارات غير قابلة للبيع الفوري في الاسواق ،
وظهر أن ليس في وسعنا أن نسير على هذا المنوال ، لأننا انفقنا كل ما في
حوزتنا من الذهب والنقد الاجنبي فلن نستطيع ان ندفع الثمن لنصنف
احتياجاتنا من المصانع الامريكية ، فكيف يكون الامر والحقيقة ان امتداد زمن
الحرب وشمولها يضطرننا الى أن نحتاج من المصانع الاميركية عشرة أضعاف
ما احتجنا اليه الان . وعلينا فضلا عن كل هذا ان نبقى على شيء في أيدينا
لنواجه به مطالبنا اليومية المتجددة .

وكان لوثيان واثقا من أن الرئيس وسستشاريه يفكرون جديا في خير
الوسائل لمعاونتنا ، أما وقد انتهت المعركة الانتخابية ، فقد دقت ساعة
العمل ، وكانت المباحثات دائمة في واشنطن بين ممثل لوزارة حربتنا هناك
السير فريدريك فيلبس - وبين المستر مورغنتاو ، ورغب الى سفيرنا في ان
احرر رسالة مفصلة للرئيس توضح كل أوضاعنا ، وهكذا كتبت بالمشاورة معه
في ذلك اليوم ، الاحد في ديتشلي ، رسالة خاصة الى الرئيس روزفلت ، ولما
كان ينبغي عرض هذه الرسالة على رؤساء أركان الحرب ، ووزارة الخزانة
لدراستها ، ثم توافق عليها وزارة الحرب فانها لم تكن معدة للارسال قبل
رجوع لوثيان الى واشنطن . وتمت الرسالة في صورتها الاخيرة ، ثم ارسلت
بتاريخ ٨ كانون الاول الى المستر روزفلت فورا ، فانتهت - وهي من أهم ما
احرزته في حياتي - الى صديقنا العظيم وهو يمزج عباب البحر الكاريبي على
ظهر البارجة الاميركية « توسكالوزا » مع اصدقائه وخاصته ، وابلغني هاري
هوبكنز ، بعد ذلك وكنت لم أتعرف به بعد ان الرئيس قرأ الرسالة مرارا
على ظهر البارجة وهو جالس على مقعده ، وانه امضى يومين في دراستها ،
الى أن وضحت أمامه مراميها . لقد ظل في أحضان تفكير عميق ، يتمتم لنفسه
في صمت .

ونج عن كل هذا قرار عظيم ، فالقضية لم تكن عدم معرفة من الرئيس
لحقيقة ما نريد ، وإنما كانت في أي الوسائل يجب ان يسلكها لتؤمن بلاده
بالمسير معنا ، وليقتنع الكونجرس بضرورة ما يرى . ويقول ستيتينروس ان
الرئيس كان في اخريات الصيف الماضي قد رأى في إحدى جلسات لجنة
الدفاع الاستشارية في موضوع الموارد الملاحية ان ليس من المحتم ان يبذل
البريطانيون أموالهم . وليس من المحتم أيضا ان يستدينوا منا لهذا الغرض ،
ولكن - مع انه لا يوجد ما يحول دون تنفيذ كل ذلك - في مقدورنا أن نأخذ

الباخرة التي تم صنعها ، وان نؤجرها لهم أثناء استخدامهم لها .
ويظهر انه كان هناك قانون صدر في عام ١٨٩٢ ، يدع لوزير الحربية حرية تأجير ممتلكات الجيش ما دام يرى في ذلك مصلحة عامة بشرط الا يكون الجيش في احتياج اليها مدة خمس سنوات . وكانت هناك حالات طبق الجيش فيها هذا القانون ، وأجر بعض ممتلكاته من حين لآخر .

وهكذا انبثقت فكرة « التأجير » في ذهن الرئيس روزفلت لتلبية احتياجات بريطانيا . بدلا من تقديم قروض غير محدودة ، ربما قد يؤدي ذلك الى درجة يصعب معها الدفع والتسديد ، وسرعان ما انتقلنا من المجال النظري الى المجال العملي ، وظهرت في هذا الزمن الذي اعلن فورا وهو الاعارة والتأجير .

وعاد الرئيس من رحلته في البحر الكاريبي في ١٦ كانون الاول بمشروعه العميق في مؤتمر صحفي عقد في اليوم التالي ، وقد أوضحه في بساطة عندما قال : « لنفرض ان منزل جاري قد شب فيه حريق ، وكنت املك في حديقتي خرطوما طويلا يبلغ اربعمئة قدم او خمسمئة ، وكان في استطاعة جاري اذا منحته خرطومي ان يوصله بصنبور مياهه ويتغلب على النار المشبوبة ، فماذا ترون واجبي في ذلك الحين ؟ انني لن اخاطبه قائلا في مثل هذه الظروف: اسمع يا جاري ، لقد كلفني هذا الخرطوم خمسة عشر دولارا وعليك ان تدفع ثمنه اولا ٠٠ كلا ٠٠ انني لن افعل ذلك ، وانما سأقول له ٠٠ انا لا اريد الخمسة عشر دولارا ولكنني اريد خرطومي بعد ان تخدم الحريق ٠٠ واستطرد قائلا : « لا ريب عند أي أميركي يرى ان أفضل سبل الدفاع العاجل عن أميركا ، هي ان تنتصر بريطانيا في الدفاع عن نفسها ، ولذلك - فضلا عن مصلحتنا التاريخية والحاضرة في المحافظة على الديمقراطية كشيء جوهري - فان في غاية الاهمية - من الناحية الذاتية أيضا - وبالنسبة للدفاع الأميركي ان نبذل كل ما نستطيع لمعاونة بريطانيا في الدفاع عن نفسها ٠٠ » ثم ختم كلمته قائلا : « انني أحاول ان أمحو حاجز الدولار » .

وعلى هذه الاضواء ، تم اعداد مشروع الاعارة والتأجير عاجلا ليعرض على الكونغرس ، وقد وصفت هذا الجهد فيما بعد أمام البرلمان في أحد البيانات قائلا : « اكرم عمل قام به أي شعب في التاريخ » وفي الوقت الذي تمت فيه موافقة الكونغرس على هذا القانون ، تغير الوضع كاملا بصورة عاجلة ، فقد أعطانا القانون الحرية في أن نبرم الصفقات الضخمة بكافة احتياجاتنا تحت رعاية اتفاق الاعارة والتأجير . ولم ينص على إعادة الدفع ، كما لم يكن ثمة حساب رسمي يسجل بالدولار او الاسترليني ، فكل ما نحتاج اليه

يأتينا بالاجارة او الاعارة ، لان مقاومتنا المتصلة لجيروت هتلر ، اعتبرت
اعمالا دفاعية عن مصالح الولايات المتحدة ، فقد قال الرئيس روزفلت ان
الدفاع عن اميركا لا الدولار هو الذي سيعين منذ الان المكان الذي ستتوجه
اليه الاسلحة الاميركية .

وامتدت يد الموت في تلك الساعة الحاسمة الى اللورد فيليب لوتيان ،
فانتزعته من بين جماعتنا ، بعد رجوعه الى واشنطن حيث تسلط عليه المرض
بصورة غير متوقعة ، ولكنه ادى واجبه حتى النهاية وبدون ادنى توقف ،
وتوفي في ١٢ كانون الاول وهو كدبلوماسي مرموق في قمة نجاحه . فكان
موته خسارة لوطنه ولل قضية كلها ، ودمعت عليه عيون الاصدقاء في جانبي
المحيط ، اما أنا وكنت قبل اسبوعين وثيق الصلة به ، كما ذكرت قبل ذلك
بقليل ، فقد كانت وفاته صدمة شخصية لي ، وقد أبتته بخطاب في مجلس العموم
اعظم تأبين ذاكرة له بثناء جم جهوده ومسيرته .

وكان علي ان اوجه اهتمامي قورا لمن يخلفه ، وادركت ان علاقتنا
باميركا في تلك الفترة في حاجة الى ان يكون سفيرنا اليها شخصية بارزة
متمتعة بسمعة قوية خاصة ، فضلا عن الكفاءات التي ينبغي ان يكون حائزا
لها سياسي مطلع على كافة شئون العالم . وبعد ان ضمنت موافقة الرئيس
روزفلت على وجهة نظري رغبت الى المستر لويد جورج في ان يقوم بمهام هذا
المنصب ، وكان المستر لويد جورج قد اعتذر عن تولي منصب في وزارة الحرب
في تموز الماضي كما كانت ظروف سيئة في السياسة البريطانية الداخلية ،
وكانت آراؤه في الحرب والاحداث التي ادت اليها تخالف ما اراه ، وبالرغم
من ذلك لم يكن هناك شك في أنه المرحل في وطننا ، وفي أن كفاياته وخبراته
التي لا نظير لها ستساعده كلها على حمل اعبائه . وقد تحدثت اليه طويلا
في غرفة الحرب في اليوم التالي حول مائدة الغداء ، واستخفه السرور بهذا
التكليف فقال : « انني سأخبر اصدقائي بأن رئيس الوزراء عرض علي عروضاً
مشرفة ، ولكنه كان على ثقة من أن رجلاً في السابعة والسبعين مثله ، ليس
في وسعة القيام بالتبعات الجسام التي يعينها هذا المنصب ، وبعد محادثات
متواصلة معه اتضح لي ان الرجل قد اوهنته الشيخوخة لا سيما في الاشهر
الاخيرة منذ دعوته للاشتراك في وزارة الحرب ، لذلك تنحيت عن اختياري
الاول .

وتنبهت الى اللورد هاليفاكس ، صاحب المقام الرفيع في حزب المحافظين والمكانة التي دعمتها اعماله في وزارة الخارجية ، ولا شك في ان توجه وزير الخارجية الى منصب سفاري يعني اهمية خاصة لهذه البعثة الدبلوماسية التي تحظى برئاسته ، وبالإضافة الى هذا المغزى فان أعماله في سنوات ما قبل الحرب ، والاسلوب الذي سارت به الاحداث في تلك الفترة قد وضعه موضع عدم الاستطاف بل العداء احيانا من جانب العمال في حكومتنا القومية ، وكنت أعرف ان اللورد يدرك هذا جيدا . وعندما عرضت الامر عليه ، الذي لم يكن بالطبع يعني اي ترقية ذاتية ، اكتفى بكلمة بسيطة متعالية تعبر عن استعداداته للخدمة حيث تكون خدماته نافعة ومحتمة . وتأكيذا مني لاهمية بعثته وواجباته رتبت الامور على ان يباشر عمله كعضو في وزارة الحرب عندما يعود في اي اجازة الى الوطن . وقد نجحت في هذا دون صعوبات بفضل ما تنطوي عليه نفوس الشخصيات التي تناولها هذا الترتيب من ذكاء وخبرة وكفاية :

ومكث اللورد هاليفاكس يعمل في ظل الحكومة القومية الائتلافية وخليفته الحكومة العمالية الاشتراكية كسفير في واشنطن مدى ست سنوات في نجاح مستمر لما يقوم به من اعمال ونفوذ تتضاعف يوما بعد يوم . وقد اغتبط الرئيس روزفلت والمستر هل ، وغيرهما من شخصيات واشنطن البارزة ، بتعيين اللورد هاليفاكس ، وسرعان ما عرفت ان الرئيس قد استحسنه عن اختياري الاول ، وبذلك صادف التعيين الجديد رضى وترحيبا في كل من امريكا وبريطانيا ، واعتبر منسجما مع روح الاحداث الجارية .

ولم اكن على حيرة من امري في الشخص الذي سيخلف اللورد هاليفاكس في وزارة الخارجية ، فقد ظلت طيلة السنوات الاربع الماضية متفقا اتفاقا تاما بالنسبة للقضايا الرئيسية مع انتوني ايدن . وقد بينت مشاعر القلق في نفسى عندما تنحى عن صحبة المستر تشمبرلين في ربيع عام ١٩٣٨ وكنا قد امتنعنا معا عن التصويت على اتفاق ميونخ ، ووقفنا معا نقاوم الضغط الحزبي الذي تعرض له كل منا في دائرته الانتخابية في شتاء تلك السنة المؤسفة ، وقد التقينا معا عقلا ووجدانا عند اعلان الحرب وفي خلال مسيرها ، كزميلين ، وكان ايدن قد خصص الجزء الاكبر من حياته العامة لدراسة الشؤون العالمية ، وقولى منصب وزير الخارجية المرسوق فملأه عن كفاية ومقدرة ، واستقسال منه وهو في الثانية والاربعين من عمره لاسباب اذا نظرنا اليها الان بمنظار الحقيقة فسوف تنال تأييد جميع الاحزاب . وقد قام بدور فعال كوزير للحربية في تلك السنة الرهيبة ، وكان تصريحه لشئون الجيش ، قد قرب كلانا

للاخر ، فكنا نتشابه في التفكير ، حتى بدون استشارة او عرض لوجهات النظر ، في كثير من المسائل العملية ، التي تقابلها يوميا ، وكنت بدوري اطمح في زمالة فياضة بالانسجام والتوافق بين رئيس الوزراء ووزير الخارجية ، وقد جنيت ثمار هذه الرغبة ، في خلال السنوات الاربع والنصف التالية ، المليئة بأعمال الحرب والسياسة ، وقد أسف ايدن حينما ترك وزارة الحربية التي كان قد دار في دوامة متاعبها واستثاراتها ، ولكنه عاد الى وزارة الخارجية ، وكأنه رجل يعود الى بيته .



الفصل الحادي عشر

الانتصار في الصحراء

عقدت الهدنة مع فرنسا ، وحدث ما حدث في وهران وانتهت صلتنا الدبلوماسية بفيشي التي انتقلت اليها حكومة المارشال بيتان ، ولكن على الرغم من كل ذلك بقي لى الايمان بوحدتنا مع فرنسا ، واني لاهيب بالرجال الذين لم يواجهوا المحن الشخصية التي دهمت رجال فرنسا البارزين بالنظر الى الدمار المخيف الذي حل ببلادهم ، ان يترفقوا في اصدار حكمهم على هؤلاء الرجال .

وليس من خطة هذا الكتاب ان يخوض مجاهيل السياسة الفرنسية . ولكنني اقرر انني كنت مليئا بالثقة من ان الشعب الفرنسي لن يتوانى عن التضحية بكل ما يستطيع في سبيل هدفنا المشترك على ضوء الحقيقة التي تبين له ، فعندما سمع هذا الشعب ان سبيل خلاصه الوحيد ينحصر في الانقياد لمشورة المارشال المشهور ، وان انكثرا لم تبذل في سبيله الكثير ، ستحتل عاجلا او تستسلم لم ير امامه مجالا للاختيار ، ومع ذلك فقد كنت على يقين من ان جموع الشعب الفرنسي ترجو لنا النصر ، وان اكثر سرورها ان ترى بريطانيا ماضية في القتال دون هوادة . وكان اول واجب علينا ان نوازن بما استطعنا كفاح الجنرال ديغول ، ودفاعه الباسل . فابرمت معه في ٧ آب اتفاقية عسكرية ، تضمنت شتى الاحتياجات العاجلة ، وتوجهت الانذاعة البريطانية بنداءاته الثائرة الى فرنسا والى العالم كله وكان اصدار حكومة بيتان حكم الاعدام عليه ، بمثابة تمجيد لاسمه ، ورفع لشانه وقد قمنا بكل ما نملك لمساندته ، وتوفير الاموال لحركته .

وكان الإبقاء على اتصالنا بفرنسا ، بل فيشي ايضا ، ذات أهمية خاصة في تلك الظروف . لذلك بذلت محاولات متكررة للحصول من رجال فيشي على أكثر ما يمكن ، وقد سرنى كثيرا ارسال امريكا في نهاية ١٩٤٠ بسفير منها الى فيشي من طراز الاميرال ليهي وطبقته ، لصلته المعروفة بالرئيس روزفلت وقد ابدت تشجيعا لرئيس وزارة كندا المستر مكنزي كينج لكي يحرص على بقاء ممثله المسيو دي بوا المشهور بتفوقه الدبلوماسي في فيشي ، فبذلك توجد على الاقل نافذة لنا ، نطل منها على عالم لا سبيل الى رؤية ما فيه دون هذه النافذة . وارسلت في ١٥ تموز مذكرة لوزير الخارجية اخبرته فيها عن رغبتى في تشجيع نوع من التآمر الخفي في حكومة فيشي ، بحيث يذهب بعض اعضائها الى الشمال الافريقي باتفاق مع الاعضاء الآخرين ، للحصول على مساومة افضل ، لفرنسا من الشاطيء الافريقي ، ومن وضع استقلالي احسن وافضل ، وسأستخدم لهذا الهدف سلاح الغذاء وغيره من الامور الحافزة بالاضافة الى المبررات المعتادة . واعتمدت سياستنا دائما على بث الشعور في حكومة فيشي وأعضائها بأن أملنا كبير في احساسهم بالخطأ ومحاولة اصلاح اوضاعهم ، ومهما يكن في الماضي فستبقى فرنسا بالنسبة لنا زميلة السلاح وصديقة الازمات ، ولن يقف شيء - غير انحيازها فعليا في الحرب ضدنا دونها ودون المساهمة معنا في ثمرات النصر . وكان عملنا هذا شاقا على نفس ديجول ، الذي جازف بكل شيء ، لتبقى رايسة الكفاح خفاقه . ولكن لم يكن في وسع القلة القليلة من اتباعه خارج فرنسا ان يزعموا بأنهم يمثلون حكومة فرنسية كافية وقوية ، ومع ذلك فقد قمنا بكل ما في وسعنا لتدعيم نفوذه ، وتوطيد سلطانه .

وكان طبيعيا ان يعارض في أية مداعبة منا لحكومة فيشي ، ويرى بأن الواجب يلزمنا بالوفاء له وحده ، وادرك بأن وضعه تجاه الشعب الفرنسي يحتم عليه ان يتسم بالصرامة والكبرياء في تصرفاته مع بريطانيا الغادرة بغض النظر عن لجوئه اليها كمنفى ، واستناده الى حمايتها واقامته في أرضها .

وكان من الضروري ان يتظاهر بخشونة التصرف مع البريطانيين ، ليؤكد للفرنسيين انه ليس لعبة في يد بريطانيا ولا شك في انه مثل خطته هذه بكل عناء واصرار . وقد برر لي ذات يوم هذا النهج فتفهمت تمام التفهم صعوبة موقفه ، وكنت دائم الاعجاب بقوته الخارقة ، ومهما قامت به فيشي من خير او شر ، فمن المحال ان نتنحى عنه او نثبط همته في استعادة

مستعمرات بلاده ، فضلا عن هذا كله ، صممنا على ان نحول بين اي من اجزاء الاسطول الفرنسي المجرد من سلاحه ، والموجود حاليا في موانئ المستعمرات الفرنسية ، وبين العودة الى فرنسا . ومضت لحظات كانت الخشية تستبد فيها بالاميرالية من ان تعلن فرنسا الحرب علينا ، فتضاعف المصاعب التي نواجهها ولكنني كنت دائم الثقة بأن اصرارنا على النضال وقدرتنا الكافية على الصمود الى آخر الشوط ستوقظ معنويات الشعب الفرنسي الى الدرجة التي يحول فيها بين حكومة فيشي وبين القيام بمثل هذا العمل الشاق . وفعلنا سيطر على الشعب الفرنسي في هذه الآونة ، اعجاب ببريطانيا وشعور قوي بزمالتها ، وظلت آمال الفرنسيين تنمو وتزداد على ممر الايام ، وقد اعترف المسيو لافال نفسه عندما اصبح وزيرا لخارجية بيتان بهذه الحقيقة .

وكان الوضع بالنسبة لاطاليا مختلفا عن ذلك ، فبعد اختفاء فرنسا من ميدان المعركة ، وبعد التحام بريطانيا في هذه المعركة الصيرية ذيادة عن كيانها ، كان من المحتمل ان يرى موسوليني ان حلم سيطرته على البحر الابيض المتوسط ، واعادة تشييد الامبراطورية الرومانية المسابقة ، قد اقترب من التحقق الفعلي ، وصار في مقدوره - بعد ان امن ظهره من الفرنسيين في تونس ان يعزز قواته المحتشدة في ليبيا لغزو مصر ، ولكن وزارة الحرب عقدت عزمها على الدفاع عن مصر ضد كل القوى المعادية ، وبشتى الموارد التي تبقى لديها بعد مستلزمات القتال العنيف الذي يدور في ارض الوطن .

وقد غدت هذه المهمة في غاية الصعوبة عندما اكدت الاميرالية استحالة مرور القوافل العسكرية عبر البحر المتوسط بالنظر الى الاخطار الجوية ، ومعنى ذلك ان تدور وسائل النقل حول رأس الرجاء الصالح ، وهكذا ستنزح من معركة بريطانيا وسائل هي في أمس الحاجة اليها . ومن الغريب اننا في تلك الايام وجميع القائمين بالامر ، نبذو مرجحين هادئين ، مع ان مجرد استعادة هذه الذكريات والكتابة عنها يصيب الانسان بالرعدة وعندما اعلنت ايطاليا دخولها الحرب في ١٠ حزيران ١٩٤٠ ، رأيت اجهزتنا الاستخبارية - وقد ايدت الحقائق بعد الحرب صحة ما رأت - انه - فضلا عن القوات الايطالية المقيمة بالحبشة واريتريا والصومال - يوجد في المناطق الساحلية من شمال افريقيا حوالي ٢١٥١ الف جندي ايطالي بينما وحدتنا في مصر ، لا تزيد عن خمسين الف جندي ، قد فرض عليها ان تقوم بالدفاع عن الحدود الغربية لمصر ، وان تحافظ على الامن في داخل البلاد ، ومن هذا يتضح ان ميزان القوى كان في

صالح الايطاليين ، بالاضافة الى ان عدد طائراتهم يزيد كثيرا عن كل ما لدينا . ونشط الايطاليون في غضون شهري تموز وآب في أماكن عدة ، وتوقعنا خطرا من ناحية كسلا غربا في اتجاه الخرطوم . وساد الرعب في كينيا بسبب حملة ايطالية تزحف من الحبشة ، وقد قطعت حوالي اربعمئة ميل نحو تانا ومدينة نيروبي . واخترقت قوات ايطالية ضخمة الصومال البريطاني ولكن هذا الرعب لم يكن شيئا بجانب ما يترتب من اخطار على غزو الايطاليين لصر ، وهو ما عرفنا انه كان في سبيل الاعداد على صورة شاملة . فقبل قيام الحرب تم تعبيد طريق رائع على طول الساحل من القاعدة الرئيسية في طرابلس بين مقاطعتي طرابلس وبرقة حتى الحدود المصرية . وكنا نرغب على هذا الطريق خلال ما مضى من الاشهر تحركات عسكرية على مدى واسع ، وانشئت في هدوء مخازن ضخمة امتلأت بالمعدات والمؤن في كل من بنغازي ودرنة وطبرق والبرديسة والسلوم . ويزيد طول هذا الطريق عن الف ميل ، انتشرت على طوله الوحدات ايطالية مع معداتها وكانها حبات مسبحة في خيط طويل . وعلى مقربة من حدود مصر ، احتشد جيش ايطالي منظم ، يبلغ تعداداه من سبعين الف جندي الى ثمانين الفا ، وقد زودوا بالمعدات الحربية ، وتجاه هذا الجيش تألقت جوهرة مصر ، ووراءه امتد الطريق الطويل الى طرابلس ومنها طريق البحر الى ايطاليا . فاذا استطاعت هذه القوة - التي تم بناؤها شيئا فشيئا ، ودعمت اسبوعا اثر اسبوع - التقدم شرقا بصفة مستمرة ، مستولية على كل ما يعترض طريقها ، فانها ستكون ميمونة الطالع ، واذا ما وسعها ان تحتل مناطق الدلتا الخصيبة في مصر ، فان شتى متاعها بالنظر الى الطريق الطويل الممتد خلفها ستكون قد انتهت . اما وهذا هو التقدير الثاني اذا لحقها سوء الحظ ، فلن يجد احد من جنودها الا القليلين طريق العودة الى بلادهم ، فثمة في جيش الميدان ، وفي حلقات مراكز التموين الضخمة بطول الساحل كان يقف في خريف ذلك العام حوالي ثلثمائة الف جندي ايطالي ، لن يستطيعوا التراجع غربا حتى ولو هربا من مضايقات جنودنا ، الا على مراحل وبصورة تدريجية ، وهذا يستغرق عدة اشهر . واذا ما فشلت معركتهم على الحدود المصرية ، واذا ما تصدعت وحدة القوات ايطالية ، ولم يجدوا فرصة كافية للتراجع ، فان مصيرها لن يكون سوى الموت او الوقوع في الاسر . ولكن حتى تموز سنة ١٩٤٠ ، لم يكن احد يعرف من الذي سيخرج منتصرا .

وكان مركزنا الامامي الحصين في تلك الاثناء في آخر الخط الحديدي

بمرسي مطروح ، وكانت ثمة طريق ممهدة تمتد غربا الى سيدي برانسي ، ولخن بينها وبين السلوم الواقعة على الحدود لا توجد طريق نستطيع ان نحشد فيها قرب الحدود جيشا كبيرا لفترة طويلة ، وكنا قد اعدنا وحدة آلية صغيرة للتغطية تتألف من امهر الجنود ، وقد صدرت الاوامر لهذه الوحدة بالهجوم على المراكز الايطالية القريبة من الحدود بعد اعلان الحرب مباشرة وبمقتضى هذه الاوامر عبرت قواتنا الحدود في خلال اربع وعشرين ساعة ، وفاجأت الايطاليين بهجومها عليهم بينما هم لم يسمعون بعد بنبا اعلان الحرب . ومن ثم استولت على بعض الاسرى ، وفي الليلة التالية احترت نفس النجاح ، ووضعت يدها في ١٤ تموز على نقطتي الحدود في كابوتزر ومادالينا ، وأخذت حوالي ٢٢٠ جنديا اسيرا . وتوغلت في السادس عشر منه الى مسافة أبعد ، فحطمت اثنتي عشرة دبابة ايطالية وقطعت الطريق على قافلة في طريق طبرق البردية واوقعت جنرالا ايطاليا في الاسر .

ومن هذه العمليات الصغيرة المعبرة عن القوة والانتصار ، احس جنودنا بمدى تفوقهم على العدو وادركوا على الفور انهم بحق سادة الصحراء . وكان في مقدورهم - ما لم تعترض طريقهم جيوش هائلة او حصون منيعة - ان يصلوا ويجولوا حيثما ارادوا ، محرزين الغنائم وأكاليل الغار من المعارك الصغيرة التي يشتبكون فيها . وعندما يقترب جيشان كل من الاخر ، يصبح ذات اهمية بالغة ادراك ايهما يسيطر على الارض التي يقف عليها الجيش او ينام ، ومن يسيطر على كل شيء آخر . وقد جربت بنفسي هذا في قتال البوير ، حيث لم نكن نملك شيئا سوى نيران معسكراتنا ، ووحداتنا الخلوية ، بينما كان البوير يصلون ويجولون في مختلف انحاء البلاد . ووصلت خسائر الايطاليين في الاشهر الثلاثة الاولى الى ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل بينهم سبعمائة اسير ، بينما لم تزد خسائرنا عن مائة وخمسين جنديا . وهكذا كانت بداية المرحلة الاولى من الحرب التي شنتها ايطاليا علينا بداية مليئة بالتفاؤل .



واحسست بالحاجة الماسة لمناقشة الاخطار الداهمة في الصحراء الليبية مع الجنرال ويفل بالذات ، ولم اكن قد التقيت بهذا القائد الماهر الذي يرتبط به مصير كثير من الاشياء . فرغبت الى وزير الحربية القيام باستدعائه لمدة اسبوع كي اتباحث معه عندما تتيج الظروف الملائمة . وقد حضر ويفل في ٨

آب فتباحث طويلا مع اركان الحرب ، ومعى ، ومع المستر ايدن . وكانت قيادة الشرق الاوسط في تلك الاثناء تواجه مجموعة غريبة من المشاكل السياسية والعسكرية والديبلوماسية والادارية بالغة التعقيد ، وقد مر عام تقريبا من الانتصارات والانكسارات لتبدو لي أنا والزملء الضرورة التي تحتم توزيع اختصاصات الشرق الاوسط بين القائد العام ووزير الدولة مع مسئول خاص يصرف شئون التمويل ، وبخض النظر عن عدم موافقتي التامة على وجهات النظر التي أبداها الجنرال ويفل في توجيه الجيوش التي يتولى قيادتها ، رأيت من الافضل ان اعطيه الحرية في تصرفاته ، فقد اعجبت بصفاته الممتازة ، كما كنت مأخوذا بالثقة الكبيرة التي منحها الكثيرون لشخصه .

وعلى هدى مباحثات اركان الحرب ابلغني الجنرال ديل بموافقة ايدن المتحمسة ويقول ان وزارة الحرب بدأت تهيبء الوسائل لارسال حوالي مائة وخمسين دبابة من المدافع عاجلا الى مصر . وكانت العقبة الوحيدة التي تعترضنا هي الطريق الذي تبخر فيه البواخر الحملة بتلك المعدات ٠٠ هل هو رأس الرجاء الصالح أم هو البحر المتوسط ؟ ٠٠ ودار جدل عريض حول هذه المشكلة ، فرأت وزارة الحرب ابحار هذه الوحدة المدرعة ، حتى تصل الى جبل طارق ثم يعاد النظر في قرار نهائي . وظل الاختيار متأرجحا حتى ٢٦ آب ، وبالطبع رأينا الفرصة متاحة لنجمع المعلومات الضرورية عما اذا كان الهجوم الايطالي قد حان ميعاده أم لا ، ولم نضع وقتنا فاجراء عملية نقل الدم هذه في ذلك الوقت الذي نستعد فيه لمواجهة شر مستطير ، تحتاج الى قرار صائب وان كان رهيبا في الوقت نفسه ، ولم يتردد واحد منا في اتخاذ هذا القرار .

كانت السيطرة على البحر الابيض المتوسط قبل انهيار فرنسا موزعة بين الاسطولين البريطاني والفرنسي ، ولكن بعد ان عزلت فرنسا عن الحرب واشتركت فيها ايطاليا ، غدا امامنا اسطول ايطالي ضخم في عدده يؤازره سلاح جوي قوي ، وقد ظهر لنا الموقف في بداية الامر مربعا ، حتى لقد فكرت الاميرالية في الانسحاب من شرق البحر الابيض والتجمع حول جبل طارق . وقد قاومت هذه الفكرة ، لانها بغض النظر عن وجود كل ما يؤيدها نظريا بسبب وجود الاسطول الايطالي العارم ، لا تلتقي مع احساسى الخاص بالمثل الكفاحية والحربية . يضاف الى ذلك ان هذه الفكرة تحكم على جزيرة

مالطة بالموت . وتبعاً لارائي تقرر ان نجابه القتال في جانبي البحر المتوسط ، وكانت المتبعات المنوطة بالاميرالية في ذلك الحين بالغة الاهمية ، فخطر الغزو ما زال ماثلاً ، مما يستلزم منها اعداد اكبر عدد مستطاع من المدمرات والقطع الصغيرة في المانش وبحر الشمال .

وكانت الغواصات التي اخذت في العمل منذ شهر آب من مواني خليج بسكاي ، تفرض ضريبة ضخمة على قوافلنا في الاطلنطي دون ان تصاب بأية أضرار . والى تلك الساعة لم يكن الاسطول الايطالي قد دخل اية معركة تضعه موضع الاختبار ، ولم يكن في مقدورنا ان نعفل عن احتمال دخول اليابان ميدان الحرب . وما يعنيه هذا الدخول من اخطار تهدد كيان امبراطوريتنا في الشرق ، فلا غرو والحالة كما نرى ان يستولي القلق على الاميرالية من جراء فكرة المجازفة ببوارجنا في البحر المتوسط ، وان تتشبهت بأهداب الوسائل الدفاعية في كل من جبل طارق والاسكندرية . أما انا فقد كنت لا اجد سبباً كافياً لنحول بين هذا العدد الهائل من قواتنا البحرية التي خصصناها في البحر المتوسط ، وبين القيام بدور رئيسي منذ البداية . وعلينا ان نرسل الامدادات الجوية والبحرية الى مالطة . وبالرغم من ان قوافل نقلنا التجاري قد اتجهت الى طريق رأس الرجاء الصالح ، وبالرغم من ان البوارج الكبيرة التي تنقل جنودنا الى مصر تتخذ نفس الطريق ، فانني لم اكن مقتنعاً باستمرار هذا البحر مغلقاً في وجوهنا . وقد طمعت في ان يكون اختراق قوافلنا لهذا الطريق وسيلة لاستثارة الاسطول الايطالي وجره الى معركة نختر فيها قوته . وكانت رغبتني تتلخص في ان يجري كل هذا ويتم امداد مالطة بالحامية وبالمعدات والطائرات والمدافع المضادة قبل ان يقدم الالمان الى هذا الميدان ، وهو امر كنت اعمل حسابه . وقد امضيت اشهر الصيف في مباحثات هادئة ولكنها جادة مع الاميرالية حول هذا الاتجاه في نشاطنا الحربي .

وبالرغم من ذلك فقد فشلت في اقناع الاميرالية بأن تمخر الوحدة المدرعة أو سياراتها على الاقل عباب البحر المتوسط ، فاستمرت كل قوافلنا تدور حول رأس الرجاء الصالح . وقد أسفرت لهذا الموقف بل غضبت منه ، ولم تحدث اية واقعة خطيرة في مصر وبقينا ممسكين بالرغم من وجود سلاح الطيران الايطالي بزماء المبادرة ، كما ظلت مالطة في مقدمة الحوادث كقاعدة امامية لشن هجومنا على المواصلات الايطالية مع القوات المربطة في افريقيا .

ويظهر ان القلق الذي اعترانا من غزو ايطاليا لمصر كان - كما بدا لنا الآن - اقل من القلق الذي احاط بنفس الماريشال غرازياني قائد الغزو ، فقبل بضعة ايام من الموعد المتفق عليه طلب الماريشال تأجيله شهرا كاملا فرد عليه موسولينى مهددا بالاقالة من منصبه اذا لم يباشر بالهجوم يوم الاثنين ، فرد الماريشال عليه بأنه سيمتثل للأمر ، وكتب تشيانو في مذكراته « ولم يحدث ابدا ان وقعت عملية حربية مثل هذه رغما عن مشيئة قائدها » .

وبدأت القوات الايطالية زحفها الرهيب على الحدود المصرية في ١٣ آب مكونة من ست فرق المشاة ، وثمانية افواج من الدبابات . وكانت جيوشنا المواجهة تتألف من ثلاثة افواج من المشاة وفوج من الدبابات وثلاث بطاريات وسريتين من السيارات المدرعة . وقد اصدرنا اليها امرا بالاشتباك مع العدو في قتال انسحابي . وهي طريقة تجيدها قواتنا لما تتسم به من شجاعة ولما اكتسبته من خبرات في حرب الصحراء . وبدا الهجوم الايطالي بفتح نيران المدفعية على مراكزنا قرب مدينة السلوم على الحدود ، وعندما انكشف الغبار والدخان . تجلت القوات الايطالية مصطفة في نظام بديع . ففي المقدمة راكبو الدراجات النارية في تنظيمات متقنة تمتد من الجناح الى الجناح ، ومن المقدمة الى المؤخرة ، وتليهم الدبابات الخفيفة ثم عدد من السيارات المصفحة في صفوف منتظمة ايضا . وعلق ضابط بريطاني على هذا المنظر فقال انه كان اشبه بحفلة عيد ميلاد في الوادي المسيح في الدرشوت . واسرع فوج حرس غولد ستريم الثالث الذي كان امام الجيش المغير بالانسحاب بينما تقاضت مدفيعتنا ضربيتها من هذه المائدة المعروضة امامها بسخاء .

وتحرك الى الجنوب فوجان كبيران من افواج العدو عبر الصحراء المكشوفة جنوبي الروابي الممتدة بمحاذاة البحر ، والتي ليس في المقدور اختراقها الا عند « حلقايا » او ما يعرف « بممر نيران جهنم » ، وهو ممر ادى دورا فعالا في معاركنا المقبلة كلها . وكان كل فوج منهما يتكون من عدة مئات من السيارات تساندها الدبابات والمدافع المضادة لها والمدفعية التي تظهر في المقدمة ، ثم المشاة في الوسط حيث تقلهم السيارات وكنا نسمي هذا التنظيم الذي شاهدناه كثيرا باسم « القنفذ » وامام هذا العدد الهائل تراجعت وحدتنا مستقلة كل قرصة لتغير على العدو الذي بدت الحيرة والاضطراب في كل تصرفاته . وقد قال غرازياني فيما بعد انه غير خطته في الآونة الاخيرة التي كانت تعتمد على القيام بتطويق صحراوي الى « تركيز القوات جميعا في الجناح الايسر ، ثم شن هجوم صاعق كالبرق على طول الساحل في اتجاه سيدي

براني « . وعلى هذا الاساس زحفت الجموع الإيطالية الضخمة الى الامام ببطء في خطين متوازيين على الطريق الساحلي وكانوا يحشدون للهجوم مجموعات من المشاة تنقلهم السيارات ، تتقدم نحو الامام في وحدات عدد كل منها حوالي خمسين جنديا واستمر حرس غولد ستريم في انسحابه وعلى مهل لمدة اربعة ايام من السلوم الى مواقع متلاحقة ، منزلا بالعدو الاضرار الفادحة اثناء انسحابه .

وعسكرت القوات الإيطالية في سيدي براني يوم ١٧ ايلول ، وبلغت خسائرها اربعين رجلا بين قتيل وجريح ، بينما نزل بالعدو من الاضرار ما يقدر بعشرة اضعاف هذا العدد ، فضلا عن تدمير حوالي مائة وخمسين سيارة . ورأى الإيطاليون بعد ان امتدت بهم سبل المواصلات ستين ميلا اخرى ، ان يجمعوا قواهم وان يربطوا في مكانهم الاشهر الثلاثة القادمة ، ولكنهم لم يعفوا من الهجمات المستمرة التي كانت تشنها جماعاتنا الصغيرة المتحفزة ، وقد واجهوا اقصى المتاعب بشأن مستلزمات الصيانة ، وكان موسوليني في بداية الامر قد « اهتز سرورا » ، ولكن لما بلغت الاسابيع شهورا بدا زهوّه يخف فتأكدنا في لندن اننا في الشهرين او الثلاثة القادمة سنواجه قوات ايطالية هائلة اضخم من كل ما نقدر على تجنيده لتواصل التقدم بغية احتلال الدلتا . وهناك أيضا تهديد الخطر الألماني فقد يدهمنا في اية لحظة ، ولم يكن بالطبع يدور بخلدنا ان فترة التوقف لزحف غرازياني ستطول الى هذه المدة كما دار بخاطرنا احتمال حدوث معركة حاسمة في مرسى مطروح ، وهو شيء معقول في وسط هذه الظروف . وقد استطعنا ان نستغل هذه المدة ، فوصلت دباباتنا الثمينة التي دارت حول رأس الرجاء الصالح ، دون ان يسبب لنا طول مدة دورانها اية خسائر .

وعندما ارجع بذاكرتي الى كافة هذه المشقات ، اتذكر قصة الرجل العجوز الذي حانت منيته فباح على فراش الموت بأنه واجه في حياته كثيرا من المتاعب ، بينما لم تكن في حياته اية متاعب .

وأرى ان هذه القصة تنطبق تماما على الحالة التي مررتُ بها في ايلول عام ١٩٤٠ . فلقد انهزم الألمان في غاراتهم الجوية على بريطانيا ولم تحدث اية محاولة لغزونا من البحر . ثم تحول هتلر بعد ذلك بنظراته الذميمة الى الشرق ، وعوق الغزو الإيطالي لمصر ، ووصلت وحدة الدبابات التي ارسلناها عن طريق رأس الرجاء الصالح في موعدها المناسب ، لا لتشارك في معركة

دفاعية عن مرسى مطروح ، بل لتخوض عملية اخرى كانت اكثر نفعا واعظم فائدة .

وقد وفقنا الى الوسائل المطلوبة لتعزيز الدفاع عن مالطة قبل ان يحاول الاغارة عليها احد . وفي كل مراحل هذه الفترة جينت كل القوى عن التعرض لهذا الحصن البحري . وعلى هذا النحو سضى شهر ايلول .

واخذ موسوليني الآن يقوم بحركة جديدة كانت في مجال احتمالاتنا . وقد اثارت لنا ، نظرا لمشاكلنا العديدة ، كثيرا من الصعوبات المفاجئة ، والنتائج البالغة الاثر بالنسبة ليدان الحرب في البحر الابيض المتوسط . فقد اصدر الدوتشي اوامره بشن هجوم على اليونان في ١٥ تشرين الاول ١٩٤٠ ، وقبيل فجر ٢٨ وجه وزير ايطاليا المفوض انذارا حاسما الى الجنرال متيكاس رئيس الوزراء اليوناني ، يطلب فيه موسوليني فتح الحدود امام الجيوش الايطالية ، وفي الوقت ذاته زحف الجيش الايطالي من البانيا على اليونان من عدة اماكن ، فقابلت الحكومة اليونانية هذا الطلب بالرفض . وكانت جيوشها على اهبة الاستعداد في الحدود ، وطالبتنا بتنفيذ التعهدات التي سبق ان ضمنها لها المستر تشمبرلين في ١٣ نيسان سنة ١٩٣٩ ، وكان من الطبيعي ان نحترم وعودنا ، وقد رد جلالة الملك استجابة لمشورة حكومته ، وبالأصالة عن رغبته العميقة على برقية ملك اليونان قائلا : « ان قضيتنا واحدة وسنقاتل معا ضد عدونا المشترك » وارسلت الى الجنرال متيكاس في اثناء ردي على رسالته أقول : « سنبدل من اجلكم كل ما في وسعنا ، وسنحارب العدو المشترك كما سنحز النصر متحدين » . ولقد قمنا بهذه التعهدات بعد قصة طويلة من الكفاح .

ولم يكن في مقدورنا ان نرسل الى اليونان باكثر من بضعة اسراب من الطائرات ، وبيعة بريطانية ، ومجموعة رمزية من القوات . وعلى الرغم من ضالة هذه المعاونة فقد كنا نحس بالالم ونحن ننقصها من حساباتنا في العمليات الحادة الرهيبة التي بدأت تواجهنا في صحراء ليبيا . ووضحت لعيوننا نقطة استراتيجية بالغة الاهمية وهي كريت ، التي يهيب بنا الواجب الاندح الايطاليين يحاولون احتلالها ، ولذلك فمن الضروري ان نحثلها نحن اولا . وعلى الفور وكان المستر ايدن لحسن حفظنا موجودا في تلك الاثناء بالشرق الاوسط فتم لي بذلك وجود الوزير الزميل الذي يسعني تصريف هذا الشأن

معه ، فأبرقت اليه • وعلى الفور قامت قواتنا بدعوة من الحكومة اليونانية باحتلال خليج سودا ، وهو خير موانئ الجزيرة وأكثرها صلاحية •
ولا شك في ان قصة خليج سودا تثير كثيرا من الاسى ، لكن المأساة لم تحدث الا عام ١٩٤١ ، ويقيني انه توفر لي التصرف الكامل لشئون الحرب مثلما توفر لاي رجل مسئول في أية بلاد غير بلادنا في ذلك الحين ، فقد ادت خبرتي لحقيقة الاشياء ، وايمان زملائي في وزارة الحرب ، وتآزرهم المخلص معي وتعاون جميع زملائي وصلاحية جهازنا الحربي المتطور على الدوام ، ادى كل ذلك الى تركيز جميع السلطات في يدي • ومع كل هذا فقد كان العمل الذي قامت به قيادة الشرق الاوسط دون ما امرت به ودون ما كنا نطمح الى تحقيقه ، ولكن لعلنا لم ننس بعد حدود الطاقة الانسانية ، فقد دارت عمليات في اماكن كثيرة في وقت واحد • وبالرغم من ذلك فانه ما زال يحيرني حتى الآن عجزنا عن ان يكون خليج سودا هو الحصن البرمائي لكل ما تمثله قلعة بحرية مثل جزيرة كريت •

كان هجوم ايطاليا على اليونان من البانيا ، صفقة جديدة للدوتشي ، فقد اندحر الهجوم الاول بعد ان تكبد اضرارا جسيمة ، ومن ثم قام اليونانيون على الفور بهجوم مضاد ، وظهر الجيش اليوناني تحت قيادة الجنرال باباغوس ضروبا من المهارة الفائقة في حرب الجبال فتفوق على عدوه في مجال المناورة وحركات الالتفاف • ولم تات نهاية العام حتى كانت بسالته قد حملت الايطاليين على الانسحاب الى مسافة ثلاثين ميلا على طول الجبهة ، خلف حدود البانيا • واستطاعت ست عشرة فرقة يونانية فرض عدم التحرك على سبع وعشرين فرقة ايطالية لاشهر عديدة خلف حدود البانيا •

وبانتشار انباء هذه المقاومة الباسلة ، دبت الحماسة والشجاعة في نفوس الدول البلقانية الاخرى كما انهارت على اثرها سمعة موسوليني • لكن القصة لم تقف عند هذا الحد ، - فقد عاد ايدن الى وطنه في تشرين الثاني ، وقدم في نفس الليلة ليراني بعد بداية الغارات الجوية المعتادة • وكان يطوى سرا حرص الا يبوح به لاحد ، وكنت اود لو عرفته من قبل ، وتحدث ايدن كثيرا لي ولبعض صحبه المختارة ومنهم رئيس اركان حرب الامبراطورية ، والجنرال اسماي • وشرح بالتفصيل مشروع خطة هجومية وضعها الجنرال ويفل والجنرال ويلسون ، تقضي بالا نضل في اماكننا بمرسي مطروح ننتظر

الهجوم الايطالي المتقرب - وقد أعدنا لصدّه كل الوسائل الدفاعية الممكنة - بل نبادر نحن في خلال شهر أو نحوه بشن هجوم على العدو .

وانتشينا لهذا النّبأ المثير ، فقد وقعنا على عمل يستحق التنفيذ . وأخذنا القرار فوراً بعد ان صدق عليه رؤساء اركان الحرب ، ووزراء الحرب - بالموافقة على الخطة واعداد كل مستلزماتها . وكنت مستعداً عندما عرضت الخطة على وزارة الحرب لتوضيح الامور ، ولكن عندما بلغ الزملاء ان قادة الميدان العسكريين ، ورؤساء اركان الحرب قد تم اتفاقهم معي ، ومع المستر ايدن بهذا الصدد ، اثر الزملاء عدم الاطلاع على تفاصيله ، حيث رأوا خير له وابقى ان تظل معرفته بين عدد محدود . وأعلنوا تأييدهم التام لفكرة الهجوم بصورة عامة ، وكان هذا التصرف مثلاً لتصرفات عديدة قامت بها وزارة الحرب في عديد من المناسبات . واني لأبادر بتسجيله هنا ليكون سابقه تحذري فيما اذا تعرضنا في المستقبل لظروف مماثلة .



وقد جد تحسن واضح في موقف قواتنا في البحر الابيض المتوسط بالرغم مما يبدو من تفوق الاسطول الايطالي على اسطولنا الرابط هناك في عدد جنوده ومن الناحية النظرية . وقد استطاعت البارجة « فالينانت » وحاملة الطائرات المدرعة « ايلستريوس » وطرادان مضادان للطائرات اختراق البحر الابيض المتوسط في سلام ، وتعضيد قوات الاميرال كينجهام في الاسكندرية . وقد ظلت هذه القوات تحت مراقبة سلاح ايطاليا الجوي ، ومعرضة لهجمات ٠٠ لكن ٠٠ « الالستريوس » بطائراتها الحديثة الحاربة ، وجهاز رادارها الجديد وبدورياتها المقاتلة وطائراتها المغيرة تمكنت من ان تضيف صفة السرية على تنقلاتها ، وكانت هذه الصفات الممتازة قد جاءت في الوقت الذي نريد .

وكان الاميرال تستبد به الرغبة منذ زمن بعيد الى انزال ضربة قوية بالاسطول الايطالي الرابط في قاعدته الرئيسية في تورنتو . وقد وقع الهجوم في ١١ تشرين الثاني كقمة لعمليات حربية متتابعة وشديدة الاحكام ، وتقع تورنتو في كعب ايطاليا فتبعد عن جزيرة مالطة حوالي ثلاثمائة وعشرين ميلاً ، ومينائها البديع محصن تماماً ضد كافة ألوان الهجوم الحديثة . وبوصول بعض طائراتنا الاستكشافية السريعة الى مالطة استطعنا ان نحصد بالضبط مكان الفريسة ، وبعد الغسق بقليل اطلقت طائرات « الالستريوس » من مسافة يبلغ بعدها مائة وسبعين ميلاً عن تورنتو ، واحتدم القتال زهاء ساعة بين

الحرائق المشتعلة والدمار الذي نزل بقطع الاسطول الايطالي ، وبالرغم من قوة نيران المدافع المضادة فان ما لحق بنا من اضرار لم يزد عن طائرتين سقطتا في البحر ، أما بقية الطائرات فقد عادت الى قواعدنا سالمة .

وبهذه الضربة القوية تبدل ميزان القوة البحرية في البحر الابيض بصورة نهائية . فقد اوضحت الصور الجوية ان بوارج ثلاثا من بينها البارجة الحديثة « ليتوريو » قد اصبحت كما اصاب طراد اخر ، حلت بظهره اضرار فادحة . وهكذا اصبحت نصف الاسطول الايطالي على الاقل عاجزا عن الحركة لمدة ستة اشهر . وكان في مقدور سلاح الاسطول الجوي ان يهتز طربا لاستطاعته بهذه المجازفة الرائعة استغلال الفرصة النادرة التي سنحت له .

ولعل من سخرية المقادير ، ان كان السلاح الايطالي ، انصياعا لاوامر موسوليني في نفس اليوم الذي شهد هذه الضربة القاصمة يجرب الهجوم الجوي على بريطانيا العظمى . فقد شاءت قوة من القاذفات الايطالية توازرها حوالي ستين طائرة محاربة الهجوم على الحلفاء في ميدواي ، فاشتبكت معها مقاتلاتنا وقضت على ثمانين قاذفات وخمس مقاتلات ، وكانت هذه هي التجربة الاولى والاخيرة من جانب ايطاليا بالنسبة للتدخل في شئوننا الخاصة . ولا شك في انهم عرفوا بعد ذلك ان الدفاع عن اسطولهم في تورنتو كان خيرا لهم وابقى .

وامضت قواتنا التي بات عليها ان تقوم بعملية هجوم الصحراء مدة شهر تقريبا في تدريبات خاصة ، يتطلبها هذا الهجوم المعقد لدرجة كبيرة . ولم يكن احد يعلم بتفاصيل الخطة سوى عدد قليل جدا من الضباط ، كما لم يحرر شيء خاص بها على اي ورقة ، وفي السادس من كانون اول زحف جيشنا المدرع بخمسة وعشرين الف جندي . كل منهم لوحته ووجهة شمس الصحراء وتركت على عوده صلاية طبيعتها الصارمة ، فاشتد عوده وانفتحت عضلاته ، زحف الجيش بهم مسافة اربعين ميلا ثم اختفى في الصحراء عن عيون السلاح الجوي الايطالي . وفي الثامن من الشهر نفسه استأنف زحفه الجريء وفي تلك الليلة ، قيل للجنود ، للمرة الاولى ، انهم الان لا يمارسون تدريبا صحراويا ، ولكنهم يقومون بعملية حية . وفي فجر ٩ كانون اول بدأت معركة سيدي براني ، ولا اجد داعيا للكتابة عن تفاصيل القتال الكثيرة والدقيقة معا ، الذي ظل يدور في خلال الايام الاربعة التالية على ارض واسعة تكاد تماثل مقاطعة يوركشاير بكل اتساعها . ومر كل شيء في نظامه الذي قدرته الخطة الموضوعية . وتواصلت المعركة طيلة اليوم العاشر ، وفي الساعة

العاشرة ابرقت قيادة فوج حرس جولد ستريم تقول انه تعذر عليها احصاء عدد الاسرى لكثرتهم البالغة ، ولكن ثمة « ما يملأ خمسة اقدنة من الضباط ومائتي قدان من الجنود » وكانت تصلني في داوننج ستريت انباء القتال لحظة بعد اخرى . وكان من الصعب علي ان استوعب ما يحدث ، ولكن الموقف كان يملا شعوري بالرضا والارتياح . وقد لفتت نظري اشارة من ضابط شاب كان يقود دبابة بالفرقة المدرعة السابعة قال فيها : « لقد وصلت الى يقيب » وتم الاستيلاء على سيدي براني في اليوم العاشر بعد الظهر وفي ١٥ كانون اول كان جيشنا قد نفى عن ارض مصر تماما جميع القوات المعادية وكانت البردية غابتنا الثانية ، وفي محيطها الذي يبلغ سبعة عشر ميلا ، الجزء الاكبر من اربع فرق ايطالية اخرى ، وتتكون الخطوط الدفاعية عنها من خندق ممتد لمقاومة الدبابات وراه اسلاك شائكة تستند الى بيوت من الاسمنت المسلح قائمة هنا وهناك ، يكمن وراء خط اخر من الحصون . وكان اجتياح هذا الحصن يستلزم عددا كبيرا من المقاتلين . ولاتمام الحديث عن انتصارنا في الصحراء ارى ان استمر في سرد احداث السنة الجديدة ففي ٣ كانون ثاني استطاعت فرقة استرالية تحت حماية المدفعية الشديدة انتزاع موقف لها في القطاع الغربي ، وبدأ مهندسوننا محتمين بالاستراليين يغلزون الخندق المضاد للدبابات ، واستمرت كتبتان استراليان في الاشارة الناجحة في اتجاه الشرق والجنوب الشرقي ، وفي خلال زحفهم كانوا يتغنون بلحن من الحان الافلام الامريكية ، نال شهرة في تلك الآونة في سائر البلاد حتى في بريطانيا ايضا ، وهو يتعلق « بساحر اوز » . وعندما اصغى الى هذا اللحن اليوم تطوف بي ذكريات تلك الايام المفعمة بالاحداث . واستطاعت الدبابات البريطانية بعد ظهر ٤ كانون ثاني اقتحام البردية تؤازرها قوة من المشاة ، واستسلمت حاميتها في ٥ من الشهر نفسه ، وكان عددهم خمسة واربعين الفا ، اسروا جميعا ، كما استولت قواتنا على ٤٢٦ مدفعا .

وفي اليوم التالي اى ٦ كانون ثاني تم حصار مدينة طبرق ، ولم يكن في المستطاع مهاجمتها قبل ٢١ كانون ثاني ، ولكنها استسلمت في صباح اليوم التالي . وانتهت مقاومتها وغنمنا فيها ٢٣٦ مدفعا عدا ثلاثين الفا في الاسر . وهكذا استطاع جيش الصحراء في ستة اسابيع ان يزحف مائتي ميل في ارض جرداء خالية من الماء والزراعة واستطاع الاستيلاء على ميناءين قد حصنا تحصينا كاملا ضد البر والبحر والجو ، واسر (١١٣) الفا واستولى على اكثر من سبعمائة مدفع ، وتهاوى الجيش الايطالي الضخم الذي كان

قد زحف على مصر ، وداعبته الآمال في الاستيلاء عليها ، وسقط من الحساب كقوة عسكرية • وكانت مصاعب التموين والامتداد الهائل للمسافات هي الاسباب الرئيسية لتأخير زحف قواتنا نحو الغرب •

وهكذا ، كان العام يقترب من نهايته ، والصورة أمامنا تتنازع جوانبها مختلف الاضواء والمظلال في وقت واحد • فنحن لم نزل احياء ، وقد استطعنا انزال الهزيمة بالسلاح الجوي الالمانى ، ورددنا الغزاة من بلادنا مدحورين • وأصبح جيشنا في الوطن في منتهى القوة والتفوق • ولم تستطيع كل المحن ان توهن من عزيمة لندن الصامدة ، وبدأنا نسيطر تماما على سماء جزيرتنا بكافة الامكانيات • لكن همسات الشيوعيين القذرة خضوعا لاوامر مرسكو ظلت تتردد على الاسماع ، عن الحرب الاستعمارية الرأسمالية ، ثم تموت على شفاهم ، فالمصانع تفيض بالحياة ، والشعب بأكمله يعمل ليل نهار ، وقد ارتفعت روحه المعنوية ، وتدفق في كيانه احساس بالارتياح والاعتزاز ، وبدأ نصرنا النهائي ، في صحراء ليبيا قريبا ، كما بدأت الولايات المتحدة تقترب شيئا فشيئا من واجبها الحقيقي وهو الاشتراك الفعال معنا •

وفي مقدورنا ان هذه السنة المجيدة نادرة بمكاسبها ، كما كانت مروعة بأحداثها ، ولعلها اروع وأرعب السنين في تاريخ انكلترا بأكمله • فلقد حطمت بريطانيا العظمى بمهارتها الخاصة الارمادا الاسبانية ، وخاضت غمار الصراع الذي استمر زهاء خمسة وعشرين عاما ، والذي خاضه ويليام الثالث ووزيره مارلبورو ضد لويس الرابع عشر ، فظلت طيلة هذه المدة تشتعل في صدرها حمية العزيمة والاصرار ، كما اقتحمنا حلبة الصراع ضد نابليون • وكنا ندين ببقائنا لسيطرة الاسطول البريطاني على البحار ، بفضل القيادة الماهرة لنيلسون ورفاقه ، كما قتل مليون بريطاني في الحرب العالمية الاولى • ولكن كل هذه المحن التي نذقنا احوالها لم تكن شيئا بجانب ما قاسينا في عام ١٩٤٠ •

وبرغم ذلك لم تأت نهاية العام حتى كانت الدنيا تشد هذه الجزييرة الصغيرة العريقة ، بجميع شعوبها المؤمنة بها ، وبممتلكاتها المستقلة ، وعلاقاتها الناجحة تحت كل سماء ، وقد اكدت انها قادرة على تحمل كل ما يأتي بمصير العالم من اعباء وترهات • ولم يعرف الضعف والتخير سبيله الينا • بل ظلت روح الشعب البريطاني ، والعنصر البريطاني في قوة لا تغلب ، وبرهن حصن جامعة الشعوب البريطانية والامبراطورية على انه لا سبيل الى اقتحامه • وقررنا وحدنا - بتأييد كل القلوب الكريمة الطيبة - ان نتحدى الطاغية وهو في قمة غروره وانتصاراته •

واستيقظت الآن جميع طاقاتنا الفعالة ، فقد تمت سيطرتنا على الارهاب الجوي ، واصبحت الجزيرة حصنا لا يمس ولا يمكن تدنيسه ، ومنذ الآن سيتوافر لنا السلاح . ومنذ الان سنكون نحن جهازا حربيا ماهرا ، فقد عرف العالم كله أننا نعرف كيف نصمد ، فثمة نظرتان لموضوع السيطرة الهتلرية على العالم ، فبريطانيا التي كان لا يعبأ بها الكثيرون ، ما زالت في الميدان ، أضخم مما كانت عليه في اي زمن مضى ، وهي يوما بعد يوما تزداد قوة وصلابة ، وما هو عامل الزمن يتحرك ثانية الى صفنا ويدعم مصالحننا ، لا اقصد مصالحننا القومية فحسب ، فأميركا تدعم أسلحتها بصورة عاجلة ، وتقترب شيئا فشيئا من حلبة الصراع وروسيا السوفياتية - التي اصدرت حكمها الخاطيء علينا بعدم الصلاحية ، والتي تساومت مع المانيا لتكسب مناعة عابرة وتحصل على نصيب من الغنائم - اخذت الآن تستكمل قوتها واستطاعت غرس اقدامها في مواقع امامية لتؤمن على نفسها . اما اليابان فربما تكون في هذه الفترة فريسة شعور جارف بالخوف من استمرار الحرب ، وهي تنظر بقلق الى روسيا والى امريكا وتقوم بدراسات واسعة لما تعتقد انه سيكون في صالحها ، ومتفقا مع دواعي العقل والحكمة . وما هي بريطانيا بعلاقاتها الدولية الشاملة والتي ظهرت وكأنها على حافة الدمار ، والسيف المصلت يكاد ان يمزق احشاءها تظل صامدة خمسة عشر شهرا . وقد وجهت كل جهودها للاعداد الحربي ، تدرب الرجال وتحشد للمعركة كل ما لديها من كفاءة وجهود ، ونظرت الدول الصغيرة المحايدة والدول المستعمرة الى السماء ، فرأت فيها نجوما لا تزال متألقة فهزتها الدهشة والسعادة معا . واستيقظ الرجاء والعطف معا في قلوب مئات الملايين من البشر ، فستنتصر قضية الخير ، ولن يذهب الحق هباء تحت اقدام الطغاة ، وستظل راية الحرية - التي يمثلها في ذلك الحين علم بريطانيا - عالية خفاقة مهما عصفت الرياح واشتدت الانواء .

اما من ناحيتي انا وزملائي الاوفياء ، الذين نحيا في ذروة الصورة ، تصلنا ادق المعلومات عن كل شيء ، فقد نازعنا كثيرا القلق ، وانتابتنا الهموم ، فمازال خطر حصار الغواصات ماثلا ، وعلى القضاء على هذا الخطر تستند كل خططنا ، وقد خسرنا معركة فرنسا ، ولكننا ربحنا معركة بريطانيا ، وكان علينا في ذلك الحين ان نخوض غمار معركة الاطلنطي .

الفصل الثاني عشر

الحرب المتسعة

توثقت صلتني مع الرئيس روزفلت مع بداية السنة الجديدة وكنت قد ارسلت اليه تهنئتي بمطلع العام الجديد ، وفي ١٠ كانون ثاني ١٩٤١ حضر الى داوونج ستريت انسان لطيف ومعه اوراق الاعتماد يرغب في لقائي . وكانت البرقيات من واشنطن قد اخبرتنا ان هذا الرجل يعتبر ممثلا خاصا موثوقا به للرئيس . ومن اجل هذا فقد رغبت ان يستقبله السيد براندن براكن في المطار . وفي اليوم التالي دعوته لتتناول الغداء معا ، وكذا التقيت بالرجل القدير هوبكنز الذي ادى دورا هاما في جميع شئون الحرب . وكان روحا نابضة بالحيوية في جسد نحيل واهن ، وكان منارة تكاد ان تهوى ولكنها ترسل ضوءها الساطع الذي يهدي الاساطل الضخام الى مرساها الامين . وكان يتسم بروح من الدعابة الساخرة ، وكثيرا ما رغبت في صحبته وخصوصا عندما يسوء الموقف ، ولقد كان في مقدرته ايضا ان يتخلى عن الرقة والدمائة وان ينطلق في كلمات قلبية جارحة ، وكانت خبراتي قد هدتني الى ان اكون واحدا من هذا النوع عندما تحتم الظروف .

ودام اجتماعنا الاول ثلاث ساعات ، وبسرعة توصلت الى مميزات شخصيته الديناميكية ، وما يتعلق بها من المهام . وكنا في اقصى فترات الهجوم على لندن ، بينما تنهال علينا المتاعب من الداخل كذلك ولكن تبين لي ان هذا الرسول الخاص من الرئيس ، ذو اهمية عظيمة لحياتنا ومصيرنا ، وقال لي وعيناه تتالقان والهدوء والتحفظ يغلف حديثه : ان الرئيس مصمم على ان

نكسب الحرب معا فأرجو ان لا تخطيء في تفهم حديثي حين أقول :

« لقد ارسلني هنا لآخبرك بأنه مهما تفاقم الثمن ، وأيا كانت الوسيلة ، فسيظل يؤازركم حتى النصر ، وبالرغم من أي مصير شخصي يواجهه فلن يتوانى عن تقديم كل عون في وسع الطاقة البشرية ان تقدمه حتى تبلغوا غايتكم »

ولا شك في ان كل من عرف هاري هوبكنز في مدى سني الحرب يرسم الصورة التي قدمتها عن شخصيته . ومنذ التقينا بدأت تنمو الصداقة بيننا ، وتسمو على كل الانفجارات والزلازل ، ولقد كان اضمن وأقرب وسيلة للاتصال بالرئيس ، فلقد ظل هذا الرجل لسنوات عديدة موضع السر والثقة للرئيس روزفلت ، وباعث الامل الذي يحفزه ويشجعه . واستطاع هذان الرجلان - واحدهما مساعد بدون منصب رسمي ، والاخر يتولى مهام منصب الرئاسة - اتخاذ القرارات ذات النتائج الخطيرة بالنسبة لكافة البلاد التي تتحدث اللغة الانجليزية . وكان هوبكنز بكل تأكيد يحتفظ بنفوذه الشخصي على الرئيس ولذلك لم يكن يتيح الفرصة لظهور أي منافس له في صفوف الأمريكيين . ولقد يصدق عليه قول الشاعر جراي : « ان المقرب لا صديق له » ، ولكن هذا لا يهمني ، فها هو يبدو امام عيني نحيلًا هزيلًا واهنا ، ولكنه ينبض بالفهم العميق لمشاكلنا . ومحور هذه المشاكل كما يتفهمها يتلخص في اندحار هتلر وتدمير هذبه فضلا عن عدد اخر من الاماني والاهداف . ولا شك في ان تاريخ اميركا لم يعرف الكثيرين من طراز هذا الرجل النادر الفياض بالاخلاص .

وكان هاري هوبكنز يستشف دائما اعماق القضايا ، ويصل الى جذورها . وقد حصرت عددا من المؤتمرات التي كان يشهدا حوالي عشرين او اكثر من الشخصيات الكبيرة صاحبة السلطة . وعند ما تمتد المحادثات وتتهادى ، ويصل الكثيرون الى طريق الصواب ، كنت اجد هوبكنز يسأل الرئيس دائما بصراحة وعناد : « حسنا يا سيدي الرئيس ... هذه هي المسألة التي تحتاج الى حلنا وقرارنا ، فهل نحن اولا على اهبة الاستعداد لمواجهتها ؟ » والنتيجة الضرورية لذلك هي مواجهة المشكلة ، ومعنى ذلك حلها والسيطرة عليها ، لقد كان قائدا عظيما للرجال ، ولم يكن احد في مقدوره التفوق على حماسه وحكمته حين الازمات ، وكان ولاؤه للضعفاء والفقراء يسير جنبا الى جنب مع مقتته الشديد للطغيان ، ولا سيما عندما يبدو هذا الطغيان في موقف المنتصر .

واستمر الهجوم الجوي المدمر علينا بكل مناوئته ، مع تغير يسير ، فقد تأكد هتلر انه عاجز عن سحق بريطانيا بغاراته الجوية المباشرة ، وكان هذا الفشل هو الهزيمة الاولى التي ذاق مرارتها . ولم تنجح هجماته الوحشية في تحويل الشعب وحكومته الى موقف الخضوع . واخذ الاعداد لغزو روسيا في مطالع صيف سنة ١٩٤١ يستأثر بالكثير من قوة المانيا الجوية ، ولم تكن الهجمات الكثيرة القاسية التي شنت علينا حتى اواخر شهر ايار تمثل كل ما لديه من قوات وبالأرغم من انها سببت لنا الكثير من المتاعب والماسي فانها لم تكن على جانب كبير من اهتمام القيادة العليا الالمانية او الفوهرر ، بل كان استمرارها على بريطانيا العظمى في تقدير الفوهرر تمويها ضروريا ومناسبا ليخفي استعدادة ضد روسيا .

وكانت آماله الواسعة تخيل اليه ان السوفيات كالفرنسيين سينهارون خلال ستة أسابيع . وان كافة القوات الالمانية ستكون مجتعدة لتوجيهه ضربة قاضية لبريطانيا في خريف ١٩٤١ . وفي خلال ذلك سيسام الشعب من عناده . وتستنفذ قواه ، بفضل حصار الغواصات والغارات الجوية البعيدة المدى اولا ، ثم من الهجمات الجوية على مدنه ومراقفه ثانيا . وقد استبدلت عملية « سبع البحر » بالنسبة لبريطانيا ، بعملية باريا روسا « بالنسبة لروسيا ، بالنظر الى الجيش الالمانى . أما بالنظر الى الاسطول فقد تلقى تعليمات بأن يركز اهتمامه على طرق مواصلاتنا عبر الاطلنطي ، كما امر السلاح الجوي بالتركيز على موانينا والمداخل الموصلة لها ، وكانت هذه الخطة ابعد ضررا من الهجمات المتفرقة للعمياء على لندن وأهلها الآمنين . ومن يمن الطالع بالنسبة لنا ان الالمان لم يستمروا في تنفيذها بكل ما تبقى لديهم من قوات ، وبرغبات حازمة ، وافسد سوء الاحوال الجوية في شهري كانون الثاني وشباط خطط العدو ، واذا استثنينا الغارات التي شنها على كارديف وبورتسموث وسوانس ، فان قوات دفاعنا المدني قد وجدت الفرصة للمراحة المناسبة . ولكنها لم تضعها هباء بل استغلتها كاملة ، وعندما تحسنت الاحوال الجوية ، شن الهجوم القاسي ثانية ، واخذ السلاح الجوي الالمانى في شهر اذار في تنفيذ ما عرف حينئذ « بالتجول على الموانىء » . وكانت غاراته فردية او مزدوجة ، ومع خطورتها الشديدة فقد فشلت في ايقاف الحركة بموانئنا . وتعرضت بورتسموث في ٨ اذار ، مدى ثلاث ليال متوالية لهجوم شديد الوطأة انزل بأرصفتها خسائر فادحة ، وشن هجوم على مانشستر وسالفورم في يوم ١١ وفيما تلا من الليالي وفي ١٣ و ١٤ قامت الطائرات الالمانية بغارة

شديدة على « كلايد » للمرة الاولى ، فقتلت وجرحت ما يزيد على الفسي شخص . وظلت احواض السفن متعطلة عن العمل حتى شهر حزيران . ولم تنزل اقصى الضربات الا في شهر نيسان حيث كانت كوفنتري ، في ٨ منه هدفا لنيران حامية . أما في سائر الايام فقد نزلت افدح الخسائر ببورتسموث وشنت على لندن هجمات قاسية في ١٦ و ١٧ فقتل أكثر من الفين وتلثمائة انسان ، واصيب ما يزيد عن ثلاثة الاف بجراحات بالغة ، واستمر العدو في محاولته التدميرية لموانئنا الهامة بغارات قد تستمر في بعض الاحيان اسبوعا بأكمله . وتهدمت مدينة بريستول ، واستمرت الغارة على بلايموث بين ٢١ ، ٢٩ نيسان ، وبالرغم من ان الحرائق الخادعة قد ساهمت في انقاذ الارصفة والاحواض الا ان انقاذ ذلك كان على حساب المدينة . وبلغ الهجوم غايته في اول ايار عندما اغير على ليفربول وميرسي سايد سبع ليل متواصلة ، فأصبح سبعة وستون الف انسان بلا مأوى ، وقتل وجرح حوالي ثلاثة الاف شخص ، وتعطل عن العمل تسعة وستون ملاذا من ملاذات البواخر التي يبلغ مجموعها مائة واربعاً واربعين ، واصبحت الحمولة التي يمكن تفريغها منخفضة الى الربع . ولو استمر العدو في هجماته علينا ، لغدت معركة الاطلنطي بالنسبة لنا شاقة للغاية ، ولكنه كان قد عاد ادراجه ، وقصف مدينة « هل » لمدة ليلتين متتاليتين بنيرانه الحامية وقد دمرت قنابله المتفجرة والحارقة مساكن اربعين الف مواطن ، ونسفت مخازن الاغذية ، وأصابت الاعمال الهندسية البحرية بالشلل لمدة شهرين كاملين . وفي هذا الشهر ايضا شن هجوما على « بلقاست » التي سبق له الهجوم عليها مرتين قبل ذلك .

وكانت اخر الغارات اسوأ من سابقتها ، ففي ١٠ ايار عاد العدو الى لندن بقذائفه المحرقة التي اضرمت أكثر من الف حريق ، ودمرت حوالي مائة وخمسين انبوباً ضخماً للمياه ، حدث ذلك اثناء المد الأدنى لنهر التايمز فصعب اصلاحها ، وفي الساعة السادسة من صباح اليوم الثاني كانت نيران مئات الحرائق ما زالت متأججة ، وقد عز القضاء عليها ، وحتى ليلة ١٢ كانت لا تزال أربع منها مشبوبة النيران ، وقد لحق الضرر بخمسة أرصفة ، وحدثت احدى وسبعون اصابة كان عدد المصانع من بينها يبلغ النصف على الاقل . وتعطلت لمدة اسابيع محطات السكك الحديدية سوى محطة واحدة رئيسية . وظلت الطرق في حالة غير طبيعية حتى اوائل حزيران ، وسقط أكثر من ثلاثة الاف شخص بين قتل وجريح ، وتعتبر هذه الغارة من زاوية اخرى تاريخية ، فقد نسفت مجلس العموم وأحدثت قنبلة واحدة أضراراً فادحة

يحتاج اصلاحها الى عدد من السنين . وحمدنا حسن الحظ لان احدا من أعضاء المجلس لم يكن بالقاعة ، واسقطت مدفعيتنا وطائراتنا المحاربة بدورها ست عشرة طائرة مغيرة ، وهو اكبر عدد تكبده العدو اثناء غاراته الليلية .

وكانت هذه الغارة - دون ان ندرك ذلك في حينه - اخر غارات العدو علينا ، ففي ٢٢ ايار تحول كيسلرنغ بمقر قيادة اسطول له الجوي الى بوزن ، ولم تأت بداية شهر حزيران حتى كانت قوات العدو الجوية باكملها قد تحولت الى الشرق . فمرت ثلاث سنوات قبل ان يتحرك دفاعنا المدني بتنظيماته ليعالج اثار « الهجوم الصغير » الذي شن في شباط ١٩٤٤ ، وما تبعه من غارات شديدة، الوطاة بالصواريخ والقذائف الطائرة . وكاد عدد ضحايانا من المدنيين في الاثني عشر شهرا المنصرمة بين حزيران سنة ١٩٤٠ ، وحزيران سنة ١٩٤١ ، يبلغ حوالي ٢٨١ و٤٢ انسانا قتلوا بينما أصيب بجراح خطيرة حوالي ٥٠٨٥٦ آخرين ، مما يصل بالمجموع الى ٢٣٧ و٩٤ شخصا .

ان التفريق بين الامور العسكرية والسياسة يصبح متعذرا في الحروب الكبيرة ، فكل المسائل في القمة تصبح واحدة ، وطبيعي ان يعتبر الجنود الشؤون العسكرية فريدة في نوعها ومتفوقة في اهميتها وان ينظروا الى الاعتبارات السياسية نظرة استهزاء وزراية ، ولا ريب في ان كلمة «سياسات» قد لاقت الكثير من الصعوبات ، بل صادفت التشويه لاقتنائها بالسياسات الحزبية ، ولذلك فان معظم ما كتب عن هذا القرن الفياض بالماسي تؤثر عليه الفكرة القائلة انه في زمن الحرب تؤخذ بكل عناية الاعتبارات العسكرية وحدها ، وان الجنود كثيرا ما تصدم افكارهم المستنيرة الحرفية تطاولات الساسة ، الذين يلعبون بنيران المعارك الفاصلة انسياقا لمصالحهم الشخصية والحزبية ، ولكن العلاقات الدائمة التي شملت الثقة بيني وبين وزارة الحرب ورؤساء الاركان ، واختفاء كل اثر في بريطانيا للحزبية في تلك الاثناء ، قد قربت رجعات النظر وقللت من سبل الخلاف الى ادنى حدوده .

وبينما استمر القتال في شمال افريقيا الشرقي سائرا في طريق النصر وبينما ظل اليونانيون يخترقون لهم طريقا داخل البانيا بكل شجاعة ، كانت الاخبار التي نستقيها عن تحركات الالمان ورغباتهم تؤكد يوما بعد يوم ان هتلر يقترب من التدخل في البلقان والبحر الابيض على اوسع نطاق ، وقد علمت في بداية شهر كانون الثاني ان وحدة جوية المانية قد نزلت بصقلية ،

وادركت ما تعنيه هذه التحركات من خطر على مالطة ، ومن تهديد للامال التي راودتنا بشأن اعادة الملاحة في البحر الابيض واصبت بالذعر من جراء انتقال قوات المانية وغالبا ما تكون من المدرعات الى طرابلس ، ولم يكن في مقدورنا ان نرتاب في ان خطط الالمان كانت تسعى الى ايجاد ممر من الشمال الى الجنوب عبر ايطاليا الى افريقيا كما تريد في الوقت ذاته وبنفس الاساليب مصادرة تحركاتنا عبر البحر المتوسط شرقا وغربا .

وكان الخطر الذي يجابه الدول البلقانية ومن بينها اليونان وتركيا يتجسم أمام عيني في صورة اغراء او ارهاب لتنضم الى امبراطورية هتلر فان لم ترسخ لهذه الرغبة اجتاحت حدودها ، وبذلك نشهد ثانية الحركة الخطيرة التي رأيناها في النرويج والدانمارك وهولندا وبلجيكا وفرنسا ، فعاد مرة ثانية في جنوب شرقي أوروبا .

احقا ٠٠٠ سيحكم على الدول البلقانية بالعبودية واحدة بعد اخرى ومن بينها اليونان النافحة ثم تعزل تركيا حتى تضطر اخر الامر الى فتح ابوابها امام الجيوش الالمانية الجرارة ، فتزحف على فلسطين ومصر والعراق وفارس ١٠٠٩ لا يوجد أمل في تكتيل وحدة بلقانية وجبهة بلقانية ، تتقاضى حتى من العدو اقدح الاثمان عن هذا العدوان الجديد ، اليس في الاحتمال ان تكون للمقارنة البلقانية لالمانيا ردود فعل بالغة الاثر توظف الامل في روسيا السوفياتية ، لا شك ان في هذا الميدان تتأثر مصالح الدول البلقانية نفسها ، وقد تتأثر المشاعر أيضا اذا سمع البلقانيون لشاعرهم أن تتأثر على حسابهم ، وهل نقدر بمواردنا المستنزفة والمتزايدة في الوقت نفسه ان نعيش على المشاركة الخارجية الاضاقية التي تسعى لتوحيد هذه الدول المتماثلة للعمل من أجل هدف واحد او ان الواجب علينا من ناحية اخرى ان نركز اهتمامنا على أمورنا ، وان نحرز نصرا من حملتنا في شمال شرق افريقيا ، وان نمدح اليونان والبلقان وتركيا وغير ذلك من بلاد الشرق الاوسط تنزل نحو هاويته المنتظرة ؟ لا شك في ان هذا الرأي الاخير يعفى الكثيرين من المتاعب والتفكير ، وقد لقي معضدين له في رسائل كل الضباط الذين كانوا يحتلون مراكز ثانوية ، والذين بعثوا بأرائهم ، ولا شك في ان هؤلاء الضباط قد انتهزوا فرصة الحديث عما حل بنا من اضرار . ولكن معلوماتهم لم تكن كافية ليعرفوا المصير الذي كان ينتظرنا لو سرنا وفق وجهة النظر هذه ولو استطاع هتلر دون قتال ان يجبر اليونان على الخضوع وان يرغب جميع الدول البلقانية على طاعته ، وان يفرض على تركيا عبور قواته الى الجنوب والشمال ، الا نتوقع حينئذ

ان يتفاهم مع السوفيات على السيطرة على هذه المناطق الشاسعة وتقسيمها ، ثم يقوم بتأجيل موقعه الفاصلة معهم الى أجل اخر في حسابه ؟ ثم الم يكن في مقدوره اذا دانت له كل هذه الرغبات ان يشن هجومه على روسيا بجيشه اكبر وفي ميعاد أسبق ؟ وفي الفصول التالية سأحاول التعمق في بحث سؤال رئيسي وعرضه في صورة سليمة ، ويتلخص هذا السؤال فيما اذا كان ما نفذته الحكومة البريطانية بالغ الاثر بصور واضحة على تصرفات هتلر في جنوب شرق أوروبا ، وانه أدى الى نتائج بعيدة المدى في نظرة روسيا للامور أولا ، وفي مصيرها ثانيا ٠ ؟ وطوال شهري شباط واذار كانت تصلنا اخبار طيبة من ميدان الشرق الاوسط فقد أعد الدفاع عن مالطة فاستطاعت الصمود في اخر لحظة ، لغارة مجتاحة قام بها السلاح الجوي الالماني عليها من صقلية ، واقتربت عملية احتلال الامبراطورية الايطالية في الاريتريا والصومال والحبشة من نهايتها المنتصرة ، وفي خلال شهرين استطاع جيش الصحراء ان يستمر في زحفه الى مسافة خمسمائة ميل وأن يقضي على جيش ايطالي يربو تعداده على تسع فرق ، وسيطر جيش الصحراء على بنغازي ومنطقة برقة بأكملها ٠٠

وبالرغم من كل هذا فقد ظلت المسائل المحققة بالخطر من دبلوماسية وعسكرية بالغة الاهمية وكان الجنرال ويفل تتراكم عليه التبعات مما حدا بلجنة الدفاع ان توفد في ١١ شباط وزير الخارجية والجنرال ديل رئيس أركان حرب الامبراطورية الى القاهرة ، وطار ايدن من القاهرة الى اثينا يرافقه ويفل وغيره من الضباط الكبار لاجراء مشاورات مع ملك اليونان وحكومته ٠

وقرأ المسيو كوريسيس رئيس وزراء اليونان اثناء الاجتماع بياننا تضمن قرارات كان قد انتهى اليها مجلس وزراء اليونان في اجتماع عقده في اليومين السابقين ، ولان هذا البيان قد أصبح قاعدة لعمالنا فاني أورد القسم الحيوي منه هنا تماما اود ان اؤكد ثانية ان اليونان كحليفة تضمنت قرارات كان قد انتهى اليها مجلس وزراء اليونان في اجتماع عقده في اليومين السابقين ، ولان هذا البيان قد أصبح قاعدة لعمالنا مخصصة ستظل ماضية في القتال باصرار حتى يتحقق النصر ، ولا تقتصر عزميتها على مناهضة ايطاليا وحدها بل يشمل ذلك اي عدوان الماني ٠٠ وأي كان الامر وسواء كان لليونان نصيب في صد الهجوم عن مقدونيا أم لم يكن فانها ستظل مدافعة عن اراضيها حتى ولو اضطرت الى الاعتماد على قوتها وحدها دون عون اخر وقد ابانت الحكومة اليونانية انها صممت على هذا القرار قبل ان تتأكد من قدرتنا على مساعدتها أم عدم استطاعتنا ذلك ، فلاك المستر ايدن لهم ان عزم

لندن قد انعقد مع كل قادتها في الشرق الاوسط على بذل كل عون لمؤازرة اليونان ، واستمرت المؤتمرات العسكرية ومحادثات الاركان طوال الليلة ، وفي اليوم التالي ارسل الينا ايدن في ٢٤ شباط ببرقية بالغة الاهمية هذا نصها:

« لقد هزتنا صراحة المفاوضين اليونانيين ووضوح آرائهم في سائر الشؤون التي اتممنا بحثها واني على يقين من اصرارهم على المقاومة لآخر جهد في طاقتهم ، وليس أمام حكومة صاحب الجلالة سوى ان تؤازرهم بصرف النظر عن كل النتائج ، ونحن على يقين تام بأننا قد آثرنا السبيل السوي ، ولما كانت الساعة قد اعلنت الحادية عشرة فاني متأكد انك لا ترغب في الاطالة ، مؤجلا التفاصيل حتى المتقي بكم ، ان المغامرة ضخمة ، ولكن الامل في النجاح كبير »

وعلى هدى من هذه المكاتبات التي حملت موافقة كل من ديل وويفل أصدرت وزارة الحرب تأييدها للاقتراحات تأييدا كاملا .

سافر المستر ايدن بعد ذلك الى انقرة ، حيث قام بمشاورات طويلة مع الاتراك ، ولم يصل الى نتائج مشجعة ، فالاتراك يدركون الصعوبات التي تواجههم كما ندركها نحن ولكنهم يقررون ان ليس في وسعنا تقديم قوات بالقدر الكافي لتغيير نتيجة أي معركة فاصلة ولانه لا توجد لديهم أية قوة هجومية فقد رأوا ان ما يستطيعون ان يقوموا به هو ان تلتزم بلادهم بموقف الحياد الى ان يستكملوا جوانب النقص التي يحسون بها ، والى ان تصير قواتهم على درجة كافية من التأثير والفعالية ، اما اذا شن عليها هجوم فانها ستخوض غمار الحرب بكل تأكيد ، وقد ادركت كاملا الموقف الذي تواجهه تركيا ، وبدا من الصعب عليها ان تلتزم بالمعاهدة التي ابرمت معها قبل الحرب لتغير الظروف وعندما بدأت الحرب في عام ١٩٣٩ ، واستعد جيش تركيا الباسل ولكن هذا الجيش يعتمد على وسائل الحرب العالمية الاولى والمشاة الاتراك من افضل الجنود ومدفعيته مقبولة ولا غبار عليها ، ولكنهم يفتقرون الى الاسلحة الحديثة التي اكدت منذ ايار ١٩٤٠ انها فاصلة في الحرب الدائرة كما ان الطيران التركي كان في صورة بدائية هزيلة الى درجة تستدعي الرثاء وليس في حوزتهم أيضا دبابات او سيارات مدرعة ، كما لا توجد عندهم المصانع التي تنتجها او تشرف على صيانتها وليس في حوزتهم أية مدافع مضادة للطائرات او الدبابات اما سلاح الاشارة فسانج ، والرادار شيء لا ندري به ، كما ان جنودها ليس لديهم التأهيل الكافي لادراك هذه التطورات الحديثة .

أما بلغاريا فقد قامت المانيا بتسليحها بكميات ضخمة من العتاد من شتى الانواع التي غنمتها من فرنسا والبلاد المنخفضة بعد معارك سنة ١٩٤٠ وبهذا أمكن لالمانيا ان تجد فائضا من العتاد تسليح به حلفاءها ، أما نحن فقد خسرنا كثيرا في دنكرن وكان علينا ان ندعم قواتنا لنصد أي هجوم على الوطن ونجابه أقسى الغارات على مدننا في الوقت الذي نواصل فيه القتال في الشرق الأوسط ، ولهذا لم يكن في مقدورنا ان نبذل الكثير ولا ان نضحى مما يلزمنا . وهكذا نرى ان الجيش التركي في تراقيا ، سيكون بالنظر الى هذه الظروف في حالة سيئة وربما يائسة تجاه الجيش البلغاري ، فاذا ضاعف هذا الخطر أسراب من سلاح الجو الالمانى ووحدات من السلاح المدرع فان مهام تركيا ستصبح فوق المستطاع .

وفي هذه المرحلة المهددة بخطر الحزب كان الامل الوحيد هو خلق كتلة واحدة تضم جيوش يوغوسلافيا واليونان وتركيا وكان هذا ما نسعى الى تحقيقه وتمثل عوننا لليونان في ارسال ، بعض الاسراب الجوية من مصر عندما بدأ موسوليني زحفه عليها واقتصرت المرحلة التالية على تقديم عرض بارسال وحدات فنية وقد رفضه اليونانيون ، لاسباب أحسبها معقولة جدا ، وها نحن نقدم على المرحلة الثانية حيث رأينا ان في وسعنا حشد جيش صحراوي قوي في بنغازي وفيما وراءها ، لنوفر الجزء الاعظم من قوات المناورة والاحتياط الاستراتيجي لمصر .

وكنا الى ذلك الوقت لم نقدم على أية خطوة سوى تركيز معظم الاحتياطي الاستراتيجي من قواتنا في الدلتا ، ورسم الخطط والاستعداد الملاحى لارسال قوات الى اليونان ، واذا تغيرت الظروف بحدوث تغير في وجهة النظر اليونانية او لاي اسباب اخرى فسنقدر على مواجهة الوضع ومقابلة الطوارئ ، وكان من المحتم علينا بعد كل الذي لقيناه من ضغط شديد ان نستطيع انهاء القتال بنجاح في الحبشة والصومال والاريتريا ، وان نضم عددا من الفرق الى قواتنا المرابطة في مصر وفي الوقت الذي صعب فيه معرفة نوايا العدو او مدى ردود الفعل ونوعها عند الاصدقاء والمحايدين ، اتسع مجال الاختيار أمامنا وظل المستقبل بالنسبة الينا في غاية الغموض ، ولكننا لم نبعث بقواتنا بعد ولم نضيع اي يوم في الاعداد .

الفصل الثالث عشر

معركة الاطلنطيك

الشيء الذي أثارتني حقا في غضون الحرب كان هو تهديد الغواصات فقد كنت متأكدا من فشل الغزو ، وقد مهدت ليقيني هذا نتائج المعركة الجوية فقد أحرزنا النصر الجوي ، وبذلك أصبح الغزو شيئا طيبا بالنسبة لنا ، حيث يخوض الانسان معاركه برضى بغض النظر عن شناعة الحرب وقسوة ظروفها ، ونحن الان نواجه خطرا شديدا اذ ان شريان حياتنا حتى في غمار المحيطات وخصوصا في مداخل جزرنا يهدد باستمرار وكان القلق ينتابني من جراء هذه المعركة أكثر مما لقيته وأشد حين خضنا غمار المعركة الجوية الجيدة في سماء بريطانيا •

واستولى هذا القلق أيضا على الاميرالية الذين كنت دائما معهم في ود وتفاهم مستمرين ، وكان يتحتم علينا حماية شواطئنا من أي غزو واستمرار خطوط مواصلاتنا مع العالم الخارجي حرة دائمة ، وكان هذا العمل واجبا مقدسا يقتنع به اسطولنا ويحرص عليه ، وهكذا كنا دائمي التفكير والبحث في هذه الازمة ، وليست هذه المعركة قتالا عنيفا او اعمالا خلافة ولكنها عبارة عن ارقام ومخططات ورسوم بيانية لا يستطيع الشعب ولا الجماهير معرفتها ولا تفهمها •

قال لي أي مدى تستطيع ان تصيب به حرب الغواصات واراداتنا وملاحتنا وهل في وسعها ان تصل الى حد القضاء على مقومات حياتنا وهنا لا يتسع المجال للحديث ولا للمواظف ولكنه يقتضي التخطيط الهادئ الدقيق ورسم الخرائط التي توضح احتمالات خنق حياتنا ، فاذا ما عقدنا مقارنة بين نتائج

هذه الحرب ونتائج الحروب الاخرى ظهر لنا ان لا قيمة للجيش الباسلة المستعدة للوشب على الغزاة ، ولا لما أعد من خطط جيدة لمعركة الصحراء ، كما ان لا جدوى من الروح المعنوية العالية التي يتحلى بها شعب في مثل هذا الخضم المظلم ، وليس لنا ان نختار قاما ان نحصل على الغذاء والمؤن والسلاح من العالم الجديد ومن الامبراطورية واما ان نحصل على شيء من ذلك ، اما الالمان فيبعد ان استطاعوا السيطرة على سواحل فرنسا من دنكرك الى بوردو لم يضيعوا وقتهم عبثا ، بل سارعوا الى اقامة قواعد لغواصاتهم ولطائراتهم المقاتلة على مدى الساحل المحتل ، وبعد شهر تموز اضطررنا الى تحويل ملاحتنا من مداخل ايرلنده الجنوبية حيث لم نستطع حشد طائرات مقاتلة ، وفرض علينا ان تدور كل سفننا حول ايرلنده الشمالية ، وقد ظلت الستر هنا صامدة بعون الله ، كحارس لا ينأى ، فميرس وكلايد هما ركنان بدونها لا نستطيع استنشاق الهواء ، واستمرت البواخر الصغيرة تمر قرب الشاطئ الشرقي وشواطئ القناة على الرغم من تهديد الغارات الجوية ، وهجمات زوارق الطوربيد الالمانى ، فضلا عن الالغام المبتوثة في كل مكان ولكن مرور كل قافلة بين فيرث أوف فورت ولندن وحده قد أصبح عملية يومية في غاية الصعوبة .

وأصبحت الاضرار التي لحقت بملاحتنا التجارية فادحة ، في مدة الاثني عشر شهرا من تموز ١٩٤٠ الى تموز ١٩٤١ ، وهو التاريخ الذي كنا نستطيع ان نؤكد فيه انباء انتصارنا في معركة الاطلنطيك وكان اشد الاسابيع علينا منذ نشب القتال هو الاسبوع الذي ينتهي بيوم ٢٢ ايلول سنة ١٩٤٠ وفي خلاله منينا بغرق حمولة أكثر من أية حمولة خسرتها في ظروف مشابهة من عام ١٩١٧ وتزايد الضغط علينا باستمرار ، بينما الخسائر كانت تزداد على اعداد البواخر الجديدة التي تسرع في بنائها بصورة مذهلة ، اما موارد الولايات المتحدة الهائلة فقد كانت تقترب من ميدان العمل ببطء وعلى هواده ، ولم يكن احتمالنا ان نرث فجأة عددا من السفن كذلك التي غنمناها بعد استسلام النرويج والدانمارك والبلاد المنخفضة في ربيع سنة ١٩٤٠ ، فقد فقدنا سبعة وعشرين باخرة أغلبها كان في قافلة محروسة ، ثم منينا بقافلة اخرى في شهر تشرين اول بالاطلنطيك ، غرقت منها اثنتان وعشرون من بواخرنا التي يبلغ مجموعها اربعا وثلاثين ، ومع مرور أيام شهري تشرين ثاني وكانون اول بدأت مداخل ومصبات الانهر كاليمرس وكلايد تمثل خطرا اشد من أية عوامل اخرى في الحرب ، وكنا نستطيع انذاك ان ننزل على ايرلنده ديفاليرا وان نعيد

الينا بالقوة السيطرة على الموانئ الجنوبية . ولكنني اعلنت سابقا انني لن اتخذ خطوة كهذه الا دفاعا عن النفس ، وعلى أية حال لم تكن مثل هذه الخطوة الجريئة العنيفة لتخفف شيئا من حدة الموقف وقسوته ، وكان الاجراء الوحيد هو ان نضمن حرية الدخول والخروج من نهري المرسى والكلايد واليهما . وكانت القلة العارفة بحقيقة الموقف عندما تجتمع في كل يوم ينظر كل منهم الى الآخر ، وفي استطاعة الانسان ان يدرك حالة الغواص تحت سطح البحر وهو يعتمد من دقيقة الى الاخرى على الانبوبة الهوائية الممتدة للخارج ، ومدى شعوره حين يرى مجموعة من كلاب البحر تحاول ان تمزق له هذه الانبوبة ، بالاضافة الى انه لا يجد فرصة للوصول الى السطح لان الواقع ان ليس هناك سطح بالنسبة الينا ، ولم يكن الغواص سوى ستة وأربعين مليونا من البشر في جزيرة غاصة بالسكان ، يستمرون في عمل كبير وشاق هو الحرب في شتى أنحاء العالم ، وقد استقر هذا الغواص بحكم الطبيعة والجاذبية في قاع البحر ، وماذا يمكن لكلاب البحر ان تصنعه بأنبوبة هوائية وكيف يستطيع اقضاءها عنه او تحطيمها ؟ ..

وشمة جانب اخر لحرب الغواصات ، فقد كانت الاميرالية في بداية الامور تركز اهتمامها قبل كل شيء في ايصال البواخر سليمة الى الميناء ويحدد نجاحها قلة عدد البواخر الغارقة ، ولكن هذه التجربة لم تعد الان ملائمة ، فقد أصبحنا نعرف ان حياة هذه البلاد وجهودها الحربية يركزان بصورة ثنائية على حمولة الواردات التي يتم انزالها على الميناء في سلام ففي الاسبوع الذي انتهى بيوم ٨ حزيران أي في غمار معركة فرنسا وقصة انقاذها ، استطعنا ان نوصل للبلاد حمولة مليون وربع مليون طن فضلا عما نستورده من الزيت ، وقد تدرجت الارقام في الهبوط من هذه الذروة حتى نهاية تموز الى اقل من ثلاثة ارباع المليون طن كل اسبوع وقضلا عما أصابنا من تحسن في شهر اب فقد كان المعدل الاسبوعي لا يزال في هبوطه ولم يتعد طيلة الشهر الثلاث الاخرة من العام ثمانمائة الف طن في الاسبوع ، واصابني هذا الهبوط المشؤم في الواردات بقلق شديد ، وارسلت الى لورد البحر الاول في منتصف شهر شباط سنة ١٩٤١ . رسالة بخط يدي اقول فيها « ان الارقام تشير الى ان وصول البواخر المحملة في شهر كانون ثاني كان اقل من نصف ما وصل الينا في مثل هذا الشهر من السنة الماضية »

ونظرا لوسائل التأمين الكثيرة وتقدمها ، وتسيير السفن ، وتحويل الطرق البحرية ومحاولات تطهير البحر من الالغام المبتوثة ، وعدم ابحارنا

في المتوسط ، وامتداد طرق مواصلاتنا في الزمن والمسافة ، والتخلف فسي الموانئ نتيجة للغارات الجوية وعمليات التعطيم ، كل ذلك ادى الى هبوط انتاج حركتنا الملاحية الى حد مزعج تفوق خطورته كل ما أصبنا به من أضرار ، وازدحمت موانينا يوما بعد يوم بالبواخر التي يتأخر تفريغ شحناتها ولم يأت شهر اذار حتى غدت البواخر المصابة تبلغ حمولتها حوالي مليونين وستمائة ألف طن ، لا يستطيع أكثر من نصفها مباشرة العمل لما يلزمها من استصلاحات .

وفوق خطر الغواصات دهمنا خطر اخر تمثل في الطائرات التي تذهب الى أعماق المحيط تبحث عما تفترسه من البواخر ، وكانت الفوكا وولف ٢٠٠ « المعروفة باسم كوندور » هي أشد هذه الطائرات خطورة وان كان عددها قليلا في بداية الامر لحسن حفظنا وفي مستطاع هذه الطائرات ان تقلع من بريست أو بورديو لتقوم بجولة على شواطئ الجزر البريطانية ثم تتزود ثانية بالوقود من النرويج لتتوَّب في اليوم التالي الى مقرها الاول ، وفي وسع هذه الطائرات في الذهاب والعودة ان تبصر قوافلنا الكبيرة تحتها المكونة من أربعين أو خمسين باخرة ، ارغمنا على تسييرها في قافلة واحدة بالنظر الى قلة ما نجده من وحدات الحماية ، وهي تقوم برحلاتها من الجزر البريطانية واليها داخلة وخارجة ، وفي مقدور هذه الطائرات ان تسقط على هذه القوافل أو البواخر المنفردة قذائف ماحقة وان ترسل في ذات الوقت اشارات لاسلكية للغواصات المتحفزة لتوجهها الى قطع الطريق عليها .

ودب النشاط في الطرادات الالمانية العنيفة ، فالاميرال شير تعمل الان في جنوب الاطلنطيك متوجهة الى المحيط الهندي ، وقد استطاعت خلال ثلاثة اشهر اغراق عشر بواخر تبلغ حمولتها ستين ألف طن ثم تمكنت من الاقفلات والرجوع الى المانيا ، وكانت « هيبير » لاجئة في ميناء بريست ، وفي نهاية شهر كانون ثاني تلقت البارجتان - الطرادتان شارنهورست وغنيزناد - بعد ان تم قتل قليل قليل اصلاهما مما لحق بهما من تعطيل في معركة النروج ، تلقنا أمرا بالمسير الى شمال الاطلنطي ، بينما تقوم « هيبير » بالاغارة على الطريق البحري الممتد الى سيراليون واستطاعت الطرادتان خلال شهرين اغراق أو أسر اثنتين وعشرين باخرة تبلغ حمولتها مائة وخمسة عشر ألف طن ، اما « هيبير » فقد اغارت على قافلة في طريقها الى الوطن بالقرب من جزر الأزور ، ولم تكن لحقت بها وحدات للحماية بعد ، واستطاعت في اغارتها الوحشية التي استمرت زهاء ساعة كاملة اغراق سبع بواخر من تسع عشرة باخرة

تألفت منها القافلة دون أن تحاول قُط انقاذ الناجين من البحر ، ثم أتت سائلة بعد يومين الى بريست ، وقد اضطرتنا هذه الطرادات المفزعة الى أن نحشد كل ما لدينا من بوارج حربية ضخمة في تأمين القوافل ، وقد مضى وقت ولم يكن في قاعدة القائد العام لاسطولنا غير بارجة وحيدة •

ولم تكن بسمارك قد انضمت الى البواخر المستخدمة بعد ، ولا شك في ان الاميرالية الالمانية كانت ترقب اتمامها بصبر نافذ ، واكمال قرينتها تيربيتز ، ولم يكن هناك سبيل يمكن لهتلر ان يستخدم فيه بارجتيه الهائلتين بطريقة أكثر فائدة وجدوى من وجودهما على أهبة الاستعداد دائما في الاطلنطيك ، وإشاعة الامتناع عن خروجهما المحتمل من وقت لآخر وكان مثل هذا العمل سيفرض علينا ان نركز قواتنا بقدر المستطاع في سكاياقلو أو ضواحيها ، لنكون كفاء لاسعداده ، بينما يظل هو حرا تماما في اختيار وقت العمل ، ولاضطرار البوارج لان تذهب الى قواعدهما بين الحين والحين بسبب احتياجها الى بعض الترميمات والاصلاحات فقد كان يتعذر علينا دائما الاحتفاظ بمستوى من التفوق والكفاءة ، فأى خطر مفاجيء كان كافيا لتدمير هذه الكفاءة •

وظللت أفكر ليل نهار في هذه المشكلة المرعبة ، وتجمع أملي في نصر مؤكد ، في قدرتنا على إثارة حرب طويلة الان الى أن يأتي اليوم الذي نملك فيه التفوق الجوي ، وتقف دول كبيرة - كما هو المحتمل - الى جانبنا ، ولكن هذا الخطر الذي كان يقف بالمرصاد لاسباب حياتنا كان يقمعي لنا ، وفي بداية شهر اذار نقى الاميرال باوند الى وزارة الحرب اخبارا عن ابتلاع البحر لمجموعة اخرى من البواخر ، واستمعت الى الارقام ، ثم قلت لباوند بعد هذا الاجتماع الذي تم في غرفتي بمجلس العموم : (علينا ان نضع هذه المشكلة في اعتبارنا وان نهتم قبل أي شيء آخر ، وسأعلن بداية حرب الاطلنطيك) وأشبه هذا الاعلان الاعلاني السابق عن معركة بريطانيا منذ تسعة أشهر ، ويعني ذلك الابعاز الى كافة الدوائر والوزارات المختصة بتركيز اهتمامها وجهودها على حرب الغواصات •

وانشأت (لجنة معركة الاطلنطي) لرغبتي في متابعة هذه المشكلة واعطائها مزيدا من العناية والاهتمام ، ولاستطيع باستخدامها توجيه التعليمات الضرورية لازالة المصاعب والعقبات وفرض العمل على معظم الدوائر والفروع المختصة ، وبدأت هذه اللجنة في اجتماعات اسبوعية يشترك فيها كل الوزراء والمنفذين المعنيين من عسكريين ومدنيين • ويمتد الاجتماع الاسبوعي الى ساعتين ونصف تقريبا ، نستعرض خلاله كل أمر ، ونبحث في

كل موضوع ، بل نقلت المشكلة بحثاً وتمحيصاً ، لننتهي الى قرارات واضحة ، وهكذا وجدت هذه اللجنة الجديدة التي كونها من الدوائر الواسعة لقيادتنا الحربية التي تضم الالوف من الرجال ذوي الخبرة والولاء ، والتفت حول هذه اللجنة مئات العيون الفاحصة القلقة .

وفي هذه الاونة اخذت الغواصات تستخدم طرقاً جديدة اصبحت تعرف باسلوب (جماعات الذئاب) ويعنى هذا الاسلوب ان تشترك مجموعة من الغواصات في عمل واحد ، وان تنقض على الفريسة دفعة واحدة من جوانب مختلفة ، وكانت هذه الهجمات انذاك تشن ليلاً ، وعلى سطح البحر ، وفي غاية السرعة ، وكان في مقدرة المدمرات وحدها ان تلحق بهذه الغواصات بينما لم تكن اجهزة المكافحة ذات جدوى ، وكان الحل يتمثل في زيادة عدد الحارسات السريعة كالغواصات ، وفي تحسين الرادار بصورة جوهرية ، بحيث تقدر شاشته على انذارنا باقتراب الغواصات قبل وصولها واخذ العلماء والبحارة والطيارون يبذلون كل ما في استطاعتهم ، وبرغم ذلك كانت النتائج تمشي على مهل ، وكنا في احتياج الى سلاح جوي ينسف الغواصات العائمة ، والى وقت ندرّب خلاله قواتنا على ذلك ، فاذا ما توصلنا الى سد هذين الاحتياجين فان الغواصات ستمضي الى الاعماق كوضعتها المعتاد ، ويصبح في مقدورنا معالجة ذلك بوسائلنا القديمة وخبراتنا التي مهدنا عليها ، لكن هذا لم يتحقق الا بعد مرور عامين .

وفي خلال ذلك كان برايان المعروف وسواه من قادة الغواصات الالمانية يستخدمون في اندفاع اسلوب (جماعات الذئاب) الذي انتجه الاميرال دونتس قائد سلاح الغواصات ، وقبطان الغواصات الذائع الصيت في الحرب العالمية الاولى ، ولكن عدالة القصاص لم تمهلهم فقد غرق برايان مع جميع رجاله على ظهر غواصته (يد ٤٧) في ٨ اذار بواسطة المدمرة وولفيرين ، وما مرت تسعة ايام حتى نزل الغرق بالغواصتين (يو ٩٩ و يو ١٠٠) في قتال اشتد اواره عقب مهاجمتهما لاحدى القوافل ، وكان قائداهما من المسع الضباط البحريين ، فادى فقدان هؤلاء الثلاثة الممتازين الى ضعف هجوم الغواصات ، وكان القادة الذين تبعوهم الى العالم الثاني من طرازهم كفاءه وشجاعة ، ففي شهر اذار غرقت خمس غواصات في المداخل الغربية ورغم ان هجوم الغواصات قد الحق بنا اضراراً بالغة ، تمثلت في (٢٤٣) الف طن ، غير (١١٣) الف طن تكبدناها على ايدي الطائرات ، فان الجولة من معركة الاطلنطي قد انتهت نتيجة متعادلة يننا وبين العدو .

ولما رأت الغواصات خسائرها المفادحة في المداخل الغربية ، اتجهت الى الغرب أي الى المياه التي لا يمكن للمدمرات الكثيرة ان تصل اليها بالنظر الى حرماننا من مواهب إيرلندا الجنوبية ، والتي لا تقدر على حمايتها جويًا بالنظر الى بعدها ، ولم يكن في مقدور مدمراتنا ان تحرس قوافلنا المقلعة من المملكة المتحدة في طريقها الى هاليفاكس غير مسافة ربع الطريق فقط ، وفي بداية شهر نيسان اغارت ارتال من الغواصات بطريقة (جماعات الذئاب) على قافلة بريطانية عند خط الطول ٢٨ درجة ، غربا ، قبل ان تلحق بها الوحدات المدافعة عنها ، وقد غرقت عشر بواخر من اثنتين وعشرين مقابل غواصة واحدة ، واضطررنا الى ان نبحث عن وسائل كافية لحمايتنا ، والا فان نهايتنا ستكون قريبة .

وتقع جزر نيوفونلند وجرينلند وايسلنده بين كندا وبريطانيا العظمى ، وهذه الجزر جميعها تقع بالقرب من جناح الدائرة الكبرى بين هاليفاكس وسكوتلندا ، وفي استطاعة قوات تكمن في (نقطة الوثب) هذه ان تسيطر على الطريق كله بعد توزيعه الى قطاعات ، وكانت غرينلند لا يوجد بها أي مورد ، أما الجزيرتان الاخرتان فالافادة منهما مستطاعة ، وكان من الاقوال الشائعة « ان من يسيطر على ايسلنده ويده مسدس يمكنه ان يسدده في ثقة السي انكلترا وأميركا وكندا » وكانت هذه الفكرة هي التي دفعتنا الى احتلال الجزيرة بعد موافقة الاهالي عندما احتل الالمان الدانيمرك في عام ١٩٤٠ واقمنا فيها قواعد في نيسان عام ١٩٤١ لفرق حراستنا البحرية وطائراتنا وبهذه الطريقة امتد اتساع حراستنا السطحية الى خط الطول (٣٥) درجة غربا ، وبالرغم من ذلك فقد بقيت هناك ثغرة مروعة في الغرب ، لم يكن في مقدورنا انذاك سدّها ، وفي شهر ايار اغير على قافلة آتية من هاليفاكس عند خط الطول (٤١ غربا) وخسرنا تسع بواخر ، قبل ان تلحق النجدة بالقافلة .

وبدا من المحتم علينا فرض الحماية من الطرف الى الطرف أي من كندا الى بريطانيا ولهذا طلبت الاميرالية في ٢٣ ايار من حكومتني كندا ونيوفونلاند اعداد ميناء سنت جون في نيوفونلاند كقاعدة امامية لوحدات الحراسة المشتركة ، وكانت الاستجابة سريعة ، فلم تأت نهاية الشهر حتى تحققت الحراسة الدائمة على طول الطريق ، ومنذ ذلك الوقت تعهد الاسطول الملكي الكندي بأن يقوم بحماية القوافل في القطاع الغربي من طريق المحيط ، بإمكانياته وحدها وكان في استطاعتنا ان نضمن من ايسلنده ومن بريطانيا العظمى حماية كافية على باقي الطريق ومع ذلك فقد ظلت القوات التي لدينا

قليلة الى درجة مزعجة واستمرت خسائرنا في التزايد ، وقد استطاعت الغواصات وحدها في الاشهر الثلاثة المنتهية باخر ايار اغراق ١٤٢ باخرة تبلغ حمولتها ٨١٨,٠٠٠ طن منها ٩٩ باخرة بريطانية .

وفي غمار هذا التوتر الشديد ، قام الرئيس روزفلت ، بمقتضى السلطات التي خولها له الدستور الاميركي ، ولانه القائد الاعلى للقوات المسلحة ، بمد يد المعونة العسكرية لنا - فقد أصدر أمرا بعدم السماح للغواصات الالمانية والسفن الاخرى المهاجمة بأن تقترب من الساحل الاميركي ، وان يضمن له وصول الذخائر التي كان يرسلها الى بريطانيا سالمة حتى منتصف الطريق على الأقل ، وتمخض عن الخطط التي كانت قد أعدت منذ زمن طويل مشروع يقتضي بأن تتضامن الدولتان الناطقتان بالانكليزية في حماية المحيط الاطلنطي، ولاقناعنا بوجوب اقامة قاعدة لنا في ايسلنده ، فقد بادر الرئيس روزفلت الى اتخاذ الخطوات اللازمة لاقامة قاعدة جوية اميركية في جرينلاند ، وكان من المسلم به ان الالمان انشأوا محطات لرصد الاحوال الجوية على الشاطئ الشرقي من الجزيرة في مواجهة ايسلنده ، ولهذا اتى عمل الرئيس في وقته المناسب واصدر الرئيس اوامره الاخرى التي تقتضي بأن تتوجه السفن المصابة في معارك البحر المتوسط او غيره من البحار لاجراء عمليات اصلاحها في الاحواض الاميركية ، مما يسر الكثير من العبء الملقى على احواضنا .

وفي مطلع شهر نيسان وصلتنا انباء رائعة ، فقد تلقت برقية من الرئيس في ١١ نيسان يخبرني فيها ان اميركا قد قررت توسيع دائرة أمنها التي تجوب فيها دورياتها ، وهو الاجراء الذي اتخذته منذ ان نشبت الحرب ، الى خط يمر بكل مناطق شمال الاطلنطي الواقعة الى الغرب من خط الطول ٢٦ درجة غربا ، وتحقيقا لهذه الغاية فهو يقترح ، ان تستخدم الطائرات والقطع البحرية العاملة من غرينلاند ونيوفوندلند ونوفاسكوتيا والولايات المتحدة وبرمودا وجزر الهند الغربية مع توقع امتداد ذلك الى البرازيل ، وحثنا على ان تصله تحركات قوافلنا في طريقة غاية في السرية (لنتمكن بمجموعات دورياتنا من التنقيب عن سفن الاعداء او طائراتهم التي تعمل الى الغرب من خط منطقة الامن المذكورة) ومن جهة اخرى سيسرع الاميركيون في الاعلام بالمناطق التي تحدد دورياتهم وجود السفن او الطائرات المعادية فيها ، وقد ارسلت هذه البرقية مباشرة الى الاميرالية وانا اشعر بارتياح بالغ .

واعلنت حكومة اميركا في ١٨ نيسان خط الحدود الجديد الذي يفصل بين نصف الكرة الارضية الغربي ونصفها الشرقي وهو الذي اشار اليه

الرئيس في برقيته السابقة ، ومنذ ذلك التاريخ أصبح هذا الخط هو الحدود البحرية لأميركا ، وقد شملت الممتلكات البريطانية التي تقع في القارة الأميركية أو بالقرب منها ، وغرينلاند وجزر الأزور ثم شملت بعد قليل أيسلندة كذلك وأكد هذا القرار أيضا أن السفن الحربية الأميركية ستقوم بأعمال الدورية في مياه نصف الكرة الغربي ، وسترسل اليها مباشرة عن أي تحركات معادية ، لكن أميركا حرصت على موقف الحياد ولم يكن في مقدورها آنذاك ان تضفي حمايتها على قوافلنا ، فظلت بريطانيا وحدها تضطلع بعبء هذه المشكلة طيلة الطريق .

وكانت سياسة الرئيس الجديدة بعيدة النتائج ، واستمر نضالنا ، وقد خف عبء كبير من أعبائنا ليقوم به الاسطولان الكندي والاميركي ، وبدأت أميركا رويدا رويدا تقترب من حلبة الصراع ، وقد قوى هذا التيار العالمي اختراق البارجة بسمارك الاطلنطي في نهاية شهر أيار ، فعلى أثر ذلك أعلن الرئيس في ٢٧ أيار - وهو التاريخ الذي غرقت فيه بسمارك - ان انتظارتنا حتى يدهمنا الخطر نوع من الانتحار ، ولهذا فقد وسعنا أعمال دورياتنا شمالا وجنوبا في مياه الاطلنطي وما كاد الرئيس ينهي خطابه حتى أعلن في البلاد « حالة الطوارئ لاجل غير مسمى » .

وليس هناك أي برهان على ان الالمان قد هزتهم هذه الخطوات من قبل أميركا فقد أراد الاميرالان ريدر ودونتس ان يصدر الفوهرر أمرا بتوسيع المجال للغواصات الالمانية ، ويطلق لها حرية العمل في اتجاه الساحل الاميركي وصدد البواخر الاميركية اذا سارت في قوافل أو بدون أضواء ولكن هتلر ظل عنيدا في موقفه ، لانه كان لا يأمن عاقبة الحرب مع أميركا ، ويصمم على ان تتجنب القوات الالمانية أي استئثار من هذا النوع .

ونتيجة لاتساع نشاط العدو لحقت به خسائر فادحة ، ففي شهر حزيران ، كان للعدو فضلا عن العدد الموجود تحت التدريب حوالي خمس وثلاثين غواصة في قلب البحر ، وكان ما يعده من غواصات جديدة يزيد بكثير عما لديه من بحارة مدربين ولا سيما القباطنة ذوي الخبرة والتجربة ، وهكذا بدأ عدد بحارة غواصاته الجديدة يقل تدريجيا وأصبحت غالبيتهم من الشبان قليلي الخبرة ولذلك فقد فاتهم الدقة والمهارة الكافيتان ، وأدى شمول المعركة للأطراف البعيدة من المحيط الى عدم استمرار التعاون الخفيف بين الغواصات والسلاح الجوي ، ولم يكن من قديم اعداد الطائرات الالمانية الكافية او تدريب طيارها على العمل فوق البحر ، ومع ذلك فقد استطاعت في خلال اذار

ونيسان وأيار ان تغرق (١٧٩) باخرة حمولتها (٥٤٥) الف طن ، غرق معظمها في المناطق الساحلية ، ومن بين هذه السفن عدد تصل حمولته الى أربعين الف طن غرق بسبب غارتين جويتين في غاية العنف على أرصفة ليفربول في بداية شهر أيار ، وقد حمدت الله لان الالمان لم يستمروا في شن هجماتهم على هذا الجانب الواهن ، وفي الوقت نفسه استمر خطر الالغام المغنطة مسلطا على سواحلنا غامضا وخداعا ، ينزل بنا أفدح الخسائر وان كانت قد بدأت تقش شيئا فشيئا ، وقد نهضنا بقواعدها في ايسلنده وكندا ودعمناها فوراً ، ووضعنا مخططات قوافلنا على هدى من هذا الاعداد ، وضاعفنا الطاقة الوقودية لدمراتنا القديمة كما وسعنا مجال تحركاتها ، وخاضت القيادة المشتركة التي كونت حديثا في ليفربول بكل امكانياتها غمار المعركة ، ومع تزايد المدمرات الحارسة بالاضافة الى خبرة بحارتها استطاع الاميرال نوبل تقسيمها الى وحدات دائمة ، لكل وحدة منها ، قائد معين ، وتقوت روح العمل الجماعي وتعود الرجال الاتحاد والتفاهم على العمل مع ادراك عميق لوسائل قائدهم ، وهكذا أصبحت وحدات المدمرات تخطو نحو القوة والمتعة بينما بدأت قوات الغواصات تنحدر الى هاوية الضعف والوهن .

ولم يأت شهر حزيران حتى كنا قد صعدنا الى درجة التفوق ، وكنا نبذل كل جهد لتطوير اسلوب قوافلنا ، وتدعيم الدفاع عنها ، وتحسين الاسلحة والاختراعات الحديثة ، وكانت احتياجاتنا الضرورية تتمثل في حيازة عدد أكبر وأسرع من سفن الحراسة شرط قدرتها على تحمل لوازم الوقود لاطول زمن ممكن وانشاء أكبر عدد من الطائرات ذات المدى البعيد ، وادار على جانب كبير من الكفاية والصلاحية ، ولم تكن الطائرات المقاتلة في القواعد الساحلية تستوفى الشروط المطلوبة ، بل ظلت القوافل في احتياج لطائرات تحملها البواخر لتتنقض على أية غواصة تبدو على مدى اطلاق النار في وضع النهار ، وتضطرها الى أن تنسحب الى أعماق المياه فيحال بينها وبين القتال ، أو لتخبر عنها القطع البحرية الاخرى فتصل الى المكان في وقت مناسب وقد استطاعت في مدى قصير طائراتنا المقاتلة التي تطلقها أجهزة قاذفة اقيمت لهذا الغرض خاصة على ظهر البواخر التجارية العادية او البواخر التي تحولت الى بوارج وأمدتها السلاح الملكي بالرجال ، استطاعت ان تواجه خطر طائرات « القوكاولف » وكان الطيار المقاتل الذي ينطلق كصقر يطارد فريسة يعتمد في بداية الامر على احدى سفن الحراسة لانقاذ حياته ، وبهذا أصبحت « القوكاولف » فريسة مطاردة بعد ان كانت الطائر المنقض ، وفرض غزو هتلر

لروسيا على القيادة الالمانية توزيعا جيدا لقواتها ، وهكذا بعد ان ارتفعت خسائرننا في شهر نيسان الى القمة حتى بلغت ثلاثمائة الف طن اسبوعيا أخذت تهبط الى خمس هذا الرقم في أشهر الصيف .

وقام الرئيس الان بخطوة جديدة هامة ، فقد رأى انشاء قاعدة فسي ايسلندة ، وان ترابط بموافقتنا وحدات أمريكية بها ، بدلا من القوات البريطانية وفي ٧ تموز وصلت الحامية الامريكية الى الجزيرة فأصبحت جزءا من الدفاع عن النصف الغربي ، وأخذت قوافل أمريكا تحت حماية بوارجها تصل بصفة مستمرة الى ريكجا فيك منذ هذا التاريخ ، ويغض النظر عن ان أمريكا لم تكن قد دخلت الحرب الا انها قد أصبحت تحمي البواخر الاجنبية مع قوافلها .

وفي قمة هذا الصراع ، قمت باصدار امر تعيين ، احسبه اهم ما أصدرت من تعيينات وأحسنها حظا ، في ادارتنا الحربية ، ففي سنة ١٩٣٠ ، وقد كنت خارج الحكم ، قبلت لأول مرة ولاحر مرة في حياتي ان أكون عضوا لمجلس ادارة احدى الشركات ، وكانت مؤسسة فرعية لمنظمة اللورد انشاب الخاصة بخطوط الملاحة الشرقية والهندية ، وظللت مداوما ثمانى سنوات على حضور الاجتماع الشهري الذي يعقده مجلس ادارة الشركة ، وحريضا على تأدية واجباتي نحوها حرصا تاما ، وخلال الجلسات تعرفت شيئا فشيئا برجل من المع الشخصيات ، كان يرأس حوالي ثلاثين او اربعين شركة ، كانت واحدة منها ولعلها أصغر الجميع الشركة التي كنت أحد أعضاء مجلس ادارتها ، وقد عرفت على التو ان فردريك ليثرز هو الرأس المدبر والقوة الموجهة لهذه المنظمة بكاملها ، وكان واسع المعرفة ، ويمتلك الثقة به امتلاكاً ، ومكثت الاحظه عاما بعد عام من منصبى المتواضع في الشركة التي يرأسها ، وكثيرا ما حدثت نقسي : « اذا نشبت حرب اخرى فهذا هو الرجل الذي في وسعه ان يقوم بالدور العظيم الذي أداه كبار رجال الاعمال الذين كانوا رهن توجيهي في وزارة الذخائر خلال عامي ١٩١٧ ، ١٩١٨ .

وكان ليثرز قد أبدى استعداداه لوزارة الملاحة لدى قيام الحرب في سنة ١٩٣٩ في المساهمة بخدماتها ، ولم تقم بيننا صلة وثيقة حينما كنت في الامبرالية لان المهام التي كان يقوم بعبئها فنية وليست توجيهية ، أما الان وفي سنة ١٩٤٠ عندما واجهت صعوبات معركة الاطلاقى ، وكنا في امس الحاجة الى تنسيق الاعمال بين ادارة شئون باخراتنا التجارية وبين تحركات تمويننا بالسكك الحديدية والسيارات من موافينا المجردة ، فقد لمع اسمه في ذاكرتي ، وتنبهت

اليه في ايار ، وبعد مشاورة طويلة نظمت من جديد وزارتي الملاحة والنقل في جهاز واحد متكامل ، وعهدت الى ليترز رئاسته ، ولاعلى له امكانيات السيطرة اللازمة عليه أوجدت منصب وزارة النقل البحري ووليته عليها ، وكنت احس بحرج شديد امام مجلس العموم حين اقفز باشخاص الى اعلى المناصب الوزارية دون ان يكونوا قد نموا داخل المجلس ومكثوا به بضع سنين وتستبد الرغبة بالاعضاء المحنكين من غير اعضاء الوزارة لان يعملوا على مضايقة كس قادم جديد ، فيجد نفسه بدون اية مناسبة متضايقا من اعداد الخطب والقائما في المجلس ، لذلك رجوت العرش ان يتفضل بمنح الوزير الجديد لقب « لورد » .

وأصبح اللورد ليترز منذ ذلك التاريخ حتى انتهاء الحرب قائمنا بالاشراف الكامل على وزارة النقل الحربي ، وصار اسمه يصعد رويدا رويدا وقد استطاع ان يحرز ثقة رؤساء اركان الحرب وجميع اركان الحرب وجميع الوزارات في الوطن ، وثق صلاته بالامريكيين اللامعين في ذلك الميدان ، وكان على صلة طيبة وفي غاية النجاح بالمستر لويس دوفلاس رئيس مجلس الملاحة الامريكي ، الذي غدا بعد ذلك سفير بلاده في لندن ، وفي استطاعتي ان اقرر ان ليترز كان مساعدا هاما لى على تصريف شئون الحرب ، وقل ان عجز هذا الرجل ذو الكفاءة الممتازة عن القيام بأعباء المهمات التي كنت القيها على عاتقه .

وحيثما كانت تفشل الوسائل الوزارية او الاركانية في تصريفها لبعض الشئون كنقل فرقة اضافية او تحويلها من البواخر البريطانية الى الامريكية ، او انجاز بعض المهمات العاجلة كنت التمس عوننا شخصيا ، وعلى التواجد هذه التعقيدات قد حلت وكأنا مستها يد ساحرة .

ورابت البارجتان - الطرادتان الالمانيتان شار نهورست وغنيزناو في بريست طيلة هذه الاشهر القاسية ، وكان انطلاقها الى الاطلنطي محتملا في اية لحظة ، ويفضل السلاح الجوي الملكي شل نشاطهما فقد استمرت طائراتنا تشن الهجوم عليهما وهما في الميناء ، منزلة بهما افدح الاضرار ، مما تركهما عاطلتين عن العمل طيلة العام ، وقد توجه انتباه العدو الى اعادتهما لالمانيا ولكنهما عجزا عن تحقيق ذلك أيضا حتى عام ١٩٤٢ ، وسنعرف في اللحظة المناسبة مقدار نجاح اسطولنا وقيادة سلاحنا الجوي الساحلي ، وكيف اصبحنا مسيطرين على الموقف في المداخل وكيف باتت الغواصات تنهار في نفس البحار التي عملت على تدميرنا فيها الى ان استطعنا ثانية بأسلحتنا تطهير مداخل الجزر البريطانية .

الفصل الرابع عشر

– يوغوسلافيا –

فترض علينا ان نصل الى قرار حاسم بشأن جيش النيل ٠٠ هل نرسله الى اليونان ام لا وكان اجتياز هذا التساؤل في غاية الاهمية ، لا لمعاونة اليونان ومؤازرتها في محنتها وعذابها فحسب ، بل ايضا لتكوين خط دفاعي بلقاني يضم يوغسلافيا واليونان وتركيا لعدم الهجوم الالمانى المحتمل مع ما يتضمنه ذلك من تأثير على روسيا السوفيتية ، لا يمكن ان نعرف مداه الان ، وان كنا لا نستطيع ان ننكر خطورته ، هذا اذا كان الحكام الروس قد تفهموا المخاطر التي تهددهم ، ولم يكن ما نقدر على ارساله هو الذي سيوجه المسألة البلقانية فغابتنا المعروفة هي اثاره العمل الجماعي وتنظيمه ، واذا استطعنا عن طريق التلويح بقوتنا ان نستثير يوغسلافيا واليونان وتركيا على الاشتراك في العمل ، فأننا سنقهر هتلر على الاختيار بين امرين ، اما ان يترك اطماعه الحالية في البلقان واما ان يخوض قتالا عنيفا مع جيوشنا المشتركة حيث يجد قوة واحدة متازرة في الميدان ، ولم يصلنا انذاك انه عقد العزم على زحفه الجريء على روسيا ولو عرفنا ذلك في حينه لكنا على يقين اكبر من فوز خططنا وكنا نعرف انه يغامر بالسقوط بين مقعدين ، وقد يقهر على التحول عن مشروعه الضخم الى اتخاذ خطوات مبدئية في البلقان ، وهذا هو الذي حدث بالفعل ، ولم يكن في مقدورنا ان نصل الى معرفته آنذاك ، وقد يعتقد البعض ان ما افترضناه كان صحيحا ، او انه كان اصح مما كنا ندرك ، فقد سعينا الى ضم يوغسلافيا واليونان وتركيا في جبهة قوية ، اما واجبنا حتى ذلك الوقت فقد كان يفرض

علينا تعضيد اليونانيين ، ولجميع هذه الاهداف فقد كان موقف فرقنا الرابع في الدلتا في وضعه الملائم .

وفي مطلع مارس اخذت القوات الالمانية تنهال على بلغاريا ، واستعد الجيش البلغاري بكل قواه ، ووقف على اهبة الاستعداد على الحدود اليونانية وكانت الجيوش الالمانية بصفة عامة تزحف نحو الجنوب ، يؤازرها البلغاريون بشتى الطرق والوسائل ، واستأنف المستر ايدن والجنرال ديل في اليوم التالي محادثتهما في اثينا ، وارسل اليها المستر ايدن على هدى ذلك ببرقية غائية في الاهمية ، غيرت بعض الشيء من افكارنا بلندن ، وبالرغم من ان الاميرال كنغهام كان مقتنعا بصحة ارائنا الا انه لم يدعنا في شك من الاخطار البحرية التي تهددنا في المتوسط ، والتي تحملها هذه الاراء وسجل رؤساء اركان الحرب العوامل العديدة التي تنمو باطراد متعارضة مع خططنا في البلقان وخصوصا مع نوايانا في تسيير جيش الى اليونان ولخص الرؤساء رأيهم في هذه العبارة : « الاخطار قد تزايدت على المشروع بصورة واضحة » لكنهم لم يرتابوا على الاطلاق في تأكيد القادة العسكريين العاملين في المنطقة بان الامور لا تدعو الى اليأس بأي حال من الاحوال وبعد ان اعملت التفكير منفردا في تشيكرز ليلة الاحد تلك وقبلت وجهات النظر التي عرضت بوزارة الحرب في الصباح الماضي ، ارسلت الخطاب التالي الى المستر ايدن ، الذي كان قد رجع الى القاهرة من اثينا ، وكان هذا الخطاب يشير الى تغير ملحوظ من موقعي ، ولكنني احمل كل المسؤولية في القرار الاخير ، اذ انني كنت واثقا في قدرتي على ايقاف كل شيء لو اقتنعت وايقاف العمل اسهل دائما على كل انسان من العمل ، وقد جاء في خطابي :

« لقد حاولنا بكل الوسائل ايجاد اتحاد بلقاني ضد المانيا ، وعلينا ان نتذرع بالحذر فلا ندفع اليونان وحدها دون رغبتها الحرة ، الى المقاومة الباسلة ، في الوقت الذي ليس في مقدورنا مؤازرتها الا بمجموعة ضئيلة من الجنود تستطيع ان تصل الى ميدان المعركة في الفرصة المواتية ، وقد تشار مشاكل امبراطورية هامة عندما نزج بالجيوش النيوزيلندية والاسترالية في عمل وصفته انت بالخطورة البالغة . ولذا علينا ان نحرر اليونانيين من احساسهم بالتزام الرفض لاي انذار الماني ، اما اذا اصروا من ناحيتهم على الكفاح فعلينا ان نؤازرهم في موقفهم بقدر المستطاع ولكن سرعة الزحف الالمني ستقف بكل تأكيد دون اشتراك جيوش امبراطورية كبيرة في القتال ، ولا تعتبر خسارة اليونان والبلقان بأي حال من الاحوال بالنسبة لنا خسارة

جوهريه بشرط ان تظل تركيا بكل امانة وصدق على الحياد ، ونستطيع ان نستولي على رودس ، وان نعد لاحتلال صقلية او طرابلس وتشير علينا جهات عديدة بأن الاطاحة بنا من اليونان يضر بسمعتنا في اسبانيا وقيشي ، اكثر من تركنا للبلقان ، الذي لا نقدر على الحيلولة بينه وبين السقوط في يد العدو ولضالة قواتنا .

وقد ارفقت بهذه البرقية التقرير الهام الذي وصلني من رؤساء اركان الحرب .

وعندما قرأ رسالتي سفيرنا لدى اليونان ، اصيب بالياس وخيبة الامل ، وارسل الى وزير الخارجية برقية يقول فيها (كيف يتسنى لنا ان نترك ملك اليونان وحده بعد ما ابدى له القائد العام ورئيس اركان حرب الجيش تأكيدات واضحة عن الفرص المتاحة للنصر ، انني لا اتصور موقفنا كهذا لاننا سنضع انفسنا موضع التشهير في اليونان وفي كافة انحاء العالم ، وسيشاع اننا نعرف الوفاء بالوعد ، فليس هناك مجال لان نترك لليونانيين حرية رفض او قبول الانذار الالمانى ذلك لانهم قد بيتوا العزم على قتال المانيا وحدهم اذا لزم الامر والقضية الان هي : انمد لهم يد العون ام لا ؟

وعلى هدى ذلك قررت وزارة الحرب تأجيل خطتها الى ان يصلنا رأى المستر ايدن ، وفي اليوم التالي وصلتنا برقية يعبر فيها عن رايه بقوله : « لا شك في انهيار اليونان دون ان نحاول انقاذها بالتدخل العسكري ، خصوصا بعد ان ادرك العالم كله ان انتصارات الصحراء قد وفرت لنا القوات المطلوبة ، سينذر بفاجعة محتمة ، فحينئذ ستهوى يوغسلافيا ايضا ، ولن نشق في امكانيات تركيا على الصمود اذا استطاع الالمان والايطاليون ان يحتلوا اليونان دون ان نقاومهم بأي مجهود من جانبنا ، ولا اشك في ان سمعتنا ستتأثر من طردنا من اليونان طردا معيبا ، لكن القتال في اليونان وتكاليفه اخف بكثير على أي حال من ان نتخلى عنها لتقابل اقدارها بلا معين وبالنسبة الى الظروف الحاضرة ، فكلنا هنا نرى ان ما رايناه سابقا يجب ان ينقذ ويجب ان نمد اليونان بكل عون .

وذهبت انا ورؤساء اركان الحرب ، الى وزارة الحرب التي كانت تحيط علما بكل شيء اثر وقوعه لتقرر بصده الرأى الاخير ، وهناك عرضنا القضية للبحث ، وعلى الرغم من ادراكنا للحقيقة الماثلة التي تؤكد عجزنا عن ارسال طائرات اكثر عددا من التي قد ارسلناها او من التي ما زالت في طريق وصولها ، فاننا لم نجد سبيلا للتردد ولم تختلف اراؤنا وقد ادركت ان

المسؤولين هناك قد مروا بتجربة مفيدة ، لم يكن ثمة ريب على الاطلاق في انهم يقعون تحت اي ضغط سياسي من لندن ، وقد اقتنع سمطس بوجهة النظر هذه وهو الدقيق الرأي ، الذي يتمتع باستقلال فكري خاص ، ولم يكن في طاقة اي انسان ان يدعي او يفترض اننا تطفلنا على اليونان واجبرناها على العمل ضد ارادتها ، اذ لم تكن ثمة دولة أكثر منها اقتناعا بالسير في الطريق الذي سلكته ، وكنا بقرارنا قد حصلنا على تعضيد كافة الرجال المسؤولين الذين أصدروا حكمهم في حرية كاملة ، وعلى هدى من أدراكهم التام للموقف من مختلف جوانبه ، وكان زملائي الذين حنكتهم التجارب قد انتهوا بكامل حريتهم الى النتيجة ذاتها ، وكان المستر منزيس الذي تثقل المهام كاهله بالنسبة لهذا الموضوع في غاية الشجاعة لقد كان من جذوة متقدة تنادي بالعمل وكان الاجتماع قصيرا والقرار حاسما والرد مختصرا وهذا هو : « رأي رؤساء أركان الحرب ، انه بالنظر إلى اصرار قادة المنطقة ورئيس أركان حرب الجيش البريطاني ، ورؤساء الوحدات المعدة للعملية ، على وجهة نظرهم في ان يستمر تنفيذ القرارات السابقة ، فقد انتهت رأي وزارة الحرب الى ان تتحمل أنت مسئولية تنفيذ العملية ، وهي في قرارها هذا تتحمل كافة التبعات ، وستتصل بحكومات استراليا ونيوزيلانده بتنفيذا لهذا القرار .

وعلينا الان ان نتحدث عن مصير يوغوسلافيا ، كان الدفاع عن منطقة سلانيك يعتمد اعتمادا كاملا على دخولها الحرب ، وكان في غاية الاهمية ان نقف على حقيقة نياتها وقد اجتمع سفيرنا في بلغراد المستر كاميل في ٢ اذار بالمستر ايدن في اثينا ، وأوقفه على مدى الفزع الشديد الذي يستولي على يوغوسلافيا من المانيا ، وان الاحوال الداخلية ليوغوسلافيا يسودها القلق بسبب النزاع السياسي ، لكن هناك فرصة لضمان تأييد اليوغوسلافيين اذا ما أدركوا سياستنا في مساندة اليونان ، وارسل وزير الخارجية في ٥ اذار مستر كامبل الى بلغراد ومعه رسالة مخطوطة الى ولي عرش يوغوسلافيا الامير بول ، وقد صور المستر ايدن مال يوغوسلافيا اذا وقعت في أيدي الالمان ، وأبدى له تصميم تركيا واليونان على الدفاع اذا وقع أي هجوم عليها ، فعلى يوغوسلافيا في مثل هذا الموقف ان تنحاز اليها ، وطلب من السفير ان يبلغ الامير بول شفويا ان بريطانيا قد أعدت قوات كبيرة برية وبحرية لتمد بها اليونان بصورة عاجلة وانه اذا ما وصل الى اثينا أحد ضباط الأركان اليوغوسلافيين فسيشارك في المباحثات الدائرة .

وانعقد الكثير من الامل على ظروف الوصي ، فقد كان الامير انسانا محبوبا ، يحب القنون ولكن سمعة الملكية في البلاد كانت سيئة للغاية ، وكان في هذه الاونة يحرص على موقف الحياد حرصا تاما ، وكان يخاف من تفسير الالمان لاية حركة تتخذ من جانب يوغوسلافيا على انها استشارة لهم ، فيزحقون جنوبا في اتجاه البلقان ، وقد أبدى اعتذاره عن قبول زيارة للمستتر ايدن كان قد رغب في القيام بها ، وكان الرعب مستوليا عليه ، ولم يكن في وسع الوزراء والسياسة المرموقين ان يبدوا رأيهم بوضوح ، ولكن كان هناك رجل واحد فقط يدعى سيموفيتش يخرج على هذا الاجماع وهو جنرال في السلاح الجوي ، يمثل العناصر الوطنية بين ضباط الجيش وقد أصبح مكتبه الخاص منذ حزيران مكانا سريا لمقاومة التسلل الالمانى الى البلقان ، ومناهضة موقف الجمود الذي طبع تصرفات حكومة يوغوسلافيا .

وقام الامير بول بزيارة سرية لبيرخيتسغارن في ٤ اذار ، وانصاعا للتهديد الشفوي الشديد تعهد بأن تنحى يوغوسلافيا منحى بلغاريا ، وعندما عاد كانت في انتظاره وجهات نظر متعارضة في مجلس التاج ، وفي المحادثات الفردية التي قام بها مع القادة - سياسيين وعسكريين - وكان الجدل حادا ، ولكن الانذار الالمانى كان حقيقة صارخة ، وعندما استدعى الجنرال سيموفيتش الى القصر الابيض حيث يقيم الامير بول على التلال المطلة على بلغراد ، عارض الاستسلام بشدة ، وأكد ان مثل هذا القرار سترقضه بلاد العرب وان الاسرة المالكة ستواجه الاخطار ، ولكن الامير كان قد بذل تعهده السالف باسم بلاده .

وعقد مجلس الوزراء ليلة ٢٠ اذار جلسة وانتهى فيها الى قرار الاشتراك في المعاهدة الثلاثية فاستقال ثلاثة وزراء احتجاجا ، ومن محطة جانبية للسكة الحديدية استقل رئيس الوزراء ووزير خارجيته القطار الى فيينا ، وأبرما الميثاق في اليوم التالي مع هتلر - وأذيع النبا مباشرة من راديو بلغراد - وسرعان ما أعقبته شائعات في جميع مقامي العاصمة اليوغوسلافية ومندياتها عن الويلات المتوقعة .

وكانت المجموعة الصغيرة الصغيرة من الضباط الموالية لسيموفيتش قد فكرت منذ أشهر في القيام بعمل ايجابي اذا ما استسلمت الحكومة للالمان ، وعندما شاعت في ٢٦ انباء رجوع الوزيرين من فيينا الى بلغراد رأى هؤلاء ان يبدوا العمل ، ولسنا نعرف عددا كبيرا من الثورات كان في مثل نعومة ثورتهم ، حيث لم ترق قطرة من الدماء فقد قاموا باعتقال عدد من كبار الضباط ، وساق

رجال الشرطة رئيس الوزراء الى مكتب سيموفيتش حيث وقع مرغما على استقالته ، وأخبر الامير بول بأن سيموفيتش قبض على ناصية السلطة نيابة عن الملك وأصدر أمرا بحل مجلس الوصاية ، واقتيد على التو الى مكتب سيموفيتش الامير نفسه ، حيث فرض عليه وعلى زميله ان يوقعا على وثيقة تنازلهما عن الوصاية ، وامهل الامير بضع ساعات ليحزم متاعه ، وليغادر البلاد مع أسرته الى اليونان في الليلة نفسها .

وقد وضعت هذه الخطة وتم تنفيذها بواسطة مجموعة صغيرة من الضباط الوطنيين الصربيين الذين تحسسوا بوعي مشاعر الجماهير الحقيقية ، فاثار عملهم موجة طاغية من التأييد الشعبي ، وانطلقت الجماهير الصربية في شوارع بلغراد تهتف « الحرب ولا المعاهدة » والموت والعبودية » وتناثرت حلقات الرقص في الميادين العامة وانتشرت الاعلام الانكليزية والفرنسية في كل مكان ، ورددت الجموع الصربية الياثسة المناضلة النشيد الوطني في اندفاع عارم وشهد الملك في ٢٨ اذار صلاة شكر في كاتدرائية بلغراد ، وكانت الظروف وحدها هي التي خلصته من مجلس الوصاية ، وحضر الصلاة جمهور ضخم مندفع ، ووجهت علنا الاهدان لوزير المانيا المفوض ، وبصق الشعب على سيارته واثارت المفاجأة العسكرية موجة فياضة بالحماس والوطنية واستيقظ الشعب الذي كان قد حرم من حرية العمل ، تحت سلطة حكومة مستبدة ، وحكام فاسدين ، والذي رأى الكثير من الشباك تنصب من حوله ، استيقظ ليعلم تحديه للطاغية وهو يحلم بالفتح في عزة بطشه وسلطانه .

وكأنما أصيب هتلر بلدغة ثعبان ، فاهتاج ذلك الاهتياج المدمر الذي يعوق التفكير السليم لبعض الوقت والذي كان يؤدي به أحيانا الى اخطر مغامراته وأكثرها جراءة ، واستدعى في فورة اهتياجه رجال القيادة العليا الالمانية ، فأسرع جورنج وكايتل ويودل ، ولحق بهم على الفور ريبنتروب ، وقال ان يوغوسلافيا قد أصبحت عاملا مربيا في الخطة المدبرة ضد اليونان ، وفي خطة « ببروسا » القادمة ضد روسيا كذلك ، واستطرد قائلا ان اعلان يوغوسلافيا عن حقيقة نواياها ليس سيئا على كل حال قبل الشروع في عملية « ببروسا » ثم اضاف : يجب تدمير يوغوسلافيا ووحدتها القومية والعسكرية ، ويجب أن تنزل بها ضربة قاضية ، وأمضى القادة العسكريون طيلة الليلة يعدون خطط العملية ويحضرون أوامرها ، وقد أيد كايتل وجهة نظرنا في ان الخطر الاكبر الذي تتعرض له المانيا يتمثل في هجوم من المؤخرة على الجيش الايطالي ، واستطرد قائلا : « وكان قرار هتلر بالهجوم على

يوغوسلافيا يعني نقض كافة الخطط والترتيبات العسكرية التي اعدناها حتى ذلك الوقت وقرض علينا ان نضع ثانية ترتيبات الهجوم على اليونان ، وان ننقل وحدات أخرى من الشمال عبر المجر ، أجل لقد فرض علينا الارتجال في كل شيء .

وكان تآثر المجر متوقعا بصفة عاجلة ، وبالرغم من ان الغزو الالماني المباشر ليوغوسلافيا سيمر عبر رومانيا ، الا أن كافة سبل المواصلات تخترق الاراضي المجرية ، وكرد فعل لما حدث في بلغراد بعثت المانيا بوزير المجر في برلين الى بودابست بالطائرة ، ومعه رسالة فورية الى الاميرال هورتى الوصي على عرش المجر هذا نصها :

« ستمحى يوغوسلافيا من الوجود ، لناهاضتها علنا لسياسة التفاهم مع المحور ، ويجب ان تعبر معظم القوات الالمانية المسلحة اراضي المجر أولا ، لكن الغزو الرئيسي لن يتم عبر الجبهة المجرية ، وعلى القوات المجرية ان تتدخل في هذه الجبهة ، ومقابل هذه المعاونة سترد للمجر كل الاراضي التي كانت لها سابقا والتي ارغمت فيما مضى على التنازل عنها الى يوغوسلافيا ، ان المشكلة عاجلة تماما والمانيا تنتظر الرد السريع الايجابي » .

وكانت المجر قد ابرمت مع يوغوسلافيا معاهدة صداقة في كانون اول ١٩٤٠ ، لكن الرفض الصريح لمطالب المانيا سيؤدي الى احتلال المانيا للمجر في غمار الزحف العسكري الذي أصبح متوقعا في كل حين ، ولا سبيل السى اغفال الاغراء الالماني بترك مناطق الحدود الجنوبية التي انتزعتها يوغوسلافيا من المجر بعد الحرب العالمية الاولى ، وكان الكونت تيليكي رئيس وزراء المجر يحافظ باستمرار على حرية بلاده في التصرف ، ولم يكن مقتنعا بأية حال بانتصار المانيا في الحرب وعندما وقع المعاهدة الثلاثية ، وكان غير متأكد من استقلال ايطاليا كشريكة في المحور

وكان معنى انذار هتلر له أن يتخلى عن الوفاء ليوغوسلافيا بما تفرضه معاهدة الصداقة لكن القيادة المجرية العليا تحت قيادة الجنرال ويرث وهو الماني الاصل ، قد تسلمت زمام المبادرة منه ، ووضعت مع القيادة الالمانية العليا خطة مشتركة بدون أن تدري حكومة المجر .

وقد أسرع تيليكي فاتهم الجنرال ويرث بالخيانة ، ووصلت برقية من وزير المجر المفوض في لندن الى رئيس الوزراء في ٢ نيسان سنة ١٩٤١ ، يخبره فيها ان وزارة الخارجية البريطانية تعتبر - كما ابلغته رسميا - ان مساهمة المجر في أية عملية ضد يوغوسلافيا اعلان من بريطانيا للحرب ضدها .

وهكذا رأت المجر نفسها في موقف اختيار بين مقاومة لا جدوى منها
لاختراق الجيوش الألمانية لأراضيها ، وبين الوقوف علنا ضد الحلفاء وخيانة
يوغوسلافيا ، ولم يجد الكونت تيليكي سوى طريق واحد لانقاذ شرفه
الشخصي ، فما تجاوزت الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم بقليل حتى كان
قد ترك وزارة الخارجية وذهب الى غرفته الخاصة بقصر ساندور ، وبعد
محادثة تليفونية يغلب على الظن أنها أخبرته باجتياز القوات الألمانية لحدود
بلاده ، أطلق الرصاص على نفسه منتحرا .

وبذلك قدم حياته قربانا للتكفير عن نفسه وعن شعبه من جريمة الغزو
الألماني ليوغوسلافيا ولا شك في أن هذا العمل قد برأ ساحته أمام التاريخ
ولكنه لم يوقف الغزو الألماني ، ولا ما تسبب عن هذا الغزو من نتائج .

وبدأت في خلال ذلك عملية زحفنا في اتجاه اليونان ، وقد سار الزحف
تبعاً لترتيب قيامه من اللواء البريطاني المدرع الاول ، والفرقة النيوزيلندية ،
والفرقة الاسترالية السادسة وقد جهزت هذه القوات بالعتاد الكامل على
حساب غيرها من الفرق في الشرق الاوسط وكان المفروض أن يذهب في أثرها
اللواء البولندي ، والفرقة الاسترالية السابعة ، وأعدت الخطة على أن تأخذ
قواتنا خط الياخمون الذي يبدأ من مصب النهر الذي يسمى الخط باسمه مارا
بغيريا وادهيسا حتى الحدود اليوغوسلافية ، وكان على جيوشنا أن تتحاز إلى
الجيش اليوناني المقيم في هذه المنطقة ، والذي كان يبلغ حوالي سبع فرق ،
على أن يتولى القيادة العامة الجنرال ويلسون .

وكانت القوات اليونانية أقل عددا مما تعهد به الجنرال باباغوس بادئ
الامر ، فقد كان القسم الأكبر منها يبلغ خمس عشرة فرقة في البانيا ، أما
الباقى ففي مقدونيا ، وقد رفض باباغوس أن يسحبها ، وقد أصبحت قوة غير
عسكرية بعد أربعة أيام من الغزو الألماني ، وتكونت قواتنا الجوية من حوالي
ثمانين ، طائرة محاربة أمام قوة جوية ألمانية يبلغ عددها عشرة أضعاف ذلك
العدد ، وكانت نقطة الضعف في خط الياخمون تتمثل في جناحه اليسر الذي
يتمكن الألمان بزحف سريع عبر المناطق الجنوبية اليوغوسلافية من محاصرته ،
ولم يكن هناك اتصال بالقيادة اليوغوسلافية العليا حيث لم تكن نحن
واليونانيون قد وقفنا على مدى استعدادها ونوع خطتها للدفاع وعلى أية حال
فقد تمثلت أمامنا في الأرض الوعرة التي يجب أن يجتازها العدو ، وطبيعتها
التي تستطيع أن تعطي الفرصة لليوغوسلافيين لتعويق الزحف فترة من
الزمن ، ولكن هذا الظن تبدد سريعا ولم يجد الجنرال باباغوس أن عملية

الانسحاب من البانيا تستطيع ان تواجه حركة التطويق هذه فهي ستؤثر أولا في الروح المعنوية للجيش ، كما ان وسائل النقل السريعة غير متاحة للجيش اليوناني كما ان وعورة الطريق تجعل هذا الانسحاب متعذرا جدا ولا شك في ان تأخير قرار بهذا الشأن قد ضيع الفرصة المتاحة ، وفي غضون هذه الملابس وصل الى الجبهة الامامية لواؤنا المدرع في ٢٧ اذار ، وتبعته بعد ايام قليلة الفرقة النيوزيلندية .

ولا شك في ان اخبار ثورة بلغراد ، قد بثت في نفوسنا الارتياح والامل فهي على اقل تقدير مكسب وحيد ملموس لما بذلنا من جهود متوالية في سبيل قيام جبهة للحلفاء في البلقان . ولنع ان تسقط الدول واحدة بعد اخرى في يد هتلر بسهولة ويسر ورؤى ان يظل ايدن في اثنينا للتصرف في امر تركيا . وان يتوجه الى بلغراد الجنرال ديل ، وكان في استطاعة كل انسان ان يئس من وضع يوغوسلافيا الا اذا تكتلت سائر الدول المعنية في جبهة واحدة بمنتهى السرعة ، وكانت الفرصة متاحة بالنسبة ليوغوسلافيا على الاقل لتسديد ضربة الى مؤخرة الجيوش الايطالية المضطربة في البانيا ، واذا سدد الجيش اليوغوسلافي ضربة فورية حاسمة استطاع ان يحقق عملا جوهريا من وجهة النظر العسكرية فمع ان بلادهم معرضة للغزو من الشمال الا ان هذه الفرصة ستمكنهم من احراز كمية هائلة من الذخائر والعتاد ، تقدر على تموينهم في حرب العصابات بالجبال ، وقد أصبحت املهم الوحيد ، ولا شك في ان تحقيق مثل هذه الضربة سيكون امرا عظيما للغاية ، ويسدي صداه في ارجاء الجانب البلقاني بأكمله وهذا ما كنا ندركه تماما في لندن .

لكن اخطاء السنين لا يمكن معالجتها في ساعات ، فعندما هدأت شعلة الحماس العام التي انتقدت في صدر كل انسان ببلغراد بدأ كل منهم يدرك ان بلاده على حافة الهاوية ، وان ليس في مقدوره ان يقوم بأي عمل لانقاذها ، وكان في استطاعة القيادة العامة على الاقل ان تحشد قواتها لكن لم يكن لديها أية خطة استراتيجية ، ولم ير ديل الا الركود وسوء النظام وربما تكون الحكومة اليوغوسلافية نتيجة لخوفها من الوضع الداخلي قد عزمت على تجنب أي عمل يثير المانيا ، وهنا هي الجيوش الالمانية تتدفق عليها كجبال من الثلج ، وكان بمقدور أي انسان حين يتأمل في موقف الوزراء اليوغوسلافيين واراتهم ان يظن انهم عقدوا العزم منذ امد بعيد تجاه الحرب مع المانيا او الصلح معها والواقع انهم لم يبدوا التفكير في هذا الصدد الا في غضون الاثنتين والسبعين ساعة . التي سبقت اجتياح الالمان لبلادهم .

ولاحظ طائرات المانيا في سماء بلغراد صباح ٦ نيسان ، وأمطرت الطائرات العاصمة اليوغوسلافية بوابل من القنابل ، ثلاثة أيام متوالية بصورة منظمة نموذجية وكانت تحلق على ارتفاع قريب من أسطح العمائر بدون أن تهاب أية مقاومة ، فشاع الدمار في كل أنحاء المدينة بصورة تخلو من احساس بالرحمة او الانسانية ، وقد عرفت هذه الغارات باسم « عمليات العقوبة » وعندما خيم الهدوء ثانية على سماء بلغراد في ٨ نيسان تكشف عن حوالي سبعة عشر الف انسان من أبناء العاصمة وقد صاروا جثثا هامة على جوانب الطريق او تحت الانقاض وانطلقت الوحوش الضارية الى فك حصارها من حديقة الحيوانات بعد هذه الغيوم الثقيلة السوداء المليئة بالدخان والشرر ، وسار دب ذاهل لا يدرك شيئا مما يحدث حوله وسط هذا الجحيم في خطوات ثقيلة ومرعبة نحو نهر الدانوب ، ولكنه لم يكن اخر دب لا يفهم .

وفي الوقت نفسه وبلغراد تعاني احوال الغارات، الوحشية ، كانت القوات الالمانية تجتاح من كل الجوانب حدود يوغوسلافيا ، ولم تتحرك القيادة اليوغوسلافية العليا لتسديد ضربتها الوحيدة القاتلة الى مؤخرة الايطاليين ، واعتبرت ان الواجب يلزمها بعدم التخلي عن كرواتيا وبلاد السلوفين ولذلك فقد حاولوا الدفاع عن جميع مناطق الحدود ، ولم يمض وقت طويل حتى وجدت الفرق اليوغوسلافية الاربع العاملة في الشمال نفسها ، محاصرة بالوحدات الالمانية المدرعة . تؤازرها الوحدات الهنغارية التي عبرت نهر الدانوب ، والوحدات الالمانية والايطالية الزاحفة نحو زغرب .

واضطرت الجيوش اليوغوسلافية الى الانسحاب الى الجنوب في ارتباك وفوضى ، ووصل الالمان الى بلغراد في ١٣ نيسان ، وفي خلال ذلك كان الجيش الالمانى الثاني عشر المرابط في بلغاريا قد اجتاحت بلاد الصرب ومقدونيا واقتحم « موناستر » و « يانينا » في اليوم العاشر من نيسان ، فقطع بذلك كل اتصال بين يوغوسلافيا واليونان ودمر جيش يوغوسلافيا في الجنوب .

وما مرت سبعة أيام حتى اعلنت يوغوسلافيا استسلامها ، ونسف هذا الانهيار آمال الاغريق وكان هذا مثالا جديدا لخطة هتلر « عدو واحد في كل مرة » وقد بذلنا ما فوق الطاقة ، لايجاد نوع منظم من العمل ، ولكننا عجزنا ، وليس الخطأ في ذلك خطانا ، وبدت لنواظرننا صورة قاتمة مروعة ، فقد تعاونت خمس فرق المانية - ثلاث منها مدرعات - على غزو اثينا من الجنوب وبدأ لنا ان مقاومة يوغوسلافيا في الجنوب كانت تلقى تدميرا كاملا وان جناحنا الايسر على نهر الياخمون سيدهمه الخطر عما قريب وفعلنا بدا الهجوم على

حرس جناحنا في ١٠ نيسان ، ولكنه ترقف اثر مقاومة عنيفة ظلت يومين في طقس اس للغاية . وغربا كانت فرقة واحدة من الفرسان اليونانيين متصلة بالقوات المرباطة في البانيا ، فرأى الجنرال ويلسون التراجع بجناحه الايسر نتيجة لما يلقيه من ضغط شديد .

وتم هذا في ١٣ نيسان ، ولكن القوات اليونانية اخذت حينذاك فسي التمزق ، ومنذ ذلك الوقت اوضحت القوات البريطانية في الميدان وحدها ، وبالنظر للخطر الذي يحقد بالجناح الايسر رأى الجنرال ويلسون التراجع به الى ترموبولي ، واستشار باباغوس فوافق على رأيه ، وعرض بدوره ان تنسحب في هذه المرحلة الوحدات البريطانية عن اليونان ، وكانت الايام القليلة التي اعقبت ذلك اياما فاصلة وبعث ويفل في ١٦ نيسان برقية يقول فيها ان باباغوس اعترف للجنرال ويلسون بان القوات اليونانية تواجه ظروفًا قاسية ، وتعاني مصاعب جمة في التمرين والادارة نظرا للغارات الجوية ، وكانت أوامر ويفل الى ويلسون تشير باستمرار القتال بجانب اليونانيين ما داموا قادرين على القتال ولكنه ترك له حرية تقدير الجلاء عندما تحتم الظروف ، وأعطيت التعليمات لكافة البواخر الذاهبة الى اليونان بالعودة اذ كان الموقف في غناء عن امدادات جديدة أما البواخر التي بسبيل تنزيل حمولتها فيجب ان تتم مهمتها .

وقد قلت ردا على خطورة هذه الانباء غير المنتظرة انه لا يهمننا الاستمرار في اليونان ضد رغبة قائدها العام ، اذ نكون بذلك قد عرضنا البلاد للدمار والخراب .

ولذلك اصدرت أوامري بالانسحاب فورا اذا ما رأت حكومة اليونان ذلك واضفت الى ذلك قلبي : « أما كريت . . فمن المحتمل الابقاء عليها في يدنا بكل وسيلة » .

واستقل الجنرال ويلسون في ١٧ نيسان زورقه البخاري من طيبة الى القصر الملكي في تاتوي حيث اجتمع بالملك والجنرال باباغوس وسفيرنا ، وقرروا التراجع الى ترموبولي كعمل حازم ممكن ، وكان الجنرال ويلسون على يقين من قدرته على الصمود بهذا الخط الى وقت ما ، وتركز الحديث على أسلوب الانسحاب ونظامه ، واستقر الرأي على الا تجلو الحكومة اليونانية الا بعد اسبوع على الاقل .

وقد أوردت سابقا اسم المسيو كوريسيس رئيس وزراء اليونان ، وقد وقع الاختيار على هذا الرجل ليسد الثغرة التي خلفها ميتاكساس بوفاته ،

وكانت مؤهلاته التي رشحته لهذا المنصب ٠٠ سيرة شخصية نظيفة ، ومعتقدات واضحة ثابتة ، واتضح لي ان ليس في مقدوره ان يشاهد تدمير بلاده ، كما لم يعد في وسعه النهوض بأعبائه ، فحذا حذو الكونت تيليكي ، رئيس وزراء المجر وقرر ان يضحي بحياته ثمنا لكل ما حدث فانتحر في ١٨ نيسان ، ولا شك ان ذكره سيبقى محفوفة بكل تقدير .

وكان الانسحاب الى ترمولي مهمة قاسية ، ولكن تغطية المؤخرة البارعة ، صدت رغبات الجيش الالمانى المتحفزة ، منزلة به اضرارا جسيمة ، ولم يأت يوم ٢٠ نيسان ، حتى كانت جيوشنا قد سيطرت تماما على مواقعها الجديدة ، وكانت الجبهة قوية أما جنودنا فكانوا متعبين جدا ، واستمر الجيش الالمانى في زحفه ببطء ، ولم تحدث أي محاولة شديدة وجادة لاختيار الموقع ، وفي اليوم نفسه اعلنت القوات اليونانية التي كانت لا تزال على حدود البانيا استسلامها وفي ١١ نيسان ابلغ جلالة ملك اليونان الجنرال ويفل ، ان الزمن وحده هو الذي لم يساعد أية قوة يونانية على مؤازرة الجناح البريطاني الايسر قبل ان يملك العدو فرصته للهجوم ، وقد قال ويفل ان واجبه في مثل هذا الموقف يهيب به ان يعمل على انسحاب سريع للجيش ، حتى ينقذ منه ما يمكن انقاذه وقد لاقى هذا الرأي قبولا تاما من الملك فيبدو انه كان يفكر فيه وعبر عما يشعر به من أسف لانه كان السبب في ان تلاقي الجيوش البريطانية هذا الوضع المرحج وأبدى استعداداه لتقديم كل ما في وسعه من مساعدة ، لكن هذا كله كان هباء ، وفي ٢٤ نيسان استسلمت اليونان استسلاما تاما للزحف الالمانى الجبار .

وأصبحنا الان امام عملية انسحاب تشبه تلك العمليات التي فرضت علينا عام ١٩٤٠ ، واتضح لنا ان اجلاء ما يزيد عن خمسين الف رجل بصورة منتظمة من اليونان ، في مثل هذه الاوضاع القاسية ، أمر مستحيل ، ففي دنكر كنا متفوقين جويا أما اليونان فالالمان يقبضون بيد عن حديد على ناصية الجو ، وفي وسعهم الاستمرار في الاغارة على الموانئ وعلى القوات المنسحبة ، وكان من الواضح ان الجلاء لا يمكن ان يحدث الا اثناء الليل ، وان المفروض على الجنود الا يبصرهم العدو نهارا قريبين من الساحل ، انها قصة النزويج تعود من جديد ، مع تزايد الصعوبات التي تلقاها عشرة اضعاف على الاقل . وقذف الاميرال كنجهام بكل الوحدات البحرية الخفيفة لتحمل العبء

وتتألف هذه الوحدات من ستة طرادات وتسع عشرة مدمرة ، وبدأت عمليات الجلاء ليلة ٢٤ من الموانئ اليونانية الصغيرة ، وسواحلها الرملية في الجنوب واستخدمت فيها فضلا عن القطع البحرية ، سفن النقل ، وسفن الهجوم ، مجموعة من القطع الصغيرة .

وتواصل العمل طيلة خمس ليال متوالية ، وسيطر العدو في ٢٦ على الجسر الهام على قناة كورنث ، بهجوم جوي عن طريق جنود المظلات ، وانتهالت القوات الألمانية على شبه جزيرة البلوبونيس ، يمطرون جنودنا المجاهدين وابلا من النيران الحامية ، بينما هم يجاهدون لكي يصلوا الى الشيطان الجنوبية ، ونزلت بنا في نوبليون احدى الكوارث ، فقد مكنت الناقلة « سلامات » في الميناء وقتا أكثر مما ينبغي في محاولة مستميتة - ولكنها غير مجدية - لتنفذ أكبر عدد من القوات ، وما كادت تغلق من الشاطئ بعد الفجر حتى انقضت عليها طائرتان فأغرقتها ، وسعت مدمرتان لانقاذ القوات التي كانت تحملها وبيلغ عددهم سبعمائة جندي ولكن الغارات الجوية اغرقت المدمرتين ايضا ، ولم ينج رجال من القطع الثلاث سوى خمسين رجلا تقريبا .

وقام طرادان وست مدمرات في ٢٨ ، ٢٩ بنقل ثمانية الاف جندي وحوالي الف وأربعمائة لاجيء يوغوسلافي من السواحل القريبة من كالا مانا ، وما كادت تصل احدى المدمرات الى المكان لتبدأ في عملية الاجلاء حتى كان العدو قد احتل البلدة وشوهدت نيران الحرائق مشتعلة ، فعدلت المدمرة عن المهمة ، وفضلا عن ان قواتنا شنت هجوما على القوات المحتلة وأرغمتها على الانسحاب من البلدة ، فلم يقدر النجاة لأكثر من أربعمائة وخمسين رجلا من الشواطئ الشرقية ، عن طريق اربع مدمرات استعانت به الزوارق ، وكانت هذه الاحداث نهاية لعمليات الانسحاب الاساسية ، واستطاعت قطعنا البحرية انقاذ جماعات صغيرة متناثرة في عديد من الجزر او في زوارق صغيرة بالبحر في غضون اليومين التاليين ، كما استطاع حوالي الف وأربعمائة ضابط وجندي بفضل اليونانيين ورغم الاخطار الهائلة ان يمهّدوا السبيل لهم نحو مصر فرادى في خلال الاشهر التالية .

وهكذا خسرنا حوالي احد عشر الف جندي ، ولكننا استطعنا انقاذ (٥٠٦٦٢) رجلا ، من بينهم رجال السلاح الجوي الملكي ، وعدة الوف من قبرص وفلسطين واليونان ويوغوسلافيا ، وهذا العدد يبلغ حوالي ٨٠ ٪ من القوة الاساسية التي ارسلت الى اليونان ، وكان هذا - بكل تأكيد - بفضل بحارة اسطولنا التجاري واساطيل اصدقائنا وما امتاز به اولئك البحارة من

عزيمة قوية وخبرة وافرة ، وتصميم على اداء المهمة تحديا لكل ما قد العدو من محاولات مستميتة عنيفة ، وقد خسرنا نتيجة للهجوم الجوي باخرة منذ ٢١ نيسان حتى نهاية الانسحاب . وقد بذل السلاح الجوي ووحدة من سلاح الاسطول الجوي من كريت كل ما في طاقتها ، ولكن ا كان يتفوق دائما عليهما بأعداد ضخمة من الطائرات ومع ذلك فقد قد سلاحنا الجوي بمهمات رائعة منذ تشرين الثاني الماضي الى آخر مع اليونان فقد اسقط بكل تأكيد (٢٣١) طائرة معادية ، وأمطر العدو بما خمسمائة طن من القنابل . أما خسائر سلاحنا فكانت فادحة أيضا . اسقطت (٢٠٩) طائرات منها (٧٢) في المعارك الجوية ، التي شهدت نادرة من البطولة .

وكان الاسطول اليوناني الصغير قد فر الى الاسكندرية وكان عبا طراد وست مدمرات حديثة ، وأربع غواصات ، وصلت كلها سالمة نيسان وانضمت الى قواتنا تحت اشراف قادتنا وقد أبدى هذا الا الصغير مهارة ملحوظة في كل المعارك التي خاض غمارها بجانبنا منذ التاريخ في البحر الابيض المتوسط .

واذا كانت كتابتي عن هذه الكارثة توحى بأن جيوشنا البريط والامبراطورية لم تعضدها المساعدات العسكرية اليونانية ، فان علينا أن ان هذه الاسبوع الثلاثة من الحرب في شهر نيسان ضد الحشود المهاة تعتبر لدى اليونانيين قمة النضال الذي امتد خمسة أشهر ضد ايطاليا ، قضى على كل منابع القوة والحياة في البلاد ، فقد هوجم اليونانيون ايار من عام ١٩٤٠ دون سابق انذار بقوات تبلغ ضعف ما لديهم على فضمدوا امامها اولا ، ثم شنوا هجوما ارغم العدو على الانسحاب مس اربعين ميلا داخل البانيا ، كما استمر اليونانيون طيلة الشتاء القاسي في الجبال عدوا قد تفوق عليهم في العدد والعتاد . ولم تكن في حوزتهم النقل في الشمال الغربي او سبله اللازمة للقيام بمناورة سريعة يصدر الهجوم الالماني العنيف في اخر لحظة والذي يطوق مؤخرة الجيش اليو ويحاصر جناحه ، ولقد استنفد جيش اليونان كل طاقته في الدفاع الباء حياض وطنه .

ولم يكن ثمة سبيل ، لالقاء التهم ، فما لقيناه من اخوة ومساء الجيش اليوناني قد استمر في صدق واخلاص الى النهاية ، وكان سكا، وغيرها من مناطق الانسحاب الاخرى ، مهمتين بسلامة من عرفوا أنهم

جاءوا الا لحمايتهم ، اكثر من اهتمامهم بسلامتهم الشخصية ، وسيظل الشرف العسكري اليوناني نقي السيرة .

ووجهت اذاعة الى الشعب حاولت فيها ان لا اعبر عن مشاعر العالم الناطق بالانكليزية فحسب ، بل ان اعرض الظروف التي صنعت اقدارنا أيضا وجاء فيما اذعته :

« وبينما ننظر قلقين متألين الى أحداث أوروبا وأفريقيا وإلى ما قد يحدث في آسيا علينا ان نسيطر على أعصابنا والا يستبد بنا الفزع أو الاحساس بوهن العزيمة ، وعندما نسلط نظرة فاحصة على المتاعب التي ما زالت تنتظرنا ، فاننا نتذرع بالايمن من جديد اذا ما لاحظنا العقبات التي استطعنا اجتيازها الى اليوم ، وكل ما يحدث اليوم لا يمكن ان تقاس أخطاره بالاضطرار التي واجهناها في العام الماضي ، ولا شيء مما قد يحدث في الشرق يمكن ان يقاس بما يعد اليوم في الغرب

واني لاذكر أبياتا من الشعر ، أحس بأنها تتوافق مع ظروفنا الراهنة ، ويملؤني الاعتقاد بان كل أرض تنطق بالانكليزية ستصدر عليها هذا الحكم وكذلك كل بلد تخفق فيه راية الحرية .

« وبينما - عبثا - تتكسر الامواج الواهنة
يائسة من الحصول على شبر من الشاطئ الهاديء
بعيدا .. هناك .. عبر الخلجان والمداخل
تأتي الموجة الغامرة .. في هدوء
وعبر النوافذ الشرقية .. وحدها .. لا يأتي الضوء
عندما يشرق نور الصبح .. وتنسل الاشعة من النوافذ التي تصعد
الشمس امامها الى اجواء الفضاء ..
بطيئة وعلى مهل ...
بل هناك .. الى الغرب .. لا تزال الشمس مشرقة ...

الفصل الخامس عشر

جناح الصحراء

اصبحت كل مهمتنا تكوين جبهة بلقانية مع الابقاء على جناح الصحراء في شمال افريقيا ، وكان في مقدورنا ان نكون هذه الجبهة في طبرق ، ولكن ويفل اختار ان يستمر في زحفه السريع غربا وان يستولى على بنغازي ، مما مهد لنا الاستيلاء على برقة كاملة ، وكانت الزاوية البحرية في « العقيلة » هي المدخل لهذه المنطقة ، وتقرر في القاهرة ولندن ان تستمر هذه الجبهة بكل الوسائل ، وافرادها بالاولوية دون اية مغامرة اخرى ، وقد اقتنع ويفل نظرا الى تحطيم الجيوش الايطالية تحطيمها كاملا في برقة ، وبالنسبة للمسافات البعيدة التي يفرض على العدو اجتيازها قبل ان يستطيع الاتيان بقوات جديدة ولا في استطاعته الى فترة طويلة الابقاء على هذا الجناح الفعال بوحدات معقولة والاستعاضة عن الوحدات المجرية بأخرى اقل منها خبرة ، ولم يكن يخطر ببال احد ان يضحي بهذا المرتكز الذي يعتمد عليه كل شيء في الصحراء او تعرضه للخطر في سبيل اليونان او من اجل اي شيء اخر في البلقان .

ولكن صعد الان على المسرح وجه جديد ، هو مقاتل الماني سيفرض نفسه كثيرا على اساطير قومه وبطولاتهم الحربية .

ولد ايروين رومل في هايد نهايم دورتمبرج في تشرين الثاني سنة ١٨٩١ وفي

الحرب العالمية الاولى اشترك في معارك الارغون ورومانيا واطاليا ، وجرح مرتين واستحق ارفع الاوسمة من الصليب الحديدي ومنع وسام الاستحقاق ، وتولى في بداية الحرب العالمية الثانية قيادة مقر الفوهرر في الحملة على بولندا ثم تولى قيادة الفرقة السابعة المدرعة (البانزر) من الفيلق الخامس عشر ، وقد سميت هذه الفرقة باسم « الاشباح » وكانت خلال جبهة الموز بمثابة رأس الرمح للاختراق الالماني ، ونجا من الاسر بما يشبه المعجزة عندما شن البريطانيون هجوما مضادا على اراس في ٢١ ايار سنة ١٩٤٠ ، وكانت فرقته ثانية رأس الرمح الذي اخترق السوم متقدما نحو السين في اتجاه روان مطوقا الجناح الفرنسي الايسر ، وموقعا عددا كبيرا من الفرنسيين والبريطانيين حول سان فاليري في أسره ، واحتلت فرقته شربورج ، بعد ان تم انسحابنا ، واستسلمت له المدينة وما بها من القوات الفرنسية التي كان يبلغ تعدادها ثلاثين الفا .

وكانت هذه المهام الجسيمة هي الدافع الى اختياره ، في بداية عام ١٩٤١ قائدا للقوات الالمانية المرسلة الى ليبيا ، وكانت امانى الايطاليين في ذلك الحين تنحسر في الابقاء على مقاطعة طرابلس وتولى رومل قيادة الفرق الالمانية النشيطة تحت الاشراف العام للقيادة الايطالية ، وحاول اثر وصوله تدبير هجوم قوي وعندما طلب منه القائد الايطالي في بداية شهر نيسان ان يتعهد له بعدم تحرك القوات الالمانية الافريقية بدون أوامره قال له رومل محتجا : « بصفتي قائدا المانيا يجب على اصدار التعليمات حسب ما يملئ علي الموقف » .

ولقد ابدى رومل في الحملة الافريقية ضروبا من البراعة في قيادة التنظيمات وتوجيهها وخصوصا في ارجاع التجمع على الفور بعد اية عملية ، والاستمرار في اكتساب النصر والخلبة ، ولقد كان مغامرا عسكريا نادرا ، يسيطر بكل براعة على شئون التموين ويستخف بالدفاع ، وكانت القيادة العليا الالمانية قد القت له الزمام في بداية الامر فادهشها بانتصاراته ، وجنحت الى تقييد تصرفاته ، وقد انزلت بنا حيويته اضرارا فادحة مؤلة ، ولكنه جدير بالتحية التي ارسلتها في مجلس العموم في كانون الثاني ١٩٤٥ ، مع ما جلبه الي من لوم الجماهير فقلت انذاك ان امامنا خصما جريئا بارعا ، بل اني لاجد من الجرأة في نفسي ما استطيع به ان اقول: اننا نواجه جنرالا عظيما، خليقا بكل تقدير ، لانه على الرغم من كونه جنديا المانيا مخلصا ، بدا يمقت هتلر ويكره كل اعماله ، واشترك في مؤامرة عام ١٩٤٤ لانقاذ المانيا من قبضة الدكتاتور المجنون ، وقد دفع حياته ثمنا لهذا العمل .

كان مضيق العقيلة مرتبطاً بالموقف كله ، فإذا استطاع العدو اجتياح جبهتنا والوصول الى اجدابية ، فإن بنغازي وكل ما يقع الى غرب طبرق ، تغدو في خطر ، وكان على العدو ان يختار بين ان يمضي في الطريق الساحلي الممهّد الى بنغازي وما وراءها وبين الطرق الصحراوية التي تصل مباشرة الى الميخيلي وطبرق ، والتي تتخلل منطقة صحراوية يبلغ طولها مائتي ميل وعرضها مائة وقد اخترنا نحن هذا الطريق في شهر شباط الماضي فحاصرنا واسرنا بضعة الاف من الايطاليين المنسحبين عبر بنغازي ولم تكن نفاجأ قط اذا اقتحم رومل الطريق نفسه ، وواجهنا بلعبتنا السابقة ، ولكن مادامنا مسيطرين على العقيلة فإنه لن يستطيع استغلالنا بهذه الصورة .

وقد اعتمدت كل خطوة على ادراك طبيعة الحرب البرية والصحراوية معا فان الحرب في الصحراء تستلزم تفوقا في السلاح المدرع ، وفي نوع الجنود لا كميتهم وتستلزم جوا معينا . ولو ضمنا هذه الامور لاستطعنا ان ننتصر في معركة الانهيار والتماسك في الصحراء حتى ولو اصبحتنا ببوابة العقيلة ، ولكن اي وضع من هذه الاوضاع لم يتهيا لنا برغم كل الاعدادات التي اتخذناها ، كانت قوات العدو الجوية متفوقة علينا ، وكان سلاحنا المدرع في حالة غير صالحة لاسباب ساذكرها فيما بعد ، كما كانت احوال جنودنا التدريبية ومعداتهم الى الغرب من طبرق تثير الاسى .

وبدا رومل في هجومه على العقيلة يوم ٢١ اذار ، وتراجعت وحدتنا المدرعة التي لم تكن في الحقيقة تتألف الا من لواء واحد مع مساعديه تراجعت في بطنه خلال اليومين التاليين ، وضع منذ البداية تفوق العدو الجوي ، ولم تكن تلقى بالا - للطائرات الايطالية ، فثمة مائة طائرة المانية مقاتلة ، ومائة من القاذفات المنقضة وفي مواجهة قسوة هذا الهجوم انتثر نظام جيوشنا ونزلت بنا افدح الخسائر وانهار في يوم واحد ، وفي ضربة واحدة ، جناح الصحراء الذي كان اساس جميع خططنا .

وأرسلت التعليمات بالجلء عن بنغازي ، ولم تأت ليلة ٦ نيسان ، حتى كان الاخلاء يتم بسرعة بالغة ، وكانت طبرق قد دعمت بقوات اضافية واصرنا على الاحتفاظ بها ، ولكن الفرقة الثانية المدرعة وكتيبتان هندية مدرعتان فوجئت بحصار من قوات العدو فاستطاع عدد من الرجال اختراق طريقهما للنجاة بأنفسهم من هذا المأزق واسروا حوالي مائة جندي الماني ، ولكن الاغلبية قد استسلمت مرغمة ، وعلى التواء اندفع العدو الى البردية والسلم بواحدة عدد كبير من السيارات المدرعة الثقيلة والمشاة

المحملين على السيارات ، بينما شنت قوات اخرى هجومها على خطوط طبرق الدفاعية ، واستطاعت قواتها الصمود امام هجومين منزلة بدبابات العدو اضراارا بالغة ، وهكذا استتب الامر في تلك الاونة بكل من طبرق والحدود المصرية .

كانت الهزيمة التي منى بها جناح الصحراء على حين وجود جيوشنا في معركة اليونان فاجعة من نوع فريد ، واستبدت بي الحيرة الكاملة فسي العوامل التي ادت الى هذه الكارثة ، ولذا فقد اسرعت في مساءلة الجنرال ويفل في بداية فترة التوقف ، وطلبت اليه ان يوضح لي بصورة كافية كل ما حدث ، وكان مما لاينسى ان الجنرال نسب الى نفسه كل تقصير ، ورأى انه سبب الكارثة التي استنفذت كل ماله من سلاح مدرع .

وبينما كنت في رتيشلي اقضى عطلة الاسبوع في يوم الاحد ٢٠ نيسان وصلتنى رسالة كتبها الجنرال ويفل الى رئيس اركان حرب الامبراطورية يوضح فيها خطورة الموقف ، وقد توسع في الحديث عما يوجد لديه من دبابات .

ورسم لى لوحة قاتمة ، واستطرد قائلا : « ويظهر من هذا بوضوح ان هناك فرقتين فقط من الدبابات السريعة في مصر في اواخر شهر ايار ، بينما لم تكن هناك اية قوة متوافرة لسد الفراغ حين وقوعه ، وبالرغم من ان لدينا بمصر قوات مدربة ومتفرقة تكفي لعدة كتائب ، وان مدنا بالدبابات الثقيلة والسريعة امر جوهري وخصوصا ان الدبابات الثقيلة تنقصها السرعة وتحتاج الى مجال العمل الفسيح الذي تحتمه العمليات الصحراوية ، ارجوك يا رئيس الاركان ان تبذل شخصا كل ما في وسعك » .

وقد فزعت من قراءة هاتين الرسالتين ورأيت ان اتغافل عن كل تردد يبدو على الاميرالية من ارسال القوات عبر البحر الابيض المتوسط ، وان ارسل الى الاسكندرية راسا قافلة تتضمن ما يحتاج اليه الجنرال ويفل من الدبابات . وكنا قد جهزنا قافلة بامدادات مدرعة ضخمة ، وكادت ان تقلع الى مصر عن طريق راس الرجاء الصالح فقررت ان تتجه البواخر السريعة الحاملة للدبابات في القافلة من جبل طارق نحو مصر متخذة اقصر طريق حيث توفر اربعين يوما ، وحضر الجنرال ايسماي ليراني عند الظهيرة وكان يقيم بالقرب من المنزل الذي اقيم فيه ، فدفعت اليه برسالة خاصة ليبلغها بدوره

الى رؤساء الاركان ، ورغبت اليه في ان يذهب بها عاجلا الى لندن ، وان يؤكد لرؤساء الاركان انني اعطي اهمية بالغة لتنفيذ هذه الفكرة عاجلا .

وكان رؤساء الاركان في الوقت الذي وصل فيه ايسماي الى لندن يعقدون اجتماعات ، فأخذوا يناقشون رسالتي في ساعة متأخرة من الليل . وكانت احساساتهم الاولى لا تؤيد ما جاء بها ، كما كان املهم ضعيفا في ان تستطيع السفن المحملة بالدبابات ان تمخر عباب المتوسط ، متجنبين كل خطر بينما تواجه بعد اجتيازها مالطة ودخولها في المضائق هجمات من طائرات العدو المنقضة ، بينما لا تستطيع طائرتنا المقاتلة فرض حماية عليها من قواعدها الساحلية ، و اشار بعضهم الى حاجتنا للدبابات في داخل البلاد والى ان اي خسارة في الدبابات خارج البلاد تستلزم - لتعويضها - ارسال دبابات اخرى من سلاحنا الداخلي .

وعندما اجتمعت في اليوم التالي مع لجنة الدفاع احسست بالارتياح لوقوف الاميرال باوند الى جانب رأيي ، وموافقته على عبور القافلة في البحر المتوسط وتعهد ماريشال الجو بورتال رئيس اركان السلاح الجوي بأن يبذل كل ما في وسعه لارسال وحدة من طائرات «اليوفاتير» ، لتضفي من جزيرة مالطة حمايتها على القافلة ورغبت حينئذ الى اللجنة ان تبحث في ارسال مائة دبابة سريعة اخرى سع القافلة ، فاعترض الجنرال ديل على ذلك بحجة افتقارنا الى الدبابات في الدفاع الداخلي ، ولكنني تذكرت انه ابدى موافقته سابقا وقبل عشرة شهور على ارسال نصف ماتحت يدنا من دبابات الى الشرق الاوسط عن طريق رأس الرجاء الصالح وكان هذا في تموز سنة ١٩٤٠ ، لذلك لم اسلم بحجته الراهنة ، ولعل القارئ يذكر ان خطر الغزو لم يكن بالنسبة لنا في نيسان سنة ١٩٤١ خطرا مهددا بالنظر الى ما اعدناه من ترتيبات المقاومة ، وها نحن اليوم نرى ان رأيي كان صائبا وقد استقر الرأي اخيرا على تنفيذ هذه الخطة التي دعوناها باسم « النمر » .

وبينما حدث كل هذا كانت طبرق لا تزال تملأ خواطرننا ، فقد فقدنا كل طائرات « الهاريكين » في اليونان ، وفي طبرق حطم عدد منها او اسقط ، وأكد ماريشال الجو لونغمور ان كل محاولة للابقاء على سرب من الطائرات المقاتلة في طبرق ستضيف خسارة جديدة دون ان

تخدم غاية ، وهكذا سيمضي العدو في سيطرته الكاملة على سماء طبرق الى ان نقدر ثنائية على تجهيز قوة جوية محاربة ، ومع ذلك فقد صدت قواتنا هناك هجوما جديدا للعدو وكبدته خسائر لا يستهان بها ، وأسرت من رجاله مائة وخمسين .

وقد ارسل الينا الجنرال ويفل عاجلا اخبارا مروعة اخرى عما ينتظره رومل من امدادات جديدة ، واخبرنا بأن نزول الفرقة الالمانية المدرعة الخامسة عشرة الى الساحل سيتم في ٢١ نيسان ، وكانت هناك علامات على استخدام بنغازي في هذه العمليات بشكل منظم ، وعلى الرغم من ان حشد المؤن يستلزم خمسة عشر يوما على الاقل الا ان ويفل توقع ان تبدأ الفرقة الالمانية الجديدة المدرعة ، والفرقة الخامسة الالية الخفيفة ، والفرقتان الايطاليتان اريتي وتورنتو هجوما في منتصف حزيران ، وقد ازعجنا ونحن في الوطن ان نعجز عن استخدام بنغازي قاعدة ، مفيدة ، بينما يستطيع الالمان بعد سيطرتهم عليها استخدامها على هذا النحو .

وفي الاسبوعين التاليين اخذ اهتمامي وقلقي يجتمع في سير عملية « النمر » ولم اكون ابدا من مدى الاخطار التي اخذ على عاتقه لورد البحر الاول مواجهتها ، وأدرك ان الاميرالية تنظر للعملية بقلق وخوف ، وممرت القافلة المكونة من خمس بواخر تسير بسرعة خمس عشرة عقدة بمضيق جبل طارق في ٦ ايار تحت حراسة من قوة الاميرال سرموفيل التي تتكون من ريناون والملايو وارك رويل وشيفلد واحتوت القافلة كذلك على المجموعات التي بعث بها لتدعيم اسطول متوسط وتتكون من الملكة اليصابات - وناباد وفيجي ، وصدت الغارات التي شنت على القافلة في ٨ ايار دون ان تصاب احدى القطع بأي سوء ، لكن الالغام في تلك الليلة قد انفجرت في باخرتين لدى اقتراب القافلة من مضيق صقلية فنشبت الحرائق في احدهما وغرقت بعد الانفجار الذي حدث على سطحها ، وقدرت الثانية على الاستمرار في الرحلة مع القافلة وعندما وصلت القافلة مدخل المضيق من جانب قناة سكيركي غادرها الاميرال سومر فيل بقواته وعاد الى جبل طارق وجاء الاميرال كنجهام الذي نهيات له الفرصة في ٩ ايار لتسيير قافلة الى مالطة فالتقى بقافلة «النمر» باسطوله على بعد خمسين ميلا جنوب الجزيرة ، وشقت كل هذه القوات طريقها نحو الاسكندرية حتى رست بها في امان دون اي ضرر او خسارة .

وبينما كان قدر العملية كلها مجهول المصير ، ذهبت بأفكاري الى

جزيرة كريت التي كنا على يقين من وقوعها تحت وطأة هجوم جوي بين لحظة
واخرى ، وفكرت في ان الالمان اذا قدروا على احتلال مطارات الجزيرة
واستعمالها ، فستكون لديهم الفرصة دائما لتعزيد مركزهم وتدعيم اوضاعهم ،
وان في مقدور اثنتي عشرة دبابة ان تفرض عليهم حرمانا ابديا من هذه
الفرصة ، ولهذا طلبت من رؤساء اركان الحرب ان يدرسوا احتمال اقلاع
عدد من بواخر القافلة « النمر » الى كريت لتمدها بعدد قليل من هذه الدبابات
قبل ان تصل الى الاسكندرية .

وعلى الرغم من موافقة زملائي الخبراء على الامة القصوى لارسال
هذه الدبابات الا انهم راوا ان الاسلام عدم استهداف بقية ما تحمله الباقرة
لخطر مؤكد نتيجة لهذا التغيير ، واستنادا لهذا طلبت في ٩ ايار تجنبنا لما
يحدث من اخطار انه لو ابحرت احدى السفن كطلان لامونت مثلا الى خليج
سودا في كريت ، ان تبحر هي او سواها بعد ان تنزل حمولتها في الاسكندرية
وتحمل اثنتي عشرة دبابة لتنزلها هناك ، واصدرت التعاليم بمقتضى هذا
مباشرة ، وارسل اليها ويقل في ١٠ ايار انه قد تمت الاجراءات لتبعث الى
كريت بست دبابات ثقيلة وخمس عشرة دبابة خفيفة .

ويحتمل وصولها خلال الايام القليلة القادمة اذا واثت الظروف ، وكانت
الامور تسير سيرا حسنا لكن الزمن كان معنا في سباق .



الفصل السادس عشر

معركة كريت

في مختلف شئوننا في البحر الأبيض المتوسط بدت بوضوح الاممية الاستراتيجية لكريت فالبورج البريطانية التي تتخذ من خليج سودا قاعدة لها او التي تتزود منه بالوقود تستطيع ان تفرض حماية - ليس من السهل تجاهل اهميتها - على جزيرة مالطة ، فاذا استطعنا حماية قاعدتنا في كريت ومقاومة كل الغارات الجوية ، فان تفوقنا البحري يصد بصورة كافية كل هجوم عن طريق البحر ، ولكن على بعد مائة ميل فقط من الجزيرة كانت توجد قلعة رودس الايطالية بما جهزت به من مطارات شتى ومنشآت حربية هامة ، بينما لم يكن يوجد في كريت سوى الصمت والجمود وكنت قد ارسلت التعليمات المتوالية بضرورة تحصين خليج سودا ، واشرت في أحداها الى ضرورة تحصين هذا الخليج «سكابا فلو» بطريقة جديدة ، والان وقد مرت على الجزيرة وهي تحت سيطرتنا أكثر من ستة أشهر ، وليس في وسعنا تدعيم الميناء بمجموعة حديثة من بطاريات المدفعية المضادة للطائرات الا اذا انتقصنا من حاجتنا الماسة في جوانب اخرى ، كما أن قيادة الشرق الاوسط كانت لا تعرف السبيل لسد احتياجاتها الى العمال الملازمين لتوسع المطارات واصلاحها ، ولم تكن هناك ضرورة ملحة لوجود قوات كبيرة في كريت أو حشد وحدة جوية كبيرة. في مطاراتها ما دامت بلاد اليونان في يد الحلفاء ، ولكن كان المفروض ان تعد كريت كقاعدة تستقبل الامدادات حين توفرها ، وعند اقتضاء الظروف لارسالها ، ولا شك في أن تبعة القصور في تفهم المشكلة ، وفي ضعف التنفيذ

للاوامر الصادرة تتوزع بين القاهرة وهوايتهول معا ، ولم تتضح لي جسامه الاعباء التي يحملها كاهل الجنرال ويقل وجهازه ، ومدى القصور في تكوين هذا الجهاز الا حين حلت بنا الكوارث في برقة وكريت والصحراء ، لقد جهد ويقل وسع طاقته ، لكن الجهاز التنفيذي الذي كان تحت يده لم يكن كفوءا لتحمل الاعباء الكثيرة الهائلة المفروض اضطراره بها نتيجة لاربع او خمس معارك تنشب في وقت واحد .

وكان جهاز مخابراتنا في نروة دقته ومهارته في تلك الآونة ، فسي غمار الاضطراب الشديد الذي اجتأح اثينا غداة الاحتلال الالماني لها ، بدأ ضباط الاركان الالماني يتخفون مما اشتهر عنهم من حيطة وحذر ، وكتمان شديد للاسرار الحربية ، فذب النشاط في وسائل استخباراتنا ، وتذرعوا بالجرأة والحيوية ، مما اتاح لنا في الاسبوع الاخير من شهر نيسان ان نتلقى معلومات هامة عن الضربة القادمة لالمانيا ولم يكن في مقدور الالماني التستر على تحركات الفيلق الجوي الحادي عشر ولا نشاط رجاله ، او اخفاء سرعة تجميع القطع البحرية الصغيرة في الموانئ اليونانية عن الميون اليقظة والاذان المرهفة ، وقد تحملت بما لم يسبق له مثيل - متاعب شخصية في دراسة كافة التقارير وتقدير شتى البراهين ، للتأكد من درجة الوعي اللازمة لدى القادة بالاهمية الخاصة للهجوم المنتظر ، وللتأكد من انهم قاموا بنقل هذا الوعي الى قادة العمليات الفعلية في الميدان .

وكننت قد رغبت الى رئيس اركان الحرب ، ان يتولى الجنرال فريبرغ قيادة - جزيرة كريت ، فابلغ الرئيس بدوره رغبتى الى الجنرال ويقل الذي وافق على الفور ، وكان فريبرغ صديقي من سنين عديدة ، وكان حائزاً على وسام صليب فكتوريا ووسام الخدمة الممتازة ، ووسامين آخرين ، مما يؤكد تفوقه في اداء واجبه العسكري ، وكان كميته الاوحد - كارتون دي ويارث - يستحق لقب « الضفدعة » الذي اطلقته عليه ، فكلا الرجلين بطل جابه النيران بصلابة وكاد ان يطير اشلاء دون ان يتأثر في جسده او في معنوياته بما يتعرض له من احوال ، ولم يكن احق منه في بداية الحزب بتولي قيادة الفرقة النيوزيلندية فتولى قيادتها ، وكان يدور بذهني في شهر ايلول سنة ١٩٤٠ ان يعهد اليه بقيادة اكثر فاعلية ، وها هي الفرصة المواتية التي تقدم اليه فيها هذه القيادة المهمة ليتولى زمامها

ولم يكن أي من فيربيرغ وويفل واهما أو خياليا ، فالوضع الجغرافي لجزيرة كريت يجعل من الدفاع عنها معضلة ، فهناك طريق احد يسير في محاذاة الشاطئ الشمالي للجزيرة وتوجد على امتداده كل النقاط الصالحة للهبوط والغزو في الجزيرة وكان من المحتم ان تصبح كل نقطة الوسائط الكافية لتأمينها ، ولم يكن في وسعنا توفير قوة احتياطية ، حرة التحرك تتمكن من الانتقال الفوري الى أي نقطة يقع عليها تهديد بعد ان يكون العدو قد قطع الطريق المشار اليه ودعم موقفه فيها ، وهناك طرق غير صالحة للسيارات تمتد من جنوب الجزيرة الى شمالها وعندما اقترب الخطر من الجزيرة اخذت العقول الموجهة تبذل ما في وسعها لحشد الامدادات والتموين والاسلحة وخاصة المدافع في الجزيرة ، ولكن الوقت كان قد مضى ، ففي الاسبوع التالي من شهر أيار كان السلاح الجوي الألماني من قواعده في اليونان وجزر بحر ايجه قد قام بتطويق عنيد وكبدنا اضرارا جسيمة في وسائل النقل وخاصة على الساحل الشمالي ، وهو مكان الموانئ الوحيدة في الجزيرة فلم نستطع ازالة أكثر من ثلاثة الاف طن من سبعة وعشرين الفا من الامدادات الهامة ارسلناها في الاسبوع الثلاثة الاولى من شهر أيار الى البر ، وقد عادت بقية الحمولة ، وكنا قد اوجدنا في الجزيرة حوالي خمسين مدفعا مضادا للطائرات ، وأربعة وعشرين كشافا ، وكان لدينا هناك كذلك خمس وعشرون دبابة خفيفة بعضها كان في حاجة الى اصلاحات وتناثرت حامياتنا في شتى المناطق التي يتوقع هبوط العدو بها وكان مجموع هذه القوات يبلغ حوالي ثمانية وعشرين الفا .

ولكن السبب الرئيسي الذي مهد لهجوم الالمان هو ضعفنا الجوي ، فكانت طائرات سلاحنا الجوي في بداية أيار لا تعدو سنا وثلاثين طائرة ، يصلح النصف منها فحسب لدخول معركة وقد وزع هذا العدد القليل على ربيتمو وماليمي وهيراقلليون وكانت شيئا لا يعا به بالنظر الى الافواج الهائلة التي انهالت على سماء الجزيرة وقد أدرك جميع من يهمهم الامر ضعف سلاحنا الجوي ، وفي ١٩ أيار اعطيت التعليمات بانسحاب ما تبقى من طائرات الى مصر ، وكانت وزارة الحرب ورؤساء الاركان والقاعدة العاملون يدركون ان عليهم ان يختاروا بين أمرين : اما الاشتباك وسط هذه العوامل المروعة ، أو الجلاء عن الجزيرة كما كان ذلك متاحا في مطلع شهر أيار ، ولكن اتحدت وجهات نظرنا على ضرورة الاشتباك ، وعندما ندرك الان بالنظر الى ما توفر لنا أخيرا من دلائل ، انا بغض النظر عن كل صعوباتنا كدنا نقتصر في القتال وان ما أحرزناه بفشلنا كان مكسبا بعيد المدى ونحس بالارتياح لاننا قررنا ان

نغامر وسط هذه الاخطار ، وان ندفع الثمن مهما كان غاليا .

بدأ القتال في صباح ٢٠ ايار ، ولم نشهد حتى هذا التاريخ هجوما اكثر منه اندفاعا وعنفا ، فقد كان لاسباب كثيرة طرازا وحده ، لم ير العالم مثله ، لقد كان اول هجوم في سجل الحروب ينقل بالجو على نطاق واسع ، وكان الفيلق الالماني يمثل عنفوان حركة الشبيبة الهتلرية ، كما كان تجسيدا عنيفا للثأر من اندحار عام ١٩١٨ ، وكان جنود المظلات النازيون بولائهم الشديد وبسالتهم النادرة تعبيراً عن عنفوان الرجولة الالمانية ، وعاطفتها المندفعة للتضحية على مذبح مجد المانيا ووهم السيطرة على العالم ، وقد شاء القدر لهم ان يصطدموا بكبرياء جنود أتى اكثرهم من طرف العالم الاخر عبر المحيطات والبحار متطوعا للدفاع عن الوطن الاب وعن كل ما يؤمن به من قيم الحق والحرية .

وبذل الالمان أقصى ما في وسعهم من قوة ، فقد اعتبر غورنغ هذا الهجوم أعظم ما سيقوم به ، وكان من المحتمل ان يفرض هذا الهجوم على انجلترا ذاتها سنة ١٩٤٠ لو دمر سلاحنا الجوي آنذاك ، ولكن هذا الامل ضاع هباء ، وكان ربما يقع على مالطة ، ولكننا أسرعنا بتفادي هذه الضربة ، وقد لبث الفيلق الالماني الجوي ينتظر ما يزيد عن سبعة أشهر ليسدد هذه الضربة ، وليكشف عن مدى قوته ونوع معدنه ، وما هو غورنغ يجد في وسعه أخيرا ان يصدر الامر الذي تحرقوا شوقا اليه ، وعندما شب القتال لم تكن لدينا المعلومات الكافية عن جنود المظلات لدى العدو ، وكان من المحتمل ان يكون الفيلق الجوي الحادي عشر وحدة من مجموع وحدات ست من هذا الطراز ، وقد مرت بضعة شهور على المعركة قبل ان نعرف يقينا ان هذا الفيلق كان وحده كل ما لدى الالمان من هذا الطراز ، لقد كان في الواقع رأس الرمح للسلاح الالماني ، وهذه هي حكاية نجاحه وحكاية تدميره .

تم اسكات مدافعنا المضادة للطائرات في ماليمي دفعة واحدة ، وقبل انتهاء الضرب الجوي اخذت الطائرات التي تسير بلا محركات تنزل غرب المطار ، وكانت الطائرات تمطر قواتنا حيث توجد وابلا من قذائفها ، واستحال القيام بهجوم مضاد في وضح النهار ونزلت هذه الطائرات أو ناقلات الجنود على السواحل وعلى السهل الضيق وعلى أرض المطار الذي حطمته القذائف، واستطاع خمسة الاف جندي الماني النزول الى الأرض في أول يوم حوّل

ماليمي وكانيا وفيما بينهما ، وقد كبدهم نيران النيوزيلنديين الذين التحموا معهم في معركة بالسلاح الابيض اضرارا جسيمة ، وعندما اتمى المساء كان المطار لا يزال تحت ايدينا ، ولكن من كان لا يزال باقيا من الفوج انسحب عنه الى النقاط المساعدة اثناء الليل واستهدف القصف الجوي العنيف ريتيمو وهيراقليون في ذلك الصباح ، واعقب ذلك هبوط جنود المظلات عند الظهر ، وشبت معركة حامية ، وعندما جن الليل كان كل من المطارين تحت سيطرتنا الكاملة ، وهكذا كانت نتيجة الاشتباك في اليوم الاول مرضية الى حد ما باستثناء القتال في ماليمي ، ولكن عدد الجنود الذين نزلوا في كل نقطة من النقاط كان ضخما ، وقد كان عنف الهجوم اكثر مما دار في خواطرننا كما ان العدو لم يكن يتوقع هذا الدفاع المستमित .

وفي اليوم الثاني واصل العدو غاراته القاسية ، عندما اطلت الطائرات من حاملات الجنود ، وبالرغم من ان مطار ماليمي ظل تحت وابل من نيران مدافعنا القريبة منه ، الا ان حاملات الجنود استمرت في النزول به ، وغربا منه رغم وعورة الارض ، وبدأ ان القيادة الالمانية كانت تستهين بالخسائر فقد دمرت حوالي مائة طائرة على الاقل خلال نزولها في تلك المنطقة ، ومع ذلك واصل العدو عنفوان هجومه ، وشنت هجوما مضادا في تلك الليلة ، زحفت فيه نحو اسوار المطار ، ولكن عندما بزغ النهار عادت الطائرات الالمانية جديد فاستحال على قواتنا الابقاء على مكاسبها .

واصبحت ماليمي في اليوم الثالث بالنسبة للعدو مطارا حسنا للعمليات واستمرت ناقلات الجنود تنهال بما يبلغ عشرين طائرة في كل ساعة وكان في مقدور هذه الطائرات ان تكرر عملياتها ، وقد بلغ عدد الطائرات التي هبطت في تلك الايام التالية حوالي ستمائة طائرة ، ونتيجة للضغط المتفاقم بدأ اللواء النيوزيلندي يتراجع الى ما بعد ريتيمو ، فقد بقيت لنا السيطرة على الموقف في هيراقليون بدأ العدو في عملية انزال شرقي المطار ، واخذ في تثبيت اقدامه على مساحة تتسع شيئا فشيئا .

وفي الليلة التالية رأت قواتنا المجهدة نارا تشتعل في صفحة السماء من ناحية الشمال وشاهدوا بريق انفجارات ، فاقنوا ان اسطولنا بدأ يدخل المعركة واخذت اول قافلة المانية بحرية تبذل محاولة مستميتة ، فتعقبها البوارج البريطانية طيلة ساعتين ونصف الساعة مفرقة اثني عشر زورقا على الاقل وثلاث بواخر مفعمة بالجنود الالمان ، ويبلغ عدد الغرقى من رجال العدو حوالي اربعة الاف في تلك الليلة ، وفي خلال ذلك كان الدير اميرال كنغ قد

أمضى الليلة يعمر عباب البحر أمام هيراقليون على طراداته الأربع ومدمراته الثلاث ، وعندما اطل صباح الثاني والعشرين بدأ يذهب نحو الشمال ، فأغرق احد الزوارق المزدحمة بالجنود ، ووصل الى جزيرة ميلوس في الساعة العاشرة ، وبعد دقائق قليلة رؤيت مدمرة معادية ترافقها بعض الزوارق الصغيرة في شمال الجزيرة ، فناوشتها الوحدات البريطانية وشب بينهما القتال ، ولاحق مدمرة أخرى وهي تنفث سحباً من الدخان ، وتحت هذا الستار يغيب عدد آخر من القوارب ، وهكذا اعترضت وحداتنا البحرية طريق قافلة أخرى مبهمة للعدو محملة بالجنود ، وقد أخبرت طائرات الاستطلاع هذا الى الاميرال كانيغهام ، ولكن مرت أكثر من ساعة قبل ان يتأكد الاميرال كنغ من هذه الاخبار ، وكانت قطعة البحرية تغير عليها الطائرات المعادية منذ الصباح وعلى الرغم من سلامتها التامة فان ذخيرة المدافع المضادة للطائرات قد قاربت الانتهاء ، ولم يدرك الاميرال أي مكسب كان على بعد خطوات منه ، ولكنه احس بان استمراره في المضي شمالاً ، يهدد قواته بالتوقف تماماً عن الحركة ، ولذا فقد اعطى تعليماته بالتراجع غرباً ، وعندما وصلته التعليمات الى القائد العام أصدر أوامره الحاسمة .

« احرص على موقعك ، واتصل بنا باستمرار .. »

يجب الا ينزل الجيش الألماني في كريت ، من المهم جداً الا ينزل جنود الاعداء من البحر في الجزيرة ، .

وقد مضت الفرصة الان لتدمير القافلة التي رجعت ادراجها وتناثرت في اتجاهات شتى بين مختلف الجزر ، وهكذا فر خمسة الاف جندي الماني من نفس المصير الذي لقيه زملاؤهم ، ولعل ما وضع الان من غرابة هذا التصرف للقيادة الألمانية ، واصدارها الامر لهذه القافلة بالمصير محملة بالجنود ، ودون ان تفرض عليها أية حماية في مياه لا تسيطر بحرياً عليها ولا جويًا ، يعتبر مثلاً لما كان يمكن ان يحدث ، وعلى مدى اوسع في بحر الشمال وقناة المانش في ايلول من سنة ١٩٤٠ انه يشير الى نقصان خبرة الالمان ومدى فهمهم القاصر لآثر القوة البحرية في مقاومة القوات المهاجمة ويشير كذلك الى الثمن الباهظ الذي قد تدفعه حياة البشر عقاباً على هذا النوع الغريب من الجهل .

وكان الاميرال كنيغهام قد عقد عزمه ، على تحطيم الغزاة بطريق البحر مهما اتخذ من وسائل ، ولذلك فقد القى بكل جنوده في لهيب المعركة ، ولم يعتريه أي تردد في هدفه فحذف بعدد من بوارجه الغالية في الميدان بل اقحم

كل اسطول المشرق الاوسط عن اخره ، وقد اجمعت الاميرالية اجماعا تاما على قراره ، ولم تكن القيادة الالمانية تقامر وحدها بكل شيء لديها في هذه المعركة ، ولذلك اكدت الاحداث التي وقعت في الثماني والاربعين ساعة بين الحرب البحرية للعدو ان محاولة انزال قواته من البحر مستحيلة ، فلم يكرر المحاولة نفسها مرة اخرى حتى تحدد مصير جزيرة كريت .

وفي يومي الثاني والعشرين والثالث والعشرين من ايار دفع اسطولنا ثمنا غاليا فقد مني طرادان منه وثلاث مدمرات بالغرق كما توقفت البارجة وورسبايت عن التحركات لمدة غير قصيرة ، ومنيت البارجة الاخرى فاليانت وغيرها من القطع البحرية بخسائر فادحة ، وبالرغم من كل ذلك حمينا الجزيرة بحريا ، ووفق الاسطول في اداء واجبه ، ولم يستطع الماني واحد ان يطلا بقدمه الجزيرة عن طريق البحر الى ان انتهت المعركة .

وكان يوم ٢٦ ايار يوما فاصلا ، فطيلة الايام الستة الماضية كانت قواتنا هدفا لقسوة ضارية ، ولم يكن في وسعها ان تصمد اكثر ، فاتخذ في تلك الليلة قرار الانسحاب من كريت . وفرض علينا ان نقوم من جديد بتلك العمليات الشاقة المزعجة ، وان نتوقع أفدح الخسائر ، وان يقوم الاسطول المنهك القوي بعملية ترحيل لحوالي اثنين وعشرين الف جندي أغلبهم من الساحل المنكشف في « صفاقية » وكان من المحتم ان تستثر القوات بالصخور الى ان تدعى لركوب البواخر ، وكان هناك على الاقل خمسة عشر الف جندي يتخذون من شقوق الارض واخاديدها مخابىء لهم بالقرب من صفاقية ، بينما استمرت المؤخرة في مناوشات مستمرة مع الاعداء .

وحدثت فاجعة للحملة التي جهزها الاميرال رولينجز في نفس الوقت لانقاذ رجال الحامية الى الطرادات المنتظرة بالخارج ، وتمت المهمة في الساعة الثانية والنصف صباحا ، وابتحر اربعة الاف جندي على السفن الحربية التي اخذت سبيل العودة وكانت القيادة قد دبرت تأمينا جويا لها ولكن الطائرات المقاتلة لم تستطع الوصول ، ولا العثور على السفن لتغيير المواقيت وفي السادسة صباحا بدأت الغارة العنيفة تمطرهم بوابل من القذائف ، وتواصل ذلك حتى الثالثة مساء عندما بدت القافلة على بعد مائة ميل من الاسكندرية ، واصيبت المدمرة « هيروردر » اصابة شديدة في الساعة السادسة والدقيقة الخامسة والعشرين ، ولم تقدر على الاستمرار في رحلتها وفر الاميرال وكان محقا في ذلك ان يدع المدمرة المصابة لتواجه اقدارها ورؤيت للمرة الاخيرة بالقرب من شواطئ كريت ، وقد نجا اكثر من كانت تقلهم من الجنود ، ولكن

الامان قد أسروهم ، وفيما بعد حدث اسوأ من ذلك ، فقد اصيب الطرادان ديدو ، وأوريون ، والمدمرة ديكوي في خلال الساعات الاربع التالية وخفت سرعة القافلة الى احدى وعشرين عقدة ، ولكن سائر قطعها استمرت في السير نحو الجنوب ، وعلى سطح الطراد أوريون كانت الاحوال مثيرة للربح فعلا ، فقد كان هناك الف ومائة جندي فضلا عن رجالها ، وقد قتل حوالي ٢٦٠ جنديا ، وأصيب ٢٨٠ جنديا اخر بجراح نتيجة لاختراق قنبلة ظهر الطراد ، وقد سقط قبطان الطراد « باك » قتيلا وشبت فيه الحرائق ولاحت في الافق لدى الظهيرة طائرتان من نوع الفولمار من سلاحنا الجوي فاثارت في النفوس مشاعر التفاؤل ، وبرغم ما قام به سلاحنا الجوي من جهود فلم تستطع طائراته أن تعثر على الوحدات المعذبة ، مع انها اشتبكت في أكثر من قتال وأصاب طائرتين من طائرات العدو على الأقل ، وعندما انتهت القوات الى ميناء الاسكندرية في الساعة الثامنة مساء ٢٩ ، رؤي ان مجموع الذين قتلوا او جرحوا او أسروا يبلغ خمس قوات الحامية التي كتبت لها النجاة من هيراكليون .

وبعد هذه المحن كان على الجنرال ويفل ورفاقه ان يفكروا الى أي مدى سيحاولون انقاذ جنودهم من جزيرة كريت ، لقد كان الجيش في خطر داهم ، وليس في وسع السلاح الجوي ان يفعل شيئا ، وكل الاعباء تثقل كاهل الاسطول المنهوك القوى الذي أصابته القذائف وكان من رأي الاميرال لينجهام ان ترك الجيش ليواجه قسوة هذا الاختبار أمر يتجاوز حدود تقاليد البحرية وصرح الاميرال بأن انشاء سفينة واحدة يستغرق من الاسطول ثلاث سنوات ولكن تدعيم تقاليد جديدة يتطلب ثلثمائة عام ، ولذلك فلن تنقطع مهمة نقل الجنود . وعندما اتى صباح ٢٩ كان خمسة الاف جندي قد انقذوا ، ولكن ما زال عدد كبير يدفع ثمن بقاءه ، ويتستر في مداخل صفاقية ، ويتعرض لنيران العدو اذا ما غادر مخائبه بعض الوقت وكان اتخاذ قرار الانقاذ بما فيه من مغامرة اخرى بخسائر بحرية غير معروفة المدى قرارا يحمل مبرراته ليس بالنظر الى بواعثه فحسب ، بل باعتبار النتيجة ايضا .

وأبحر الاميرال في يوم ٢٨ الى صفاقية واستطاع ستة الاف جندي في الليلة التالية ان يصلوا الى سفن النقل دون ما تدخل من الاعداء ، وعلى الرغم من استهداف القوات البحرية للهجوم ثلاث مرات يوم ٣٠ من نفس الشهر الا

انها وصلت الى الاسكندرية سالمة ، وهم مدينون لحسن حظهم لطائرات السلاح الجوي الملكي ، التي استطاعت رغم عددها الضئيل ، ان تصد الطائرات المعادية في أكثر من غارة قبل ان تتمكن من اهداقها ، وفي صباح يوم ٣٠ ابحر القبطان ارليس ثانية الى صفاقية وبصحبه مدمرات اربع ، اضطرت اثنتان منها الى العودة ، واستطاعت الاخيرتان اجلاء الف وخمسمائة جندي ينجح . وبرغم الاضرار التي اصببتا بها في طريق العودة الا انهما وصلتتا الى الاسكندرية بسلام . وكانت القطع البحرية قد نقلت ملك اليونان بعد ان صادف كثيرا من الصعاب وفي رفقته وزيرنا المقوض في اثينا ، وفي تلك الليلة ايضا ، تم انقاذ الجنرال فريبرج عن طريق الجو تنفيذا لاوامر القائد العام .

وارسلت التعليمات بالقيام بمحاولة اخيرة في ٣٠ ايار لاجلاء من ظل هناك من القوات ، وكان عدد الموجودين في صفاقية لا يزيد في احتمالنا عن ثلاثة الاف جندي ولكن الانباء التالية اكدت ان هذا العدد يبلغ الضعف ، وفي صباح يوم ٣١ ابحر الاميرال لينتج ثنائية ولم يكن هناك رجاء في اجلاء الجميع ولكن تعليمات الاميرال كتنجهم اقتضت بأن تحمل البواخر اقصى ما يمكن ، وقيل للاميرالية في الوقت نفسه بان هذه اخر ليلة في عمليات الانقاذ ، وتم الركوب في امان وفي الساعة الثالثة من صباح أول حزيران ابحرت البواخر وعلى ظهرها حوالي اربعة الاف جندي وصلوا الاسكندرية بسلام .

وبقي في كريت أكثر من خمسة الاف جندي من الوحدات البريطانية والامبراطورية واذن الجنرال ويفل لهم بالاستسلام ، ولكن كثيرين منهم تنافروا في انحاء الجزيرة الجبلية التي يبلغ طولها مائة وستين ميلا ، وقد اعانهم اهل القرى والريفيون بحاجاتهم من المؤن وضمدهم جراحهم ، هم والجنود اليونانيون ، ولكن وقعوا تحت طائلة عقاب وحشي عندما عرف الالمان حقيقتهم ، وامتدت هذه العقوبات الوحشية للقلاحين الطبيين الابرياء ، فصدرت اوامر اعدامهم بالجملة في مجموعات يبلغ عدد كل منها عشرين او ثلاثين انسانا .

وكان هذا هو السبب الذي دفعني لاقدم اقتراحا بعد ثلاث سنوات أي في سنة ١٩٤٤ الى مجلس الحرب الاعلى يقضي بمحاكمة مرتكبي هذه الجرائم الوحشية في جزيرة كريت وان يحاكم المتهمون في قلب الجزيرة ، فأخذ باقتراحي وسددت كثير من الدبون الضخمة .

انسحب الى مصر في سلام ستة عشر الفا وخمسمائة جندي ، اكثرهم من قوات بريطانيا وامبراطوريتها ، واستطاع حوالي الف جندي اخر ان يمهّدوا لهم طريق الفرار بمعاونة الفدائيين الباسلة ، ووصلت خسائرنّا الى ثلاثة عشر الفا بين قتيل وجريح وأسير فضلا عن الفين من رجال القطع البحرية ، وقد احصيت بعد الحرب بالقرب من ماليمي وخليج سودا حوالي اربعة الاف قبر الماني ، والى قبر اخرى بالقرب من ويتمو وهيراقليوان فاذا ما اضيف الى هذا الاعداد الضخمة المجهولة التي ابتلعها الامواج ، بدت لنا خسائر الالمان في صورة باهظة ، فلن يبلغ عددها اقل من خمسة عشر الفا بين قتيل وجريح ، كما دمرت حوالي مائة وسبعون طائرة من طائرات النقل ، وايا ما كان الامر ، فان النصر الذي احرزوه لا يمكن ان يقارن بالمجازر الذي نزلت بهم .

فمعركة كريت ليست سوى مثال للنتائج الفاصلة التي يتمخض عنها قتال عنيف بعيدا عن قدرات المناورة للفوز بمواقع استراتيجية ، ولم تكن ندري شيئا عن عدد فرق جنود المظلات الالمانية ولكن الفرقة السابعة المحمولة بالجو كانت الفرقة الوحيدة التي في حوزة جورنج ، وقد دمرت هذه الفرقة في كريت ، فقد قضى على اكثر من خمسة الاف جندي من اكثر محاربيه شجاعة وقد تهدم الكيان الكلي لهذه الوحدة بصورة يعز ترميمها ، فلم تظهر ثانية بشكل حيوي فعال ، وتستطيع القوات النيوزيلاندية والبريطانية والامبراطورية واليونانية ان تقول انها احتملت عبثا لا ينكر في عملية جلبت لنا الكثير من راحة الاعصاب في ظروف مروعة .

فقد زال الخطر الرهيب لسلاح جنود المظلات الالمانى فلم يعد السى الظهور بصورة حيوية في معارك الشرق الاوسط ، نتيجة للاضرار البالغة التي حاقت به في محاربيه المتنازين ، وقد نال جورنج في كريت انتصارا اشبه بالهزيمة ، لان الجهود التي بذلها هناك كانت كافية لسيطرته على قبرص والعراق وسوريا وربما فارس أيضا فمثل القوات ضرورية للاستيلاء على مناطق واسعة الاماد ، حيث لا تواجه بمقاومة جادة او عنيفة ، ولعله اصيب بكثير من خطل الرأي الى الدرجة التي اطاح فيها بمثل تلك الفرص السانحة بينما ضحى بقوات لا تعوض في قتال بائس لعب فيه السلاح الابيض الدور الاكبر مع مقاتلي الامبراطورية البريطانية .

وقد حصلنا على « تقرير المعركة » الذي أعده الفيلق الجوي الالمانى الحادي عشر الذي كانت الفرقة السابعة المحمولة بالجو بعضا منه ، وعندما

نوجه نقدنا القاسي الى انفسنا والى خططنا ، فقد يكون من المفيد ان نضيف الى ذلك وجهة نظر الفريق المضاد « لقد كتب الالمان ما يلي : كانت قوات البر البريطانية في كريت ثلاثة اضعاف ما دار في احتمالنا ، وقد اعدوا في غاية المهارة والدقة عمليات الدفاع في الجزيرة ، وجهزوا المنطقة بكل الطرق المستطاعة واتفقت عمليات التعمية بمهارة فائقة ، ونتيجة لافتقارنا الى المعلومات الصائبة عن مدى قوة العدو ونوع موقفه ، عرضنا هجوم الفيلق الجوي الحادي عشر للخطر ، وكبدناه اضرارا جسيمة ظهرت نتائجها

واهتز الموقف في البحر المتوسط نظريا على الاقل بالاضرار الجسيمة التي حاقت بنا في جزيرة كريت وحين الانسحاب منها ، وكانت معركة ماتايان في ٢٨ اذار قد اضطرت الاسطول الايطالي ان يلتزم مواقعه حيناً . اما الان فقد منى اسطولنا بخسائر جديدة باهظة ، ويانتهاء القتال في كريت لم يجد الاميرال كينجهام تحت تصرفه سوى بارجتين وثلاث طرادات وسبع عشرة مدمرة ، وهناك تسع طرادات اخرى ومدمرات رهن الاصلاح في مصر ، اما البارجتان وورسبايت و « برهام » ، وحاملة الطائرات الوحيدة « فورميدال » وسواها من القطع البحرية ، فكان عليها ان تبحر من الاسكندرية حيث تستصلح في مناطق اخرى ، وقد خسرن ثلاث طرادات وست مدمرات وعلينا ان نرسل فوراً بالامدادات التي تعيد التكافؤ للموقف البحري ، ولكن كوارث اخرى كانت معنا على ميعاد وهذا ما سيتضح بعد حين ، وهيأت ظروفنا الشائكة احسن الفرص للعدو ليتحدى سيطرتنا على البحر المتوسط والشرق الاوسط ، ويعتمد في الشك بهذه السيطرة ، بكل ما يعنيه هذا الشك وذلك التحدي من اخطار علينا ، ولم نكن نستطيع ان ننكر عدم فوزه اذا خاض غمار التجربة .

الفصل السابع عشر

الجهد الاخير للجنرال ويفل

بينما كان وطيس المعركة في كريت والصحراء الغربية يشد الى ابعد مداه والبحث عن البارجة « بسمارك » باقتناصها ومواراتها في امواج الاطلنطي كانت مصاعب لم تسفك فيها كثير من الدماء ، ولم يبلغ في اخطارها حدا كبيرا قد بدأت تعترض طريقنا في سوريا والعراق ، وكانت معاهدتنا مع العراق سنة ١٩٣٠ ، تسمح لبريطانيا في اوقات السلم - فضلا عن اشياء اخرى - بانشاء قاعدتين اولاهما قرب البصرة والاخرى في الحبانية ، وتعطي لقواتنا المسلحة ومعداتنا حق المرور في سائر الاوقات وتضمنت المعاهدة ايضا ان لجيوشنا في حالة الحرب ان تجد كل تسهيلات مستطاعة من خطوط حديدية وانهار وموانئ ومطارات لتيسير التنقلات ، وعندما اعلنت الحرب ، قطع العراق علاقته الدبلوماسية مع المانيا ، وان كان لم يشهر عليها الحرب ، وصارت المفوضية الايطالية في بغداد هي مقر الدعاية للمحور ، واثارة مثاعر العداء لبريطانيا وكان يسهم في تلك المهمة مفتى القدس الذي فر من فلسطين قبيل ، اعلان الحرب وذهب الى بغداد كلاجئ سياسي وتعرضت سمعة بريطانيا بعد هزيمة فرنسا للتدهور ، وانتابنا القلق للاوضاع هناك ، ولكننا لا نحقق النتيجة المرجوة وربما يكون بعد قوات الاوان ، واي ضعف ينتاب افضل ما نستطيع من وسائل .

وفي اذار عام ١٩٤١ حدث التغير السيئ ، فقد اصبح رشيد عالي الذي كان منساقا للالمان رئيسا للوزراء ، وفر من العراق الامير عبد الله

الوصفي المتضامن مع بريطانيا ، وتحتم علينا أن نستوثق من بقاء البصرة ،
الميناء الرئيسي للعراق على الخليج العربي ، مؤمنا لحسابنا ، ولذا فقد
ارسل الجنرال اوكنك القائد العام في الهند مجموعة لواء ، استقلت الشاطئ
في ١٨ نيسان دون مقاومة ، وبدا رشيد عالي الكيلاني العمل مستندا الى
مساعدة الطائرات الالمانية وجنود المظلات في تحركاته:١٥

وكان اتجاهه في بادئ الامر نحو الحبانية قاعدتنا الجوية للتدريب
في صحراء العراق ، وبها حوالي ٢٢٠٠ جندي وتسعة الاف عامل مدني ،
واصبحت مدرسة الطيران هناك ذات اهمية خاصة ، فبدا مارشال الجو الذي
كان يتولى قيادة القاعدة في اتخاذ اجراءات مؤقتة صغيرة ، وكان كل ما في
القاعدة من طائرات كان طائرات تدريب او طائرات اصابها العطب ، فطلب
من مصر بعضا من طائرات « الجلاذ يتيور » فتوافد الى القاعدة على الفور
حوالي اثنتين وثمانين طائرة شكلت في اربع مجموعات ، ووصلت دفعة اخرى
بريطانية من الهند في ٢٩ نيسان وكان محيط كل هذا القطاع حوالي سبعة
اميال ليس به من وسائل الدفاع سوى خط واحد ضعيف من الاسلاك ، وفي
٣٠ نيسان لاحت القوات العراقية القادمة من بغداد على ريو لا تبعد عن
المعسكر اكثر من ميل واحد ، وتطل عليه وعلى المطار في نفس الوقت ثم
انضمت اليها قوات اخرى للتعزيز حتى بلغ العدد حوالي تسعة الاف جندي
 وخمسين مدفعا ، ومر اليومان التاليان في مباحثات من الجانبين بلا جدوى ،
وفي فجر ٢ ايار بدا الاشتباك .

وواجهنا في سوريا خطرا مماثلا مع ضيق مواردنا وقتلها وكانت
سوريا احدى ممتلكات فرنسا فيما وراء البحار ، وراى الفرنسيون فيها
ان الهدنة التي وقعتها حكومتهم في فيشي تسرى عليهم شروطها ،
وكانت السلطات في فيشي من جانبها تحاول جاهدة ان تحول بين جنود
فرنسا في الشرق وبين الانضواء تحت لواء الحلفاء في فلسطين ، وفي شهر
اب عام ١٩٤٠ وصلت لجنة الهدنة الايطالية الى البلاد ، وافرج عن
المعتقلين الموالين للامان الذين تحفظ عليهم منذ نشوب الحرب ، فاتيحت الفرصة
ليبدلوا كل الجهود ، ولم تأت نهاية العام حتى وصل عدد اخر من الالمان
واستطاعوا بالاموال الكثيرة التي بذلوها ان يوقفوا المشاعر المعادية لبريطانيا
والصهيونية بين العرب في نفس الوقت الذي استولى رشيد عالي فيه عنوة
على السلطة . فاثارت سوريا قلقنا ايضا . كانت الطائرات الالمانية قد
بدات في شن غاراتها على السويس من قاعدتها في جزر الدوديكانيز ، وكان

في مقدورها ان تعمل اذا رغبت ضد سوريا ، وخصوصا بقوات منقولة عن طريق الجو ، ولو استطاع الالمان التمكن من سوريا لاضحت مصر وقناة السويس ومعامل تكرير الزيت في عبادان واقعة تحت خطر التهديد المباشر من الهجوم الجوي المتواصل ، وستكون طرق مواصلاتنا البرية بين فلسطين والعراق معرضة للخطر ايضا ، وربما تثير هذه التغيرات قلقا في مصر ، كما ان هذا سيعتبر ضربة قاصمة على سمعتنا في تركيا وسائر دول المشرق الاوسط .

وما كان رشيد عالي يطلب المعون العسكري من هتلر حتى بدا الاميرال في اجراء مباحثات مع الالمان حول اتفاق مبدئي عن سوريا واتفقوا على توصيل ثلاثة ارباع المواد الالمانية الموجودة لدى بعثة الهدنة الالمانية في سوريا والعراق ، وان تسهل للطائرات الالمانية سبل النزول في مطاراتها ، وصدرت التعليمات للجنرال وانزل المفوض السامي الفرنسي والقائد العام بتنفيذ هذه الاوامر ، وما اقترب ايار من نهايته حتى استقبلت مطارات سوريا مائة طائرة المانية وعشرين ايطالية .

ومنذ ان بزغ هذا التهديد الجديد ، بدأ على الجنرال ويفل تردد واضح في القدرة على استيعاب مهام جديدة ، وابدئ ان كل ما في وسعه ليعده ضد سوريا لا يعدو مجموعة لواء واحد ، وقال انه سينذل كل ما في وسعه ، وسيطلق الشائعات عن وجود قوة كبيرة على ابهة الاستعداد في فلسطين فربما تفكر حكومة العراق في موقفها ، ولكن ما يقدر على توجيهه بالفعل لا يحقق النتيجة المرجوة وربما يكون بعد قوات الاوان ، واي ضعف ينتاب قواتنا في فلسطين يوقفها على حافة الخطر ، خصوصا والحث على الثورة يجوب انحاءها ، وابرق قائلا : « لقد حذرتكم دائما ان من المستحيل ارسال اية مساعدة للعراق في الظروف الحالية عن طريق فلسطين ، وكثيرا ما نصحت بالابتعاد عن اي التزام هناك ، فقواتي منتشرة الى ابعد مدى في كل مكان ، وليس في استطاعتي ان اقامر بأي فريق منها في عمليات يملؤني اليقين بعدم جدواها » .

اما الجنرال اوكتلك ، فقد عرض علينا مدى المساعدات التي في مقدوره ان يمد بها العراق ، اذا حصلت على الحماية الكافية في وسائل النقل الضرورية ، والتي اوضح انها تصل الى خمسة الوية من المشاة عدا قوات اخرى مساعدة ، مما اثار اعجابنا بحماسته واندفاعه ، اما الجنرال ويفل

فلم يكن ينصاع للتعليمات دون ان يرفق بذلك احتجاجه وتبرمه ، وفي ٥ ايار
ارسل لنا برقية قال فيها :

« ارى من واجبي ان احذركم بلا تردد في ان امتداد القتال في العراق
يعرض الدفاع عن فلسطين ومصر للخطر ، وقد يترتب عليه من النتائج
السياسية ما لم يدر في الحسبان ، وقد يحدث نتيجة له ما بذلت عامين فسي
محاولة تجنبه ، وهو اندلاع فتن خطيرة داخل قواعدها ، ولهذا فاني استحثكم
ثانية بكل قوة واصرار على ان الواجب يحتم عليكم التباحث مع العراق من
اجل الوصول الى ترضيات مقبولة في اقصر مدى مستطاع » .

ولم اكن مقتنعا بذلك ، وعندما عرفت ان رؤساء اركان الحرب يوافقونني
عرضت القضية على لجنة الدفاع عندما انعقدت ظهر اليوم التالي ، وانتهى
الاجتماع الى قرارات نهائية مؤكدة ، فارسلنا الى الجنرال ويقل تبعا لذلك
التعليمات الاتية : « لا نقبل انتهاء الموقف عن طريق المباحثات الا بخضوع
العراقيين وتعهدهم بالتخلي عن اية مشاريع قادمة للمحور في العراق ، اما
الوضع هناك فانه يؤكد الولاء التام للمحور من جانب رشيد عالي ، وانه كان
ينتظر الوقت الذي يمد فيه المحور له يد العون ، قبل ان يكشف عن حقيقة
اتجاهاته ، وقد اضطره وصولنا للموصل الى الافصاح عن نواياه ، قبل
ان يقدر الالمان على مساعدته ، وهناك فرصة لا شك فيها للسيطرة على
الموقف ثانية بالعمل الفوري الحاسم » .

« وقد تعهد رؤساء اركان الحرب بتحملهم لكل مسئولية تنتج عن ارسال
القوات المعينة في برقيتك على الفور ، وتطلب لجنة الدفاع الابراق الى نائب
ماريشال الجو سمارت بان المساعدة المطلوبة في طريقها اليه : وان الواجب
يحتم عليه في خلال ذلك الدفاع عن الحبانية الى اقصى ما يمكن ، ومن المحتم
ان نرسل الى العراق غاية ما في الوسع من المدد الجوي لتعزيد العمليات
هناك بشرط ان تستمر حماية الامن في مصر » .

وفي خلال ذلك بدأت طائراتنا في الحبانية وقاذفاتنا العاملة من طراز
ويلنجتون من قاعدة الشعبية تشن هجوما على القوات العراقية المتجمعة
على ربوتها ، وقد اجابت هذه القوات بمدافعها المضادة ، واسهمت الطائرات
العراقية بقذائفها ونيران مدافعها الرشاشة ، وقد قتل وجرح حوالي اربعين
جنديا من قواتنا في اليوم الاول كما تحطمت حوالي اثنتي عشرة وعشرين من
طائراتنا ، وعلى الرغم من الخطورة التي تهدد الطيران من منطقة تقترب
منها نيران مدفعية العدو ، الا ان طيارينا خاضوا التجربة ببسالة ، ولم

يهاجمنا المشاة العراقيون . وصمت مدافعهم بعد قليل ، فلم تستمر في قصفها لغاراتنا الجوية ، او لطائراتنا حينما تحلق فوق قواتهم ، فكانت حالتهم العصبية فرصة لنا انتهنزناها في اليوم الثاني ليقوم بهجوم جوي جزء من سلاحنا الجوي على قواعد السلاح الجوي العراقي ، وشنت الدوريات هجومها في ليلتي الثالث والرابع على الجبهة العراقية ، وفي الخامس وبعد اربعة ايام من هجمات سلاحنا الجوي الملكي ، كنا قد انزلنا الكثير بالعراقيين فاضطروا في تلك الليلة الى الجلاء عن مواقعهم وتبعتهم قواتنا في حملة ناجحة كانت نتائجه ان اسرنا اربعمائة عراقي ، واستولينا على اثني عشر مدفعا وستين مدفعا رشاشا وعشر سيارات مصفحة . ووجدت طائراتنا قوات في طريقها للتعصيد قاططرتها وابلا من نيرانها ، وفي ٧ ايار فك الحصار ، وفي ١٨ من نفس الشهر وصلت طلائع المدد الحربي المرسل من فلسطين .

وعندئذ اصبح العراقيون غير منفردين ، ففي ١٣ ايار هبطت بالموصل طليعة الطائرات الالمانية وغدت المهمة الاولى لسلاحنا الجوي شن الهجوم عليها ، وقطع طرق تموينها من سوريا في الخطوط الحديدية وبعد بضعة ايام كنا قد دمرناها ووصلت مجموعة من الطائرات المقاتلة الايطالية فيما بعد ، ولكن تحركاتها قد شلت تماما ، ووصل الضابط الالمني الذي يحمل عبء توزيع العمليات في العراق بين قوات المحور وقوات العراق وهو ابن المارشال بلومبرج ، وصل الى بغداد ، مصابا في راسه ، بطلق ناربي من حلفائه ، ولم يستطع من جاء بعده — وقد انتهى الى مطار بغداد سالما — للقيام بأي عمل ، فتبدد كل امل للمحور ، في ان يكون عاملا له اثره في العراق .

وفي ٣٠ ايار زحفت مقدمائنا حتى مشارف بغداد ، وعلى الرغم من هن قواتنا ، ومن وجود فرقة عراقية كاملة ببغداد ، الا ان اعصاب رشيد عالي وزملائه ، لم تستطع الصمود امام زحف جيوشنا ، فالتمسوا الفرار الى ايران ، وبصحبته وزير المانيا وايطاليا في بغداد ومفتي فلسطين ، وفي اليوم التالي عقدت الهدنة واعيد الوصي الى منصبه وشكلت حكومة عراقية جديدة ، وسيطرت قواتنا على جميع المناطق الهامة في العراق .

وهكذا حاق الفشل بالخطة الالمانية التي هدفت الى احداث انقلاب في العراق والاستيلاء على هذه الجبهة العريضة بثمن زهيد في اللحظة الاخيرة ، وكان لديهم في ذلك الوقت بكل تأكيد قوات تنتقل عن طريق الجو ، وتمهد لهم وسائل الاستيلاء على سوريا والعراق وايران بكل ما تملكه من ابار البترول الغنية ، وكان في استطاعة يد هتلر الممتدة ان تصل بعيدا الى الهند ، وان

تمر على اليابان ولكنه على أية حال قد رغب ... كما عرفنا ... ان يوجه سلاحه الجوي بكل قواه في طريق آخر ، ولا شك انه لم ينتهز هذه الفرصة طمعا في هدية اعلى بتكاليف اقل في انحاء الشرق الاوسط طولا وعرضا .

واضطربنا لكبح امال الالمان في سوريا ان نوالي الضغط على ويفل ، وقد رغب في الا نحملة تبعات حملة في سوريا ، الا اذا أصبحت الحاجة ماسة الى ذلك ، وقد اجابه رؤساء اركان الحرب بان لا مندوحة له عن حشد اكبر عدد ممكن لغزو سوريا على الا تتأثر سلامة قواته المربطة في صحراء الغربية ، وفي ٢١ ايار في الوقت الذي بدأ الالمان فيه يشنون هجومهم على كريت، كان ويفل يبلغ تعليماته للجنرال ويتلاند ولسون بالاستعداد للزحف .

وبدأت الاغارة في ٨ حزيران بتعصيد من احرار الفرنسيين ، وقوبلست بالمقاومة بادىء الامر ، ولم يكن من الواضح مدى ما ستحارب اليه فيشي ، وعلى الرغم من عدم وجود عنصير المفاجأة في زحفنا ، الا ان البعض قد ظن اننا سنلقى مقاومة رمزية ليس الا ، ولكن عندما ادرك الفرنسيون ضعف موقفنا قويت عزائمهم على القتال وربما لا نجد سببا اخر لعنف مقاومتهم سوى الاحتفاظ بسلامة شرقهم العسكري ، وبدأ لوفل بعد قتال دام اسبوعا ان عليه ان يرسل مؤازرة اخرى ، فاستطاع ان يعد فوجا اخر ومن بين قواته الوحدة التي استولت على بغداد فيما سبق ، واستولى الاستراليون على دمشق بعد ثلاثة ايام دار فيها قتال مرير وكان ذلك في ٢١ حزيران ، وقد عضدت زحفهم على المدينة عملية بأسلة استوجبت الثمن غاليا هبطت فيها وحدة من الفدائيين الحادية عشرة خلف خطوط العدو من البحر ، واحس الجنرال رانتز بانه بذل ما في وسعه واستنفد طاقته ، وكان لا يزال حوالي اربعة وعشرين الف جندي يقاتلون معه ، ولكن امله في الاستمرار كان قد انهار فلم يبق من قواته الجوية الا حوالي الخمس ، وفي الثامنة والنصف من صباح ١٢ تموز وصلت رسل من فيشي ترغب في الهدنة ، وقد استجبنا اليهم بالطبع ، وابررنا اتفاقا ، انضمت سوريا على اثره الى سيطرة الحلفاء ، وكانت خسائرنا حوالي ٤٦٠٠ بين قتيل وجريح ، بينما كانت خسائر الاعداء ٦٥٠٠ ، ولم يبق هناك غير اجراء واحد مثير ، فقد قامت السلطات الفرنسية بترحيل الاسرى الى فيشي ، ومعنى هذا انهم سينقلون بكل تأكيد الى معسكرات المانيا ، وعندما عرفنا هذا الاجراء الغريب الذي عجز الفرنسيون عن تفسيره قمنا باعتقال الجنرال رانتز وكبار ضباطه كرهائن ، مما ادى الى احسن النتائج اذ عاد جنودنا في سلام .

وتحسنت اوضاعنا الاستراتيجية في الشرق الاوسط نتيجة للعمليات الموفقة في سوريا والعراق فسد الطريق امام اية رغبة للعدو في التوغل شرق البحر المتوسط ، وامتد شمالا خط دفاعنا عن قناة السويس مسافة مائتين وخمسين ميلا . وزال القلق عن حدود تركيا الجنوبية ، واصبح في يقينها الان ان باستطاعة دولة صديقة ان تمد يد العون العاجل في اي وقت يلوح لها الخطر ، وقد دمرت معركة كريت مع ما دفعنا فيها من ثمن باهظ القوة الضاربة للعدو ، وسحقنا اخيرا الثورة العراقية ، وبقوات صغيرة تستدعي الشفقة اعدنا سيطرتنا على منطقة شاسعة وحدد استيلاؤنا على سوريا وهجومنا عليها الذي ارغمتنا عليه الضرورة الملحة رغبات العدو في الانطلاق باتجاه خليج البصرة والهند بصورة حاسمة ولو استجبنا لدواعي التريث والعقل ولم تحول وزارة الحرب كل مشروع الى عملية ظافرة ، ولو لم نفرض وجهة نظرنا على كافة القادة العسكريين في المنطقة ، لكننا في موقف الراضين عن الاضرار الجسيمة التي تكبدناها في كريت ، ولم نحقق الارباح العظيمة التي جنيناها من حربنا المجيدة هناك ولو تخاذل الجنرال ويفل تحت وطأة السهام الجسيمة التي القتها الحوادث على عاتقه ، وصمدت امامنا وجهة نظره ، فان ما اسفرت عنه الحرب وان مستقبل تركيا كان سيحدث فيها تغيرات رئيسية ، فاذا كانت هناك حسنات لتخلى الانسان عن كل ما ليس في وسعه ، وعن اقلعه عن كل عمل لا يقتنع به شخصيا ، فلكل قاعدة - في الحرب وفي الحياة - شواذها .

ويجب الان ننسى ان ثورة العراق ، والانطلاق الى سوريا لم يكونا غير احداث صغيرة من الاخطار المفاجئة في الشرق الاوسط التي عاش في غضونها الجنرال ويفل ، واحاطت بكل كيانه ، وعلى نفس النمط والمثال كان ميدان الشرق الاوسط باكملة ليس سوى امر ثانوي بجانب مشاكلنا العالمية التي كنا نبصرها في لندن ، حيث يقفز فيها الى مقدمة اهتمامنا خطر الغزو ، وحرب الغواصات ، والتهديد الياباني ، وقد انتصرنا على سائر هذه الاختبارات القاسية بدون ان ننسى ما منينا به من خسائر فادحة بفضل قوة وزارة الحرب والتفاهم بين اعضائها ، وصلات الاحترام المتبادل ، واستعراض وجهات النظر بين القادة العسكريين والسياسيين ، وبفضل جهازنا الحربي الذي كان يعمل في هدوء ورتابة ، وليس امامي الان ما اعرضه في مجال البحث سوى القتال في الصحراء العربية ، وكان موضوعها يستأثر بعظيم

اهتمام مني ومن رؤساء الاركان ومع اننا لم ننل فيها اي انتصار الا اننا فرضنا على رومل التوقف لمدة خمسة شهور اخرى .

وكانت مخابراتنا في ذلك الوقت قد نفذت الى مقر قيادة رومل وتولى عميلنا ارسال ادق الاخبار عما يواجهه رومل من مصاعب شتى في موقفه المتجمد الغريب وكنا ندرك تماما الثغرة الوحيدة التي كان يأمل القائد الالماني في الابقاء عليها ، كما كنا نقف على الاوامر الصارمة والتحذيرات الشديدة التي كانت تصله من القيادة الالمانية العليا ، منذرة اياه بالا تهرب المكاسب التي حازها حتى هذه الالونة في خضم اعتماده اكثر مما ينبغي على يمن الطالسم .

وكنا نمد ويفل بكافة المعلومات ، وقد رغب بدافع شخصي بحث ، وفي غمار القتال الدائر في كريت ان يجرب مخالفه في رومل قبل ان تلحق به الفرقة الالمانية المدرعة التي تنشر الرعب ، وهي الفرقة الخامسة عشرة ، عابرة طريق طرابلس الطويل وقبل ان يتاح له فتح ابواب بنغازي ، لتكون الطريق القصير لوسائل تموينه ، واراد ان يشن هجوما حتى قبل ان تبشر الدبابات التي ارسلناها في عملية « النمر » اداء مهمتها ، وارادت قوة صغيرة يتولى قيادتها الجنرال غوت ان تتولى هي شن هذا الهجوم ولكنه اندحر تامسا وفاتت الفرصة التي كانت متاحة لهزيمة رومل قبل ان تلحق به التعزيزات اللازمة .

وعلى الرغم من اسراعنا في اتخاذ الاعدادات ، الا ان التأخير في تفريغ واستصلاح وتجهيز دبابات عملية النمر للقتال ، كان في غاية القسوة واتضح بعد القيام بتفريغ الشحنة ان بعض الدبابات التي كانت بطيئة من الناحية الميكانيكية لا تصلح ، وعاجلا ما سهلت الامور ، فقد جمع رومل القسم الاكبر من فرقته المدرعة الخامسة عشرة ، وحشد قواته على الحدود بين كابوتزر وسيدي عمر ، ودار في احتماله قياما بهجوم عنيف للسيطرة على طبرق ، ولذلك فقد قرر الاستيلاء ثانية على حلفايا والابقاء عليها ليصبح هذا الهجوم صعبا للغاية وكانت الدفعة الثالثة من حرس جولد ستريم وكتيبة مدفعية الميدان ، ووحدتان من الدبابات تقوم بحماية هذا الممر المعروف في ٢٦ ايار بدا العدو تقدمه ، واستولى على مركز في الشمال ، يشرف على سائر النقاط التي يربط فيها الفوج ، وفي صباح اليوم التالي ، وبعد ان دوت

طلقات المدافع ، قام فوجان المانيان تآزرهما على الاقل ستون دبابة بهجوم مجتاح ، جعل قرائنا على حافة الخطر ، وكانت الوحدات الاضافية بعيدة بحيث لا تملك المشاركة في القتال ، ولم نجد امامنا سيلا سوى القيام بانقاذ قواتنا في هدوء ودون جلبة ، وقد قمنا بذلك فعلا ولكن الثمن كان باهظا ، فلم تبقى من دباباتنا الا اثنتان صالحتان للعمل ، ووصل رومل الى ما يريد وبدأ يدعم موقفه في حلفايا . وقد كانت سيطرته على هذا الموقع - كما كان يتطلع - سبيلا بتعويق قدرتنا على العمل بعد ثلاثة اسابيع .

وظللنا نعد في هجوم حيوي حاسم سميناه « فاس المعركة » ولكن كان امامنا جانب مظلم ففي يوم ٢١ ايسار ارسل الينا ويقل يخبرنا بالمصاعب الفنية الجمة التي تعترض طريقه في اعادة تجهيز الفرقة السابعة المدرعة ، ونذكر اول موعد يسمعه ان يبدأ فيه الهجوم هو ١٥ حزيران ، وأكد انه يدرك تبعات التأجيل ، وقد تصل الى العدو امداد جوية اخرى ، وقد شن هجوما عارما على طبرق ، الا ان المعركة القادمة فيما يرى ستكون قتالا بين الدبابات ولهذا فعليه ان يمنح فرقته المدرعة كل ما يستطيع ، وأكد لنا ان فرصة التأجيل والتريث تزيد من احتمالات النصر .

وفي هذه الاثناء كنت ناقد الصبر يتجاذبني الرجاء والخوف من جراء هجومنا في الصحراء متعجلا لوقوعه ، متيقنا انه قد يحول الى لغتنا سير المعركة الافريقية كلها ، واستطاع الالمان استغلال ميناء بنغازي في سرعة ، مع اننا لم نوفق الى ذلك في بداية العام ، وعن طريق هذا الميناء وصلت اليهم كثير من المؤن والذخائر ، وقد عرفنا - فيما بعد - ان الالمان استطاعوا رصد جزء كبير من سلاحهم المدرع في خطوطهم الامامية وحشدوا حوالي مائتي دبابة في مقابل دباباتنا البالغة نحو من مائة وثمانين .

وفي صباح ١٥ حزيران بدأت عملية « فاس المعركة » وفي بداية الامر سارت الامور كما نحب غير انه في ١٧ حزيران اي في اليوم الثالث من المعركة اخذ كل شيء ينقلب على عقبة ، وأدركنا اننا منينا بالفشل في غارتنا ، فبدأت عمليات التقهقر المنظم ، تحت حماية من سلاح الطيران ، ولم يبدأ العدو اي محاولة لتعقبنا ، وربما يكون ذلك بسبب الاضرار التي انزلتها بسلاحه المدرع قاذفات قنابلنا ، وربما تكون هناك اسباب اخرى فقد علمنا فيما بعد ان اوامر رومل كانت تحرص على الدفاع وتوفير القوى لهجوم في الخريف ، ومعنى

ذلك ان القيام بمطاردتنا يتنافى مع خطته ، فضلاً عما يتكبده من اضرار فادحة .

ومع ان هذا القتال كان محدودا اذا قورن بالمعركة الواسعة الملى في البحر الابيض المتوسط في شتى اشتباكها ، فان ما اصبنا به من فشل كسان ضربة مؤلمة ، لان نجاحنا في الصحراء يعنى تدمير جيش رومل المغامر ، والاستيلاء على طبرق وانقذ حاميتها ، وسرعان ما انسحب العدو السى ما بعد بنغازي بنفس الطريقة التي زحف بها ، وقد كلفنا هذا الهدف كثيرا فنحن لم ننس الاخطار التي صاحبت عملية « النمر » ، ومقامرتنا بأشياء كثيرة ، ولم اكن بعد قد عرفت شيئا عما وقع في يوم ١٧ . ولكن الاخير كانت ستصلني حتما بعد قليل ، لذلك فقد ذهبت الى شارتويل ، الوصدة ومنذ مدة ، انشد هناك نوعا من العزلة ، واحيا وحيدا ، فجاءتني هنالك الانباء المضطت اتجول في الوادي حزينا وحيدا ٠٠٠ عدة ساعات .

ولا شك في ان القارئ الذي تابعني ، قد تهيأت نفسه لتقبل القسار الذي انتهت اليه في الثلث الاخير من شهر حزيران سنة ١٩٤١ ، فقد قر شعورنا في لندن بأن ويفل اصبح شخصية شائكة ، ومن الصائب ان يقال اننا ركبنا الجواد حتى استنفد قواه ، ولا شك ان اجتماع خمسة او ستة ميادين للقتال في تقارب مثير بما تزخر به من نصر او هزيمة ، تتغلب فيه الاخيرة دائما ، ثم وقوع ذلك كله على كاهل القائد العام فرد ، يؤلفان عبئا لم يسبق ان صادفه الا عدد قليل من القادة ، ولم اقنع بما قدمه ويفل تبرايا لفشله والذي عزاه الى قتالنا في كريت ، والى عدم امداده بعدد اخر من الدبابات ، وكان رؤساء اركان الحرب قد تخطوا اراءه فعلا في عملية العراق البسيطة الناجحة ، والتي ادت الى السيطرة النهائية على الحبانية ، والى ان نحصل على نجاح محلي مام ، ثم جاءت خطة « قاس المعركة » التي نفذها ويفل نظرا للاخطار الشديدة التي احاطت بعملية « النمر » ولم اكن راضيا عما استقبلت به قيادة الاوسط دبابات « النمر » من اجراءات مع ما اعترضها من مصاعب تغلبت عليها لحسن الحظ ولكنني كنت معجبا من ناحية اخرى بروح المغامرة التي ابداهما في هذه المعركة الصغيرة وعدم التفاته لما يهدد شخصه من اخطار حين طيرانه ذهابا وايابا ، فوق هذه المساحات الشاسعة ، التي تشب في انحائها والمضطربة في مثل هذه المعارك الراهنة ولكنني كنت واثقا من عدم التوفيق ، في وضع خطته

العملية ، خصوصا حين فشلت في تحقيق اندفاع من ناحية طبرق ، في الوقت الذي حدث فيه الهجوم ليكون تمهيدا لذلك ليس اكثر ، وحركة مصاحبة في ذات الوقت .

وفضلا عن ذلك كانت هناك الضربة التي سددها رومل لجناحها في الصحراء فقضت على كل الخطط التي كنا على اهبة تنفيذها باليونان ، ودمرت كيائها بما تنطوي عليه من جوانب قائمة وانتصارات باهرة ، كانت تلوح لنا على اطراف المسرح البلقاني الكبير ، وتذكرت قولتي السابق ؟ « ان رومل قد نزع اكاليل الغار عن رأس ويفل ومرغ بها في الرمال » وقد لا يكون ذلك مستساغا ، ولكنه على اية حال نتيجة لحزن ملم ، ولكن الحكم الصائب على كل ماحدث من الممكن ان يستمد دعائمه مما تشير اليه الوثائق المدونة فسي اؤانة ، ومما يكشف عنه المستقبل من ادلة اخرى ، والذي حدث انني انتهيت الى رأي حاسم بعد معركة « فأس المعركة » وهو ضرورة تغيير جوهر في القيادة .

وكان الجنرال اوكنل القائد العام في الهند ، ما زال يثير اعجابي بما فعله في نارفيك في خلال الحملة النرويجية ، فقد لمست فيه الميل الشديد للسلامة والتحسس بالنتائج ، وهما امران مفقودان في الحرب ، مع القناعة بكل ما يتوقع منه تحقيق الحد الأدنى من الرغبات لكنني على اية حال كانت تثير اعجابي مواهبة الشخصية ، وذهنه المتألق واخلاقه الرفيعة ، وعندما كان قائدا للمنطقة الجنوبية بعد نارفيك في انجلترا ، واصلتني كثير من الرسائل من جهات رسمية وغير رسمية نصف مابثة من حيوية ونشاط في قيادته الجديدة ، وقد استحسن الجميع توليه للقيادة العامة في الهند وقد وقفنا قبل هنيهة على مقدار حماسه لتسيير القوات الهندية للبصرة ، وضرورة القضاء على ثورة العراق وكنت اعتقد ان اوكنل دم جديد سيثير الحيوية ويتحمل التبعات بشجاعة اذا تولى قيادة الشرق الاوسط كما ان ويفل سيصادف في توليه قيادة الهند العظيمة فرصة لاستعادة انفاسه ، قبل ان تهجم الاخطار المتوقعة في كل حين ، وجدت موافقة تامة لارائي هذه في الوزارة ، وبين رؤساء الاركان في لندن ولعل القارئ لا ينسى انني لا احرص قط على ان اتولس اى سلطات استبدادية وان اراي كانت تتمشى دائما مع وجهات نظر الخبراء السياسيين ، واصدرت اوامري الجديدة في ٢١ حزيران ، فتلقاها ويفل في هدوء ، وكان يهم برحلة الى الحبشة سرعان ما وضحت امامه مخاطرها ، وقد كتب من ارخ حياته قائلا ان الجنرال عندما وصلتته برقيتي قال : ان

رئيس الوزراء على حق فالموقف هنا يحتاج الى يد جديدة وعين اخرى » .

وكان القلق ينتابني منذ اشهر لما وجدت عليه قيادة القاهرة من نقصان الكفاءة الواضح ، وادركت جيدا مدى الابعاء الثقيلة التي تتراكم على كاهل القائد العام المنهك ، وكان ويفل نفسه وغيره من القادة العامين قد عبروا عن احتياجهم في ١٨ ايار الى بعض معاونين ، وقد اكد ذلك ايضا رفيقاه القائد العام الجوي والقائد البحري ، وكانت زيارة المستر ايدن تثير الارتياح في نفوس جميع القادة لاحساسهم بوجود شخصية ذات سلطة سياسية عليا معهم ، وعند عودته الى الوطن شعروا بفراغ كبير .

وكننت لم اسمع عن ولدي راندولف كثيرا في الايام الاخيرة وقد كان واحدا من الفدائيين الذين تفرق شملهم الان الى حد ما في الصحراء ، وفي ٧ حزيران وصلتني برقية منه عن طريق وزارة الخارجية ارسلها من القاهرة بعد اطلاق سفيرنا عليها السير مايلز لاميسون ، ويقول فيها :

« ارى - لننتصر في القتال - ضرورة وجود شخصية مدنية ذات كفاءة في الميدان توضح المعالم السياسية والاستراتيجية يوما بعد يوم ، فلم لاتبعث بأحد اعضاء وزارة الحرب هنا يرأس كل الجهود الحربية ، وكل احتياجه لا يتعدى - فضلا عن مجموعة صغيرة من الموظفين - الى رجلين قديرين ينسق احدهما شئون التمويل ، ويقوم الاخر بالرقابة والدعاية » . ويرى هنا كثير من المفكرين ان الحاجة ملحة لتغيير جوهري ، وليس الى تبديل الافراد فحسب ، فالفرصة سانحة تماما لاجراء تعديل في الكيان كله ، ارجو ان تغفر اقلالي لك ، فقد اضطررت اليه ليقيني بان الموضع هنا اصبح لا يحتمل وان العمل العاجل ضروري لاي نصر متوقع » .

ولا ريب في ان هذه الرسالة دعمت نواياي نحو العمل النهائي الحاسم ، وقد ارسلت اليه بعد اسبوعين : « لقد توافقت اراؤك القيمة والمرتبة في رسالتك الى مع ما كان يخالج نفسي من افكار منذ مدة غير قليلة » ، وعلى هدى من ذلك اتخذت طريقي .

وكان الكابتن اوليفر ليتلتون قد اشترك في الوزارة وزيرا للتجارة منذ تشرين اول سنة ١٩٤٠ وكنت اعرفه منذ صباه ، ففي غضون الحرب العالمية الاولى اشترك في وحدة قاذفي القنابل ، واصيب مرات عديدة ببعض الجراح ، واستحق عددا من الاوسمة ، وبعد ان ترك الخدمة العسكرية خاض غمار

الاعمال الحرة ، واصبح عضو مجلس الادارة المنتدب لشركة معدنية كبرى ، ولما كنت واثقا من مواهبه الخاصة فقد عملت على اشراكه في البرلمان واسهامه في الوزارة ، وقد استأهل تقديرا من جميع زملائه في حكومتنا القومية ، وكنت قد تعديت وجهة نظره في توزيع الملابس بالبطاقات ، ولكن لما وافق مجلس الوزراء ومجلس العموم على ذلك رضيت به ، ولا شك في ان ذلك جاء في اوانه ، لقد كان رجلا كفؤا للعمل بمهارة في كافة الميادين ، مما جعلني اثق في صلاحيته للمنصب المقترح الجديد ، كعضو في وزارة الحرب مقره الشرق الاوسط ولا شك في ان هذا العمل سيخفف كثيرا من العبء الواقع على القادة العسكريين ، وايد كل زملائي من جميع الاحزاب هذا الرأي ، وعلى ذلك عين على ان تكون مهمته الاولى « المساهمة في حمل التبعات المنوطة بالقادة العسكريين واصدار التعليمات العاجلة على هدى من تفهم سياسة حكومة جلالته في شتى الشئون المتعلقة بمختلف الوزارات والدوائر التي كانت تصل قبل ذلك الى لندن للفصل فيها »

ولا شك في ان هذه التنظيمات الجديدة ، بما تتضمنه من نتائج ادارية ، جاءت ملائمة كل الملاءمة للتغيرات التي حدثت في قيادة الشرق الاوسط •



الفصل الثامن عشر

نيميسيس الهة النار السوفياتيه

تقول الاساطير ان نيميسيس الهة خاضبة ، تنزل النعمة بكل خط
يتجاوز الحدود ، وتحد من غلواء كل مغرور ، وتثار من كل من يقترب جريمة
نادرة الوقوع »

وعلينا هنا ان نوضح تماما ما تردت فيه الحكومة السوفيتية من اخطاء
فاضحة ، وغرور ما فون قدرت على اثره الموقف هي وجهازها الشيوعي الضخم ،
وان نكشف ما كان يسودها من جهل ابعدها عن ادراك حقيقة موقفها .

وكانت هذه الحكومة قد ابدت عدم اهتمامها بمصير السدول الغربية
على الرغم من ان هذا لا يعني سوى تحطيم الجبهة الثانية التي قامت بعد
ذلك بقليل للمطالبة الملحة بها ، وظهر ان هذه الحكومة لم يدر في خاطرها ان
هتلر قد عقد العزم منذ شهور سنة على تدميرها ، واذا كانت مخبراتها قد
اوصلت اليها انباء انتشار القوات الالمانية على مدى واسع في اتجاه الشرق ،
وقد اخذ يتضاعف يوما بعد يوم ، فانها تكون قد تغافلت عن اتخاذ اجراءات
حاسمة لمواجهة ، فهامي المانيا تحت رضائها تجتاح البلقان باكملها ، وحكومة
السوفييت تنكر الديمقراطية الغربية وتستهيئ بها ، ولكن كان في استطاعتها
ان توازر بريطانيا في تكثيل دول البلقان الاربع ، تركيا ، ورومانيا ، وبلغاريا
ويوغسلافيا في حلف واحد لمقاومة هتلر بالنسبة لان هذه الدول تعتبر ذات
اهمية خاصة لامنها وسلامة حدودها ، ومع ذلك فقد رضيت بأن تنهار وان
تجتاحتها الفوضى والاضطراب ، وان تختفي واحدة بعد واحدة عدا تركيا -

من الوجود ، وقد تكون الحرب في مجملها مجموعة من الاخطاء ، ولكنني اشك
قيما اذا كانت هناك جريمة اخرى تعادل في شناعتها ما ارتكبه ستالين وقادته
السوفييت من جرم عندما تغاضوا عن كافة امكانيات دول البلقان ولبثوا
في حالة خمول وتراخ أو جهل وحاجة المزيد من الادراك ، ينتظرون الخطر
الجامح الذي كان مسلطا على رقبة روسيا ، وكنا انذاك نعدم فئة من
الانانيين في تقديراتهم ، ولكنهم اكدوا لنا في تلك الفترة انهم سنج مغفلون كذلك
وكان علينا ان نرى في ميدان المعركة مثل ما اشتهر عن « روسيا الام » من
شجاعة وقدرة على الحشد والاحتمال ، ولكن بالنظر الى الاستراتيجية
والسياسة وتفهم الامور فقد بدأ ستالين ورفاقه في هذه الفترة أغبي الناس في
تاريخ الحرب العالمية الثانية .

وكانت عملية «بربروسا» الذي اصدر بها هتلر تعليماته في ١٨ تشرين اول
سنة ١٩٤٠ ، تتضمن الخطة لحشد القوى بصورة عامة كما وضحت التبعات
الاولى للجيش التي حشدتها ضد روسيا ، وكان كل عدد الوحدات الالمانية
الموجودة في المانيا عند اصدار هذه التعليمات يزيد عن اربع وثلاثين فرقة ،
وزيادة هذا العدد الى اكثر من اضعافه الثلاثة عمل هائل يدل على التخطيط
والاعداد ، استنفذ الاشهر الاولى من سنة ١٩٤١ ، واحتاجت المغامرة
البلقانية ، التي رضى هتلر ان يخوض غمارها ان يوجه في شهر كانون ثاني وشباط
حوالي خمس فرق ، من الشرق الى الجنوب ثلاث فرق منها مدرعات ، ولم
يات شهر ايار حتى كانت القوات الالمانية في الشرق قد وصل تعداد فرقها
الى سبع وثمانين ، بينما كان هناك خمس وعشرون فرقة تواجه الموقف في
البلقان ، واذا ما نظرنا جيدا الى ما ينطوى عليه غزو روسيا من اخطار ،
وما يلزمه من قوات ، فقد كان من خطل الرأي تحويل الحشود لهذا العمل
الخطير ، وسنعرف بعد قليل كيف ارغمت احداث البلقان ، ومقاومتنا الصامدة
هناك ، ولا سيما ثورة يوغوسلافيا ، ارغم كل ذلك هتلر على ان يؤجل
مغامرته الكبيرة خمسة اسابيع اخرى ، ولم يكن احد يعرف مدى اهمية هذا
التأخير واثاره ، الا حين حل الشتاء ، وما صحبه من تغيير في اقدار الزحف
الالمانى على روسيا ، ومن الطبيعي ان يرى الانسان ان الفضل لهذا التأجيل
في تجاه موسكو ، وقد تم خلال شهر ايار وبداية حزيران سحب اغلب الفرق
الالمانية المدربة تدريباً جيداً من البلقان الى الجبهة الشرقية ، وكان الالمان
في ابان هجومهم يملكون مائة وعشرين فرقة من بينها سبع عشرة فرقة مدرعة
واثنتا عشرة فرقة البية ، وتبعت ست فرق رومانية اخرى مجموعة القوات

الجنوبية ، وكان هناك ست وعشرون فرقة أخرى تجمعت او هي على وشك التجمع كقوات احتياطية ولم يكذب يطلع تموز حتى كان لدى القيادة الألمانية فرصة استخدام مائة وخمسين فرقة على اقل تقدير ، تسندها قوة السلاح الجوي الألماني الضاربة ، وتقدر بحوالي الفين وسبعمائة طائرة •

وكان يخالجنى الشك حتى شهر اذار في تصميم هتلر على قتال روسيا ، ولم يدر بخاطري ان ذلك سيحدث قريبا جدا ، وكانت مخابراتنا قد امدتنا بمعلومات مفصلة عن تحركات الجيوش الألمانية الكبيرة في اتجاه دول البلقان ، وهو ما شهدته الشهور الثلاثة الاولى من عام ١٩٤١ ، وكان في مقدور جواسيسنا الانتقال بحرية في تلك البلاد نصف المحايدة ، وان يواصلوا اطلاعهم الدقيق على تحركات الجيوش الألمانية الهائلة في السكك الحديدية او في الطرق المعبدة الى الجنوب الشرقي ، لكن هذه التحركات كافة لم تكن تقطع الشك بأي محاولة لغزو روسيا ، وكان من السهل تفسيرها برغبة المانيا في المحافظة التامة على مصالحها برومانيا ، وما تضرره نحو اليونان ، واطباعها مع يوغوسلافيا والمجر ، أما للتقريرات عن التحركات الواسعة التي تقع عبر المانيا تجاه الجبهة الروسية اساسية وهي التي تمتد من رومانيا حتى البلطيق ، فكانت اقل واصعب تفهما مما سبق ، وكان في تفكيري ان فتح المانيا لجبهة رئيسية أخرى مع روسيا في هذه الاونة ، وقبل ان تستقر الأوضاع في البلقان امر يثير الدهشة حقا لانه بعيد في غرابته •

ولم يحدث ما يشير الى انتفاص القوى التي تواجهنا بها المانيا عبر المانش ، فما يزال الهجوم الجوي الألماني على بلادنا في عنقوانه ، وكان مجرد غفلة روسيا السوفييتية ثم قبولها اخيرا لهذا التدفق الألماني على رومانيا وبلغاريا ، والبراهين التي بين ايدينا على مدى العون الضخم الذي تمد به روسيا المانيا ، والاشترار الواضح في مصلحة الدولتين حين تسحق الامبراطورية البريطانية ويجتاح الشرق ، كل هذا يوحي لنا بان هتلر وستالين يفكران في صفقة مشتركة على حسابنا ولن يقف احدهما موقف العداء من الآخر ، وما نحن الان قد ادركنا ان هذه الصفقة كانت من بين امال ستالين الواسعة التي طالما طافت باحلامه •

وكان يتفق معي في هذه المشاعر والتقديرات افراد لجنة للمخابرات ، وقد حملوا الى في ٧ نيسان ان اخبارا تجوب الان انحاء اوروبا عن خطة المانيا في اجتياح روسيا ، ولكنهم رأوا ان هذا الاحتمال مستبعد في الظروف الراهنة على الاقل ، لانه بالرغم من تدفق جيوش المانيا ضخمة على الشرق ، واحتمال

قتال المانيا لروسيا في وقت اخر ، فان الوقت الحاضر غير ملائم لتخوض المانيا مع روسيا غمار معركة رئيسية ، وقد رأوا ان الاحتمال المعقول ان يظل هدف المانيا الجوهري في عام ١٩٤١ هو انزال هزيمة ببريطانيا ، وفي ٢٣ ايار رأى اعضاء هذه اللجنة المشتركة ممن يمثلون القوات المسلحة الثلاثة ، ان شائعات الهجوم الالمانى على روسيا قد ضعفت قليلا ، وان الشائع الان هو اعتزام البلدين توقيع معاهدة جديدة بينهما في اقرب فرصة .

وكان رؤساء اركان حزبنا اكثر معرفه من معاونيهم ، واشد تثبتا ، فقد ارسلوا تحذيرا الى قيادة الشرق الاوسط العامة في ٣١ ايار ، جاء فيه : « لدينا البراهين الدالة على ان الالمان يجمعون قوات هائلة وسلاحا جويا كبيرا ضد روسيا ، ومن المحتمل ان يطلبوا منها مهددين لها طلبات تضر بصلاحتنا . فاذا أبى الروس شنوا عليهم الهجوم »

وفي ٥ حزيران رأت لجنة المخابرات المشتركة ان الاعدادات العسكرية الالمانية في شرق اوربا واسعة النطاق ، وان شيئا حاسما سيحدث اكبر اهمية من اي اتفاق اقتصادي وربما تهدف المانيا الى ان تزيل من حدودها الشرقية اي خطر محتمل ان يكون مصدره القوات السوفييتية المهائلة العدد ، ولكن اللجنة حائرة تماما في تعيين الهدف الحقيقي وهل هو الحرب ام المعاهدة ؟

ولم اقتنع بهذا الاسلوب من التقارير العامة ، وملت الى ان اطلع بنفسي على مصادر هذه التكهّنات ، فرغبت الى الرائد (الميجور) ويزموند مورتون ، بأن يجهز لي قصاصات مختاره من التقارير منذ بداية الصيف لسنة ١٩٤٠ ، وان يستمر في هذا العمل يوميا ، مما استطعت به استنباط وجهة نظر خاصة عن القضية قبل وقوع احداثها بزمن كاف .

وعندما اطلعت على تقرير المخابرات ، ارسله احد عيونا الموثوقة جدا ، في يوم من الايام الاخيرة من شهر اذار سنة ١٩٤١ ، شعرت بكثير من الارتياح لدى قرائه ، وكان عن تحركات المدرعات الالمانية ، والتحركات المضادة لها على الخطوط الحديدية والواصله بين بوخارست وكراكو ، وقد اوضح هذا التقرير انه عقب توقيع الوزراء اليوغوسلافيين على الميثاق الثلاثي ، فان ثلاث فرق مدرعة (بانزر) من بين خمس فرق كانت قد عبرت رومانيا جنوبا في اتجاه الحدود اليونانية واليوغوسلافية قد اتجهت الى الشمال نحو كراكو ثم عادت على التقى دراجها بعد ثورة بلغراد ، ورجعت الفرق الثلاث الى رومانيا وليس من سبيل الى ان تسير هذه الاعداد الضخمة من القطارات

التي تصل الى ستين قطارا ثم تنقلب على عقبها فوراً ، دون أن يقع على ذلك عملاؤنا اليقظون في المنطقة .

واضاعت لي هذه المعلومات الطريق لتفهم الموقف ، فتوجه هذا العدد الضخم من المدرعات الى كراكاو وتحوله عن المسرح البلقاني في اشد الاوقات احتياجا له ، يعني بصورة واضحة ان هتلر قد بيت عزمه على الهجوم على روسيا في شهر ايار ، وهذا ما وثقت فيه غاية الثقة . اما عودة هذه المدرعات فلا تعني سوى ان تأجيلا حدث لموعد الهجوم على روسيا من ايار الى حزيران ، واتجه تفكيري الى تلمس سبيل لاستثارة ستالين وانذاره بهذا الخطر المحدق ، محاولا ان يكون بيني وبينه من الصلات ما يبني وبين الرئيس روزفلت ، وارسلت اليه رسالة مختصرة يحوطها الغموض ، املا ان يثير هذا الغموض وكونها اول رسالة ارسلها اليه بعد الرسالة الرسمية التي ابرقت اليه بها في ٢٥ حزيران سنة ١٩٤٠ اوصي فيها بقبول تعيين السير ستافورد كريس سفيراً لنا في روسيا ، ان يثير هذا وذاك انتباهه للموقف وهذا هو نص رسالتي :

« من رئيس الوزراء الى السير ستافورد كريس ، ٢ ابريل ١٩٤١ »

« مع هذا رسالة خاصة الى المستر ستالين ، بشرط ابلاغها اليه شخصيا . »

« لدى براهين وثيقة من مصدر لا يتطرق اليه الشك بان الالمان عندما يتيقنون من وقوع يوغسلافيا في قبضتهم - اي بعد ٢٠ اذار - بدأوا يتحولون بثلاث فرق مدرعة من فرقهم الخمس من رومانيا الى جنوب بولنده ، وعندما فاجأتهم ثورة الصرب ، عادت الفرق على اعقابها ، ولا شك في ان هضامتكم ستقدرون هذه الحقائق الهامة » .

ولم يصلني رد من السفير الا في ١٢ نيسان عندما اخبرني انه قبيل تسلمه رسالتي كان قد وجه خطابا خاصا الى فيشينسكي ، ووضح فيه تخاذل الحكومة السوفييتية عن مواجهة اجتياح المانيا لدول البلقان ، وحث الاتحاد السوفييتي بعبارة شديدة ، من اجل مصالحه الخاصة ان يحول سياسته الى سياسة متازرة مع الدول التي لا تزال تحارب المحور في تلك الجبهة ، و اضاف السفير قائلا :

« واذا كنت الان سائل ستالين عن طريق مولوتوف برقية رئيس الوزراء ، التي يفهم منها نفس الفكرة ولكنها تعرضها بصورة اكثر اختصارا

وحزما ، فاني اخشى ان يكون تأثيرها الوحيد اضعافا للآثر الذي ابقته رسالتي في نفس فيشنسكي . . . »

وقد احنقني هذا التصرف ، والتأخير الذي حدث ، وكانت هذه هي الرسالة الوحيدة التي ارسلتها الى ستالين شخصيا قبل ان يشن الهجوم ، وكان الهدف من ايجازها ، والظروف الخاصة بها ، وصدورها عن رئيس حكومة لتبلغ مباشرة وبصفة شخصية عن طريق السفير الى رئيس الحكومة الروسية ، كان الهدف من كل ذلك ان تقع موقعا خاصا من نفس ستالين وتثير انتباهه لما حوله ، وقد عرفت اخيرا ان السير ستافورد كريس قد سلمها الى فيشنسكي في ١٩ نيسان ، وان هذا بدوره قد ابلغ السفير في يوم ٢٢ ، ان مضمون الرسالة قد بلغ الى ستالين .

وليس في استطاعتي ان اقرر جازما مدى ما كانت تفعله رسالتي لو سارت في الطريق الذي رسمته لها ، وما فيه من اختصار وشكليات ، فمجرى الحوادث ، ولكنه ما زال يحز في نفسي الا تنفذ تعامياتي كما رسمتها ، فلو اتيح لى اتصال شخصي بـستالين لاستطعت في الاعم الاغلب ان احول دون تدمير جزء كبير من سلاحه الجوي على الارض .

الآن نحن نعرف ان تعليمات هتلر في ١٨ كانون اول قد عينت يوم ١٥ ايار موعدا لشن الهجوم على روسيا ، وان الغضب الذي اجتاحه بسبب ثورة يوغوسلافيا قد أجلت هذا الموعد شهرا ، ثم عاد الموعد فتأجل ثانية الى يوم ٢٢ حزيران ، ولم تتطلب طبيعة التحركات الالمانية في شمال الجبهة الشرقية حتى منتصف شهر اذار اية وسائل لاختفائها وعلى كل فقد اقتضت الاوامر الصادرة من برلين في ١٣ مارس اغلاق البعثات الروسية العاملة في المانيا وارجاعها الى وطنها ، فلم يصبح من المحتمل ان يستمر الروس في المانيا بعد يوم ٢٥ اذار وفي خلال ذلك الوقت كانت مائة وعشرون فرقة المانية من افضل الجند تنتشر على مدى الجبهة الروسية ، وتتوزع في ثلاثة تشكيلات ، وكانت المجموعة الجنوبية تحت قيادة رونشتادت - منهوكة القوى للعوامل التي سبق ان اوردها ، ولم تكن فرقها المدرعة (البانزر) قد قدمت من اليونان ويوغوسلافيا الا منذ فترة قليلة ، وكانت على الرغم من ان الغزو قد تأجل الى ٢٢ حزيران في اسس الحاجة الى الراحة والاستصكحات ، بعد ما بذلته من جهد الي في البلقان .

وفي ١٣ نيسان وصل الى برلين شولنبرج من موسكو ، ولم يستدعه هتلر للقائه الا في يوم ١٨ من الشهر نفسه ، واشبعه شتائم في روسيا

ولكن شولنبرج تمادى في تأكيد الرأي الذي ابداه في كافة رسائله ، وذكر ان روسيا قد اكدت لمندوبينا الاقتصاديين استعدادها اذا طلبت وعبر عن ثقته الشديدة في استعداد ستالين للتنازل عن اشياء جديدة في ظروف ملائمة تقدم الينا خمسة ملايين طن قمحا في العام » ورجع شولنبرج من اصرار هتلر على القتال ، ويبدو ان تحذير سفير روسيا في برلين الى موسكو في ٣٠ نيسان مصابا بخينة الامل من هذا اللقاء ، فقد ايقن ديكانزوف من الموقف واستمر شولنبرج في موقف الذود عن سياسة التفاهم الروسي - الالماني حتى النهاية .

وكان دايزاكر ، الرئيس الرسمي لوزارة الخارجية الالمانية ، من نوع الموظفين المهرة الذين تجدهم في دوائر الحكومة في كل الدول ، ولم يكن دايزاكر سياسيا صاحب سلطات تنفيذية ، وهو في اعتبار التقاليد البريطانية لا يعد من بين المسؤولين عن سياسة الدول ، ومع ذلك اصدرت عليه محاكم الحرب التي انشأها المنتصرون حكما بالسجن لمدة سبع سنوات ، وعلى الرغم من معاملته كمجرم حرب الا انه قد قام بالنصح الحسن لروسلاته ومن يمن طالعنا انهم لم يستمعوا اليه ، فقد لخص رأيه في هذه المقابلة بقوله « بودي ان اوجز رأيي عن العلاقة بين المانيا وروسيا ، فلو كانت كل مدينة روسية تسعى الى تدميرها تساوي عندنا اغراق بارجة بريطانية ، فاني كنت حينئذ اؤيد فكرة الهجوم هذا الصيف على روسيا ، ولكنني متأكد اننا سننتصر على روسيا عسكريا فحسب ، اما اقتصاديا فسنبوء بالخسران » .

وقد يكون من المثير حقا تسديد ضربة قاضية الى النظام الشيوعي وقد يقال ايضا ان المنطق يقتضي نشر سيطرتنا على هذه القارة الاوروبية الاسيوية ، لنستطيع بعد ذلك حشد قوانا في الصراع ضد العالم الانجلو - سكوني وقابعيه ، لكن السؤال الذي سيظل يتردد ، هل هجومنا على روسيا سيعد خطوة في سبيل القضاء على انجلترا . وسيمتح غزونا لروسيا طاقمة معنوية جديدة لبريطانيا ، فسيفهموته على ان الباعث اليه عدم ثقتنا في الانتصار عليهم ، ويعتبر قيامنا بهذا الغزو ليس اعترافا بأن الحرب ستمتد فحسب بل عملا فعلا على امتداد زمنها بدلا من تقريب نهايته .

وفي ٧ ايار اخبر شولنبرج حكومته بأن ستالين قد تولى بنفسه رئاسة الحكومة السوفيتية (مجلس مفوضي الشعب) بدلا من مولوتوف وكان هذا بالنسبة اليه بيعث الامل من جديد ، فاضاف الى ذلك قائلا « انني متأكد من ان ستالين بحكم منصبه الجديد سيكون عاملا فعلا في استمرار الصلات الطيبة بين

روسيا والمانيا والحرص عليها »

وردد نفس الفكرة ملحق المانيا البحري في موسكو ، كما جاء في البرقية التي ارسلها « ان ستالين هو مرتكز التعاون الالمانى - السوفييتي » وتضاعفت البراهين على رغبة روسيا في خدمة المانيا ، فاعترفت الحكومة الروسية في ٢ ايار اعترافا رسميا بحكومة رشيد عالي في العراق الموالي لالمانيا ، وطرد المفوضان الديپلوماسيان لحكومتى بلجيكا والنرويج من موسكو في ٧ ايار ولقي الوزير اليوغسلافي نفس المصير تلمسا لرضاء المانيا ، وفي بداية شهر حزيران انتهت روسيا عمل المفوضية اليونانية في بلادها وقد سجل الجنرال توماس ، رئيس قسم الاقتصاد في وزارة الحرب الالمانية في تقرير كتبه فيما بعد عن اقتصاد الرايخ الحربي ما يلي :

— استمر الروس في ارسال عونهم حتى مساء اليوم الذي بدا منه الغزو ، وقد نقلنا بسرعة المطاط من الشرق الاقصى في الايام الاخيرة باستخدام القطارات السريعة »

ولم تصلنا معلومات كافية عن حقيقة الاوضاع في روسيا ، ولكن الغايات الالمانية كانت في غاية الوضوح ، وقد ارسلت برقية الى الجنرال سمطس في ١٦ ايار قلت فيها : « يبدو ان هتلر يعبى قواته ضد روسيا ، فهناك تحركات مستمرة للحشود والفرق المدرعة وسلاح الطيران من البلقان شمالا ، ومن فرنسا ومانيا شرقا »

ولا شك في ان ستالين قد بذل الكثير في سبيل الابقاء على انطباعه النفسي الخاص نحو هتلر ، للدرجة التي استطاع شولنبرج ان يرسل السى وزارة الخارجية في ١٣ حزيران اي بعد مرور شهر بأكمله على تحركات القوات الالمانية الضخمة وحشدها ، يرسل مايلي : « ابلغني مفوض الشعب مولوتوف منذ قليل محتوى البيان الذي ستذيعه وكالة تاس الليلة ، والذي ستنتشره صحف موسكو في الغداة ، وهذا نصه :

« قبل ان يذهب سفير بريطانيا كريبس الى لندن ، وبعد عودته خاصة ، روجت كثير من الشائعات ، عن قتال يوشك ان ينشب بين روسيا ومانيا ، وقد روجت هذه الشائعات الصحف الانجليزية والاجنبية ... »

وبالرغم مما في هذا من كذب سخيف ، فان المسئولين في موسكو راوا ان يؤكدوا ان هذه الترهات ليست سوى مناورات سيكلوجية طائشة ، يشنها اعداء الاتحاد السوفييتي ومانيا هادفين الى نشر الحرب واندلاعها » .
وبات في مقدور هتلر ان يحس بالرضا لنجاحه في اضعاف السرية التامة

على تحركاته ، وفي خداع الفريسة التي ما زالت تحيا تحت سيطرة الاوهام .
 وخليق بنا ان لا ننسى هنا غفلة مولوتوف الى اخر لحظة ، فقد ارسل
 شولنبرج برقية في الساعة الواحدة والدقيقة السابعة عشرة من صباح ٢٢
 حزيران ، الى وزارة الخارجية الالمانية جاء فيها : « في التاسعة والنصف من
 هذا المساء استدعاني مولوتوف ، وبعد ان حدثني عن حوادث اختراق طائراتنا
 مرارا للحدود الروسية قال : « هناك براهين عديدة على عدم رضاء الحكومة
 الالمانية عن الحكومة الروسية ، وقد تضافرت الانباء على ان القتال اصبح
 لا محالة منه بيننا وبين المانيا ، وليس في استطاعتنا ان نجد مبررا لهذا التغير
 من جانب المانيا ٠٠٠ ولذا سيكون شاكرا اذا ابلغته العوامل التي طورت
 الموقف الى هذا الحد في الصلات بين المانيا وروسيا »

وقد اجبته باثني لا املك التفسيرات للموقف ، لانني محتاج الى معلومات
 كافية ، كما وعدته بأن ابلغ رسالته الى برلين »

ولكن الموقف كان قد وصل الى غايته ، وفي الساعة الرابعة من صباح
 اليوم نفسه اي في يوم ٢٢ حزيران سنة ١٩٤١ ، كان ريبنتراب يقدم اعلان
 الحرب الرسمي الى سفير روسيا في برلين ولدي الفجر كان هناك لقاء بين
 شولنبرج ومولوتوف في الكرملين كذلك ، وانصت جيدا الاخير الى الرسالة
 التي تلاها السفير ثم قال :

« اذن هو القتال ، لقد اغارت طائراتكم منذ هنيهة على عشر قرى
 مكشوفة ، فهل انت على يقين بأننا نستأهل منكم ذلك ؟ »

وكان من الصعب علينا بعد البيان الذي اذاعته وكالة تاس ، وقد
 اوردته منذ قليل ، ان نقول شيئا بعد التحذيرات الكثيرة التي وجهها ايدن
 لسفير روسيا في لندن ، او الى ما قمت به بنفسي لاثير انتباه ستالين للخطر
 الذي يدهمه ، وكانت حكومة امريكا قد اطلعت روسيا على تفاصيل دقيقة
 لتطور الاوضاع ، ولكن ما فعلناه ذهب هباء ازاء المصطلحات النهائية التي
 حال بها ستالين بينه وبين رؤية الموقف الرهيب ، وعلى الرغم من ان التقديرات
 الالمانية ذكرت ان مائة وستا وثمانين فرقة روسية قد وقفت على الحدود ومن
 بينها مائة وتسع عشرة فرقة في مواجهة القوات الالمانية ، فان الواضح ان
 الحشود الروسية قد فوجئت تماما بالزحف الالمني ، ولم يجد الالمان اثرا
 لاية استعدادات دفاعية في المناطق المتقدمة ، وقد اسرعت الى الانهيار ككل
 الوحدات الروسية التي حشدت على الحدود ، وكان من المحتم ان كارثة
 كتلك التي حاقت بالسلاح الجوي البولوني في اول ايلول سنة ١٩٣٩ ، ولكن

على مدى اوسع ، بالمطارات الروسية ، وفوجئت مئات الطائرات هناك عند الفجر وهي رابضة في ارض مطاراتها ، فتحطمت قبل ان تستطيع التحليق في الجو ، وهكذا كان دوى القذائف الالمانية عند الفجر اقوى من صوت الدعاية الروسية التي قامت في اثناء تلك الليلة بشن حملة واسعة ضد بريطانيا وامريكا وهكذا نرى ان الشريرين ليسوا دائما اذكياء ، وان الطغاة ليسوا دائما على صواب .

وليس لي ان استمر في البحث دون الاشارة الى الاجراء الفظيع الذي قرر هتلر ان تتبعه السياسة الالمانية ضد اعدائه المحدثين ، والذي اتخذه تحت هول القتال المرير في المناطق المجدية وبين غضب الشتاء ففي يوم ١٤ حزيران سنة ١٩٤١ عقد اجتماعا اصدر فيه توجيهات شفووية بشأن معاملة القوات الالمانية لجنود الجيش الروسي وافراد الشعب السوفيتي ، تلك المعاملة التي بلغت غاية القسوة والوحشية ، وقد ادلى الجنرال هولدر في محاكمات نورمبرج بالشهادة التالية :

« قبل بدء الهجوم على روسيا دعا الفوهرر الى اجتماع خاص حضره جميع القادة والافراد الذين على علاقة بالقيادة العليا ، ليتناقش معهم بشأن الهجوم المنتظر على روسيا وقد نسيت موعد الاجتماع بالضبط ولكني لم انس ما قاله هتلر من ان القتال الذي سينشب مع روسيا يجب ان يكون مغايرا تماما للقتال الذي شن على الغرب ٠٠٠ واضاف الفوهرر ان النزاع بين روسيا والمانيا هو نزاع روسي ، ولما كانت روسيا لم تشترك في معاهدة جنيف فان اسرى الحرب يجب ان يعاملوا معاملة خاصة غير التي تنص عليها المعاهدة ٠٠ وذكر ايضا ان من يسموا بالمفوضين يجب الا يعتبروا من اسرى الحرب »

وكتب كايثل ما يلي :

— « كان هتلر يرى ان القتال سيكون حاسما بين مبدئين وانه نظرا لذلك فلا يجب ان نستخدم مع روسيا في هذا القتال الاساليب التي نقرها نحن الجنود ، التي يقر العرف القانوني الدولي بانها الاساليب الوحيدة الصائبة ، وفي مساء يوم الجمعة ٢٠ حزيران ذهبت وحيدا بسيارتي الى تشيكرز ، وكنت اعرف ان الاجتياح الالمني لروسيا قد يبدأ بعد ايام او بعد ساعات ، وكانت قد انتويت توجيه رسالة من الاذاعة في مساء السبت ، خاصة بهذا الشأن ، فكان على طبعنا ، ان اصوغ افكاري في كلمات دقيقة ، اختارها بكل عناية ، خصوصا وقد اعتبرت الحكومة الروسية فيما سبق كل ما يصدر

عنا من نصائح او تحذيرات - جهلا منها او تكبرا - ليس سوى محاولة يائسة من قوم حاقت بهم الهزيمة لدفع الآخرين الى نفس المصير ، وعلى هدى من هذه الخواطر التي دارت بنفسي في السيارة ، رأيت تأجيل الاذاعة الى مساء الاحد ، اذ يزداد الموقف وضوحا ، وهكذا مضى يوم السبت باعبائه العادية .

وعندما صحت صباح الاحد ٢٢ حزيران ، استمعت الى اخبار مشروع هتلر في هجومه على روسيا فانتقل اليقين الى واقع ، ولم يعد لدي اي تردد في اختيار الموقف الذي يجب علينا ان نلتزمه ، كما كنت على يقين مما ساندني ، ولا ينقصني في هذا السبيل الا اعداده ، وطلبت من الاذاعة ان تعلن عن اذاعة لي في تمام التاسعة مساء ولحق بي الجنرال ديل من لندن ، حاملا لي كل تفاصيل الموقف ، لقد كان الهجوم الالماني على منطقة عريضة ، وفاجأوا قسما كبيرا من طائرات السلاح الجوي الروسي وهي رابضة فسي اماكنها ، ويبدو ان الالمان يواصلون توغلهم في سرعة كبيرة وبمنتهى الغلظة والعنف ، وأضاف رئيس اركان حرب الامبراطورية قوله وانا واثق من ان الجيوش الروسية سيتم حصارها في مجموعات كبيرة ،

وامضيت النهار في اعداد كلمتي ، ولم تكن لدى الفرصة لاستطلع اراء وزارة الحرب كما لم اجد ما يحتم هذا فقد كنت على ثقة من مشاركة الجميع لي بمشاعرهم ازاء هذه المسألة وزادني المستر ايدن واللورد بيفر بروك والسير ستافورد كريبس ، الذي كان قد ترك موسكو في ١٠ حزيران ، وقد قلت في غضون الخطاب الذي وجهته للاذاعة « لا تكاد النازية تختلف عن اسوأ ملامح الشيوعية ، فالنازية مجدية من كل اعتقاد ومن أي مبدأ ، اذا استثنينا نزعة السيطرة العنصرية الغاشمة ، ان النظام النازي في عنفه ووحشيته يفوق كل ما يتصور من نظم همجية قاسية وانا اشد الناس كرها للشيوعية ، واكثرهم عداء لها ومقاومة في مدى الخمسة والعشرين عاما الماضية ، وبكل تأكيد لن اتنازل عن اية كلمة ضدها قلتها سابقا ، ولكن هذا كله يتوارى امام ما نشهده اليوم ، ان الماضي يتوارى في لحظة بصر بكل ما ينطوي عليه من جرائم وحماقات وماسي وكل الذي اشهده اليوم هو الجنود الروس ، وقد وقفوا على عتبات بلادهم ، يحرسون الحقول التي قلب اباؤهم تربتها منذ فجر التاريخ ، وينودون عن البيوت التي تصلي قياها امهاتهم وزوجاتهم ، حيث يضرع الجميع في مثل هذه الاوقات الى الله ، ان يحفظ لهن احباءهن ، ومن يتولى امورهن ، ويدافع عنهن ، ويحميهن ، واني لاشهد عشرة الاف قرية

روسية ، ينتزع فيها القوت انتزاعا من الارض ومع ذلك ، مع هذه الحياة الجافة فما تزال هذه القرى تموج بأمواج انسانية اصيلة ، حيث تنطلق ضحكات العذارى ، ويتمادى الاطفال في لهوهم ، واشهد معدات القتال النازي تغير على هذه القرى في هجومها المجتاح وفي مقدمة المغيرين الضباط البروسيون يصلصلون ويجلجلون ، ويتأنقون في لباسهم العسكري ، والعملاء الماكرون الذين اجادوا وسائل اخضاع الشعوب وتعذيبها ، (واشهد كذلك الجموع المنهزمة من جنود الهون بكل ما عرف عنهم من بلاء وخشونة ووحشية وانقياد اعمى وهم ينطلقون في كتل زاحفة كالجراد المنتشر ، وارى القاذفات والطائرات المحاربة الانانية وهي تذرغ الفضاء جيئة وذهابا ، وعلى ظهورها اثار جراح احداثها السياط البريطانية ، وقد هزها الفرح لوقوعها على ما ترى انه فريسة سهلة الاصطياد .

« وخلف كل هذا الرجاء ، وكل هذه الرياح الهوجاء ، يوجد فريق من الرجال الاوغاد يضعون الخطط ، وينظمون ، ويثيرون هذه الجبال المتراكمة من الشر والحقد على الانسانية جمعاء .

« واني لاعلن قرار حكومة جلالته ، واني على يقين كبير بأن دول الديمويونات المستقلة ستجد في هذا القرار ما توافق عليه وتؤيده في الوقت الملائم ، وذلك لان الظروف تحتم علينا ان نتكلم مباشرة وبدون ارجاء ذلك الى يوم واحد ساعلن هذا القرار ، ولكن هل يخالجم شك فيما سننجه من سبل ؟ »

ان لنا هدفا واحدا واضحا ، وأملنا لن نتواني عن تحقيقه ، فنحن نصر ونصمم على ضرورة القضاء على هتلر وتدمير نظامه النازي ، ولن يحول بيننا وبين هذه الغاية شيء على الاطلاق ، فلن نتحدث او نتباحث مع هتلر او مع أى واحد من افراد عصابته ، بل سنقاتله في البر ، وسنقاتله في البحر ، وسنقاتله في السماء ، حتى نستطيع باذن الله ، انقاذ البسيطة منه ومن شبجه ونحرر الشعوب ومن قبضة استذلاله ، وكل رجل يقاتل هتلر وكل دولة تقاتل النازية ، سنمد اليها يد العون ، وكل من ينحاز الى جانب هتلر فهو عدونا اللدود .

هذا هو نهجنا ، وهذا هو قرارنا . وعلى هدى من ذلك سنبدل لروسيا ولشعبها كل ما نستطيع من مساعدة ، وسنناشد كافة اصدقائنا وحلفائنا في شتى انحاء العالم ان يسيروا في نفس هذا السبيل ، كما ستسير فيه سياستنا بكل اخلاص واصرار .

« وليست هذه الحرب صراعا طبقياً ، وإنما هي نضال مشترك بين الامبراطورية البريطانية وجامعة شعوبها ، دون تميز بالعنصر أو الدين أو الحزب ، وليس من حقي أن أعبر عن أمريكا ، ولكن الذي استطيع قوله أنه إذا كان هتلر يظن أن زحفه على روسيا سيؤدي إلى خلاف في الرأي أو اضعاف في البذل ، في جانب الديمقراطيات العظيمة التي تصر اليوم على محقه والمقضاء عليه فإنه لبالغ الخطأ إذ أن العكس تماما هو الذي سيحدث ، فهذا الهجوم الجديد لن يؤدي إلا إلى مضاعفة الجهود المبذولة لانقاذ البشرية من وحشيته ، وستضاعف مواردنا وجهودنا وعزيمتنا »

ولا أرى الوقت مناسباً لتدعيم القيم الأخلاقية ورثاء حماقات الدول التي أعطت العدو كل فرصة لضربها واحدة بعد أخرى بينما كانت تستطيع بالتكتل والعمل الجماعي أن تنجو بنفسها وبالعالم كله ، من هذه الكارثة ، ولكن عندما اشرف منذ قليل إلى ظمأ هتلر للدماء ، وشهواته البغيضة التي دفعت به إلى مغامرة الهجوم على روسيا ، قلت أن هناك هدفاً بعيداً من كل ذلك العنف ، فهو يتطلع بعد أن يحطم القوة الروسية إلى أن يعود بقواته الرئيسية وجيشه الجرار وسلاحه الجوي من الشرق إلى هذه الجزيرة التي يعلم أن عليه أن يسيطر عليها والا فسيعاقب على كل ما اقترب من اثم ، فهذا الغزو لروسيا ليس إلا تمهيداً لهجوم كبير على بريطانيا ، وهو يتطلع بلا ريب إلى الخلاص من مغامرته قبل هجوم الشتاء ، لينطلق إلى بريطانيا فيفرض سيطرته قبل أن يستطيع اسطول أمريكا وقواتها التدخل ، أنه يستطلع إلى استخدام تلك الخطة التي انتهجها كثيراً في تدمير اعدائه واحداً واحداً وقد اصاب نجاحاً إلى اليوم في تنفيذها ، حتى تنهيا له كل الظروف للقيام بعملية الأخيرة التي بدونها تظل كافة انتصاراته لا معنى لها ، وهذه العملية هي محاولة السيطرة على نصف العالم الغربي .

ولذلك فإن ما يواجه روسيا من اخطار يواجهنا نحن أيضاً ويواجه أمريكا كذلك ، كما أن قضية كل روسي يهب للدفاع عن أرضه وبيته هو قضية كل انسان حر في سائر أرجاء العالم ، وهي قضية الشعوب الحرة جميعاً وعلينا ألا ننسى عبر هذه المحن التي نقاسيها جميعاً ، وأن نبذل - جهوداً مضاعفة ، وأن نسدد متحدتين ضربة قاصمة ما دامت فينا ارادة ، واحساس بالحياة .

انتهى الجزء الاول
ويليه الجزء الثاني

